

محمود محمد شاکر

# المكتبي

السِّفَرُ الْأَوَّلُ









مجموعه محمد شاکر

المسند النبوی

السفیر الأول



## فهرس السفر الأول

فأمة الكتاب	٧ -
قصة هذا الكتاب	٩ -
لحة من فساد حياتنا الأدبية	
المتنبي	٤٩ -
عمود صورة المتنبي ، وتفصيل فقراته	٦٦ -
الفقرة الأولى والثانية ( ١ ، ٢ )	٦٩ -
الفقرة الثالثة والرابعة والسابعة ( ٣ ، ٤ ، ٧ )	٨١ -
الفقرة الخامسة والثامنة ( ٥ ، ٨ )	٩١ -
الفقرة السادسة ( ٦ )	٩٤ -
المفترات ثم ينجلي	١٠١ -
كتابان في علم « السطو »	١٠٦ -
الكتاب الأول : « ذكرى أبي الطيب » ، عبد الوهاب عزام	
الكتاب الثاني : « مع المتنبي » ، طه حسين	١٣١ -
نهاية قصة هذا الكتاب	١٦٥ -

\*\*\*

كتاب « المتنبي »



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم لك الحمد كله ، ولك المُلْكُ كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، اللهم صل على محمدٍ خاتمِ أنبيائك ورُسلك ، وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل ، وعلى سائر النبيين .

وبعد ، فهذا كتاب « اللتقي » الذي كنت كتبت في سنة ١٩٣٦ ، وخرج يومئذ في عددٍ كامل من مجلة « المقطف » ، أنشره اليوم على هيئته التي كان عليها يوم صدر ، وجمعت إليه ما كنت كتبت في صحيفة « البلاغ » في سنة ١٩٣٧ « في قضية اللتقي بعنوان : « بيني وبين طه » ، وضمتُ إليه ثلاثَ تراجم للفتي كتبتها ابن العديم ، وابن عساكر ، والقرنزي ، من كتب لم تزل مخطوطة لم تنشر . وكتبتُ له مقدمةً فيها « قصة هذا الكتاب » كما كانت ، بارئاً إلى الله من كلِّ حولٍ وقوة ، شاكرًا له سبحانه ، شكر مقعّر لا يفي شكره بأنعمه وأياديه عنده . وأني يبلغُ شكرى له سبحانه ،

وقد اطفأ في قرد على بصري بعد إظلامه ، ولولا لطفه سبحانه لبقى هذا  
الكتاب في الطبعة ناقصاً لغير تمام ؟ فالحمد لله وحده .

أما الرجل الذي أجرى الله على يديه لطفه بي ، واستنقذني بمروءته  
من العمى ، وحاطني حتى عُدْتُ بصيراً ، فإني لا أملك له جزاء إلا الإقرار  
بفضله ، وإلا الدعاء له كلما أصبحت وأمسيت . صديق لا تنام صداقته عن  
أصحابه ، ورجل لا تنقل مروءته عن غير أصحابه . ثم هو بعد غنى عن  
اللقب بمكارم أخلاقه ، وفوق كل لقب بسماحة شيمته : « نايف بن عبد العزيز  
آل سعود » ، لم يزل منذ عرفته قديماً ، يزدادُ جوهره على تقادم الأيام  
سناً وسناء . صرحتُ بذكر اسمه مطعماً لما يرضيني ، عاصياً لما يرضيه ؟

محمود محمد شاكر

الأحد ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٣٩٧

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

القاهرة : مصر الجديدة

٣ شارع الشيخ حسين الرصني

## قِصَّةُ هَذَا الْكِتَابِ

إِنَّمَا أَنفُسُ الْأُنَاسِ مَبْتَاعٌ  
يَقْفَرُونَ جَهْرَةً وَاعْتِيَالًا  
مَنْ أَطْلَقَ الْقَتَامَ شَيْءٌ غِلَابًا  
وَاعْتِصَابًا لَمْ يَلْقَيْهِ سُوءُ الْآ  
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَتَّى  
أَنْ يَكُونَ الْعَصْفُ الرُّبَا لَا

## لحمة من فساد حياتنا الأدبية

«المتنبي» ، كعاب كتيبت منذ اثنتين وأربعين سنة ، ونُشر في عدد مستقبل من مجلة «المتنبي» (يناير سنة ١٩٣٦) . ثم كانت أحداث ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأحداث كانت قبلها بسنوات طوال ، كان لها أثر بالغُ القسوة والشوء في نفسى ، فلم أملك يومئذ أن أكبح جماحها ، فأنفست على ما بين انطواء شديد إلى تغيير منهج حياتي كله . فـ يومئذ رفعت رقبتي قاطعاً ، بين وبين نفسى ، أن أولفت كتاباً ، وانصرفت

إلى كتابة المقالات وبعض الشعر، وأصررتُ أيضاً على أن لا أعيد نشر هذا الكتاب «المتنبي» مرة أخرى، وأعرضت إعراضاً تاماً عما كنتُ وعدتُ به في هوامش الكتاب<sup>(١)</sup> من تأليف أربعة كتب مختلفة من «المتنبي». وقضى الأمر، ودخلت منذ ذلك الوقت في عزلة غريبة جداً، أشرتُ إليها مراراً فيما أكتب ولم أفسرها، وتعددت صور هذه العزلة على مرّ الأيام، وأصبحت هي طابع حياتي إلى هذا اليوم.

فلما استعجبتُ أخيراً لإلحاح جمهرة أصحابي على إعادة طبع كتاب «المتنبي»، كما كتبتُ يومئذٍ، وعلى طبع المقالات التي كتبتها سنة ١٩٣٧ في جريدة «البلاغ» في نقد الفصول الأولى من كتاب «مع المتنبي» لأستاذنا الدكتور طه حسين، بعنوان: «يني وبين طه» = رأيته أمراً لا ممتدى عنه أن أقع طرقاتاً من تاريخ حياتي يومئذٍ، لكي أفسر السبب الذي من أجله تركتُ تأليف الكتب، والذي من أجله أيت إعادة طبع كتاب «المتنبي» على مرّ أربعين سنة، والذي من أجله كتبتُ ما كتبتُ في نقد كتاب الدكتور طه.

والحديث عن النفس أهل كل لغة، ولكنه يكون أحياناً ضرورة لا يمتدّ عنها. فالجيل الذي يُقبل اليوم هذا الكتاب، لم يشهد تلك الأيام القابضة، ولا يعلم عنها علماً يُقنى أو يفيد، بل لعله يعلم من هذا القابر أشياء

(١) انظر السطر الأول من هذه الطبعة، الهوامش في ص: ١٢٩، ١٣٣، ١٤٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤٥، وما ذكره أخي الأستاذ فؤاد سروروف في مقدمة الكتاب ص: ٦٠.



حليمة ، على غير الوجه الصحيح ، الذى كانت عليه ، وإنما اكتسبها الجيل  
الحاضر من الثروة التى تنشر أحياناً فى بعض الصحف والمجلات . وقد التزمت  
فى هذا الحديث أن أقصر ما لامناص منه ، على الوجه الذى كان ، بلا إخفاء  
للحقائق التى وقفت عليها يومئذ ، لأنها هى التى أثرت فيما أكتب ، وهى التى  
كونت رأيى فى الجيل الذى عاصرته ، وفى آثار هذا الجيل فى الأجيال التى  
جاءت معه أو بعده ، متأثرة به أو واردة له .

• • •

بين الثالثة عشرة من عمرى والسابعة عشرة ، كنت مؤلفاً أشد الوطوع  
للمرياضيات ، فدخلت القسم العلمى فى « المدرسة الخديوية الثانوية » بالقاهرة  
مولكنى مع ذلك كنت شغوفاً بالشعر ، منهوماً بالأدب ككفاً بالتاريخ . فلما  
أنشئت الجامعة المصرية لأول إنشائها ، لم يستطع ولعى بالرياضيات أن يقوم  
لشغفى بالأدب والتاريخ ، فصحّت مخالفاً سيرة زملائى فى القسم العلمى ،  
والصحّت بكلية الآداب ، فكان هذا التحول هو أيضاً بدء تحول حياتى  
تحولاً تاماً . هجرت الرياضيات هجراً مُمْتِناً ، وأقبلت على الشعر والأدب  
والتاريخ بقلبى كله . ويوم دخلت كلية الآداب ، كنت قد فرغت منذ قليل  
من قراءة كتابين جليلين على شينى ، وشيخ الدكتور طه حسين أيضاً ،  
وهو سيد بن على الموصفى ، رحمه الله . أول الكتابين : كتاب « رغبة  
الآمل » ، وهو شرح الشيخ على كتاب « الكامل » لأبى العباس المبرّد  
وثانيهما : كتاب « أسرار الحماة » ، وهو شرح الشيخ أيضاً على كتاب  
« الحماة » لأبى تمام الطائي الشاعر . وفى زمن هذه القراءة كان أثر الشيخ

على أثره شديداً ، فقد أثار اهتمامي وصرفَ قلبي كله إلى الشعر الجاهلي .  
 وبعض الشعر الأموي ، وأخذتُ ما يأخذُ الشباب في ريمان طلب المعرفة .  
 فارت في هذه النشوة الجديدة بالشعر الجاهلي ، فجمعتُ تنبُّطاً حتى عن  
 الشعر المباسي بعض التنبُّط . وكان مما تنبُّطت عنه همّي أشدَّ التنبُّط  
 ديوان أبي الطيب المتنبي ، مع أنه كان أول ديوان من الشعر قرأته كله .  
 وحفظته كله ، وفُتِنْتُ به كله ، فأغفلتُه من يومئذٍ كله . لم يكن هذا التنبُّطُ  
 استغنائاً بالشعر المباسي وما بعده ، بل لأن إيفالي في الخفاوة بالشعر الجاهلي  
 وقرائه وتنبيهه في دواوين شعرائه ، وفي كيب الأدب ، كان قد أوقفني  
 على شيء مهم جداً ، شغلني واستولى على نفسي ، حتى صار من ديدني  
 يومئذٍ أن أحدث عنه أكثر من لقيتُ من الأساتذة الكبار الذين عرفتهم  
 وخالطتهم ، وكنت أرى إليهم مسعولاً ومنشيراً وملتمساً للإرشاد .  
 فكنت أظفرُ أحياناً بالتشجيع ، وأحياناً أخرى بالاستغراب وببعض  
 الإعراض عما أقول .

كنت قبل ذلك أعرفُ « المخلقات الشعر الجاهلية » وأحفظها ، كما هو  
 شأن أكثر من انصرف بهمته إلى الأدب . وهذه المخلقات ، كما هو معروف ،  
 لشعراء شعراء مختلفين أو لهم امرؤ القيس . ولكن حفظي إياها ، ومعرفتي  
 بها وبجارتها وبجارتها أصحابها ، وبمفانيها وبمفاني غريب ألقائها ، لم يزد  
 قُط على أن يكون زيادة في روعة معرفتي بالفريية ، وبشعرائها ، وبشعرها  
 قديمه وحديثه . أما حين أخذتُ ألهمُ بالشعر الجاهلي ، وبدأت أقرأ ما بقي  
 لدينا من دواوين شعر الجاهلية شاعراً شاعراً ، ثم أشعاراً من أهل

للجاهلية عن لادواوين لهم ، أو كانت لهم دواوين ولم تقع لى بعد دواوينهم =  
 محمد بن. اختلف على الأمر ، ولم يمد مجرد ثروة أستزيدها في المعرفة بالعربية  
 حوال الشعر . بدأت أجد في هذا الشعر الجاهلي شيئاً مهابتاً مهابتة سافرة  
 خلف في الشعر العباسي كله ، بل أكبر من ذلك : أتى افترقت هذا الشيء  
 أيضاً في أكثر ما قرأت من الشعر الأموي ، الذي لا يفصل بينه وبين الجاهلية  
 إلا ثلاثة الأولى من التاريخ المجري ، وهو زمن قليل لا يعتد به . ثم لم  
 يمكن الأمر راجعاً إلى ألفاظ الشعر من حيث غرابتها عندي أو ألغتها ،  
 ولا إلى تمايز في أوزان الشعر وقوافيه ، ولا إلى اختلاف في المعاني  
 أو الأغراض أيضاً ، فكل ذلك بلا شك قريب من قريب . ثم هو بلا ريب ،  
 غير راجع إلى الخلقة والقدم ، كما توهم لجاهل عاصرنا في شأن « القديم »  
 نحو « الحديث » = لأن الذي بيني وبين الجاهلية خمسة عشر قرناً تقريباً ،  
 حوال الذي بيني وبين الشعر الأموي والعباسي جميعاً ثلاثة عشر قرناً تقريباً .  
 هو البعد بيني وبين جملة هذا الشعر ، في الثلاثة عشر قرناً والخمسة عشر قرناً ،  
 بعد واحد أو شبيه بالواحد ، فكل هذا عندي قديم مترك في القديم .  
 وكان غير مبعول عندي أن يكون هذا الفرق الساطع الذي وجدته في نفسي  
 بين الشعر الجاهلي والشعر الأموي ، محدوداً إلى فطري اللغوية أو إلى قريحتي ،  
 لأننا في زماننا هذا لا نحتكم إلى سليقة في العرفية قاشية في مجتمعنا النحوي ، بل  
 كل واحد منا يكتسب طرناً ما من هذه السليقة بالتعلم والقراءة وطول التدبر  
 والاشتغال في العناية ، معانقة كل فرد منا على حiale وفي خلوته .  
 لا إذن ، قرناً لا أستطيع أن أجد هذا الفرق يلوح جهره في نفسي =

وأنا يومئذ على رأس السابعة عشرة من عمرى ، وعلى حداثة عهدى بطلب  
الأدب = إلا إذا كان الشعر الجاهلى نفسه يتلغى على هذا الفرق المتوحد كما  
فى ثنائه ، وإن كنت لا أستطيعُ عجزاً أن أضع يدي عليه وأقول : منه  
يكنُ الفرق ١ وكان أكبرُ منه مهّد لظهور هذا الفرق ، فيما أرجح ، هو أنى  
بدأتُ أقرأ دواوين شعراء الجاهلية شاعراً شاعراً ، كلما فرغتُ من ديوان  
شاعرٍ بدأتُ سمحاً شاعرٍ آخر = وكلما وجدتُ لشاعرٍ جاهلىً غلاقةً مه  
بشاعرٍ جاهلى آخر ، سمحتُ ديوانه بده أو منه ، أو بحثتُ عما بقى من شعره  
فى دواوين الأدب ، إذ لم يكن من أصحاب الدواوين . فلما أوغلتُ فى القراءة  
وأكثرْتُ ، ملتزماً بهذا النظام الذى هدانى إليه ولوعى بالرياضيات فيها  
أظنُ = وجدتُ فى الشعر الجاهلى شيئاً لم أكن أجده من قبل . وأنا أقرأ  
الشعر الجاهلى متفرقاً لشعراء مختلفين ، أو أنا أحفظُ لمشرة شعراء مختلفين  
هذه « اللغات الشعر الجاهلية » ، وأدارسها وأتبع معاني ألقابها ، مع  
اختلاف مانيها وأغراضها .

وجدتُ يومئذ فى الشعر الجاهلى ترجيحاً خفياً غامضاً ، وكأنه أخطىته شعير  
تسمعُ حسه وهو يتخلل أغواق القالب حريم متكاثف = أوردتُ صوت  
شعير يتنمى إليك من بعيد فى سكون ليل داج ، وأنت محفوف بفضاء  
متباعدة الأطراف . وكان هذا الترجيع الذى آسنه مشترك بين شعراء الجاهلية  
الذين قرأتُ شعرهم ، ثم يتجاوز شاعرٌ من شاعرٍ بحر من وقعة وشماثل تنهذى  
فيها ألقاؤه ، ثم يختلف شعر كل شاعر منهم فى قصيدة قصيدة من شعره ،  
وبدقنة تملو وتحفُ تيماً لحركة وجدانه مع كل غرض من أغراضه فى هذه

الشعر . ولا تظنّ أني أزعجُ أن الشعر الأمويّ والشعر العباسي كليهما خالٍ  
 خلواً تاماً من مثل هذه الظاهرة ، كلا ، ولكيّ بالمقارنة وجدتُ ترجيحَ  
 الشعر الجاهليّ ورينته ودنونه ، مبالغةً كلّها مبالغة ظاهرة لما أجده في  
 أكثر الشعر الأمويّ والشعر العباسي من الترجيع والرّين والدننة . وهذا  
 ليس مردوداً بلا ريب إلى ألفاظ اللغة من حيث هي ألفاظ ، ولا إلى أوزان  
 الشعر من حيث هي أوزان . وكان بلوغى ، يومئذٍ ، إلى إدراك هذه الفروق  
 أو تمييزها تبييناً يُتيح لي التعبير عنها ، أمراً متميّزاً ، فما هو إلا التذوق الحضرّ  
 والإحساس الجرّد . وبهذا التذوق المتتابع الذي ألفته ، صارَ لكلّ شعرٍ  
 عندي مذاقٌ وطعمٌ وشذّا ورأحة ، وصارَ مذاق الشعر الجاهليّ وطعمه  
 وشذاه ورأحته بيّناً عندي ، بل صارَ تميّزُ بعضٍ من بعضٍ دالاً على  
 أصحابه .

يمثل هذا الحديث كنتُ أفاوض الشيوخ الكبارَ من عرفهم ولقيتهم ،  
 وكان هذا الحديث هيجري ( أي دأبى وعادني من فرط النشوة ) ، فكان  
 يُعْرَضُ عني من أعرَضَ ، وربّتُ على خيلاء شبابي من ربّت بيدٍ لطيفة  
 حانية . كان من هؤلاء شيخٌ ساكنُ الميبة ، رقيقُ الحاشية ، ساجرُ  
 الابتسامة ، رقيقُ التبيد واللسان ، حلوُ اللغز ، خفيضُ الصوت ، ذكيُ  
 الميادين ، هو أستاذنا أحمد تيمور ياشار خه الله ، فاستمع إلى نشوتي بالشعر  
 الجاهليّ استماعاً من طمأنينةٍ كما يقال في اللؤلؤ .

حدثته مرّاتاً ، ثم جاء يومٌ فالتقينا ، على عاتقنا يومئذٍ ( سنة ١٩٢٥ )

في المكتبة السلفية عند أستاذنا محب الدين الخطيب ، فلم يكده مجلس حتى مدّه  
 يده إلى بعد من مجلة إنجليزية ، ( عدد يولييه ١٩٢٥ من مجلة الجمعية للمكتبة  
 الآسيوية ) ، وقال لي وهو يتسم : اقرأ هذه ! فإذا فيها مقالة للأعجمي  
 المنشور مرجليوث ، تستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من هذه المجلة ،  
 بعنوان : « نشأة الشعر العربي » . كنت خبيراً بهذا الأعجمي التكويني ،  
 التكويني البدني والعقلي ، منذ قرأت كتابه عن محمد رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم . أخذتُ المجلة وانصرفت ، وقرأت المقالة ، وزاد الأعجمي سقوطاً  
 على سقوطه . كان كل ما أراد أن يقوله : لأنه يشك في صحة الشعر الجاهلي ،  
 لا ، بل إن هذا الشعر الجاهلي الذي نعرفه ، إنما هو في الحقيقة شعر إسلامي  
 وضعه الرواة للسلون في الإسلام ، ونسبوه إلى أهل الجاهلية ، وسحقاً في  
 خلال ذلك كثيراً . ولأنّي عرفت حقيقة الاستشراق ، لم ألق بالاً إلى هذا  
 الذي قرأت ، وعندي الذي عندي من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلي  
 والشعر الإسلامي .

ثم بعد أيام لقيت أحمد تيمورباشا ، وأعدت إليه المجلة ، فسألني :  
 ماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أعجباً يارداً شديد البرودة ، لا يستحي كعادته  
 خابنهم وتلاّيت عيناه ، فقلت له : أنا بلا شك أعرف من الإنجليزية فوق  
 ما يفرضه هنا الأعجم من العربية أضغافاً مضاعفة ، بل فوق ما يمكن أن  
 يبرقه منها إلى أن يبلغ أدق العمر ، وأستطيع أن أتلقب بنشأة الشعر  
 الإنجليزي منذ شوسر إلى يومنا هذا تألياً هو أفضل في العقل من كل

حَا يَدْخُلُ فِي طَاقِهِ أَنْ يَكْتَبِهِ عَنِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدِي مِنْ  
 حَوْاقِةِ التَّهْجُمِ وَصَفَاقَةِ الْوَجْهِ ، مَا يَسْوَلُ لِي أَنْ أَخْطَأَ حَرْفًا وَاحِدًا عَنْ نَشْأَةِ  
 الشَّعْرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ . وَلَكِنْ مَرُوفُ الدَّهْرِ الَّتِي تَرْفَعُ قَوْمًا وَتُخَفِّضُ آخَرِينَ ،  
 تَقْدُ أَنْزَلَتْ بِنَا وَبَلَفَتْنَا وَبَادَبْنَا ، مَا يُبَيِّحُ لِمِثْلِ هَذَا الْمُسْكِينِ وَأَشْبَاهِهِ مِنْ  
 الْمُسْتَشْرِقِينَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا فِي شَعْرِنَا وَأَدَبِنَا وَتَارِيخِنَا وَدِينِنَا ، وَأَنْ يَحْدُوا فِيْنَا  
 مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَحْدُوا أَيْضًا مَنْ يَخْتَارُهُمْ أَعْضَاءُ فِي بَعْضِ عَجَامِ اللُّغَةِ  
 الْعَرَبِيَّةِ !! وَأَغْضَى أَحَدُ تَيْمُورٍ وَهُوَ يَتَقَسَّمُ .

• • •

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَغَاصَ كَلَامُ هَذَا الْأَعْجَمِيِّ فِي لُبِّجِ النَّسِيَانِ ، لِأَنَّ  
 هَذَا الْأَعْجَمَ وَأَشْبَاهَهُ يَدْرُسُونَ آدَابِنَا وَشَعْرِنَا وَتَارِيخِنَا كَأَنَّهُ نَفْسٌ عَلَى مَقْبَرَةٍ  
 عَادِيَةٍ قَدِيمَةٍ ، (١) مَكْتُوبٌ بِلُغَةِ مَاتَتْ وَمَاتَ أَهْلُهَا وَطَمَرَهَا تَرَابُ الْقُرُونِ !!  
 حَوَالِ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ لَهُمْ إِلَى رُكُوبِ هَذَا الْمَنْهَجِ كَثِيرَةٌ ، أَهْوَاهُ شَائِعَاتُ الْأَهْوَاءِ  
 حَوَالِ الضَّمَائِنِ الْقِيَوَارَةِ ، وَلَكِنْ أَوْغَلَهَا أَنْزَرًا أَنْ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى هَذَا السَّلْكِ بِمِثْلِكَ  
 الْإِسْتِشْرَاقِ ، هُوَ أَنَّ جَهْرَتَهُمْ غَيْرُ قَادِرَةٍ أَصْلًا عَلَى تَلْوِيقِ الْأَحَابِ تَذْوِيقًا  
 بِعَمَلِهَا حَيَّةً فِي قُوسِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَكْتُبُوا ، وَمُمْ أَيضًا مَسْلُوبُو الْقُدْرَةِ عَلَى أَنْ  
 يَجْلِسُوا فِي لِسَانِهِمْ الَّتِي ارْتَضَمَوْهُ مِنْ لِيَانِ أُنْهَاتِهِمْ مِيلَاقًا مِنَ التَّلْوِيقِ ، يُعْنِيهِمْ  
 عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْهُ تَعْبِيرًا يَتَّبِعُ لِأَحْدَمِ لَنْ يَكُونَ لَهُ شَأْنٌ يَذْكُرُ فِي آدَابِ لِسَانِهِ .

(١) « عَادِيَةٍ » مَقْسُوبَةٌ إِلَى « عَادَةٍ » قَوْمٌ هُوَذَا عَلَيْهِ السَّلَامُ « الْبَيْنُ » بِأَدَمِ اللَّهِ وَطَمَسَ  
 كِتَابَهُمْ .

ولهذا المجز آثروا أن يكون لهم ذكرٌ بالكتابة في شأن لغاتٍ أخرى  
يجهلها أقواسهم ، وهذا الجهل يسر عوراتهم عند من يقرأ ما يكتبون من  
بني جلدتهم . ولأني خبّرتُ ذلك فيما يكتبون ، وفيما يقولونه بالسنتهم ، لم  
يكن لثل هذه الآراء في الشعر الجاهلي وغيره وقعٌ في نفسي يثيرني ، اللهم  
إلا ما يُثير تقرّزي ، فما أسرع ما أسقط ما أقرأ من كلامهم جملةً واحدةً في  
يَمِّ النسيانِ .

كان ما كان ، ودخلنا الجامعة ، وبدأ الدكتور طه بلقى محاضراته التي  
عرّفت بكتاب « في الشعر الجاهلي » . ومحاضرة بعد محاضرة ، ومع كل واحدٍ  
يرتدُّ إلى رَجْعٍ من هذا الكلام الأعجمي الذي غاص في يَمِّ النسيان !  
وثارت نفسي ، وعندي الذي عندي من المعرفة بخبيثة هذا الذي يقوله  
الدكتور طه = وعندي الذي عندي من هذا الإحساس المتوهّج بمذاق  
الشعر الجاهلي ، كما وصفته آنفاً ، والذي استخرجته بالتذوق ، وبالمقارنة  
بينه وبين الشعر الأمويّ والمهاسي . وأخذني ما أخذني من الغيظ ، وما هو  
أكبر وأشنع من الغيظ ، ولكنني بقيتُ زمناً لا أستطيع أن أتكلّم .

تعاينت المحاضرات ، والغيظ يفورُ بي ، والأدب الذي أذبنا به آباؤنا  
وأساتذتنا يسكني ، فكان أحذثا يهابُ أن يكلم الأستاذ ، والهيئة مُعجزةٌ به  
وضاقت على المذاهب ، ولكن لم تخلُ أيامي يومئذ في الجامعة من إثارة  
بعض ما أجدُّ في نفسي ، في خفوت وتردّد . وعرفت فيمن عرفت من  
زملائنا شاباً قليل الكلام ، هادي الطباع ، جَمّ التواضع ، وعلى أنه من



أترابنا ، فقد جاء من الثانوية عارفاً بلغات كثيرة ، وكان واسع الاطلاع ، كثير القراءة ، حسن الاستماع ، جيد الفهم ، ولكنه كان طالباً في قسم الفلسفة ، لافي قسم اللغة العربية . كان يحضر معنا محاضرات الدكتور ، وكان صفوه وميله وهواه مع الدكتور طه ، ذلك هو الأستاذ الجليل محمود محمد الخضيرى . نشأت بينى وبينه مودة ، فصرت أحدثه بما عندى ، فكان يدافع بلين ورفق وفهم ، ولكنّ حِدَّتى وتوهجى وقسوتى كانت تجعله أحياناً يستمع ويصمت فلا يتكلم . كُتِّبَ نقرأ معاً ، وفى خلال ذلك كنت أقرأ له من دواوين شعراء الجاهلية ، وأكشف له عما أجد فيها ، وعن الفروق التى تميز هذا الشعر الجاهلى من الشعر الأموى والمباسى . وجاء يوم فتناجأى الخضيرى بأنه يجب أن يصارحنى بشئ . وعلى عادته من الهدوء والأناة فى الحديث ، ومن توضيح رأيه مقسماً مفضلاً ، قال لى : إنه أصبح يوافقنى على أربعة أشياء :

الأول : أن اتكأ الدكتور طه على « ديكارت » فى محاضراته ، اتكأ فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التحويل بذكر ديكارت الفيلسوف ، وبما كتبه فى كتابه « مقال عن المنهج » = وأن تطبق الدكتور لهذا المنهج فى محاضراته ، ليس من منهج ديكارت فى شئ .<sup>(١)</sup>

الثانى : أن كل ما قاله الدكتور فى محاضراته ، كما كنت أقول له

(١) كان من أثر هذه الأحاديث بيننا ، أن بدأ الخضيرى من يومئذ فى ترجمة كتاب ديكارت « مقال عن المنهج » ، ونشره بعد ذلك سنة ١٩٣٠ ( الطبعة الثانية ) .

يومئذ ، ليس إلا سَطَوًا مجردًا على مقالة مرجليوث ، بعد حذف الحجج السخيفة والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية ، التي كانت تتخلل كلام ذلك الأعجمي = وأن ما يقوله الدكتور لا يزيدُ على أن يكون « حاشية » وتعليقًا على هذه المقالة .<sup>(١)</sup>

الثالث : أنه ، على حداثة عهده بالشعر وقلة معرفته به ، قد كادَ يَتَّبِعُ أن رأيي في الفروق الظاهرة بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام ، أصبح واضحًا له بعض الوضوح = وأنه يكادُ يحسُّ بما أحسُّ به وأنا أقرأ له الشعر . وأفاضه فيه .

الرابع : أنه أصبح مقتنمًا معي أن الحديث عن صحة الشعر الجاهلي ، قبل قراءة نصوصه قراءة متذوّقة مستوعبة ، لغوّ ياطلُّ = وأن دراسته كما تُدرّسُ نقوش الأمم البائدة واللغات الليتة ، إنما هو عبثٌ محضٌ .

وانتَقَ أن جاء حديثه هذا في يومٍ من أيّامِ المصيبة . فالدكتور طه استأذى ، وله على حقِّ الهيبة ، هذا أدبنا . والدكتور طه على يدٍ لا أنساها ، كان مدير الجامعة يومئذ ، « أحمد لطفي السيد » ، يرى أن لاحقًا لحامل « بكالوريا » النظم العلمي في الالتحاق بالكليات الأدبية ، ملتزمًا في ذلك بظاهر الألفاظ ! فاستطاع الدكتور طه أن يحطّم هذا المائق بشهادته لي ،

(١) كان من أثرها أيضًا : أن لحس الخضيرى مقالة مرجليوث ، ونشرها في مجلة « الزهراء » التي يصدرها صاحب المطبعة السلفية ، في عدد ذي الحجة سنة ١٣٤٦ (أبريل ١٩٢٨) .

وبإصراره أيضاً . فدخلتُ يومئذ بفضله كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، وحفظُ الجليلِ أدبَ لابنِ التهاون فيه . وأيضاً ، فقد كنتُ في السابعة عشرة من عمري ، والدكتور طه في السابعة والثلاثين ، فهو بمنزلة أخى الأكبر ، وتوقير السنِ أدب ارتضمناهُ مع إبان الطفولة . كانت هذه الآدابُ تفعل بى فعلَ هَوَى المتنبئِ بالمتنبئِ حيث يقول :

رَمَى ، وَاتَّقَى رَمِيَّ ، وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى

هَوَى كَاسِرٍ كَتَفَى ، وَقَوَّيْى ، وَأَسْهَى

فلذلك ظَلُتُ أَتَجَرَّعُ النَيْظَ بَحْتًا ، وأنا أصغى إلى الدكتور طه في محاضراته ، ولكنى لا أستطيعُ أن أنكلم . لا أستطيعُ أن أناظره كِفاحًا ، وجهاً لوجه ، وكلُّ ما أقوله ، فإنما أقوله في غَيْبَتِهِ لا فى مَشْهَدِهِ . تتابعت المحاضرات ، وكلَّ يومٍ يزدادُ وضوحُ هذا السَّطو المُرَّيان على مقالة مرجليوث ، ويزدادُ فى نفسى وضوح الفرق بين طريقتى فى الإحساس بالشعر الجاهليّ ، وبين هذه الطريقة التى يسلكها الدكتور طه فى تزييف هذا الشعر . وكان هذا « السطو » خاصةً بما يهزُّ قواعد الآداب التى نشأت عليها هزاً عنيفاً . بدأتُ المهيبة مع الأيام تسقط شيئاً فشيئاً ، وكدتُ ألقي حفظَ الجليلِ وزائى غير مُبالٍ ، ولم يبق لتوقير السنِّ عندى معنى ، فجاء حديثُ الخضيرى ، من حيث لا يريدُ أو يتوقع ، لينسفَ فى نفسى كُلَّ ما التزمتُ به من هذه الآداب . وعجبَ الخضيرى يومئذ ، لأنى استمعت لحديثه ، ولم ألقه لا بالبشاشة ولا بالخفاوة التى يتوقعها ، وبقيت ساكناً ، وانصرفت معه إلى حديثٍ غيره .

وفي اليوم التالي جاءت اللحظة الفاصلةُ في حياتي . فبعد المحاضرة ، طلبتُ من الدكتور طه أن يأذن لي في الحديث ، فأذن لي مبهجاً ، أو هكذا ظننتُ . وبدأتُ حديثي عن هذا الأسلوب الذي سماه « منهجاً » ، وعن تطبيقه لهذا « المنهج » في محاضراته ، وعن هذا « الشك » الذي اصطنعه ، ماهو ، وكيف هو ؟ وبدأتُ أدلل على أن الذي يقوله عن « المنهج » وعن « الشك » غامضٌ ، وأنه مخالف لما يقوله ديكرت ، وأن تطبيق منهجه هذا قائمٌ على التسليم تسليماً لم يداخله الشك ، برواياتٍ في الكتب هي في ذاتها مخوفةٌ بالشك<sup>(١)</sup> وفوجيءُ طالبة قسم اللغة العربية ، وفوجيءُ الخضيرى خاصةً . ولما كدتُ أفرغُ من كلامي ، انتهزني الدكتور طه وأسكتني ، وقام وقفاً للخروج . وانصرف عني كلُّ زملائي الذين استنكروا غضاباً ، ما واجهتُ به الدكتور طه ، ولم يبق مني إلا محمود محمد الخضيرى ، ( من قسم الفلسفة كما قلت ) . وبعد قليل أرسل الدكتور طه يناديني ، فدخلتُ عليه ، وجعل يعاتبني ، يقسو حياءً ويرفقُ أحياءاً ، وأنا صامتٌ لا أستطيعُ أن أرد . لم أستطع أن أكشفه بأن محاضراته التي نسمعها كلها مسلوخةٌ من مقالة مرجليوث ، لأنها مكاشفةٌ جارحةٌ من صغير إلى كبير ، ولكنني كنتُ على يقينٍ من أنه يعلم أنني أعلم ، من خلال ما أسمع من حديثه ، ومن صوته ، ومن كلماته ، ومن حركاته أيضاً ، وكأن هذه الحقيقة في نفسي كان يزيدني عجزاً عن الرد ، وعن الاعتذار إليه أيضاً ، وهو

---

(١) انظر ما كتبه سنة ١٩٦٥ في كتابي « أباطيل وأسما » ، عن « المنهج » ، ومن الصراع بيني وبين الدكتور طه ، ص : ٢٣ - ٢٥ .

ما كان يرمى إليه . ولم أزل صامتاً مُطَرِّقاً حتى وجدت في نفسي كأنى  
أُتسكى من ذلِّ المعجز ، فقتلُ فجأة ، وخرجتُ غيرَ مودَّعٍ ولا مُبَالٍ بشيء .  
وقضى الأمرُ ! وبئسَ التَّرى بيني وبين الدكتور طه إلى غير رجعة !

ومن يومئذ لم أكفَّ عن مناقشة الدكتور في المحاضرات أحياناً  
بغير هيبة ، ولم يكفَّ هو عن استدعائي بعد المحاضرات ، فيأخذني يميناً وشمالاً  
في المحاوره ، وأنا ملتزمٌ في كلِّ ذلك بالإعراض عن ذكر سطوره على مقالة  
مرجليوث ، صارفاً حتى كُله إلى موضوع « المنهج » و « الشك » ، وإلى  
ضرورة قراءة الشعر الجاهليِّ والأمويِّ والعباسيِّ قراءةً متذوّقة مستوعبة ،  
ليستبين الفرق بين الشعر الجاهليِّ والإسلامي = قبل الحديث عن صحة نسبة  
هذا الشعر إلى الجاهلية ، أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة ، وأنه  
موضوع في الإسلام ، من خلال روايات في الكتب هي في ذاتها محتاجة  
إلى النظر والتفسير . ولكنني من يومئذ أيضاً لم أكفَّ عن إذاعة هذه  
الحقيقة التي أكتسبها في حديثي مع الدكتور طه ، وهي أنه سطا سطوا كريبها  
على مقالة المستشرق الأعجميِّ ، فكان ، بلا شك ، يبلِّغه ما أذيعه بيني زملائي .  
وكثر كلامي عن الدكتور طه نفسه ، وعن القدر الذي يعرفه من الشعر  
الجاهليِّ ، وعن أسلوبه الدالِّ على ما أقول . واشتدَّ الأمر ، حتى تدخل في  
ذلك ، وفي مناقشتي ، بعضُ الأساتذة ، كالأساذ نليو ، والأساذ جويدي  
من المستشرقين ،<sup>(١)</sup> وكنت أصارحهما بالسطو ، وكانا يبرقان ، ولكنهما

(١) سيأتي ذكرهما بعد قليل .

يداوران . وطال الصراعُ غيرَ للتكافؤ بيني وبين الدكتور طه زماناً ، إلى أن جاء اليوم الذي عزمْتُ فيه على أن أفارق مصرَ كُلَّها ، لا الجامعة وحدها ، غيرَ مبالٍ بِإتمامِ دراسَتِي الجامعية ، طالباً للعزلة حتى أستبينَ لِنَفْسِي وجهَ الحقِّ في « قضية الشعر الجاهلي » ، بعد أن صارت عندي قضيةً منشُوبَةً كُلَّ التشغب .<sup>(١)</sup>



هذا مطلعُ قصَّتِي مع « قضية الشعر الجاهلي » ، ومع الدكتور طه خاصة . على وجه الإيجاز . عزمْتُ يومئذٍ على مفارقة مصر ، ثم الجامعة ومعِي ذلكُ العجزُ عن مواجهة الدكتور طه بِرَأْيِي في تفاضيل هذا « السطو » جهاراً نهاراً ، بلا قِنَاعٍ ، وبالقِي أَجْدُهُ في نفسِي من البَشَاعَةِ ، بِشَاعَةِ ادِّعَاءِ اللُّزْمَةِ امْتِلَاكُ مَا يَسْطُو عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ مِمَّا امْتَدَى إِلَيْهِ ، واستحقَّ نسبته إلى نفسه بعد طولِ مماناةٍ في البعثِ وشقاءٍ في الدرسِ ! ومع أن كُلَّ من كتب بعد ذلك في نقدِ كتاب « في الشعر الجاهلي » ، قد واجه الدكتور بهذا « السطو » . مواجهةً مكشوفةً علانيةً ، إلَّا أَنَّ عجزِي أنا عن مواجهته بلساني ، غيرَ متهيِّبٍ ولا متأدِّبٍ ، كان يهدمُ نفسِي هدمًا ، وينسفُ آدَابِي نسفًا ، ويتركُ في ضميري عُصَّةً تَأْبَى أَنْ تَزُولَ . كَانَ شَيْئًا بَشِيمًا لَا أَطِيقُهُ ، ثم زاد الأمرُ عندي بِشَاعَةً فَظَلَمْتُ بِهَا ، حينَ نشرَ كتابه « في الأدب الجاهلي » سنة

---

(١) انظر كتابي « مدخل إعجاز القرآن » ، وكتابي « قضية الشعر الجاهلي » ، فقد كتب ابن سلام الجعي ، قبيهما بيان عن هذا التشغب .

١٩٢٧، وهو نفس كتاب « في الشعر الجاهلي » : « جُذِفَ منذ فصل » وأضيف إليه فُصُولٌ ، وَغَيَّرَ عنوانه بعض التغيير « كما وصفه الدكتور في مقدمته . كان أبشع ما في هذا الكتاب ، الفصل الأول الذي زاده بعنوان : « الكتاب الأول = الأدب وتاريخه » ، لأنه جاء تسويقاً لهذا « السطو » ، وزيادة في الادعاء بأنه قد امتلك ماسطاً عليه امتلاكاً لا ريبه فيه !! واستملاء أيضاً = ودلالة صريحة على أنه لا يبالي أقلّ مهالة بكلّ ماسمه من أنه « سطا » على مقالة مرجليوث ، بين أسوار الجامعة = ولا بجميع الكتب التي ألّف وطُبعت في نقد كتابه ، والتي كشفت هذا « السطو » بالدليل والبرهان ، مع أن الأمر لا يحتاج إلى برهان أو دليل ! وجميعها كتبٌ يقرؤها الناس ! كيف يكون هذا ؟ وبأيّ جراءة يستطيع الدكتور طه أن يلقي الناس ! أيّ احتقار هذا للناس ! وأيّ استهزاء بهم ويعقولهم هو أبشع من هذا ! لا أدري .

ثم كان معي ما هو أخش من هذا أيضاً . كنتُ يومئذٍ غراً في الثامنة عشرة من عمرى أو أشفّ ، وكان من أساتذتنا مستشرقان أتى بهما الدكتور طه من إيطالية ، أولهما « الأستاذ نلّينو » ، وهو شيخٌ مهيب الطامة ، كثُ اللحية ، واسع العلم ، فصيح اللسان بالعربية ، ثم « الأستاذ جويدي الصغير » ، وكان شاباً وسباً متوقفاً ، لملّ مكانة أبيه الشيخ المستشرق الكبير جويدي ، هي التي رَشَحته للأستاذية في مصر !! فقد دخلا بيني وبين الدكتور طه ، أو على الأصح : بيني وبين ما أقوله في عَنيّة الدكتور طه .

كَانَ أَمْرًا مَعَ عَجَبًا مِنَ الْعَجَبِ ! فَمَا يَمْلِكُانِ عِلْمًا يَقِينًا لَاشْكَ فِيهِ أَنْ  
 مُحَصِّلَ مَا يَقُولُهُ الدُّكْتُورُ طه ، إِنَّمَا هُوَ « سَطْوٌ » عُرْيَانٌ عَلَى مَا كَتَبَهُ  
 مَرْجُلِيوْثُ ، وَلَكِنَّهُمَا كَانَا مَعَ شَدِيدِي الْمَرَاوَعَةِ : لَا يَمْلِكُكَانِ مَصَارِحَتِي  
 بَأَنِّ هَذَا أَلَيْسَ « سَطْوًا » ، وَيَمْتَنِعَانِ أَنْ يَقُولَا صِرَاحَةً أَنَّهُ « سَطْوٌ » أَوْ كُلُّ  
 مَا كُنْتُ أَظْفَرُ بِهِ مِنْهُمَا هُوَ مَطَالِبَتِي بِتَعْظِيمِ الدُّكْتُورِ طه وَتَوْقِيرِهِ بِحَقِّ  
 الْأُسْتَاذِيَّةِ ، ثُمَّ اسْتَدْرَاجِي إِلَى رَتْبِهِ الْأَلْفَاظِ الْفَاضِلَةِ : « الْبَحْثُ الْعِلْمِيُّ  
 وَالْأَدَبِيُّ » وَ « عَالِمِيَّةُ الثَّقَافَةِ » وَمَا شَابَهُ هَذَيْنِ مِنْ أَلْفَاظِ التَّفْرِيرِ . فَكُنْتُ  
 أَمْتَنَعُ عَنِ التَّسْلِيمِ لَهَا بِمَا يَقُولَانِ عَنِ « الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ وَالْأَدَبِيِّ وَعَالِمِيَّةِ  
 الثَّقَافَةِ » ، حَتَّى يَطَالِبَا الدُّكْتُورَ طه بِالْإِقْرَارِ ، وَأَنْ يُقَرَّأَا أَيْضًا ، بَأَنِّ مَا يَقُولُهُ  
 مَسْلُوحٌ كُلُّهُ بِمَا قَالَهُ مَرْجُلِيوْثُ ، أَوْ هُوَ عَلَى الْأَقْلَ مُقَابَلَةُ لِمَرْجُلِيوْثُ فِي رَأْيِهِ  
 الَّذِي كَتَبَهُ وَنَشَرَهُ وَقَرَأَنَاهُ جَمِيعًا . فَلَمَّا لَمْ يَفْعَلَا ، وَلَمْ يَفْعَلِ الدُّكْتُورُ طه  
 أَيْضًا ، زَادَ الْأَمْرُ بَشَاعَةً فِي نَفْسِي ، وَسَقَطَتِ هَيْبَةُ الْأُسْتَاذِيَّةِ وَهَيْبَةُ الْجَامِعَةِ  
 أَيْضًا سَقُوطًا مُنْكَرًا ، وَأَطْبَقَ عَلَى الْارْتِيَابِ وَالشَّكِّ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ كُلِّهَا  
 حَتَّى ضَاقَ صَدْرِي ، وَلَمْ أَمْلِكْ إِلَّا أَنْ أَمْنَحَهُمْ جَمِيعًا ظَهْرِي غَيْرَ مُتَلَفِّتٍ ،  
 وَغَيْرَ مُبَالٍ أَيْضًا بِمَا أَنَا مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ مِنْ مَفَارِقَةِ بِلَادِي وَأَهْلِي ، وَمِنْ هَجْرِ  
 الدِّرَاسَةِ الْجَامِعِيَّةِ أَيْضًا غَيْرَ بَالٍ وَلَا أَسْفٍ . وَانْطَلَقْتُ ، وَمَعِيَ صَاحِبَانِ  
 يُورِّقَانِ لَيْلِي وَيُلْهِيَانِ نَهَارِي : بَشَاعَةُ « السَطْوِ » ، وَبَشَاعَةُ التَّسْتَرِّ عَلَيْهِ مِنْ  
 عَارِفٍ خَبِيرٍ ، لَا يَكْتَفِي بِالتَّسْتَرِّ ، بَلْ يَطَالِبُ بِالتَّقَاضِي عَنْهُ ، وَبِتَوْقِيرِ السَّاحِلِ  
 وَتَعْظِيمِهِ بِحَقِّ الْأُسْتَاذِيَّةِ لِغَيْرِ ! !

\*\*\*



ومررت الأيام والليالي والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وهى السنة التى كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى » ، وهى مصروف أكثره إلى « قضية الشعر الجاهلى » ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لامعارضة لأحد من الناس .  
 تومشت بى هذه القضية فى رحلة طويلة شاقّة ، ودخلت بى فى دُرُوبٍ وعُزّةٍ شائكة ، وكُلِّدًا أوغلتُ انكشفت عنى غشاوة من التمتى ، وأحسستُ أنى أنا والجيل الذى أنا منه ، وهو جيل للدارس المصرية ، قد تمّ تفريقنا تفريقاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كلّهُ ، من علومه وآدابه وفنونه .  
 وتَمَّ أيضاً هتّك الملائق بيننا وبينه ، وصارَ ما كان فى الماضى متكاملًا متمسكًا ، مِرْقًا متفرقة مبهمة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلّ النارغ فارغًا أبدًا ، فقد تمّ ملء هذا الفراغ بمجديد من العلوم والآداب والفنون ، لامت إلى هذا الماضى بسبب ، وإِنَّا لَنستقبله استقبال الظامى ، المحترق قطراتٍ من الماء الّهمير للتلج .

فى خلال هذه الأعوام ، تبين لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصة طويلة قد تمرّخت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبت<sup>(١)</sup> ، ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيننا عندى أننا نعيش فى عالم منقسم انقسامًا سافرًا : عالمُ القوّة والبنى ، وعالمُ الضعف والفقر = أو عالمُ الفزاة للثاهبين ، وعالمُ المستضعفين المنهويين . كان عالمُ الفزاة المثل فى الحضارة الأوروبية ، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحولًا اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسما » .

فهو صيدٌ غزيرٌ يُرثُ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلو والفنى والسلطانة والغلبة . والطريق إلى هذا التحول عملٌ سياسىٌ محضٌ ، لا غاية له إلا إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تاماً لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفد به وليسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أن هذا العمل السياسى المحض المنشأ ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على ، بسيطرة النفاصل الأوروبية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كلها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرة على كلِّ شئ ، وعلى التعليم خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » فى ( ١٧ مارس ١٨٩٧ ) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدرس الذى لا يزالُ نسيرٌ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متمتد الجوانب ، وكان قوائمه إعداد أجيال من « اللبوسيين » يهودون من أوربة ليكونوا قادة هذا التحول الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسسوا قاعدة ثابتة لاطلاق التحول إلى غاية يرادُ لنا أن نبلغها على تمامدى الأيام . وكان الفُزاةُ يقتنعون يومئذ من هؤلاء اللبوسيين ، بأن يهودوا إلى بلادهم ببيعة أفكارٍ يردونها ترديد البيئات ، تتضمن الإعجاب للزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية ، مقرونةً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكتشفوا أمثهم بأن ما أعجبوه

به هو سر قوة الفزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سِرّ ضعفنا وانهيأنا .  
وقد وجدت ذلك ظاهراً مثلاً أحسن تمثيل عند رفاة الطهطاوى وأشباهه .  
ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر اللبوعين وحده لا يكتفى ، وأصبح  
الأمم محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسع انتشاراً . فكان الرأى أن تنشأ أجيال  
مستعاقبة من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا  
التحول ، عن طريق تفرغهم تقريباً كاملاً من ماضيهم كله ، مع هتك  
أكبر الملائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعياً وثقافياً ولغوياً ، ومع ملء  
هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ،  
وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الفزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئات  
من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عدد من تضم من أبناء المصريين  
وبناتهم . وقد كان ما أراد الفزاة ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمراً  
على ما أرادوا ! بل زاد بشاعة وعمقا فى سائر أنحاء العالم العربى والإسلامى  
ينظمون دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والنيفيقية وأشياء ذلك ،  
فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفرغ الأجيال من ماضيها للتدفق فى  
حمايتها مرتبطاً بالمربية والإسلام ، يحتاج إلى ملء بياض آخر يطفى عليه ،  
سجّوا بياضاً بابتدئ مُبْرِقٍ فى القِدَمِ والقنوض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى  
المتدفق الحى الذى يوشك أن يمتزق ويختنق بالتفريغ المتواصل :

فى ظلّ هذا التفريغ المتواصل ، وهذا التمزق للملائق ، وهذه الكثرة

التي تخرجُ مفرّغةً أو شينةً مفرّغةً إلى « البعثات » ، وهذا التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي المضطرب ، وهذا الغياب للتعتمد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل في النفوس من ثقافة ماضية حيّة حياة ما ، وباقية على تماسكها وتكاملها = في ظل هذا كلّهُ ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية. انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ في جوهره ، هو ملء الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهي تحدثُ في النفوس تطلّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أيُّ شأنٍ ، يعتمد اعتماداً واضحاً على المسرح الأوربي في تكوينه كلّهُ . وأيسر سبيلٍ كان إلى إمداده بمادته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربي ، مسلوخةً يعادُ تكوينها بأنماطٍ عربية ، أو عامية على الأصح ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسئون هذا حياءً ومكرًا : « التمويه » . لا بيد أنه عبثٌ مجردٌ ، وسطوٌّ لا رقيبَ عليه . أمّا الكتابُ الجادُّون ، فكان أكثرهم يعتمد على تلخيص نتائج الفكر الأوربي في الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً ما ، وإن كان أكثره خطأً وسطوياً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيب ولا محاسب .

والقصّة أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوّل فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرَقّع بأفكارٍ مسلوخةٍ مخنطة ، ثم توزّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضل لأصحابها إحقاق معالم السطو

والإتهاب والتقليد . [ وهذا أمرٌ لم يزل مستمراً بقوة إلى يومنا هذا ] .

وبالثرثرة واللجاجة في الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفاً لا غبار عليها . وزادها رسوخاً إغارة قضية كثرة الضجيج ، مخوفة بالناظر مبهمة مغرية تقيلها النفوس بلا ممانعة ، وهي قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! والنظر في حقيقة هذه القضية يفنى إلى شيتين ظاهرين : ميل ظاهر إلى رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرفض ملئاً إلاماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميل سافر إلى الانوار في شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبه متميزاً في نفسه تميزاً صحيحاً بأنه « جدد » تجديداً نابكاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافة متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميزه أن الله قد يسره له الاطلاع على آداب وفنون وأفكار تعجب أصحابها في الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتكاملة ! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه خطوط من صورة ، الجانب من الحركة الأدبية والثقافية في ذلك العهد ، وأكثرها باق إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاح له .

ولكن هذه الصورة لاتمّ وحدها . في خلال التعرّول الاجتماعي الثقافي المتصاعد المتكاثف ، كان هناك جانبٌ راكم مخفق ، لم يفرغ هذا التفرغ ، ولكن ضرب عليه حصارٌ مغزّع وبيلٌ مهين . هذا الجانب كان هو الوارث للماضي المتكامل المتماثل ، ولكنه كان يزداد على مرّ الأيام تتخللاً وتفككاً وحيرةً وانطواءً . يمثل هذا الجانب جمهور المعلمين

المنسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبرهم هذا الجانب ،  
 في هذا اليم المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضي محافظةً مّا ،  
 ولكن قبضته كانت تسترخي شيئاً فشيئاً تحت الحصار ، وتحت القذائف  
 المدفّعة التي يرُمى بها ، والتي تنزلُ نفوس أبنائه من قواعدها . وكان  
 مطلوباً طلباً حثيثاً أن تفتح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخل عليه  
 نفس العوامل التي أدّت إلى تفرغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى  
 تهتك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبية الفازية المتصاعدة  
 تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ  
 المبهمة المغرية !!

وقد كان ، واحتاج شق الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة  
 حقيرة ، والذي يُمثّل منها هنا هو ما يتعلق بأمر « السطو » لغير . كان  
 الذي يحول بينهم وبين بلوغ هذا الغرض ، هو أن جمهور المتعلمين المنسبين  
 إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهم لسان غير العربية ، قلما كان يعرف  
 أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، في مصر خاصة ، إلى إغافة باب يتيح لهم  
 أن يطلّوا = أو يصدّموا على الأقل ، بمعند الحضارة الفازية من نظر ورأي  
 في آداب العربية وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها أيضاً !! وكان هذا  
 موفقاً في مؤلفات « المستشرقين » عامة ، لأنه هو كل عملهم في  
 « الاستشراق » المرتبط كل الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أي بتدمير الأمم  
 المستضعفة وتعطيم ثقافتها وأكارها وماضيها كله .<sup>(١)</sup> فكان لا بدّ ، إذن ، من

(١) استوفيت بيان بعض هذا في كتابي ( أباطيل وأسار )

تشر هذه الأفكار على نطاق واسع ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

انهى لذلك رجال كثيرون في مصر والشام وغيرها ، ولكن جاء الى مصر رجلٌ وافدٌ ، مع رجال آخرين كثيرٌ ، لا يربطهم في أنفسهم بهذا الماضي إلا اللسانُ العربيُّ وحده ، أما ضائرتهم فمرتبطة بشيء آخر !! أنشأ هذا الرجل مجلةً ، ثم بدأ يكتب مقالاتٍ ، وينشر كتباً في آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلة معرفته بها معرفةً تتيح له الكتابة ، ولكنه جاء معبراً عن اتجاه « الاستشراق » لا غير .

ذلك هو « جرجي زيدان » ، الذي أنشأ مجلة « الهلال » وألف كتباً وقصصاً كثيرة منها : « تاريخ التمدن الإسلامى » ، و « تاريخ العرب قبل الإسلام » و « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فكانت كلها « سطوا » مجرداً على آراء المستشرقين ومناهجهم في النظر ، مبثوثاً في ثياباً كلُّها ما كتب . وكذلك تبسّر لكل من لا يعرف غير العربية لساناً ، أن يجد ، على مديده ، شيئاً « جديداً » يقال عن ماضيه ، وبما هج لم يألّفها أيضاً . ولكن حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عاماً مؤثراً تأثيراً نافذاً في جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية - أن الرجل كان وافداً مع استقرار الاحتلال الإنجليزي في مصر (سنة ١٨٨٢) ، وكانت الشبهة فيه توجب الحذر منه ، فأضعف الحذر منه ، أثر ما يكتب في أكثر قرائه من هذا الجمهور ، وإن كان له في جمهور « تلاميذ المدارس » المفرغين من ماضيهم أثر بليغ . ومع ذلك ، فإن الهدف من تأليفه لم يذهب

هَدْرًا، فإنه على الأقل، فتح الباب ويسر السبيل للساطين من بعده، وجعل  
 « السطو » المباشر أمراً مألوفاً لا غبار عليه، بل زاد قُرْبَ إلى الأذهان.  
 سبيل الاقتناع بأنه ضرب من « التجديد »، ومن متابعة « ثقافة العصر »  
 ومناهج تفكيره في الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم  
 وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن  
 ومن السهل اليسير، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » في دراسة  
 آداب أمة ما وفي دراسة تاريخها : أن يسمد « المجدد » إلى اقتباس آراء  
 وأفكار قد تولَّى صياغتها مَنْ هو أصيَّقٌ دَخِيلٌ عليها وعلى لسانها، لم  
 ينشأ فيه، وإنما تعلمه على كثير فهو لا يعلم منه إلا أقلّ القليل، ومَنْ هو  
 نابتٌ في لسان آخر يأدبه وعلومه وفنونه وعقائده، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته  
 من القدرة على تذوق آدابها تذوقاً شاملاً = والتذوق وحدة عقدة المُقدِّم  
 ومَنْ هو مسلوبٌ كُلُّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه، فضلاً عما يكنه في سريره  
 عن المداوة للتوارث والبغضاء المفاجئة، ومن للصلحة المتجددة في تشويه  
 صورتها تشويهاً متعمداً لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا؟ أم أن « الجديد » و « التجديد »، لا يمكن أن يكون مفهوماً  
 ذا معنى، إلا أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حية في  
 في أنفس أهلها = ثم لا يأتي التجديد إلا من متمكن النشأة في ثقافته، متمكن  
 في لسانه ولفظه، متذوق لما هو ناشئ فيه من آداب وفنون وتاريخ، مفروض



تاريخه في تاريخها وفي عقائدها، في زمان قوتها وضعفها، ومع المتحدّر إليه من خيرها وشرّها، نحسّ بذلك كلّ إحساسًا خاليًا من الشوائب = ثم لا يكون « التّجديد » تجديدًا إلّا من حوّارٍ ذكرٍ بين التفاصيل الكثيرة المشابكة الممتدة التي تنطوي عليها هذه الثقافة ، وبين رؤية جديدة نافذة ، حين يلوّح للمجدّد طريق آخر يمكن سلوكه ، من خلاله يستطيع أن يقطع تشابكًا من ناحية ، ليصله من ناحية أخرى وصلًا يجعله أكثر استقامة ووضوحًا ، وأن يحمل عقدة من طرف ، ليربطها من طرف آخر ربطًا يزيدّها قوة ومثانة وسلاسة .

فالتّجديد إذن حركة دائبة في داخل ثقافة متكاملة ، يتولاها الذين يتحركون في داخلها كاملة حركة دائبة ، عمادها الخبرة والتذوق والإحساس الزهف بالخطر ، عند الإقدام على القطع والوصل ، وعند التّجهم على الحلّ والربط . فإذا قدّ هذا كلّهُ ، كان القطع والحلّ سلاحًا قاتلًا مدمرًا للأمة ولثقافتها ، وينتهي الأمر بأجيالها إلى الخيرة والتفكك والضّيع ، إذ يورث كلّ جيل منها جيلًا بعده ، ما يكون به أشدّ منه خيرةً وتفكّكًا وضّيعًا .

هذه هي العاقبة التي تفرض نفسها فرضًا .

فما ظنّك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحلّ مرادًا لذاته ، وكان مرادًا أيضًا أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ في داخل التّكامل والتماسك الذي يحمل لهذه الثقافة معنىً وحياةً وحركة ؟ = وما ظنّك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكار « المجدّدة » إلّا ترديدًا لصياغة غريبة ،

صاغها غريبٌ عن الثقافة ، منتسبٌ إلى ثقافة غازيةٍ مُباينةٍ ، وهو مع ذلك ناقص الأداة ، لاخبرة له بتشابكها وعقدتها ، ثم هو في نفسه لا يضر لها إلاّ التدمير والاستهانة ، لغرضٍ راسخٍ في قرارة النفس ؟ ثم ما ظنك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيد على أن يكون « سطواً » مجرداً على هذه الصنغ الغربية ، ثم إقحامها إقحاماً على ثقافتهم ، لا حاجة أدنى إليها النظر والفكر والتدبر ، بل بالهوى وحُب الظهور من مُفرغ ، أو من شبيه المُفرغ ، من ثقافته المتكاملة المتأسكة ؟ ما أبشع العواقب عندئذٍ ، وأبشعها التدهور المستمر !

وكذلك كان مقدراً لجيلنا نحن ، جيل المدارس المُفرغ ، أن يتلقى صدمة التدهور الأولى ، لأنه نشأ في دوامة دائرية من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي . جئنا في أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهي التي يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من فورهم في تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كل مستعمر منهم يشدد قبضته على ما وقع في يده من الغنائم . وباللهاء والمكرو والسطوة ، جعل يدفع هذا التحول دفعا شديداً ، لكي يتم له أن يُخضع عالمنا « المتخلف » لحاجات عالمه « المتحضّر » ١١ وجئنا أيضاً ، في مصر ، مع الرجة العظمى التي أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتي انتهت بعد قليل بجمعية مزقت الأمة تزييقاً مفرحاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتمدد الأحزاب ، وتكالب كل حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضرة ١٢ وتبددت

فوسمنا وتفتت ، تمت ضبط هذا التحول السريع للتكادى الربيب  
للروح .

وفى ظل هذا كله ، كما قلت ، انتمشت الحركة الأدبية والثقافية  
انتماشاً غير واضح المعالم<sup>(١)</sup> = وأقول « غير واضح المعالم » ، لأن الأساتذة  
الكبار الذين انتمشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علاقتهم بثقافة أمتهم  
غير عميقة كل التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرغ ، فقد تمزقت علاقتنا  
بها كل التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذة ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطلاً  
أو كالباطل . فهو لا يقع منا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبى له من الفهم ، ومن  
الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعتها ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بتلك  
الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غير مفهوم البتة ، فهو يمر عليه  
مروراً سريعاً لا أثر له . أما الذى أخذه جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الفاض  
إلى المعنى للمهم الذى تتضمنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرض الخفى  
لثقافة التى كان ينبى أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا  
الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى  
نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير ، كما صوروا لنا  
ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغاب عن الأساتذة الكبار أن الزمن هو  
الذى يشب الصغير ويبنى الكبير ، هو الذى سيتولى الفصل بينهم وبين  
أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلمون اليوم على أيديهم .

\*\*\*

(١) انظر ما سلب مر : ٢٩ ، ٣٠ .

والقصة تطول، ومع ذلك فليس هذا مكان قصتها على وجهها، إذا أنا أردت أن أقيّد ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨، وسنة ١٩٣٦، بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا أيضاً. ويكفي أن أقول: إن جيلنا، جيل المدارس المفرغ، كان في خلال ذلك قد كبر، وانفلق عن فريقين: فريق قانع بما تجود به عليه أعلام الأساتذة الكبار من «تلخيص» و«تجديد»، فهو لا يزال إليهم متطعماً، وبهم متمسكاً، ثم لا يزيد = وفريق يسر الله له السبيل إلى معرفة المنبع، فرأى نفسه قادراً على أن يفترق من حيث اغترف أساتذته. لقد أطلع على أصول ما كانوا يلخصونه، وما كانوا «يحدّثون» به مكتوباً بلفظه أو بلفاته على الأصح. وأحسن أيضاً أن «الأصل» الذي يقرؤه بلفظه، مضي «حتى» مكثف، حقيق الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كاب لونه خامدة حياته، متخلخل، قريب المتناول. ومع هذا الذي أحسن به، فإنه من حيث لا يدري يشعر بتفوق هؤلاء الأساتذة للتخصيص الجدد عليه، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق، مع أن تفسيره يسرّه. وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أممهم كانت علائق لم تمزق كل التمزيق، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يطلعوا تلخيصهم نعمة من سر أنفسهم يمتازون بها، وأن يكونوا أقدر منهم على «التجديد»، لأن ما عندهم كان يمكنهم من الاختيار، ثم من نفي ما هو غث أو ساقط، ومن إخفاء «السطو» إخفاء فيه ذرؤ من اللقطة. أمّا هم، فقد فرغوا نرفيقاً يكاد يكون تاماً من أصول ثقافتهم التي ينتمون إليها (بالوراثة)، ولذلك فهم يحشون في أنفسهم ما يشبه المجز، إذا ما قارنوا بين

أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة . وهذا هو الموقف المصيب الذي كان فيه جيلنا يومئذٍ ، ثم استمرت عليه الأجيال بعدنا ، وهي تشمُّ شعوراً واضحاً بتفوق هذا الجيل من الأساتذة الكبار «المختصين» و«المجددين» ، مع أن الأمر ، كما قلتُ ، قائم في الحقيقة على «السطو» البين أو الخفي ، على أعمال ناس آخرين يكتبون في لغاتهم بالسنتهم ، ويمترون عن أنفسهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لاعتن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحن ! ومع ذلك فإن جيلنا والأجيال التي تتابعت بعده ، لم تزد أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئاً آخر سوى منهج «التلخيص» و«التجديد» ، على السنته التي سنّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقي لهم شيء يقولونه ، حين يَرَوْنَ موقع الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قمعوا بالوقوف تحت مظلة «التجديد» و«عالمية الثقافة» و«الثقافية العالمية» ، و«الحضارة الإنسانية» ، وسائر هذه المبهمات التي أشربت إليها آفئنا ، وتكاثروا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمر بعد ذلك كما قيل في الثلث : «خلالك الجو فبيضي وأصغري» !!

\* \* \*

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرّ هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التي صورتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصورتها فيما سلف . فالحق كثر وطه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد في سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أي من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلوم أن الدكتور طه في سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « في الشعر الجاهلي » ، زعم أن له منهجاً يدرس به ثراث العرب كله ، وسمي هذا المذهب « مذهب الشك » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب صوف : « بقلب العلم القديم رأساً على عقب . وأخشى إن لم ينجح أكثره أنه يبعث منه شيئاً كثيراً » [ في الشعر الجاهلي ص : ٣ ] . ثم انطلق في كتابه هذا مستخفاً بكل شيء ، بلا جذر ، حتى قال : « والنتائج لللازمة لهذه المذهب الذي يذهب المجددون عظيمة جليلة الخطر ... وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقيناً ، وقد يحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه . وليس حظ هذا للذهب مقنياً إلى هذا الحد ، بل هو يجاوز إلى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تمييز التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فيه أشياء لم يكن يباح الشك فيها » [ في الشعر الجاهلي : ٦ ] .

والاستخفاف الذي بنى عليه الدكتور طه كتابه معروف ، أما الذي كان يقوله في أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حد ما حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء بالحضرة بأقوال السلف . وأما الذي كان يدور بين طلبته الصغار « المترغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكان شيئاً لا يكاد يوصف ، لأنه كان استخفاف جاهل واستهزاء خاوي ، يردّد ما يقوله الدكتور ، لا يعننه ما كان يصمم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى أمر الأيام ، كانت المأقبة وخيمة جداً . كثير الصغار الذين تأثروا بما قاله

في سنة ١٩٣٦ ، فقد فَطَمَتِهم السنُّ ، وفَطَمَنَهم معرفةٌ جديدةٌ حازوها ،  
وتفكَّروا ، أو كادوا ، للتَّذي الذي كان يُرْضِعُهم . وخرجت « الطلائع »  
تدفعها الحِجَةُ وطلبُ الصَّدارة في ميدان « التنقيف » و « التجديد » ، وبدأ  
كأنَّهم جازُوا يزاحون الأساتذة الكبارَ في مواقع الأستاذية . وساروا على  
نفس النَّهج الذي مَهَّدُوهُ لهم من « التلخيص » لفكر « الحضار الحديثة » =  
أى الحضارة الأوروبية = والذي هو في حقيقته سطوٌّ مجردٌ ، ولكنَّهم لم  
يسيروا سيرة الأساتذة في معالجة « القديم » حتَّى يُتَخَيَّلَ للناس أنه إحياءٌ  
للقديم وتجديدهُ له ، بل كانَ الغالبُ على أكثرهم هو « رفض القديم »  
والإعراض عنه والانتقاص له والاستخفاف به . وعندئذ أحسَّ الدكتور  
طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذي أضاع لهم الطريق بالضجَّة التي أحدثها كتابه  
« في الشعر الجاهلي » .

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذي تولى هو كثيرٌ لإحداثه ، ظاهراً  
جداً ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : في  
الشعر الجاهلي ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر في جريدة الجهاد مقالات انتهى منها  
في ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانَ مُحَصَّلُها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوَّل في  
سنة ١٩٢٦ ، الذي أعلنه في أوَّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة للطلقة ملة  
نُسِمَ به شعراً جاهلياً ، ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي مُنتَحَلَةٌ مُتَحَلِّقَةٌ  
بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم  
أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك في أن ما بقى من الشعر

الجاهلي الصحيح قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، [ في الشعر  
الجاهلي ص : ٧ ] .<sup>(١)</sup>

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أمناء قراءة الشعر  
القديم » ،<sup>(٢)</sup> وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره :  
« إنكم لتشعقون علينا حين تكلفونا قراءة شعركم القديم . هذا ، وتلجئون  
علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير في درسه وحفظه وتذوقه »  
لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً وتلغونه إلقاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن في  
القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها .. » ، إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة  
إحساسه بأراء من يُحيطون به من جيلنا الذي بلغ الفطام واستقل .

ثم قال بعد ذلك ( ص : ٩ من حديث الأرباء ج : ١ ) : « وقد تحدثت  
إلى المتحدثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم  
سيكثرون كلما تقدمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان  
ما هو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن أخلص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظي ،  
لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

---

(١) قد بينت في بعض مقالاتي أن الدكتور طه ، قد رجع عن أقواله التي ظاهراً في الشعر  
الجاهلي ، بهذا الذي كتبه ، ويبيح ما صارحتني به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه  
عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت  
عادة « الأساتذة الكبار » ! ينجلثون في العلن ، ويجبرأون من خطئهم في السر . ١١  
(٢) انظر « حديث الأرباء » الجزء الأول ( من ص ٩ — ١٧ ) .



« والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا  
« خيرًا خالصًا يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا  
« شرًا غير قليل . . . فكانت الحضارة الحديثة مصدر جهود  
« وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جهود وجهل أيضًا .  
« هذا الشاب ، أو هذا الشيخ ، الذي أقبل من أوربة  
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويمسك الرطانة بإحدى اللفات  
« الأجنبية . . . يجلسُ إليك وإلى غيرك متفتحًا متفتشًا ،  
« مؤمنًا بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،  
« ثم يتحدثُ إليك كأنه ينطق بروحٍ أبوتون . فيملن إليك  
« في حَزْمٍ وَجَزْمٍ أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس  
« قد أظلمهم عصر « التجديد » ، وأن الأدب القديم يجبُ  
« أن يُترك للشيخوخ الذين ينشدقون بالألفاظ ، ويملاون  
« أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الفلاظ ،  
« وأن الاستمسك بالقديم جهود ، والاندفاع في الحياة إلى  
« أمام هو التطور ، وهو الحياة وهو الرقي . هذا الشاب  
« وأمثاله ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم  
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنسك  
« القديم ولا تفرمه ، ولا تنصرف عنه ، وإنما تحببه وترغبُ  
« فيه وتحسُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ متين . . .  
« وهذا الشاب ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، أو

« من ضحايًا جهل الحضارة الحديثة ، وشره ليس مقصوراً  
 عليه ، وإنما يتجاوزها إلى غيره من الناس . فهو يتحدث ،  
 وهو يعلم ، وهو يكتب ، وهو في هذا كله ينقُثُ الشَّمَّ ،  
 ويفسد العقول ، ويمسُخُ في نفوس الناس المعنى الصحيح  
 لكلمة « التجديد » . فليس التجديد في إمامة القديم ،  
 وإنما التجديد في إحياء القديم ، وأخذ ما يصلح منه للبقاء .

« وأكادُ أُنحِذُ الميلَ إلى إمامة القديم أو إحيائه في  
 الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم  
 ينتفعوا بها ، فالذين تُلهمهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم  
 حين تلهمهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،  
 ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا  
 منها صُوراً وأشكالاً ، وقلدوا أصحابها تقليدَ القردة ،  
 لا أكبر ولا أقلَّ ۱۱

« والذين تَلَفَتِهِمُ الحضارة الحديثة إلى أنفسهم ، وتدفعهم  
 إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن لاجيةً لمصر  
 إلا إذا عُنِيَتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامي ،  
 وبالأدب العربي قديمه وحديثه ، عِقايتُها بما عَمِسَ حياتُها .  
 اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم  
 الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن  
 ينتفعوا في إقامة الحياة الجديدة على أساس مقين » .

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سئوا لمن بعدهم  
 الشُّنن في الحياة الأدبية وفي مناهج تفكيرها ، شهادة مهمة جداً لتاريخ  
 الحياة الثقافية التي امتدت بعدهم إلى يومنا هذا ، بل هي تكشف عن جُذور  
 التدمير المفرع الذي يشمل اليوم المُجتمع العربيَّ كُلَّهُ حيث تُنطق  
 العربية ، <sup>(١)</sup> لا بل حيث يدينُ غيرُ العرب بالإسلام ، ويوجب عليهم  
 إسلامهم أن يضلُّوا العربية في القامِ الأول ، لأن إسلامهم لا يكون إسلاماً  
 إلّا بالقرآن ، وهو الذي نزل عليهم بلسان عربيٍّ مبين ، وإلا بسنة الرسول  
 الأُمِّي العربيِّ ، صلى الله عليه وسلم ، وهي أيضاً بلسان عربيٍّ مبين .

وليس من همي هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضح مدى صدقها  
 حيث صدق توقع الدكتور في تكرار عدد من وصفهم من « المثقفين » في  
 شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نفسها ، تشمل عامة المثقفين  
 في زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكن الذي يجب عليّ أن أقوله أن شهادة  
 الدكتور على اختصارها ، إنما هي وجه آخر لشهادتي التي كتبناها هنا ، قالها  
 هو من موقع « الأستاذية » ، وقُلَّتها أنا من موقعي بين أفراد جيلي الذي  
 أفتى إليه ، وهو جيل المدارس المفرغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل

---

(١) لم ينصب أحد لوصف هذا التدمير المفرع الذي يشترك في جريته مثقفون كثيرون ،  
 في الأدب ، وفي العلم ، وفي التاريخ ، وفي الفلسفة ، وفي الاجتماع ، وفي السياسة ، وفي الفن  
 كله من مسرح وسنما وموسيقى وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور مله : « ينبت السم  
 ويفسد العقول ويمنع في قفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم  
 ينبت مقتصرأ على التعليم والكتابة والتأليف والمصانعة ، بل دخل كل بيت دخولاً مفرعاً عن  
 طريق الإذاعة والتلفزيون ، بلا ريب ولا حسيب !

الذى تلقت صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ في دُوامة من التحول الاجتماعي  
والثقافي والسياسي ، كما أشرت إليه أخفاً [ س : ٣٦ ] .

° ° °

### المتنبي

وأنا حين قرأتُ هذه الشهادة يومئذ ( ٣٠ يناير ١٩٣٥ ) ، توهمتُ  
بِحُسْنِ الظن أن الدكتور طه سوف يبدأ عهداً جديداً في تفكيره وفيما سيكتبه  
للناس ، وأنه سيفارقُ السنة التي سنها هو والأساتذة الكبارُ ، وإن كان  
قد راينى ما ختم به شهادته ، لأن هذه الخاتمة توشك أن تكون دفاعاً عن نفسه  
وتعجيذاً للسيرة التي سارها هو في « التجديد » = التجديد كما يراه هو ، لا  
التجديد كما يراه الجيلُ الذين وصفهم بأنهم « ضحايا الحضارة الحديثة » ، أو  
ضحايا جهل الحضارة الحديثة . وليس هذا بمستبعدٍ ، لأن الدكتور طه  
يومئذ ( سنة ١٩٣٥ ) ، كان في قمة مجده الذي أحرزه بالضجة التي ثارت  
حول كتابه « في الشعر الجاهلي » ، وهو يروح ويفندو على ذُرَاهَا يملؤم  
الزُّهُو ، وتستغفه الخيلاء ، ويمجدُ به العُجْب . ثم جاءت بعد ذلك مقالاته  
في جريدة الجهاد متتابعة من ( ٦ فبراير ١٩٣٥ ) إلى ( ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ) ،  
وهي عن جماعة من شعراء الجاهلية ، فكان يخلط فيها بين ما يدلُّ دلالة صريحة  
على رجوعه عن رأيه في الشعر الجاهلي ، وبين الالتزام بالإشارة في خلال ذلك  
إلى شبكة التّقديم الذي جعله مذهباً في دراسة هذا الشعر ، ولذلك كثر فيها  
التناقض ١١ . ولستُ هنا بصدد الحديث عن هذه المقالات الأربعة عشر التي

كتبها ، ولكنني أقول إنني وجدت يومئذ أن الدكتور طه قد دلّ فيها على أنه يحاول أن يسلّك طريق « تذوق الشعر » ، الذي أشرت إليه آفقا ، ولكنه تذوق بلا منهج ، وبلا هدف ، وعلى غير أصل .

في هذا الوقت نفسه أو قبله بقليل ( سنة ١٩٣٥ ) ، كان أخى الأستاذ فؤاد صروف ، قد عهد إلى أن تُصدر عدداً من « المتقطف » إحياءاً لذكرى أبى الطيب المتنبي ، في مرور ألف سنة على وفاته ، وأن أكتب أنا فيه كلمة مسبهة بعض الإسهاب ، ما بين عشرين إلى ثلاثين من صفحات المتقطف .<sup>(١)</sup> تلقّيتُ هذا التكليف متحمساً له ، ولكن لم أكُ أدُ أتناول ديوان المتنبي ، بعد هجره هجراً طويلاً ، كما قلت آفقا [ ص : ١٢ ] ، حتى وقعت في الحيرة ! كنت في السادسة والعشرين ، وكنتُ قد قضيتُ ما بين سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٥ ، غارقاً في « قضية الشعر الجاهلي » ، وفيما قد فتقني إليه من رَيمه متشعب المسالك والناهج = لا ، بل في رَيمه أعنى منه ، يخطفُ نفسى خطفاً ويثمرها شعاعاً ، في برقي متتابع يتركى ممزقاً بين النور والظلمة ، بين الضلالة والهدى . وذلك أن أصحاب هذا « الشعر الجاهلي » ، هم الذين نُزلَ عليهم القرآن العظيم ، وهم الذين طويخوا بأن يتبَيَّنوا ، عند سماعه يُتلّ عليهم ، أنه آيةُ هذا النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الدالُّ على صدقِ نبوته ، وإن خالفت المعبودَ عند البشر من آيات الأنبياء والرسلين . ولا سبيلَ إلى ذلك ، إلّا بأن يشهدُ الشاهدُ منهم أنه كلام الله للفارق لكلام عباده من البشر على اختلاف

(١) انظر مقدمة الأستاذ فؤاد صروف ص : ٦

ألسنتهم = أي أنه كلامٌ عربيٌّ خارجٌ عن طوق البشر جميعاً ، وخارجٌ قبل كلِّ شيءٍ عن طوق هذا النبي الذي يتلوهُ عليهم ، فكذلك بصير آية كسائر آيات الأنبياء من قبله ، كإحياء الميت ، وقلب العصا حية . فكيف ، إذن ، تسقى لأصحاب هذا الشعر الجاهلي أن يحكموا لهذا القرآن بأنه آية دالة على صدق التّأليه عليهم ؟

وطلب الجواب عن هذا السؤال ، هو الذي قادني إلى أن أنفُس في قراءة تراث هذه الأمة ، من تفسير لهذا القرآن ، ومن علوم كثيرة تتعلق به وبلغته ، من النحو والصرف والبلاغة والأصول والفقه ، والحديث النبوي وما يتصل به من علم رجاله ورواته ، ثم علم التاريخ ، تاريخ الأمة ، وتاريخ رجالها ، وما وقع من الاختلاف بينهم في ذلك كله . هذا سوى الشعر والأدب على تنوعه . وفي خلال ذلك لم يكن لي مطلبٌ سوى مطلب واحد أن أجِدَ يَرَدَّ اليقين في نفسى ، في شأن « الشعر الجاهلي » ، وفي شأن ما نُسِبه « إعجاز القرآن » . لم يكن يدور بخلدي أن أكون عالماً في كلِّ هذه العلوم أو في بعضها ، ولا دار بخلدي قطُّ ، في خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، أن أؤلّف كتاباً ، أو أن أكتب بحثاً في شيء مما أقرأ ، أو في بعض ما اهتمت إليه وأنا أقرأ ، <sup>(١)</sup> لا هم لي ، ولا شيء يزعجني ، سوى طلب اليقين وإبطال الشكِّ ، والخروج من الحيرة . فذلك ، ومع طول المارسة لهذه الفنون والعلوم المختلفة المتباينة ، بدأت أجدُّ في شيئاً فشيئاً مصروفاً عن تحصيل ما في هذه

(١) إلا بحثاً واحداً فيما أُظن ، جعله الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ، مقدمة الجزء الأول من شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، بعنوان : « مقدمة في نشأة اللغة العربية » ، وعلم النحو ، والطبقات الأولى من النحاة » ، ونشرته المطبعة المصرية في سنة ١٣٥٢ هـ ، سنة ١٩٣٣ م .

العلوم من المعارف ، إلى سيرة أخرى في القراءة ، سيرة غريبة ، ولكنها كانت الصَّوْق بطبيعتي وأعمق نفاذاً في نفسي .

كانت سيرتي في كلِّ هذا الذي أقرؤه ، هي سيرتي التي اخترتها آنفاً في شأن « الشعر الجاهلي » ، وهي تذوِّق الكلام <sup>(١)</sup> : تذوِّق الألفاظ والجمل ، وتذوِّق دلالاتها على معاني أصحابها ، وكيف يصوغُ كلُّ صاحب فكر فكره في كلمات ؟ وكيف يخطئ ، وكيف يصيب ؟ وكيف يستقيم على المعنى طلباً للحق ، وكيف يلتوى طلباً للمعاطلة أو الزَّهْوِ أو الظهور على الخضم ؟ ومعنى ذلك ، على وجه الاختصار ، أني كنت أتذوِّق البيان الإنساني الصادر عن أصحابه فيما يريدُ أن يقوله كلُّ منهم ، على اختلافهم في المنازع والمشارب التي تتكوّن منها آداب البشر وعلومهم . وبينانُ الإنسان عن نفسه ، لو تأملته ، شيء مدهلٌّ !! فكانت لذتي في الوقوف على ما يرُوعني من هذا البيان ، تذوِّق لذتي في الإبانة من نفسي أنا أيضاً كما أبانوا ، أو في الإبانة عما أجده في نفسي وأنا أقرأ بيان هؤلاء الكتّابين الأمانة في بيانهم عما في أنفسهم . ولذلك لم يدُرْ بخلدِي أن أكتب ، على مرَّ هذه الأيام الطوال ، إلّا قليلاً جدّاً من الكلام للنثور ، وبعضَ الشعر . فلما وجدت نفسي مكلفاً بالكتابة عن اللغتي ، أوقمتني هذا التكليف في الخيرة ، لأنني سوف أقرأ لأكتب ، لا لأتلفّذ بما أقرأ . ويا بعدّ ما بين اللذهبين !

ومع ذلك ، قد جاء هذا التكليف على ساعة موافقة لاستئرائني ، لأنه يردني إلى أول ديوان كنت حفظته كله ، وفُتحتُ به قديماً كله ، ثم أغلقتُه

---

(١) انظر ما سلف من : ١٥ ، ٢٢

كُله، ثم يُبْطِئُ عنه كُلُّهُ بَدءَ حِفَاوَتِي بِالشَّعْرِ الْجَاهِلِيّ، [انظر ما سلف من ١٧: ]  
 فَرَأَيْتُنِي الْآنَ مُلْزَمًا أَنْ أَقْرَأَ قِرَاءَةً جَدِيدَةً ، مُتَذَوِّقًا لِبَيَانِ هِجْرَتِهِ هِجْرَةً  
 طَوِيلًا . فَلَمْ أَكْذِبْ ، وَأَخَذْتُ دِيْوَانَ أَبِي الطَّيِّبِ ، بِشَرْحِ الْوَاحِدِيِّ مِنْ  
 الْقَدَمَاءِ ( — ٤٦٨ هـ ) ، ثُمَّ بَشَّرَ الشَّيْخَ نَاصِيفَ الْيَازْجِيَّ مِنْ  
 الْمُحَدِّثِينَ ( — ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م ) . وَلَمْ أَكْذِبْ أَتَجَاوِزُ نِصْفَ الدِّيْوَانِ فِي هَذِهِ  
 الْقِرَاءَةِ ، حَتَّى اسْتَوْفَفْتَنِي أَنْ النِّصْفَ الثَّانِي مِنْهُ ، مُؤَرَّخَةً قِصَائِدَهُ كُلِّهَا أَوْ  
 أَكْثَرَهَا بِالْيَوْمِ وَالشَّهْرِ وَالسَّنَةِ الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا هَذِهِ الْقِصَائِدُ ، مِنْ شَهْرِ جُمَادَى  
 الْأُولَى سَنَةِ ٣٣٧ ، إِلَى أَوَّلِ شَعْبَانَ سَنَةِ ٣٥٤ ، وَقَدْ قَتَلَ الْمُتَنَبِّيُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ  
 فِي آخِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ٣٥٤ هـ . أَمَّا النِّصْفُ الْأَوَّلُ فَهُوَ غُفْلٌ كُلهُ مِنْ  
 التَّارِيخِ ، إِلَّا حَيْثُ يُذَكَّرُ أَنَّهُ قَالَ فِي صَبَاءٍ ، أَوْ قَالَهُ فِي الْمَكْتَبِ ، وَأَشْبَاهِ  
 ذَلِكَ ، وَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا ، لَا يَكَادُ يَتَجَاوِزُ بَضْعَ مَقْطُوعَاتٍ مِنْهُ ، مَعَ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ  
 عَلَى شِعْرِهِ الَّذِي قَالَهُ مِنْذُ سَنَةِ ٣١٤ ، إِلَى سَنَةِ ٣٣٦ تَقْرِيْبًا .

وَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ ، بِمَا قَرَأْتُهُ حَدِيثًا فِي مُقَدِّمَةِ أَسْتَاذِنَا عَبْدِ الْعَزِيزِ الِیْمَنِیِّ  
 الرَّاجِكُوْتِيٍّ لَمَّا جُمِعَ مِنْ « زِيَادَاتِ دِيْوَانِ شِعْرِ الْمُتَنَبِّيِّ » ، <sup>(١)</sup> وَمَا قَرَأْتُهُ قَدِيمًا  
 فِي تَرَاجِمِ مُتَفَرِّقَةِ الْمُتَنَبِّيِّ وَلَمَّا سَمِعْتُهُ أَوْ رَأَيْتُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ رَوَوْا عَنْهُ شِعْرَهُ  
 كُلهُ أَوْ أَكْثَرَهُ = أَنَّ الْمُتَنَبِّيَّ قَرَأَ عَلَى النَّاسِ شِعْرَهُ مَرَّاتٍ فِي بِلَادٍ مُخْتَلِفَةٍ ،  
 وَأَنَّهُ رَتَّبَ دِيْوَانَهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ أَمَلَى عَلَى مَنْ قَرَأُوا عَلَيْهِ مُقَدِّمَاتٍ قِصَائِدَ

(١) نَعْرَتُهُ الْمَكْتَبَةُ الْخَلْقِيَّةُ فِي سَنَةِ ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م .



بتواريخها ، وأن نسخاً كثيرة من الديوان ، قد صُحِّحت أو قرئت على أصولٍ مقروءةٍ على أبي الطيب نفسه ، وأنها نكادُ تتفق جميعاً على الترتيب الموجود في شرح الواحدي خاصةً = لما كنتُ أعلم ذلك تيقنتُ أن أبا الطيب كان شديد الإحساس بالتاريخ حين جمع شعره ورتبه . وتبين ذلك نتيئناً واضحاً في النصف الثاني منه ، وهو المؤرخة قصائده كلها باليوم والشهر والسنة . وإذا كان حين جمع شعره ورتبه شديد الإحساس بالتاريخ ، من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٥٤ ، إذاً ، فهو في القسم الأول أيضاً من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٦ ، خليقٌ أن يكون شديد الإحساس بالتاريخ ، إلا أنَّ عهدَه بهذا الشعر كان قد تقادم ، فنسى الأيام والشهور والسنوات على وجه التحديد ، فرتبَ هذا القسم الأول على ما بقي في نفسه من الإحساس الخلابي بهذه التواريخ القديمة .

ولكن لا يُستبعد أن يكون أبو الطيب قدَّم شعراً على شعر ، وتاريخاً على تاريخ ، بيد أنَّي أعتقد أن هذا التقديم والتأخير لا يكاد يتجاوز سنة أو بضعة سنة على الأرجح . ومع ذلك ، ففي بعض هذا الترتيب خللٌ آخر ، وهو أن المتنبي ، كما استظهرت ذلك ، كان رُبَّما مدح رجلاً في سنة ، ثم بعد سنوات مدحه مرةً أخرى ، فكان يلحق الشعر الثاني بالشعر الأول القديم التاريخ ، فيتقدمه بلا ميالةٍ . وهذا أيضاً شبيه بما فعله في القسم الثاني من سنة ٣٣٧ - ٣٥٤ ، حين ألحق به شعراً قيل في سنة ٣٢١ .

وعلى كل حال ، فلا بُدُّ أن نكون على دُكرٍ دائم بهذا ، وبأن المتنبى نفسه حين جمع شعره وقرأه على الناس ، أسقط كثيراً من شعر صباه ، أو من الشعر الذى تضمَّنَه القسم الأول الذى لم يؤرِّخ من ديوانه . وعلى ذلك فهذا القسم الأول محتاج إلى الاجتهاد فى ترتيبه على السنوات ، استظهاراً من الشعر نفسه ، ومن تراجم الرجال الذين قال فيهم هذا الشعر .

والإحساس بالتاريخ ظاهرة فريدة ، مُترقَّة القدم فى تاريخ عرب الجاهلية ، وقد ترك أثره البين فى حياتهم ، ثم فى لغتهم ، ثم فى شعرهم . فلما جاء الإسلام زاد هذا الإحساس نفاداً ووضوحاً ، لحاجتهم إليه فى تاريخ تنزيل القرآن متجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وما يترتب على ذلك من معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن والحديث ، وما ارتبط بذلك من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة بعد سنة بعد الهجرة . فلما جاء عهد التدوين ، اتسع هذا الإحساس ، وصار واضحاً ظاهراً فى الكتب المخطوطة ، ثم فى أسانيد هذه الكتب . وكان أشدَّ وضوحاً عند علماء التفسير والحديث وعلم الجرح والتعديل . ولا أشك فى أن المتنبى قد أدرك هذا ، لأنه كان مستقيضاً على زمانه ، فكان ديوانه الذى جمعه بنفسه وقرأه على الناس ، أول ديوان من الشعر جاءنا ، فيما أعلم ، وفيه أثر هذه الظاهرة واضحاً ككلِّ الوضع ، شهراً بشهر وسنة بعد سنة فى القسم الثانى من ديوانه .

وقد كنتُ ، وأنا أُنذِّق شعر الجاهلية وبعضَ الشعر الأموى ، أحاولُ

محاولة صَمْعِيَّةٌ في الاهتداء إلى ترتيب قصائد الشعراء على مُدَد من الزمن الذي عاشوه وقالوا فيه شعرهم ، كما مرى القيس والنايعة وزهير والأعشى ، وحاولته أيضاً في شعر عمر بن أبي ربيعة وشعر ذى الرمة . ومع أني لم أظفر ، أو لم أحقق كُلَّ بغيقي ، إلا أني انتفعت بذلك انتفاعاً لا بأس به في تذوق الشعر . فلما استوفيت القسم الثاني من شعر أبي الطيب ، ومضيتُ في تذوقه مرتباً على التاريخ ، كان نفع هذا الترتيب التاريخي عظيماً ، فقد كشف لي حركة وجدان أبي الطيب في شعره ، في زمن طويل يمتد من سنة ٢٣٧ إلى وفاته في سنة ٣٥٤ . فلذلك عدتُ أقرأ الديوان كله قراءة ثانية ، محاولاً أن أعرف حركة وجدانه في الشعر الذي قاله منذ صباه في سنة ٣١٤ تقريباً إلى سنة ٣٣٦ = ومحاولاً بتذوقي أن أرتب قصائد هذا القسم ترتيباً تاريخياً ما استطعت . وقد فعلتُ ، وتبين لي أن أبا الطيب كان بلا شك ملتزماً بالترتيب التاريخي في هذا القسم ، إلا في قليل من الشعر ، كما قلتُ آنفاً .

فرغتُ من هذه القراءة الثانية ، ومن ترتيب قصائد القسم الأول كما بدا لي عندئذ ، واجتمع لديَّ قدرٌ لا بأس به من الملاحظات عن أبي الطيب الشاعر ، وعن حركة وجدانه في شعره على اختلاف الأحوال والبلدان والناس الذين لقيهم ، والرجال الذين مدحهم . وبدأ لي أن أقنع بهذا ، وأن أبدأ في الكتابة عن شعر المتنبي ، لا عن حياته .

ولكن قلتي القديم لم يفارقني وأنا أستجمع نفسي للكتابة . لم أستطع أن أتخلص من الإحساس الملح بالنقص في عملي هذا . فوجدته أمراً

لامرّ منه ، أن أفضل ما لم يكن في نيتي أن أفعله يومئذ . جمعتُ كُلَّ ما أمكن أن يقع في يدي من تراجم أبي الطيب التي كتبها الأولون ، وما أتيح لي أن أعلمه مما كتبه المُحدثون عن أبي الطيب . ونَحَيْتُ الدُّبُوانَ جانباً وشرعتُ أقرأ تراجمه القصارَ والطوالَ ، وأردُّ الأخبار التي فيها إلى أصولها التي نُقِلَتْ عنها ، فكان لزاماً عليّ أن أرتبَ هذه التراجم ترتيباً تاريخياً حتّى لا أضلّ عن مَوَاضِعِ التَّغْيِيرِ والتَّحْدِيدِ التي لحقت هذه الأخبار ، في نقل كُلِّ مؤلف عن سَبَقِهِ . وكان عملاً شاقاً طويلاً ، متعديّ الجوانب ، منسِّج الرِّقعة ، لكنه كان عظيم الفائدة . قَيَّدْتُ كُلَّ ما عنّي وأنا أقرأ هذه التراجم والسُّكُتَبَ : كنت أصطدمُ دائماً فيها بما يَهْزُنِي وما يَحْزِنُنِي ، من الاختلاف الواضح بين صورة أبي الطيب التي تصوّرها هذه التراجم والكتب ، وبين صورته التي تصوّرها لي تذوّقُ شعره مجرداً من تأثير هذه الأخبار التي رُوِيَتْ عنه .

وظهر لي يومئذٍ ظهوراً واضحاً فرقٌ ما بينَ تذوّقِ شعر الشاعر تذوّقاً يعتمد على الشعر نفسه أولاً ، ثم على ما يكون في نفس المتذوّق من إدراكٍ تُجَمِّلِي له شعر الشاعر والمصور التي قبله ، ولأرجال الدين عاش بينهم وخالفهم ، وللأحداث التي تمرّ به أو بالناس ويكون لها أثر في شعره وفي حركة وجدانه = وبين بحث المدارس المتأني الذي يجمع أخبار الشاعر وتراجمه وآراء الناس فيه وفي شعره ، ويقارن ، ويستنبط ، ويأخذُ خيراً وبرئاً آخر ، ويكشف عن مَوَاضِعِ الخلل في الأخبار إن اختلفت ، وعن استقامتها إن استقامت ، ويستغرق في التفاصيل الدقيقة التي تدلُّ عليها أخباره وأخبار زمانه وأخبار

أهل عصره الذين لقيهم أو لم يَلْقَهُمْ . فرأيتُ يومئذُ أنهما طريقان مختلفان ،  
وعملان متباينان ، ولكن لا غنى بأحدهما عن الآخر . وتبين لي أيضاً ، مما  
قرأته للمحدثين خاصة ، أن طريق الأخبار وبحوثها والاعتماد عليها أو على  
بعضها ، ربما ضلَّ الكاتب ، فجعله يرى في بعض شعر الشاعر معنى ، هو  
بعيد كلُّ البعد عن المعاني التي يدلُّ عليها تذوق شعره جملة واحدة = وأنه  
أيضاً ، يُشَوِّهُ صورة الشاعر التي يَصُوِّرُها تذوق شعره تصويراً أصدق  
وأوضح وأعمق .

فلما قرَّرتُ هذا في نفسي وفرغتُ من تمحيصه وتقليبه حتَّى وجدتهُ صادقاً  
كلَّ الصدق ، ظننتُ ، والظنُّ يكذبُ صاحبه ، أني قد بلغتُ مبلغاً يفتَحُ لي  
أبواب الكتابة عن أبي الطَّيِّب ، بلا عائق ، وأنى إذا أخذتُ القلم والورق  
. وجلستُ إلى مكنتي ، فقد فرغت ، في طرفة عين ، مما كلفني به أخى الأستاذ  
غُزَّاد مرثوف . وكذلك سَوَّلتُ لي نفسي ١١ لم أكذُ أنفلُ حتَّى طارَ من  
رأسي كلُّ ما قرأته من شعر أبي الطَّيِّب أو من تراجمه ، ومن الكتب أو  
للقرارات التي كُتبت عنه ، وإذا أنا عاجزٌ كلُّ العجز عن أن أستجمع فكري ،  
وعن أن أعرفَ طريق . وشيئاً فشيئاً أدركتُ حقيقة نفسي ، وأنى حين  
خُصِّيتُ ما بين سنة ١٩٢٦ ، إلى سنة ١٩٣٥ في القراءة ، كما وصفت ذلك آنفاً ،  
لم يكن يدورُ بخلي قط أن أكتب بحثاً مطوَّلاً ، أو أن أؤلِّفَ كتاباً .  
وكذلك رأيتُ قد كرهت الأمر كه ، فوضعتُ القلم ، ونسيتُ الورق ،  
وفارقتُ مكنتي ، وذهبتُ إلى أخى فُزَّاد . أبنته عَجْرَى وبُجْرَى ، كما يقال في

المثل ، أى ما تركته من ورأى ، وما أنا مقبل عليه من أمانى ، والذى أمانى هو المعجز لاغير . وسدد الله خطى فؤاد وأكرمه ، فإنه أخذنى أخذ رفيق شفيق ، وجعل يحاورنى ويداورنى ، ويقبضنى ويبسطنى ، حتى فارقت على عزيمة غير التى أتيتها بها ، وكانت التى أتيتها بها هو أن يُعفينى من الكتابة . واسترحت أياماً ، ثم فسكّرت فى الأمر تفكيراً جديداً ، يرجع فضله كله إلى فؤاد صروف . وعدتُ أقرأ الديوان وحده مرةً ثالثة حتى فرغتُ منه ، ورأيتُ أشياءً جديدة ، لم أكن ألقيتُ لها بالاً فى القراءتين الأوليين ، وظننتُ أنى قادرٌ ، وأن الطريق قد استقام وبانت لى معالنه . وفى هذه المرة أيضاً أعدتُ ترتيب قصائد القسم الأول من الديوان ، ترتيباً يختلف بعض الاختلاف عن ترتيبه الأول ، على هذى ما استفدتُ من قراءة تراجم أبى الطيب فى الكتب المختلفة ، وعلى هذى ما بدأ لى من رأى فى هذه القراءة الثالثة فى شعره .

وأجمعتُ أمرى على الكتابة . وما كدتُ ، حتى اختلط على الأمر مرةً أخرى ، وحِرتُ حيرةً طويلة كادت تُودى بعزيمتى ، حتى جاوز الحزام الطُبيين ، كما يقالُ فى المثل ، <sup>(١)</sup> وسوّلت لى نفسى أن أدع الكتابة بمرّة . وبعد لأبى ما ترجمت أنفاسى المبهورة ، وعدتُ بالسكينة ، وأمررتُ على أن أقفل ، لاحقياً فى كتابة ما وقفتُ عليه من الآراء ، بل حياء من فؤاد صروف لاغير .

---

(١) « الطيبى » بضم فكول ، حلة التدى من ذوات الحف والحافر وغيرها ، فإذا انتهى الحزام لى التدين ، فقد بلغ أقصى غاياته ، فكيف إذا جاوزه ؟

ظَلْتُ أَيَّامًا أَمِيلُ الرَّأْيَ بَيْنَ أَسَالِيبِ الْكِتَابَةِ ، أَيَّهَا اخْتَارُ وَأَيَّهَا  
أَدْعُ . لَمْ يَكُنْ لِي أَسْلُوبٌ خَاصٌّ ، أَوْ طَرِيقٌ أَلْفَتْهُ وَعَمِدَتْهُ ، فَإِنِّي كَأَقَلْتُ ،  
لَمْ أَفَكِّرْ قَطُّ فِي تَأْلِيفِ كِتَابٍ أَوْ كِتَابَةِ بَحْثٍ مَطْوَلٍ . وَرَأَيْتُ الْمُؤَلِّفِينَ قَبْلِي  
فِي تَرَاجُمِ الشُّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ يَكْتُبُونَ عَلَى نَهْجِ الدِّرَاسَةِ وَالْبَحْثِ ، فَيَذْكُرُونَ  
الرَّجُلَ وَمَوْلَاهُ وَنَسَبَهُ وَأَسْرَتَهُ ، وَعَصْرَهُ وَأَخْبَارَهُ ، وَشَخْصِيَّتَهُ ، وَأَرَاءَهُ ، إِلَى آخِرِ  
هَذِهِ السَّلْسِلَةِ الْمَهْوُودَةِ فِي كُتُبِ الْمُحَدِّثِينَ مِنَ الْكِتَابِ = أَوْ عَنْ حَيَاةِ الرَّجُلِ  
جُمْلَةً ، ثُمَّ تَفْصِيلَ خُصَائِصِ شِعْرِهِ ، مِثْلًا ، وَبَيَانَ أَصُولِ الْمَعَانِي الَّتِي اِمْتَاثَ جُهَا  
فِي شِعْرِهِ مَفْصَلَةً مَجْمُوعَةً مِنْ جُمْلَةِ قِصَائِدِهِ كُلِّهَا — وَطَرُقَ أُخْرَى مُخْتَلِفَةً ،  
أَلْفَتْ قُرَآئَتَهَا ، دُونَ أَنْ آتَخِذَ لِنَفْسِي رَأْيًا فِي تَفْضِيلِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ .  
وَحَفْتُ أَنْ يَأْكُلَ مَرُّ الزَّمَنِ عَزِيمَتِي مَرَّةً أُخْرَى ، وَأَنَا وَاقِفٌ أَمِيلُ  
وَأَوَازُنُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ ، فَعَزَمْتُ عَلَى الْبَدْءِ فِي الْكِتَابَةِ وَالْفَرَاغِ مِنْهَا .  
لِأَنَّهُ عَشْرُونَ صَفْحَةً أَوْ ثَلَاثُونَ مِنَ الْمُتَقَطِّفِ ، فَلَا كُتُبَهَا كَمَا يَتَّفِقُ لِي ،  
وَسَتِيلُ الْمَعَانِي وَالْأَرَاءِ الَّتِي وَقَفْتُ عَلَيْهَا فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ ، كَنَفِيلٍ وَحْدَهُ  
بِشُقِّ الطَّرِيقِ ! وَبَدَأْتُ .

كَتَبْتُ مَا يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ صَفْحَةً عَلَى مَا خَيَّلْتُ ، أَيْ عَلَى غَرَرٍ وَبَلَايَةٍ  
مِنْ طَرِيقِي ، وَقَرَأْتُهَا أَنَا وَأَخِي فُؤَادٌ ، فَكَادَ يَأْخُذُهَا لِلنَّشْرِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ .  
وَلَكِنِّي اسْتَأْنَيْتُهُ حَتَّى أُعِيدَ النَّظْرَ فِيهَا مَرَّةً أُخْرَى ، لِأَنِّي كُنْتُ أَدَّخِرُ فِي  
نَفْسِي أَشْيَاءَ بَدَتْ لِي فِي شِعْرِ الرَّجُلِ ، لَمْ أَتُبْهَا فِي هَذِهِ الْوُرُقَاتِ هَيْبَةً وَخَوْفًا  
مِنَ الزَّلَلِ ، وَمِنْ اسْتِنْكَارِ النَّاسِ لَهَا لِأَنِّي أَنَا كَتَبْتُهَا بِمَجْرَدَةِ بَلَا دَلِيلٍ إِلَّا

دليل التدقيق . فأخذت الأوراق فقرأتها في خلوتي مرةً وأخرى ، فكرهتها  
أشدَّ الكراهة ، ومزقتها من فوزى . ولما أنبأت فؤاداً بما فعلت ، تبهم  
وجهه وتبينت في تبهمه أنه يقول لى : إني خذلقه خذلاً ناعاراً . وبكى  
قلبي بكاءً ، فقد أخرجته إخراجاً غليظاً ، لأنه كان قد أعلن في المتعطف عن  
قرب ظهور العدد الخاص بأبى الطيب ، فلم أفارقه حتى وعده بأبى عاقليل  
منجز ميمادى غير مخلّف ظنّه . وبدأت مرةً أخرى على عجل ، وضمنت  
الأوراق التى كتبها بعض ما كنت ادخرته وطوبقه فى المرة السالفة ، وذلك  
بعد قراءة رابعة للديوان ، ولمواضع متفرقة من تراجم أبى الطيب فى الكتب ،  
وفرغت ، وعرضت على فؤاد ما كتبت ، وكاد يأخذه كما فعل أوّل مرة ،  
ولكنى عدت فاستمهلته أياماً ، وبعد أخذ وردّ ، أعطانى الأوراق على  
حضض .

ودخل علينا رجلٌ عظيم القدر ، كنت أحبه ويحببني . كان يومئذ  
شيخاً فوق الستين ، كما يقول هو ، وكنت أتوهمه فوق السبعين . كان ذكياً  
العينين ، باسم الثغر ، وربما غشت على بسمقه كآبةٌ دفينّة لا تبوح إلا بهذه  
الفشاوة على بسمائه . كان قتي النفس يشغله دائماً ما يشغله من معارك النقد  
التي أثارها حول كتابه « معجم الحيوان » ، لا يملّ ذكر ما وقع بينه وبين  
الدكتور محمد بك شرف الطيب ، صاحب المعجم الطبى ، وأنتاس الكرملى  
للنفس ، وغيرها ، ويسرّد حججه فى تفنيد أقوالهم كأنه يتلوها عن ظهر قلب ،  
وهو الدكتور الطيب الفريق أمين باشا فهد الملوّف ، من رجالات أسرة  
الملوّف اللبنانية . وجلسنا طويلاً ، ثم خرجنا ممّا ، وكان مسكنه بمصر الجديدة



حيث أَسْكُن . وتجاذبنا الحديث ، فغلبته أنا عليه ، وحدثته عَنَّا أكتبه عن المتنبى ، وعن حيرتى نيا أكتب ، وعن الجرح الذى أحدثته فى قلب فؤادى بترددى مرة بعد مرة فى تسليم ما كتبتُهُ إليه لينشره ، ويُنِى للقراء باليعاد الذى حدّده لعدد المقتطف الخالص بأبى الطيب . وفى خلال الحديث ، ذكرت له رأياً لم أكتبه فى هذه الأوراق ، وهو أمر كنت أستشفه من تذوق شعر أبى الطيب ، حتى بلغ بى حدّ اليقين القاطع ، وهو أن المتنبى كان يحب « خولة » أخت سيف الدولة ، وفاجأتى الرجل مفاجأة غريبة جداً ، فقد أخذ برأسى وقبائى ، ثم أخذ يبدى ، وأبى أن يُفْلِتَها على طول الطريق ، حتى أذهبَ معه إلى بيته ، وكُنَّا قد بلغنا مصر الجديدة .

كان يقيم فى شُقَّة بسيطة لطيفة ، واستقبلتنا قَهْرمانَة بيته التى تقوم على تنديده : سيدة لطيفة رقيقة ، أصغر منه سنًا ، وهى أخته التى ترعاه وبرعاها ، وتركنى معها ، وذهب وآتى وفى يده نسخة من ديوان أبى الطيب ( بشرح اليازجى ) ، وفتح الكتاب ، وإذا على هوامش الجزء الثانى منه فوائد جليلة علقها على هوامشه ، أكثرها من كتاب « زبدة الحلب » من تاريخ حلب ، لابن المديم ، [ وكان لم يطبع بعد ] ، ثم قلب الصفحات حتى انتهى إلى قصيدة أبى الطيب فى كافور الإخشيدي ( فى ربيع الآخر سنة ٣٤٧ ) جوالى أولها :

فِرَاقٌ ، ومن فارقتُ غَيْرُ مَذْمُومٍ وَأُمٌّ ، ومن يَمَّتْ خَيْرُ مَيِّمٍ

وقرأ البيت الأول ، ثم قال لى : هذا دليل على أن أبا الطيب كان يحب

« خولة » أخت سيف الدولة ، فأنا أسبقُ منك في الوقوف على هذه الحقيقة . ثم قال لي وهو ماضٍ في قراءة الأبيات الثلاثة الأولى : خذْ ، يا محمود ، هذا هو الدليل القاطع ! اسمع : <sup>(١)</sup>

رحلتُ ، فكمّ بكِ بأجفانٍ شادِنِ على ، وكمّ بكِ بأجفانٍ ضيّقِـمِـرِ  
ومارَبَةُ القُرْطِ للمليح مَكَانُهُ بأجزَعِ من ربِّ الحُسامِ المُصمِّمِ  
فلو كانَ مابِى مِنْ حبيبٍ مُقنِّعِ عَذْرَتُ ، ولكن من حبيبٍ مُعَمِّمِ  
رَمَى ، واتَّقَى رَمِي ، ومن دُونِ ما اتَّقَى هَوَى كاسِرٍ كَفِّي ، وقومِي ، وأسْهُمِي

واستفاض هذا الرجلُ الكريمُ في حديثه عن أبي الطيب وخولة ، وهو يهتَزُّ اهتزازَ الأريحية ، معيداً لإنشاد الأبيات مرة بعد مرة . ثم أغلق الديوان وقال لي : خذْهُ ، وانتفع بما فيه من الهوامش المملقة ، وامض على بركة الله ! جزاءُ الله خيراً ، فليس بيدي أنا جزاؤُهُ ، إلّا هذا الذِكرُ ، وهو لا شيء في جانب ما استفدته من تعليقاته ، وما أحدث في نفسي التغيير بعد ذلك في كتابة ما كتبتُ عن أبي الطيب . وأى شيء أعظمُ أثرًا في النفس ، من أن تجدَ فجأةً رأياً يؤيدك في رأيٍ كنت تخافُ إبداءه والتبوح به ، وإنه اختلف طريقُهُما في الاستدلال والاستنباط !!

واستقرتْ نَفْسِي استقراراً كاذباً ، فحدثتُ أمين باشا عن الشعر

---

(١) سترى الحديث عن هذه القصيدة في ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦ من هذا السفر الأول ، فراجع .

الجاهلي، وعن طريق في توثيقه، وعَرَضَ ذكرُ امرئ القيس، فقام من  
 غوره عجلًا، وجاءني بكتاب قديم (أنسيتُ اسمه واسم مؤلفه)، على الصفحة  
 اليسرى منه نص الكتاب باليونانية، وعلى اليمنى التي تقابلها ترجمة ما فيها  
 بالإنجليزية، وأخرج لي الموضع الذي جاء فيه ذكر امرئ القيس وذكر  
 ذهابه إلى قيصر، وأن هذا يؤيد الرواية العربية في كتبنا. فقلت له :  
 يا سيدي الدكتور، إني بما في يدي من الكتب العربية أشدُّ ثقةً، حتى  
 لا أحتاج إلى مثل هذا الدليل الذي أثبتته هذا اليوناني ! فأصرَّ على أن  
 يعطيني الكتاب لأقرأه ثم أردّه إليهِ . وقد فعلتُ، وخرجتُ منه بأن  
 الذي عمدنا من الرواية العربية، لا يحتاج في توثيقه إلى مثل هذا النص،  
 ولكن .... ثم رددتُ إليه عاريته فيما بعد، جزاء الله، خيرًا، فقد كان  
 مُحبًّا للعرب والعربية، ومُحبًّا لعشيرته وللسانِ أسلافه، لم يفرِّقْهُ شيءٌ عما  
 يفرِّقُ الناس. أما نُسخته من ديوان أبي الطيّب، فهي لم تزل باقية عندي إلى  
 اليوم، وعليها تعليقاته، وزدت أنا عليها تعليقات بخطي، مما قرأته  
 فيما بعد .

\*\*\*

عُدْتُ إلى يثرب بعد هذا اللقاء الذي فجّرتُه المفاجأة، وبين جنبي نفسٌ  
 تتوجُّ كمونج البحر تلاطمت أعباجه . كنا في العشر الأوائل من شهر  
 رمضان سنة ١٣٥٤ ( أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٥ )، وجهدني المِرْاثَةُ  
 المتتابعة التي أخذتني أخذًا عنيقًا فلم تُفلِتني أيامًا متعاقبة، والذي لقيته

منها = مع جَهْد الصَّوْم ، وقلق النَّوْم ، وقلة الرَّاحَة ، وغوائل الحيرة =  
 كانَ غَرَامًا وعذابًا ، والمجبُّ أن عزيمة على الكتابة كانت تزدادُ قوَّةً  
 وشراسةً ومضاءً ، وأنا أرددُ في خلوتي بصوت مرتفع مرةً بعد مرةً ،  
 قول سعد بن ناشب المازني يصف نفسه ، وهي نفس «أخي غمرات» لا يباله  
 بما هو مقدم عليه :

إذا تمَّ لم تُردِّعْ عزيمةُ همِّه ، ولم يأت ما يأتي من الأمرِ هائبًا  
 إذا همَّ ألقى بين عينيه عزِّمُهُ ، ونكَّبَ عن ذكْرِ العواقبِ جانبًا

ومرَّ نحو أسبوعٍ وأنا لا أجدُ إلى هدوء نفسي مَنفذًا ، وأخذتُ ديوان  
 أبي الطَّيِّب مرة خامسة ، أقرؤه لا أتوقَّفُ ولا أملُّ ولا أهدأ ، وأنا في خلال  
 ذلك أراجعُ كلَّ ما في تراجم أبي الطَّيِّب وبعض كتب التاريخ والرجال  
 وغيرها ، تبعًا للخواطر التي تنشأ وأنا أقرأ الأبيات أو القصائد . وفي فجر  
 الثاني عشر من شهر رمضان صليتُ ، فلما جئتُ آوَيْ إلى فراشي ، طار النومُ  
 من عيني ، ومع طيرانه تبدَّد التَّغَامُّ الذي كان يلفني ، وذهب النَّعْبُ وما لقيتُ  
 من النَّصَب ، وتجلَّى لي طريقُ بَآنٍ لي كأنني سلكته من قبل مرَّاتٍ فأنا به  
 خبير ، وأخذتُ الأوراق التي كنتُ كتبتها واستمهلْتُ فؤادًا في مراجعتها ،  
 فزفَّتها وأنا على عجلةٍ من أمرى ، ونبذتها في صندوق القمامة ، وأعددتُ  
 أوراقٍ ، وجلستُ على مكتبي ، وأخذتُ قلمي ، وسميتُ بذكر الله ، وكتبْتُ  
 في جانب من الصحيفة الأبيات الثلاثة التي تراها في أوَّل هذا السفر [ ص ١٣ ] ،  
 والتي أولها :

أَنَا ابْنُ مَنْ يَفُوقُ أَبَا الْبَاحِثِ ، وَالنَّجَلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَةٌ

ومضيتُ اكتب ، كَأَنِّي أُسَطِّرُ مَا يُنَلِّي عَلَيَّ .... لا حيرة ، ولا  
بَحْثَ عَنْ أُسْلُوبٍ وَطَرِيقٍ ، وَلَا تَرَدُّدَ ، وَلَا هَيْبَةَ لشيءٍ ، وَلَا تَحْرِجَ مِنْ  
غَرَابَةِ مَا أَقُولُ وَمَا أَكْتُبُ . وفِرَغْتُ مِنَ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ الَّذِي تَرَاهُ هُنَا  
[ ص : ١٣ - ٣٦ ] ، وَأَصْبَحَ صَبَاحَ الْثَالِثِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأَخَذْتُ  
أَهْبَتِي ، وَفَارَقْتُ بَيْتِي ، وَقَطَعْتُ الطَّرِيقَ إِلَى دَارِ «الْمُتَطَفِّ» ، وَدَخَلْتُ  
عَلَى فَوَادٍ ، فَلَقِيَنِي كَالْمُتَجَهِّمِ ، فَسَلَّمْتُ وَلَمْ أَكَلِّهِ إِلَّا قَلِيلًا . فَنَظَرَ فِي هَذِهِ  
الْأَوْرَاقِ الْقَلَائِلِ الَّتِي لَا تَزِيدُ عَلَى عَشْرِ وَرَقَاتٍ !! ثُمَّ رَفَعَ إِلَى بَصَرِهِ وَازْدَادَ  
تَجَهُّمَهُ ، وَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقُلْتُ : ادْفَعْ بِهَا إِلَى الْمَطْبَعَةِ ! فَازْدَادَ تَجَهُّمَهُ ،  
وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ حَلِيمٌ جَمُّ الْأَنَاءِ ، فَسَكَتَ ، وَبَدَأَ يَقْرَأُ مَا كَتَبْتُ ، وَظَلَمْتُ  
أَرَاقِيهَ وَهُوَ مُسْتَفْرِقٌ ، وَجَهَامَتُهُ تَنْفُشُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَلَمْ يَكِدْ يَفْرُغْ حَتَّى  
أَشْرَقَ نُجْمُهَا إِشْرَاقًا ، وَتَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُهُ ، وَاسْتَنَارَ الَّذِي كَانَ يَبْنِي وَيَبْنِيهِ  
مُظْلَمًا ، وَأَخَذَنِي فَشَدَّ عَلَى يَدَيَّ . ثُمَّ التَفَتَ وَطَلَبَ عَمِيَّ عَمَّ «عَبْدَ الرَّزَاقِ»  
رَئِيسَ الْمَطْبَعَةِ ، وَجُمِعَتِ الصَّفْحَةُ الْأُولَى ، وَاخْتَرْنَا لَهَا صَوْرَتَهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا ،  
كَأَنَّهَا فِي أَوَّلِ فَصْلٍ . وَبَقِيتُ فِي دَارِ الْمُتَطَفِّ إِلَى قَبِيلِ الْمَغْرِبِ ، أَصَحَّحَ  
مَا يُجْمَعُ مِنَ الصَّفَحَاتِ ، وَدَارَتِ الْمَطْبَعَةُ ، وَهَكَذَا دَوَالِيكَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ،  
حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ الْأَخِيرُ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ . تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ ، وَظَهَرَ عَدَدُ الْمُتَطَفِّ  
فِي السَّادِسِ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ ١٣٥٤ ، (أَوَّلُ يَنَآيِرِ سَنَةِ ١٩٣٦ ) ، وَلَمْ يَكُنْ  
مِنْ نَصِيبِي أَنْ أُمْسِكَ بِيَدِي أَوَّلَ نَسْخَةٍ مِنْهُ ، لِأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ أَرَادَ أَنْ يَكْفَأَنِي ،

فجبل مكافأني على أثر الفراغ من الكتاب بالخطى التى ركبته فى أواخر أيامه بمصر ، فكانت تنشأ إذا أقبل الليل ، وتنصرف عنه إذا أقبل النهار بقرى ، وتركنى أقول لها يوماً بعد يوم كما قال هو لحماة :

أَبْنَتَ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ يَنْتِ ، فَكَيْفَ وَصَلْتَ أَنْتِ مِنَ الزَّحَامِ !!

° ° °

حين تبدد القمام الذى كان يُلْفَى ، تجلّت لىنى صورة واضحة كُلّ الوضوح ، كأتى أخذت كتاباً مسطوراً ، فقرأته كسلة بنظرة واحدة قبل أن يرتدّ إلى طرْفى . وهذه ليست مُبالغة ، ولكنها حقيقة مجردة ، ألفتها بعد ذلك وعرفتها مرّات ، وأظن أن كثيراً من السكّاب غيرى قد ألفتها مرّات كما ألفتها . وقبل كُلّ شىء ، فاعلم أنى إنما أقصُ هنا قصة هذا الكتاب كما كانت ، وأسجل تجربتى الأولى فى تأليف كتاب ، ملتزماً بالصدق ، متجنّباً للمبالغة رغبة فى حُسْنِ التصوير .

حين قرأتُ ديوان أبى الطيب مرّات ، وحين قرأتُ تراجه التى بين يدى ، وما تجمّع عندى من أخباره وأخبار عصره وأخبار من لديهم أو حدّهم من الناس = كانت خلاصة ما انتهيتُ إليه أمران :

الأول : أنى إذا قرأتُ تراجه وأخباره وما كتّبه عنه ، رأيتُ رجلاً عاش حياة غامضة مضطربة متناقضة لا استواء فيها ، يصر فهنّها على وجه صحيح .

والثانى : ثم لئن إذا قرأت شعره جملة واحدة ، متذوقاً لكنى أرى صورة حياته التى يدل عليها شعره ، رأيت صورة أخرى لرجل آخر ، حرك وجدانه فيها واضحة كلّ الوضوح ، ولكن صورة حياته هو غامضة كلّ الغموض .

والذلك ، فقد كنت ملقوفاً فى قتار مغبر ، لا أسير خطوة حتى أدخل فى قتار أشدّ غبرة . فلما تبدد عني فجأة هذا القتار ، كان عمود الصورة واضحة كلّ الوضوح . إلا أن عمود هذه الصورة لم ترسمه تراجم المتنبي وأخباره الكثيرة ، بل رسمها وحدها تذوق شعره ، واستنباط معانيه ، ودلالته على شخصية أبى الطيب ، فكانت هى المهمة على أخباره الكثيرة ، تزيّف منها ما تزيّف ، وتصحّح منها ما يصحّ ، ونجّلوها جلاء جديداً يجعلها قادرة على أن تجعل حياته واضحة جليّة مستوية . وبذلك صار ما صحّ من هذه الأخبار بعدئذ ، قادراً هو أيضاً على أن يجعل حركة وجدانه فى شعره أشدّ ظهوراً ، ويجعل صورة حياته التى يدل عليها تذوق شعره أدنى إلى الوضوح وأبعد من الغموض ، وأقدر على الالتصام بصورة الحياة التى يدل عليها ما صحّ من هذه الأخبار . فكذلك كان هذا الكتاب الذى بين يديك ، هو الصورة الحية لأبى الطيب ، كما رأيته وعاشتها ، وشقيت أنا بها ، وشقيت هى بي أيضاً ، فيا أظن !

• • •

## عمود صورة المتنبي

وإذا كان ذلك كذلك ، فينبغي إذن أن أبين « عمود الصورة » الذي بُني عليه هذا الكتاب ، كيف جاء وكيف تم . فهذا هو « عمود الصورة » .  
التي يتخلق من حوله تخطيطها ومعارفها وقسماتها ، والذي تكمن فيه شخصية أبي الطيب منذ مولده بالكوفة ، ثم تنمو سنة بعد سنة على مرّ الأيام والأحداث ، فتفصح هي عنه ويفصح هو عنها ، بعد أن صار شاهراً تراه يندو بها ويروح حتى يفارق الحياة .

١ - غلامٌ « علويٌّ » النسب ، يولد بالكوفة سنة ٣٠٣ ، ويقيم بها حتى يصير فتى ، إلى أواخر سنة ٣٢٠ . [ انظر من ص ١٣ - ٧٦ ]

٢ - خرج إلى الشام ، وفي باديتها أظهر أنه « علويٌّ النسب » ، فقبض عليه وسُجن ، وأقام بالسجن في أواخر سنة ٣٢١ ، إلى سنة ٣٢٣ .  
وهذا معناه : إبطال « النبوة » التي زعموها في الأخبار .  
[ انظر من ص ٧٧ - ١١٦ ]

٣ - خروجه من من السجن ورحلته بعد ذلك في الشام منذ سنة ٣٢٣ ، وعودته إلى الكوفة سنة ٣٢٥ ، ورجوعه إلى الشام مرة أخرى .  
في سنة ٣٢٦ ، حتى سنة ٣٣٦ .<sup>(١)</sup> [ انظر من ص ١١٧ - ١٨٠ ]

---

(١) لم تكن تعرف يومئذ أن أبا الطيب رحل من الشام إلى مصر في سنة ٢٣٠ ، فهذا خير جديد جدا ، أوقفنا عليه ابن العديم ، والمفرزي كما في السفر الثاني في تراجمه ٢ : ٢٤٩ رقم : ٤ ، ٢٩٥ ، رقم : ٦٦ / ٣٥٠ ، رقم : ١٧ .



٤ — أول لقاءه بأبي العشائر الحمداني ، ثم لقاءه سيف الدولة ، من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ . [ انظر من س ١٨١ - ٢٢٣ ]

٥ — حبُّ « خولة » أخت سيف الدولة ، ثم فراقه سيف الدولة إلى مصر من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٤ ، وكانت فيها وفاته . [ انظر من س ٢٢٥ - ٢٥٠ ]

٦ — مجيئه إلى مصر ، وبقاؤه عند كافور الإخشيدي ، ثم فراره من مصر ، ورجعته إلى الكوفة ، ثم إلى فارس عند ابن العميد وعضد الدولة ، ثم مقتله = من جهادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، وخروجه من مصر يوم عرفة ( ٩ من ذى الحجة ) سنة ٣٥٠ ، ثم دخوله الكوفة سنة ٣٥١ ، ثم سائر رحلته إلى يوم مقتله بالمراق عائداً من فارس في ٢٧ من شهر رمضان سنة ٣٥٤ . [ انظر من س ٢٥١ - ٢٨٩ ]

٧ — شخصية أبي الطيب : منذ كان بالكوفة طفلاً ، ثم صبياً ، ثم فتى يعرف طرفاً من أنه علويُّ النسب ، ولكنه مرغمٌ على كتمان هذا النسب . ثم ثورة نفسه واضطرامها في هذه المدة ، ثم يفارق الكوفة إلى الشام ، فينفس عن ثورته بإظهار علويته . فيقبض عليه العلويون ويحبسونه ، فيأس من أمر علويته ، فتقلب هذه الثورة إلى ثورةٍ عربيّةٍ نائزٍ لعمريته على حكم الأعاجم الذين يسيطرون على دولة الخلافة كلّها ، فيظل بقية حياته إلى أن يموت ، تحركه هذه الثورة لعمريته ، فأفصحته هذه الثورة

من نفسها ، وأفصحَ هو عنها في أبيات كثيرة من شعره ،  
وأفصحَتْ هي عن نفسها بأساليب مختلفة : في تركه مدح  
كثير من رجال زمانه ، بمن التف حولهم غيره من الشعراء ،  
كالخلفاء في زمانه [ انظر حناص : ٩٨ ] = أو في حركة  
وجدانه التي يحدِّدها تذوق شعره على مدى أربعين سنة ، من  
سنة ٣١٤ ، إلى مقتله سنة ٣٥٤ : تحبو حيناً إذا لم يكن له في الذي  
يمدحه رجاء يرضى هذه الثورة العزبية الكامنة في نفسه ،  
وتتألق حيناً آخر تألقاً ظاهراً حين يكون له في بمدوحه رجاء  
يمرِّك هذه الثورة أو يُدنى من بلوغ آماله فيها . هذا جانب  
من شخصية أبي الطيب الذي أظهره تذوق الشعر وبعض  
الأخبار .

٨ — أمّا الجانب الآخر من هذه الشخصية ، وهي المواطن التي لا يخلو  
منها بشر ، حبُّ الأب والأمِّ والجدَّة ، وحبُّ الزوجة ، وحبُّ  
الولَد والعيال ، وحبُّ امرأة بعينها يفلبُ حبُّ هؤلاء جميعاً  
ويتفرَّدُ بسلطانه على النَّفس = فقد استعلن حب الوالدين في  
حبِّه لجدته كما استظهرته بتذوق الشعر وبعض الأخبار في مواضع  
متفرقة من الكتاب = واستعلن حب الزوجة والولَد والعيال ،  
كما تذوقته من شعره [ انظر ص : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ] = واستعلن حب  
المرأة في حديثي عن « خولة » أخت سيف الهولة ، كما تذوقته  
في مواضع متفرقة من شعره ، وإن لم يكن في أيدينا عنه خبرٌ البته .

\* \* \*

## الفقرة الأولى والثانية

أما الفقرة الأولى من «عمود الصورة» ، والتي تتضمنُ القول بأن أبا الطيب «علوى» النسب ، والفقرة الثانية التي تتضمنُ القول بإبطال دعوى «النبوة» وأن «المتنبى» لقبٌ لاغير ،<sup>(١)</sup> فهما متداخلتان . والقول بأن «المتنبى» علوى النسب ، قولٌ لم يسبقنى إليه أحدٌ من القدماء ولا المحدثين ، ولا جاء به خبرٌ يدلُّ عليه ، أو يعينُ على افتراض هذا الفرض من قريب أو بعيد . فكيف جاء إذن ، وكيف صار جزءاً من «عمود الصورة» ، لا ، بل هو الصورة كلها ، فإذا قُدمت بطلت ففكار «عمود الصورة» جميعاً بطلانا كاملاً ؟

في خلال تذوقى شعر أبى الطيب ، فى القراءة والأولى والثانية والثالثة ، استرعى انتباهى أمرٌ غريبٌ جداً ، لم أجدُ له تفسيراً قطُّ فى أخبار أبى الطيب . وأبو الطيب كوفى ، والكوفة يومئذ دارٌّ من ديار العلويين يكثرُون بها ، فلم يكن غريباً ولا عجبياً أن تكون القصيدة الأولى فى الديوان ( وعدد أبياتها : ٣١ بيتاً ) = هى الأولى ، لأن قبلها مقطوعتان ، أولهما ثلاثة أبيات ، والأخرى بيتان . وقد نصَّ الديوان على أنها مما قال فى صباه = قالها يمدحُ بها رجلاً «علوياً» هو «محمد بن عبيد الله العلوى» ، قالها فيما استظهرت سنة ٣١٨ : قبل خروجه من الكوفة ، [انظر هذا : ٢٧ تعليق :

(١) انظر المرفع الثانى فى ترجمته لابن المديم ، ورقم : ٩ ، ص : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، حيث روى خبراً عن المتنبى نفسه ، فى سبب تكتيه بالمتنبى ، وهو خبر جديد لم يقع فى أيدي الناس من قبل .

١ ، ٢ ] ، وبتذوقها رأيت أنه من لذات أبي الطيب ، وأنه كان يحبّه ويحفظه ويحفظ له ما أسدى إليه من معروف أو صنعة . لم يشغلني ذلك كثيراً ، فلما انتهيتُ في تذوقى إلى ما قاله في سنة ٣٣٦ ، حين قدِمَ على ابن طنج بالرملة ، فقال له : إني لفظتُ الناس لما بلفتك ، لفظَ المسافر سُؤاله زاده ، إذا نَزَلَ أرضاً كثيرة الخير موفورته :

وفارقتُ شرَّ الأرضِ أهلاً وربةً بها « علوى » جدّه غير هاشم .  
أى أنه دعى من الأدعياء لعلوى ، فاستوقفتنى ذمُّ هذا « العلوى » ذمّاً صادراً من نفس جريئة ، ثم لم أكد أمضى في قراءة المقطوعات بعد هذه القصيدة ، حتى رأيت شراح ديوانه يذكرون أن ابن طنج ظلَّ يحاور أبا الطيب ويداوره ويرجوه مرة بعد مرة أن يقول قصيدة يمدح بها صاحبه : « أبا القاسم طاهر بن الحسن العلوى » ، فبعد لآي ما استجاب له أبو الطيب ، وقال يمدح هذا « العلوى » ، ولكنه يذكّر في هذا الممدح ذمّاً قبيحاً ذمَّ به ذاك « العلوى » ويفسر سبب ذمّه ، فيقول قبل أن يدخل في المدح :

أتأتاني وعيدُ الأدعياء وأنهم أعدوا إلى السودان في كفر عاقب .  
ولو صدقوا في جدِّهم لَحَذِرْتُهُمْ فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذب ؟  
فليس إذن ، « علويّاً » واحداً ، بل « علويون » ، أرسدوا له فتیاناً شداذاً سوداً ليقفلوه عند مروره بكفر عاقب ، في طريقه إلى ابن طنج ، ثم أبيات أخرى كثيرة [ انظر هذا : ٢٨ - ٣٣ ] ، فوجدتُ ههنا شيئاً حناصماً للذى وقرّ في نفسي منذ أوّل الديوان . ثم انطلقتُ حتى فرغتُ

عن تذوق الديوان ، ولم أر للملويين بعد ذلك ذكرًا صريحًا في شعره .

فلما عازمت على جمع أخبار أبي الطيب وقراءتها كما قلت آنفًا ،  
[س : ٥٤ ، ٥٥] ، وأخذتُ رسالة أستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ،  
[انظر ما سلف س : ٥٠ ، تعليق ١] ، وهى « زيادات ديوان شعر المتنبى »  
دلّنى على ترجمة لأبى الطيب فى خزنة الأدب للبندادى [١ : ٣٨٧ وما بعدها] ،  
فاستوقفتنى قول الأصفهاني الذى قال فى ترجمة أبى الطيب : « إن مولد المتنبى  
كان بالكوفة ، فى تحفة تعرف بكنة ... واختلف إلى كُتّاب فيه أولاد  
أشراف الكوفة ، فكان يعلم دروس الملوية لغة وشعرًا وإعرابًا » <sup>(١)</sup>

فأعقب هذا الخبر ما كان خافيًا فى نفسى من أمر الملاحظتين السابقتين  
وتناقضهما . ووجدته أمرًا ملحًا أن أطلب فى تراجم أبى الطيب ، وفيما قدّم  
به لبعض قصائده ، ما يكون من ذكر الملويين ، أو للكوفة . وفى هذا  
الطلب وجدتُ بعض الروايات التى تحدّثنا عن أبى الطيب ، وعن نشأته ،  
وعن أبيه « عيذان السماء » ، وعن « نبوته » يُروى عن رجال  
من الملويين والهاشميين . ووجدتُ أيضًا أن الذى قبض عليه وسجنه  
علوى أو هاشمى ، وأشياء أخرى متنوّعة . فساورتنى الرّيب ، وانتمست  
تفسيرًا لهذا كلّ . ثم وجدتُ فوق ذلك أن بعض الذى يروى هذه الأخبار  
عن الملويين ، كان علوى الهوى أيضًا ، ومضيتُ أستقصى وأقلّ ، وأتذوق  
الأخبار ، وأتذوق الشعر مرة بعد مرة ، لعلّ أجد شيئًا يهدينى إلى علاقة  
هذا الكوفى الشاعر ، بالملويين الذين كانت ديارهم هى الكوفة مسقط  
رأسه ، وفيها منشؤه إلى أن جاوز السابعة عشرة .

(١) انظر تصحيح نس هذا الخبر فيما يلى من كتابنا ١ : ٤١ ، تعليق ١ :

وبعد تردّد طويل وحيرة ، بين دلالة تذوق الأخبار ، ودلالة تذوقه الشعر ، لم أجد مناصاً من أن أفرضَ فرضاً يزولُ به هذا الغموض الذي يكثف حياة هذا الشاعر ، ويرفع اللثامَ عن مكنون شعره الذي دلّني عليه التذوق . وأخذتُ هذا الفرض ، وعرضتُ عليه شعر أبي الطيّب كلّ متذوّقاً متأنّياً ، فلأن لي عصيّه واستقام مُعوّجّه ، وأسفر كلُّ ما كان عليه نقابٌ وحجابٌ ، وتحرك كلُّ ما تذوّقته من شعره ، وتحركت معه أخباره . فعندئذٍ بلغتُ حدّ القطع بأن أبا الطيّب « علويّ » النسب فرضاً يشبه الحقيقة إلا والفضلُ في ذلك كلّهُ غلب الأصفهاني الذي ذكر فيه « أولاد أشرافه الكوفة » . وقد قام « عمود الصورة » كلّها ، كما رأيت ، على هذا الذي ادّعيته ، وليس في يدي شيءٌ غير لفظ الأصفهانيّ ، ثم دلالات شعر أبي الطيّب . وكذلك أعلمتُ هذا الفرض الجريء الذي لاسبق له عند أحدٍ من كتّاب عن أبي الطيّب ، وجعلته محورَ حياته كلّها إلى أن قُتل ، فكنتُ أول من شكّ في نسب أبي الطيّب الذي رواه الرواة ، ولكنّي لم أقف عند الشكّ المجرّد ، كما ذهب إليه من قلّني ، <sup>(١)</sup> بل أبنتُ عن علّة الشكّ ، لأثبت مكانته حقيقة أخرى ، دلّني عليها شعره ومواقفه في حياته كلّها ، مما كان له ارتباطٌ وثيقٌ بعلّة الشكّ .

وظهر كتابي بعد ذلك ، واستنكر عليّ كثيرٌ من الناس ما قلتُ ، حقّه أسفاذى الرافض ، فإنه تردّد في قبوله ، ولكنّه لم يستطع أن يجدَ حُجّة تردّد قولي ، كما أخبرني بذلك ، بعد أن كتب كلمته عنه في الر . . . انظر السفر

(١) هو الدكتور طه حسين ، كما مرّ في السفر الثاني .

الثاني : ٢٤٤ ] ، وقال لي : إني لم أستطع أن أذكر « علوية » أبي الطيب  
 صراحةً ، وقنعتُ بأن أقول إن روح أبي الطيب كانت تلازم الكاتب :  
 « تدلُّ في تفكيره ، وتوحى إليه في استنباطه ... وتبصرُه أشياء كانت  
 خافيةً وكان الصديق فيها ، ليردَّ بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها  
 الكذب » ، وقال : أليس هذا كافياً ؟ هذه موافقةٌ على رأيك ، وفيها توثيقٌ  
 متلفعٌ بالحدِّ والليت الرافعي لم يحذر !

فقد مضت الأعوام من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥٨ ، وقد نسيت المتنبي  
 وأملتُ كلَّ ما كتبته عنه ، وذات يوم دخل على يَهْلَلُ وجهه ، وتبرَّأ  
 أسارى ، صديقي وتلميذي ، وأستاذي فيما بعد ، الأستاذ أحمد راتب النفاخ ،  
 وهو اليوم عضو جمع اللغة العربية بدمشق ، ومدَّ إليَّ يده بورقات مكتوبة  
 بخطه ( ١٣ ورقة ) ، نقلها عن ظهر نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب  
 المصرية من كتاب « الإبانة عن سرقات المتنبي » ، لأبي سمد محمد بن أحمد  
 التميمي ( توفي سنة ٨٤٣٣ هـ ) ، ونقلها ناسخ النسخة من تاريخ دمشق لابن  
 عساكر ( ٤٩٩ - ٥٧١ هـ ) وقال في أولها : « هذه نبذة من أخبار أبي  
 الطيب المتنبي رحمه الله تعالى ، بما أورده ابن عساكر في ترجمته » ، وبحرود  
 وجود ترجمة المتنبي منقولة عن تاريخ دمشق لابن عساكر ، كنز لا يقدر ،  
 لأن تراجم الأحمدين ( أي من بسمي أحمد ) ، مفقودة من جميع مخطوطات  
 تاريخ دمشق ، وقد نشرتها في السفر الثاني من كتابي هذا [ السفر الثاني :  
 ٣١١ - ٣٣٨ ] .

أما المفاجأة التي ملأت نفس أخى بشراً ، وأثارت أساريره بشاشة هـ  
والتي هزنتي فأيقظت مامات بالإمال من أمر المتنبي ، فهو ما نقله ابن عساكر  
عن أبي الحسن الربيعي صاحب أبي الطيب فقال :

« الذي أعرفه من نسب المتنبي أنه : أحمد بن الحسين بن

« مرة بن عبد الجبار الجعفي ، وكان مولده بالكوفة سنة

ثلاث وثلثمائة ، وأرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله »

[ السفر الثاني : ٣١٣ ، ٣١٤ ، رقم : ٣ ]

وكانت مفاجأة مذهلة ! ومضت أعوام بعد ذلك ، وفي سنة ١٩٦٢ ،  
حيثما أذكر ، تلتيت أيضاً من أخى الكريم أحمد أوراقاً مصورة من كتاب  
ابن العديم ( ٥٥٨ - ٦٦٠ هـ ) « بنية الطلب » من نسخة بخط ابن العديم  
نفسه ، محفوظة بمكتبة أحمد الثالث بالتسطينية ، وهي من الجزء الأول ،  
مؤلفها ترجمة أبي الطيب ( من الورقة ٢٥ إلى الورقة ٥٢ ، إلا الورقة رقم ٤٤ ،  
خفي بياض بالأصل ، أي اثنتان وخمسون صفحة ) ، وهي أطول ما عندنا من  
تراجم أبي الطيب ، وقد نشرتها في السفر الثاني من ص : ٢٤٧ إلى ٣٠٩ :

فكانت لي في هذه الأوراق مفاجأة أخرى ، بل مفاجآت أخرى كثيرة ،  
لأنها تتضمن ، قبل كل شيء ، توثيق ما جاء في ترجمة ابن عساكر للسطورة  
على ظهر كتابه ، توثيقاً يرفع كل ريبه ! قال ابن العديم :

« أخبرني صديقنا أبو القاسم ياقوت بن عبد الله الرومي ، مولى



« الحوى البندادى قال : رأيت ديوان أبى الطيب المتنبي  
 « بخط أبى الحسن على بن عيسى الربعى ، قال فى أوله :  
 « الذى أعرفه عن أبى الطيب أنه : أحمد بن الحسين بن  
 « مروة بن عبد الجبار الجعفي ، وكان يكتم نسبه ، وسألته عن  
 « سبب طيبه فقال . . . وهذا الذى صح عندي من نسبه ،  
 « قال : واجتزت أنا وأبو الحسن محمد بن عبيد الله  
 « السلاوى الشاعر ، على الجسر ببغداد ، وعليه من جملة  
 « السؤال رجل مكفوف . فقال لى السلاوى : هذا المكفوف  
 « أخو المتنبي<sup>(١)</sup> فدنوت منه فسألته عن ذلك فصدقته ،  
 « وانتسب هذا النسب وقال : « ومن هنا انقطع نسبنا » .  
 « وكان مولده بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمئة ، وأرضته  
 « امرأة « علوية » من آل عبيد الله » . [ الفر الثاني :

[ ٢٥١ ، ٢٥٢ ، وانحصرت موضع النقط ]

ولم اذن فالفرض الذى افترضته ، والذى استثاره خير لا يعين ظاهراً  
 لفظه ، إذا انفرد ، على مثل هذا الفرض ولا يوجه إليه ، وهو قول الأصفهاني :  
 « واختلف [ يعنى أبا الطيب ] إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة :  
 « لم يكن جزافاً محضاً ، كما قال لى يومئذ مواجهاً ، أحد الأساتذة الذين .

(١) أخو الطيب لم يذكره أحد من مترجي الطيب ، لا قديماً ولا حديثاً بلا شك ،  
 غيبته مفاجأة أخرى .

كتب بعدى كتاباً عن التنبؤ صدر بعد كتابي بأشهر ، وعارضني في كتابه متجاهلاً لما كتبت ، فلم يذكرني إلا مرة واحدة فقال عني : « كاتبه للقطف » .<sup>(١)</sup> لم يكن جزافاً ، بل كان دليلاً على أن منهجي الذي اتبعته منذ قضية الشعر الجاهلي ، في قراءة الشعر وتذوقه ، وجعله مهماً على الأخبار ، كما قلت آنفاً = كان منهجاً مستقيماً ، لا في دراسة الشعر فحسب ، بل في نقد الأخبار أيضاً ، وإدراك دلالتها على فساد تية رواتها أو سلامة هذه التية ، كما تراه مفصلاً في كتابي هذا .

أما هذا النص المفاجيء ، فهو صريح الدلالة على عُنق علائق أبي الطيب بالمويين منذ كان رضيعاً بين حرائر نسائهم اللواتي أرضعنه ، وأرضعته إحداهن ، إلى أن نشأ وتعلم في كتاب فيه أولاد المويين الأشراف ، إلى أن صار فتى في الخامسة عشرة ، يمدحُ علويًا ، من آل عبيد الله أيضاً ، كما رأيت . هذا النص هو الذي نصّر فرضي نصراً مؤزراً ، وألحته بالحقيقة المقررة ، كما توقع الأستاذ فؤاد صروف في مقدمته .

ولإذن ، فالتنبؤ ، الذي وُلد بالكوفة ، دار المويين ، واختلف إلى كُتّاب فيه أولاد أشرافها المويين ، لا يمكن « علوي » النسب من أنفسهم . صليبة ، فهو « علوي » ، رضاعاً ، أي هو أخوم من الرضاع ، والرضاع لُحمة كَلِمة النسب ، ولذلك حرّم الله به ما يحرم النسب . وكذلك يكونُ

(١) هو الأستاذ عبد الوهاب عزام ، صاحب كتاب : « ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام » .

بعد ذلك عجباً من العجب : أن يكون أولُ شعره ، وهو في الخامسة عشرة  
من عمره منبثاً عن حُبِّ ظاهر لِرَبِّه « محمد بن عبيد الله العلوي » ولعلوين  
سجياً ، فهو :

خيرُ قريش أباً وأمجدها ، أكثرُها نائلاً وأجودها  
تاجُ لؤيٍّ بن غالب ، وبه سما له فرعُه وتحتسدها  
قد أجمعت هذه الخليقة لي ، أنك ، يا ابن النبي ، أوحدها  
وأنتك ، بالأمس كنت محتملاً ، شيخُ معدٍ وأنت أمردها<sup>(١)</sup>

= ثم تدلُّنا الأخبارُ بعد ذلك عن تَمَنُّعه وتحرُّجه من مدح علويٍّ آخر  
في سنة ٣٣٩ هـ ، بل في إصراره على أن يعرض ببعض العلوين الذين أرادوا  
تَقْلعه بكفر عاقب ، ويسمِّيهم « الأديعاء » ، ثم يرى بهذا كله في وجه العلويِّ  
الذي اضطرَّه ابن طنجير إلى مدحه ، كما أسلفت . لا ، ليس هذا فحسب ، فإن  
المتنبي يومئذ لم يبلغ من الشهرة مبلغاً ( سنة ٣٣٩ ) ، ومع ذلك فإن هذا  
الشریف العلويَّ يتلقاه بعد تَمَنُّعه ، فيقوم له عن مجلسه أمام الناس ، ويُجلِّسه  
ويجلس هو بين يديه يسمع هذا الشعر ، حتى عجب الناس بما فعل من فعلٍ

(١) هو اختيار من أبيات التصيدة جعلته متتابعاً . وقوله « وأنتك » مخففة التون من  
« أنتك » المتدعة ، وضبطت أنا « شيخ » بالضم ، على خلاف ما هو مضبوط في جميع دواوينه ، على  
أنه خبر « أن » كأنه قال : وأنتك شيخُ معدٍ وأنت أمردها ، وبالأمس كنت محتملاً = على  
التعجب المتعزِّض بين « أن » وخبرها . وانظرا ما قالوه في إعراب « شيخ » على أنه  
خبر « كنت » ، وأن « محتملاً » حال من كنت ، وما في ذلك من التوجيه في شروح الديوان .

غير معهود، ثم يجزّل له العطاء، ويقولُ أحدُ شهود هذا المجلس: « مارأيتُ ولا سمعتُ أن شاعراً جلس المدح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيّب؟ » هذا كلّهُ عجبٌ يستخرجُ دهشة المتأمل.

= لا، بل إن ابن البديع نفسه، أيّدني في نقد الخبر رقم: ٩٧ [ السفر الثاني: ٢٩٥، ٢٩٦ ]، فقال: « وسنذكر في ترجمة طاهر بن الحسن بن طاهر، حكاية عن الخالدين، (قلت: كانا صاحبين للقتبي، وهو مع سيف الدولة)، تدل على أن للقتبي كان مخالفاً للشيعه »، فهذا تأييدٌ أكبرُ له استظهرته من عداوته لهم.

= لا، بل إنه يروى أيضاً في الخبر رقم: ٥٠ [ السفر الثاني: ٢٨٢، ٢٨٣ ] حديثاً جرى بين للقتبي، وبين بعض أشراف الكوفة، رواه الإمام أبو الحسن علي بن محمد النصيحي (٥٠٠-٥١٦هـ) فقال: « قدم بعض الأشراف من الكوفة، فدخل إلى مجلس فيه للقتبي، فنهض الناس كلهم سوى للقتبي، فجعل كلُّ واحدٍ من الحاضرين يسأله عن الأحوال بالكوفة وما تبدّد هناك، فقال للقتبي: يا شريف، كيف خَلَّتْ الأسعار بالكوفة؟ فقال: كلّ راوية يرطلين خُبْرًا فأخجله، وقصد الشريف أن يعرض بأن أباه كان سقاءً ».

فهو، كما ترى، لم يقم للشريف الكوفة وقد قام أهل المجلس، ولم يغير ما يوجبهُ أدب المجالس، وهذا دليلٌ على ازدراء طافح، وشقآن مضطرم.

في أغوار النفس . ولو سكت للتغني فلم يسأله كما سأله سائر أهل المجلس ،  
 لكان ترك القيام كافياً في إظهار ما في نفسه لهذا الشريف الكوفي ، وفي  
 إبدائه علانية ، ولكنه أراد أن يشفي غليل ازدرائه وشقائه ، بالهزء به  
 والسخرية مواجهة وكفاحاً ، فابتدر مع ذلك أيضاً يسأله كما سأله أهل المجلس ،  
 وترك السؤال عن أخبار مستط رأسه التي تجددت منذ فارقه قديماً ، وسأله  
 عن أسواق الكوفة وأسعار البيع والشراء فيها ، استهزاء به ، وإزالة له من  
 منزلة « الأشراف العلويين » إلى منزلة سمسرة الأسواق وتجارها !! وكان  
 في هذا الخبر أيضاً الدليل البين على أن مصدر القول بأن أبا التغني كان  
 « سقاء » يبيع الماء بالكوفة ، ثم هؤلاء العلويون أيضاً ، كما بينت ذلك في  
 كتابي هذا [ ١ : ١٤ - ٢٦ ] ، وذلك بين في جواب الشريف العلوي  
 الذي أجابه به .

وهذه كلها أدلة متظاهرة جاءت من وراء الغيب ، لكي تدلني على أن  
 منهجي في « التذوق » يفضي إلى كشف الحجب عما طمره غبار السنين ،  
 وما يستقره تكذيب الرواة ذوي الأهواء = وأنني كنت ، بقوفي الله ، مصيباً  
 في قرأتي « علوية » أبي الطيب ، مستهدياً بهذا التذوق = وأنني حين أعمات  
 هذا الفرض وحكمته في نقد أخبار نبوته [ هذا النزاع من : ٧٧ - ٩٢ ] ، وانتهيت  
 إلى رفض « النبوة » رفضاً باتاً بلا مشنوية ( أي بلا استثناء ) ، كنت  
 موثقاً بحول الله وقوته ، ولم أكن جاثراً عن الحق ، حين عددتها بما افتعل  
 افتصلاً ، وأقبح في خلال الأخبار التي ذكر فيها أنه ادعى « العلوية »

إقحاماً خبيثاً ، لستر الحقيقة التي تضمنتها هذه الأخبار ، وذلك كالخبر الذي يقول إن المتنبى : « ادعى أنه علوي » ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعي أنه علوي » ، <sup>(١)</sup> وسياقه يدل على أنه أدخل في باب « الحال الكذب » ، من المثل الذي ضربه سيبويه حيث قال : « وأما الحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس » [ انظر نقده في هذا السفر ١ : ٨٥ - ٨٧ ] .

ولما صار الأمر بيننا يومئذ عتدي ، أتممت القول في الفقرة الثانية من « عود الصورة » [ هذا ص : ١٢ - ١١٦ ] ، وهو سياق مهم جداً ، لأنني ضمنتُه أظهر عُنصر في شخصية أبي الطيب ، كما وصفته في الفقرة السابعة [ انظر ما سلف ص : ٦٧ ، ٦٨ ] ، حين تحوّل من « علوي مطالبٍ بنسبه » إلى « عربيٍّ ثائرٍ لأُمته » .

وأختم قولي هنا بشيء لا يسودني ، ولكنني أعيبه على كثير من يكتب عن المتنبى ، حين يذكر أمر « العلوية » فيما يكتب ، كأنها مسألة مقررة متفق عليها في الذي تلقيناهُ عن رواية أخبار المتنبى من القدماء ! فإذا بدا لأحدهم أن يذكر مرجعاً ، لم يذكر إلا مرجعاً نقل عني هذا الرأي واستخدمه فيما يكتب !! وأنا لا أبالي بهذا الإغفال ، لأن الإغفال لا يقدح في عني ،

---

(١) ناقش الأستاذ عبد الوهاب عزام في كتابه عن المتنبى أخبار هذه النبوة ، فصار يتابع خطورة خطوة ، دون أن يشير إلى كتابي ! ولم يستكف ، حين ناقش هذا الخبر ، أن يأخذ عني لفظ « الإقحام » حيث قال : « فدعوى النبوة فيه مسبوقة وملحوظة بدعوى العلوية ، حكايتها مقحمة في الرواية » ، وعلى أنها عبارة سيئة ، فهي فعل سيء أيضاً !! وانظر هذا [ السفر ص : ٨٧ ، ص : ٧ ، ثم ص : ٩٢ ، ص : ٦٠ ] .

ولمّا تقدّم فيهم هم أنفسهم ولكن ، هكذا زماننا وأهل ، كما وصفته ،  
ووصفتهم في أوائل هذه القصة .

\*\*\*

### ( ٣ ، ٤ ، ٧ ) الفقرة الثالثة والرابعة والسابعة

كانت « علوية » أبي الطيّب فرضاً فرضته ، واستدلّت عليه بأدلة بينتها  
في كتابي ، ثم أصبحت الآن ، بحمد الله ، أشبه بالحقيقة كما رأيت آنفاً . وكان  
التناقض ظاهراً بين شخصيته التي يُكوّنها تذوق شعره ، وبين شخصيته  
التي يدلّ عليها تذوق أخباره ، فصار الفرض الذي فرضته قادراً على إزالة  
هذا التناقض ، وعلى كشف بعض الغموض الذي يحيط ببعض شعره وببعض  
أخباره . وكان من أخباره التي حيرتني أن أبا الطيّب كان « يكمّنُ نسبه  
ويطويه عن الناس » ، وكانت هذه حقيقة يدلّ عليها تذوق شعره دلالة بيّنة ،  
جل أكثر من ذلك : أن الشعر والأخبار جميعاً يدلّان على أنه كان يُسألُ  
عن نسبه . أما شعره ، فيجيب سائله بالازدراء والازورار والتعالي والثقة ،  
وأن فخره بنفسه لا يحدوده ، وإن كانوا هم فخر العرب جميعاً ، وأشبه ذلك  
في مواضع متفرقة من شعره صغيراً وكبيراً . وأما أخباره ، فالسائلون عن  
نسبه يزعم كلٌّ منهم أنه أجابه بجواب عن علة كتمان نسبه ، وهي أجوبة  
حقيقية غير مقنعة ، كما تراها في أخباره ، ولكنها تحمل أيضاً معنى الذلّ

والاستخذاء والحيرة ، وهو تناقض مُريب . هذا على أن « كتمان النسب » هو في ذاته أمرٌ محيرٌ ، فإنّ لم أجدْ له مثيلاً أو شبيهاً في تراجم الشعراء ، ولا في تراجم الرجال ، لا في عصره ، ولا فيما قبل عصره . وإذا كان الكتمان مما يجوز أن يفعله الرجل مرّة أو مرّاتٍ ، وهو محبوب البوادي ويطويها ، فإنّه غير جائز ولا مفهوم أن يفعله رجلٌ ولّه مدينة كالكوكة ، ونشأ بها ، وبقي فيها حتى بلغ السابعة عشرة من عمره ، فأهلها يعرفون من هو = فإذا ما نزل مدينة أخرى كالمدن التي أقام بها في الشام أو في العراق أو في مصر ، كتم هذا النسب ، ولعل آلافاً من أهلها ينتسبون إلى نفس القبيلة التي ينتسب إليها ، ولكنهم لا يكتُمون أنسابهم كما يكتُم هو نسبه ، ولا يخشون أحدٌ منهم ناراً ولا طائلةً من أحدٍ ، فأى شيء يلجئ إلى الكتمان ؟ .

كان هذا « الكتمان » غريبة من الغرائب ، ولم يصبح جائزاً أو مفهومًا إلّا مع الفرض الذي فرضته . فكذلك صار كتمان أبي الطيب نسبه « العلوية » ، وصارت أسبابه وعمله ، جزءاً لا يتجزأ من شخصية أبي الطيب . لأن النسب « العلوي » ليس عارضاً يزول بزوال أسبابه ، بل هو لاحقٌ لمن ولّه « علويّاً » ، وهو قائم أبداً في نفس صاحبه لا يزائله ، سواء عادي « للعلويين » وكرههم ، أو صادقهم وأحبّهم . فإذا كان صاحبه مرغماً على إخفائه وكتامه ، ولكنه مُصرّاً على محاولة إظهاره ، كما فعل أبو الطيب ، ثم طوّفته أغلالٌ تؤودُهُ ، فلا شك عندئذ في ظهور أثر هذه المعاناة في حياته وفي شعره خاصة .



وعلى ذلك ، فقد صار لازماً على أن أعود فأرتب شعره كله منذ سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٩ ، وهو القسم الأول من الديوان ، ترتيباً جديداً يجعل حركة وجدانه في شعره متسقة مفهومة ، على اختلاف أحواله ورحلاته في مدة تزيد على عشرين سنة من حياته . فلما فعلت ذلك تبين لي ، في إعادة قراءة الديوان ، أن أكثر القوامض المهمة في ديوانه قد تبددت وزالت ، وتجلت لي شخصية أبي الطيب واضحة ، وصارت حركة وجدانه في شعره ظاهرة متسقة في تردها بين الثورة والحمود حيناً ، وبين الأمل واليأس حيناً آخر ، تبعاً للأحداث التي مرَّ بها في خلال عشرين سنة ، وهي أحداث لا نكاد نجد في تراجمه خبراً يدلُّ عليها ، وإنما يستنبطها تذوق شعره لا غير . وعندئذ تبين لي سياق هذا « الكتمان » الذي لا أجده شبيهاً أو مثيلاً في عصره ، فإن أبا الطيب ولد بالكوفة في ديار العلويين ، وبقي بها حتى كبر ، وفي سنة ٣١٧ تقريباً مدَّح علوياً مدحاً يدلُّ على شدة التعلُّق والحب وحفظ جميل أياديه عليه ، [ انظر ما سلف قريباً من : ٧٦ ، ٧٧ ] . ثم علم بعد زمان من جدته أمر « علويته » ، فقلق وأنف أن يبقى أمرها مكتوماً ، ولكنه لم يستطع إلا أن يفارق الكوفة إلى الشام في أواخر سنة ٣٢٠ ، وحاول أن يظهر أمر « علويته » ، فجمع جوعاً من المقاتلة تنصَّره على إظهار نسبته العلوية ، فأخذ وسجن .

وهو حين دخل السجن في سنة ٣٢٩ ، إنما دخله « علوياً » مطالباً بإظهار نسبته إلى « العلويين » ، وكان الذين أدخلوه السجن وقيدوه وآذوه

وساموه الخلف جماعة من «الملويين» . والذي لقيه من السجن وفي السجن على أيديهم ، كانت قسوته وشراسته كافية في تذكيره بقوة هؤلاء «الملويين» : فلما أطلق سراحه وخرج في سنة ٣٢٣ ، خرج من السجن «علوياً» كارهاً للملويين مَزُوراً عنهم ، أو كما يقول ابن العديم : خرج «مخالفاً للشيمة» ، وأضر هذه الكراهة وانطوى عليها .

ولكن جدته استدعته بعد ذلك إلى الكوفة ، فترك الشام ، سنة ٣٢٥ تقريباً ، وبقي بالكوفة زمناً ، ولكنه أكره على الخروج منها ، فعاد إلى الشام في سنة ٣٢٦ ، ثائراً يائساً ، يملأ شعره تهديداً ووعيداً ، ولكنه لا يملك إلا «الكتان» ، وما هو إلا التلويح دون التصريح ، فلم يأت في شعره الذي قاله منذ سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٣٥ لا للكوفة ولا للملويين ذِكْرٌ ، ولا لمطالبته بإظهار نسبه بياناً .

ثم إذا بنا نقاجاً في سنة ٣٣٥ ، بشعر فيه تهديد ووعيد ومطالبة ظاهرة ، وذلك حيث خالف سنة الشعراء ، فافتح مديح على بن سيار بن مكرم التميمي ، بمدح نفسه أولاً ، في قصيدته التي أولها :

أقلُ فَعَالِي ، بَلَّةُ أَكْثَرُهُ ، نَجْدُ      وَذَا الْجِدِّ فِيهِ ، نَلْتُ أَوْلَمُ أَنْلُ ، جَدُّ  
سَأَطْلُبُ حَتَّى «      بِالْقَنَا وَمَشَايِخُ      كَانَهُمْ مِنْ طَوْلِ مَا التَّمَشُّوا مُرْدُ »<sup>(١)</sup>

(١) راجع القصيدة في ديوانه ، فهي كثيرة الدلالات على ما نقول .

وهذا معنى وعمل وتهديد ووعيد ، وأنه سوف يطلب حقه بالسيف .  
ثم نفاجاً مرة أخرى بذكر « الملوين » في سنة ٣٣٦ ، بعد مضي ثلاث عشرة  
سنة ، منذ خرج من السجن سنة ٣٢٣ ، وأن « الملوين » كانوا قد أعدوا له  
السودان بكفر عاقب ليقتلوه ، وهو في طريقه إلى ابن طفج ، [ انظر ماسك  
قريباً ص : ٧٠ ] . ولا نكاد نعلم لذلك سبباً البتة في أخباره ، لم فعلوا ذلك ؟  
بيد أن قصيدته التي قالها في رثاء جدته ، تكشف النقاب عن هذه الحادثة  
وتدل عليها وتفسرها .

وذلك أن جدته أرسلت إليه قبل ذلك بسنة تقريباً ، سنة ٣٣٥ ،  
تسجيته وتشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها ( من عشر سنوات ، سنة  
٣٢٥ ) ، فتوجه إلى العراق ، فمنه « الملوين » من دخول الكوفة ، فأرسل  
لها كتاباً يسألها للسير إليه ، حيث منع وحبس عن دخول الكوفة ،  
فقبلت الكتاب وفرحت فرحاً غامراً ، فلما أرادت أن تفعل ، أبلغها الملوين  
أنه قد مات ، فحقت وماتت غماً . وملاً أبو الطيب مرثيته لجدته بمعان كثيرة ،  
يفسرها ويكشف غموضها القرض الذي كنت افترضته ، والذي صار الآن  
أشبه بالحقيقة كما قلت .

وتعبر الأحداث بعد ذلك ، والنسب المكتوم يحرك وجدان أبي الطيب ،  
وتتحول شخصيته تحولاً ظاهراً غريباً بعد ذلك ، كما سافسره ، وبيتى منه  
من دخول الكوفة ، الذي أدى إلى وفاة جدته ، كما أننا يحرك وجدانه ،  
حتى إذا كانت سنة ٣٥١ ، أي بعد ست عشرة سنة ، حين خرج من مصر ،

وقطع الفياض والفواتِ حتى بلغ الكوفة ، فدخلها ظافراً مُراعماً للملوكين  
الذين ساءوا الخلف من قديم ، فلم يكده يدخلها حتى قال :

فَلَمَّا أَتَيْنَا رَكْزَنَا الرِّمَّا حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْمُلَى  
وَبَيْنَنَا نُقْبِلُ أَسْيَافَنَا ، وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَى  
لَتَمْلَأَ مِصْرُ ، وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ، وَمَنْ بِالْمَوَاصِمِ ، أَنَّى الْفَتَى  
وَأَنَّى وَفَيْتُ ، وَأَنَّى أَبَيْتُ ، وَأَنَّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا  
وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفَى ، وَلَا كُلُّ مَنْ سَمِعَ خَسَفًا أَبَى

وهذا بينٌ جداً ، كما ترى . ولكن ٠٠٠٠ ولكن لم يكن « كتمان  
الملوكية » هو وحده سرُّ الفقرة الثالثة من عمود صورة أبي الطيب ، بل كان  
له قرين آخر لا يقلُّ عنه قوَّةً وتحريكاً لوجدانه في شعره كله ، بل لعله  
كان أقوى منه وأعَمَقُ أثراً في حياته .

فالميتى ، قد وُلد بالكوفة سنة ٣٠٣ وبقي بها إلى أن جاوز السابعة  
عشرة من عمره سنة ٣٤٠ تقريباً ، وقال الشعر صغيراً ، من سنة ٣١٤ إلى  
سنة ٣٤٠ . ومع ذلك ، فالذي أثبتته في ديوانه من شعرٍ قاله في مدة مُقامه  
بالكوفة صبيّاً لا يزيد على ٩٤ بيتاً : سبع مقطوعات عدد أبياتها ٣٩ بيتاً ،  
وقصيدة تفكُّه بإثباتها في شعره متندراً برجل كوفي يدعى الفلسفة وأبياتها  
٢٠ بيتاً ، وقصيدته التي مدح بها المولى الكوفي ، وهي ٤٣ بيتاً . وهذه  
القصيدة والمقطوعات السبع ، تدلُّ جميعاً على همة متميزة في إتقان الشعر

منذ هذا الزمن المبكر ، وتدلُّ أيضًا على همة عالية موفورة الجِدِّ ، وعلى ثقة شاعرة بالقدس ، وعلى طموحٍ بعيدٍ لا يتردد . ومع ذلك ، فهذا الشاعر المتقن العالى المهمة الطموح والواثق بقدرته ، لم يحرِّكه ما حرك مثاث من أقرانه الشعراء وغير الشعراء ، إلى فراق الكوفة الصغيرة الفقيرة ، تطلُّمًا إلى الجدة والشهرة والصيت في بغداد عاصمة المواصل ، ومقرَّ الخلافة ، ومجتمع أصحاب السلطان والثروة والجاه .

لا ، بل قد دخل بغداد ، حدثنا هو بذلك في خبر روى عنه ، ذكرته في هذا السفر ( ١ : ٦٨ - ٧٠ ) ، وحدثنا به ابن جني أيضًا فقال : أخبرني بعض أصحابنا قال : جئني بالمقني = يعنى شاعرنا = إلى أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، قيل : إنه شاعر . فقال : أنشدنا ، يافتي ، شيئًا من شعره . فأنشده المقني :

مِثْلَ مَنْ لَمْ تَأْخُذْ بِأَيْدِي ، يَا لَقَحْطَانِي وَيَعْرُوبِيَّةَ

قال : فسح ابن دريد يده على رأسه وقال : لا ، بل تأخذ بدمك. (١)

وابن دريد كان ببغداد سنة ٣٢١ ، وكان دخول المقني بغداد ، كما استظهرته في كتابي ، سنة ٣١٩ ، أو ٣٢٠ . [ انظر هذا السفر من : ٧٤ ] .

---

(١) هذا الخبر نقله من مجموع أوراق لاين جني ، محفوظ بالأسكوريال تحت رقم ٧٧٨ باسم « كتاب مجموع في علم البلاغة » . وهذا البيت ليس في ديوانه ، ولا في زوائد الراجز ، وهو من شعر صباه التي أسقطه المتنبي من ديوانه أو ليه .

ومع أنه دخل بغداد وهو شاعرٌ طموحٌ يريدُ أن يتألقَ ، فإن عظمتها وفجتها لم تأخذ بلبِّه ، ولم يفكر ساعةً في المقام بها يزاحمُ شعراءها الكبارَ الذين حازوا مجدهم ببغداد ، وفارقها إلى الشام ، لا « علويًا » يطلبُ إظهارَ نسبه لحسبٍ ، بل فتي « عربيًّا ثائرًا » منكراً للذي رآه في بغداد من استيلاء الأعاجم على سلطان الخليفة العربيِّ وتحوُّلهم له حتى تركوه بلا سلطان ، وكأنه بعدئذٍ جعل إظهارَ علويته وسيلةً يتذرعُ بها لجمع الجوع ، ويشاركُ في هذا الصراع على السلطان ، فلمَّه يصيبُ نجاحاً . وهو ، لعرويته وعلويته ، أخلقُ من هؤلاء بالسلطان .

وأنت إذا قرأت القصيدة الثانية عشرة في ديوانه ، بعد التسع التي ذكرناها آنفاً [ س : ٨٦ ] ، تراها دالةً على هذه المعاني ، وقالها قبل أن يقبضَ عليه ويبجن ، فهو يذكر فيها رحلته من الكوفة إلى بغداد إلى الشام ، وإقامته بأرض نخلة « كقمام المسيح بين اليهود » ، ويذكر إعداد نفسه للقتال ، وأنَّ فضله الذي يفعله على الناس لا يقنع « بعيش ممجَّل التنكيد » ، ويحدث نفسه بالمرِّ والعلية ، ويحدث عن شرفها المُفنيهِ عن الفخر بالجلود ، وم نغر الناس جميعاً ، ويقول :

عِشْ عَزِيْزاً ، أَوْمْتُ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ      بَيْنَ طَمَنِ الثَّنَا وَحَقِّ الْبُؤْسِ  
فَاطْلُبِ الْيَمْرُوقَ فِي لَقَى ، وَدَعْ الذَّلَّ      وَلَوْ كَانَ فِي جِفَانِ الْخُلُودِ  
إلى أن يقول :

إِنْ أَكُنْ مُنْجَبًا ، فَمُنْجَبٌ عَجِيْبٌ      لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيْلٍ

ثم لا يزال الأمرُ به حتى يدخل السَّجن ، ويعلم علمَ بينٍ أن أمرَ  
إظهارِ علويته مرةً أخرى ، دونه متأنفٌ وسدودٌ ، فلا يزال يترددُ بين  
الرجاءِ واليأسِ من ظهورِ علويته منذ خرجَ من سجنه ، ولكنه لم ييأسَ من  
أن يجدَ في أصحابِ السطوة والشوكة عربياً يشفي ما في نفسه من الغيظِ على  
الأعاجم الذين استفحل سلطانهم على الخلافة ، وخاصة منذ رأى الفتي  
العربيَ الثائر الذي أوقع بعمر بن حابس من بني أسد ، وبني ضَبَّة وبني  
رياح من تميم ، والذي أثارَ إعجابه ، فقال فيه قصيدة لم ينشدها بين يديه ،  
ولما بقيت عفوطة عنده ، حتى أثبتها في القسم الثاني من ديوانه . كان ذلك  
في سنة ٣٢١ قبل سجنه ، وكان الفتي هو سيف الدولة في أوَّل نشأته ،  
قال له :

وتعذرُ الأحرارَ صيرَ ظَهرَها ، إلا إليك ، على ظَهرِ حرامِ  
( أنت الغريبةُ ) في زمانِ أهلِ وَلَدَتْ مكارمُهم لغيرِ تمامِ

وتمضي الأيامُ منذ خرجَ من السَّجن ، « والعلوية » و « العربية » معاً  
تحرَّكان وجداده اشتعالاً وُخوداً ، فلا تسكاد تخطيء في شيءٍ منها حديثاً  
عن نفسه ، وعن بفضائه للأعاجم ، وعن حبه للعرب . فما يلقي من أحدٍ إلَّا  
وهو ينتش فيه عن هذا المأمولِ الذي يثيرُ وجدانه ، ثم يبلغُ أقصى توهُّجه ،  
في سنة ٣٢٦ ، حين يحمده في العربيُّ « بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي »  
والى طبرية ، فيحملُ شعره في بدر ، نفس ثورة الوجدان التي تلقاها عند  
تلقائه سيف الدولة العدويَّ العربيَّ سنة ٣٣٦ ، بعد أن حنَّكتهُ التجاربُ .

وكانت سورةُ نفسه في المهدين ، سورة رجلٍ سياسيٍّ عربيٍّ يرقُبُ ما يحيطُ به ، ويطرَحُ على الرجل العربيِّ الذي يؤمُّه ، ويؤمِّلُ بلوغَ أمله في سطوته وشوكته = كلُّ ما في نفسه من أهدافٍ تحدِّدها له عُروبتُه واعتزازه بها . إلا أن الفرق بين المهدين وواضحٍ جدًّا ، لأنَّ شعره في سيف الدولة ، لم يكن قاصرًا على هذا وحده ، بل كان يتجاوز حدود هذا الإحساس السكامن فيه ، إلى الإحساس بالملحمة القديمة التي بدأت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين النصرانية الرومية والإسلام ، والتي ظَلَّت تتصاعد على ثغور الشام شيئًا فشيئًا ، حتى كان زمن سيف الدولة ، فظهرت ظهورًا بيِّنًا ، خلَّدَ المنهج ملحمة العظيمة في شعره الذي قاله في عشر سنوات ، ( من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ ) عهد سيف الدولة . (١)

ومعنى ذلك أن أبا الطيب ، قبل أن يلقي سيف الدولة في سنة ٣٣٦ ، كانت همومه تنفازعه ، بين « علويته » التي يكتُمها مرغمًا ، والتي كانت تؤمُّه ، لو أطاق ، أن يدفع عن دولة العرب سلطان الأعاجم = وبين آماله في أن يجد عربيًّا ذا سلطانٍ وشوكة وطموح ، يحقق له ولأمته مآلًا يطمِّقُهُ هو من القضاء على سلطان الأعاجم .

فلما لقي سيف الدولة ، ونزل من نفسه المنزلة التي نعرفها ، وأقام معه عشر سنوات من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ ، اندمج الأمران فصارا كما

---

(١) حروب سيف الدولة في ثغور الشام ، هي ملاليم « الحروب الصليبية » التي بلغت حدها في أول حملة صليبية سنة ٤٨٩ ، أي بعد قرن ونصف تقريبًا .



واحدًا وأملًا واحدًا ، وأصبح أبو الطيّب شخصية « سياسية » ذات  
 آمالٍ كبيرة تحركه ، وقد بينت ذلك في الفصل الثاني عشر من كتابي ،  
 [ هذا السفر : ١٨٧ - ٢٢٣ ] ، ومواضع أخرى كثيرة من الكتاب من  
 أوله إلى آخره ، تدلُّ على هذا أو تتصل به .

\* \* \*

### ( ٨ ، ٥ ) الفقرة الخامسة والثامنة

وأما هاتان الفقرتان من « عمود الصورة » ، وهما تتضمنان البيان عما  
 يحركه من عواطف الحب التي لا يخلو من جميعها بشر ، فإنني وقفتُ على  
 جميعها بتذوق شعره لا غير ، ومراقبة حركة وجدانه تبعًا لحركتها حدةً أو  
 خفوتًا . أما الأخبارُ عن ذلك ، فليس في أيدينا شيء يؤيدُها ، أو يهدى  
 إليها .

ومن أول ذلك ، ما استخرجته استخراجًا من أن أبا الطيب كان  
 يحبُّ خولةَ أخت سيف الدولة ، وقد ذكرتُ بعض حُجَّتِي فيه في الباب الثالث  
 عشر [ هذا السفر : ٢٢٥ - ٢٥٠ ] ، منذ كان أبو الطيب في جوار سيف  
 الدولة ، ثم بقاء هذا الحبِّ عاملاً ظاهرًا في شعره بعد فراقه في سنة ٣٤٦ ،  
 ثم ما بعد ذلك مُدَّةَ إقامته عند كافور ، ثم فراقه كافورًا إلى العراق ،  
 ثم إلى فارس ، إلى أن قتل .

وهذا الذي استنبطته بالتدقيق ، كان كثيراً جداً ، ولكنني اختصرته  
اختصاراً في كتابي ، ومع ذلك فإنه قد يسّر لي أن أقرأ شعر أبي الطيب  
كُلّه منذ نشأته قراءة تكشف عما كانت تكثفه نفسه من هذه العواطف  
الإنسانية ، في مطالع قصائده منذ شبابه ، وفي ثنايا حكته التي يضمّنها شعره ،  
ولا يبدو لأوّل وهلة أنّها من أثر هذه العواطف التي تحرك وجدانه . وقد  
لخص الرافعي ، رحمه الله ، رأيه فيما كتبت في كلمته في الرسالة حيث يقول :  
« والأدلة التي جاء بها المؤلف ، تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي .  
ومتى لم يستطع المرء نفيّاً ولا إثباتاً في خير جديد يكشفه الباحث ، ولم يهتد  
إليه غيره ، فهذا حسبك إعجاباً يذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعَدّ » .  
[ السفر الثاني : ٢٤٥ ، ٢٤٦ ] .

ومضت سنوات طوال منذ صدر كتابي عن أبي الطيب ، وكاد هذا  
الفرض المستنبط أن يفوز بما يؤيده من الأخبار الرويّة ، كما فاز فرض  
« الملوية » بما يؤيده كما عرفت قبل . فقد دَخَلَ علينا في المجلس ليلاً صديقي  
الكرّيم الدكتور محمد سامي الدمان ، وذلك قبل مرضه الذي لم يُفْلِتْهُ حتى  
قضى نحبه في يوليو سنة ١٩٧١ ، وكان عائداً من إحدى سفراته في البلاد  
التي تحوى المخطوطات العربية التي وقعت في أسر الأعاجم ، ولم يكد يجلس  
حتى قال : بُشْرى ! بُشْرى عظيمة ! ويبدأ يتحدث عن سفرته ، وأنه كان  
قد نوى العودة إلى دمشق = ، ولكن شيئاً جديداً قد بقى عزمه وأرغمه  
على أن يقطع هذه النية ويعرّج على مصر . وذلك أنه قد ظفر بنصّ يؤيدني  
كلّ التأييد في مسألة حبّ أبي الطيب خوّلة أخت سيف الدولة ، وأنّه

سوف يعود إلى دمشق ، فيرسل النص كُله مصوّراً . وتشعب الحديث بين أهل المجلس وطال ، وحان وقت انفضاضه ، وودّعته دون أن أعرف منه شيئاً يُفيدني اليوم . وعند وداعه كرّر أنه سيرسل النص مصوّراً ، ورحل إلى دمشق في اليوم التالي . ومضت الأيام ، ومرض ، وجاء بعد ذلك نفيه ، وفقد أهل العلم رجلاً كبيراً من العلماء ، وفقدته أنا معهم ضعفين من الفقد ، وقدّر الله أن يبقى هذا الاستنباط فرضاً مبنياً على تذوق الشعر ، حتى يكشف اللثام عن سرّه خير من الأخبار ، ونذعه حتى يكون ، وهو كائن إن شاء الله .

أما عاطفة الحبّ التي تتمثل في عواطف الناس على اختلافهم فطرة فطروا عليها ، فإن أظهرها ظهوراً حُبّه لجدته التي كفلهت يتيماً ونشأته وسدّت خطاه ، وكشفت له عن سرّ مولده « علويّاً » ، يوم أطاق أن يحمل السرّ . وكان من عمق هذا الحبّ في نفسه : أن ترك آثاره مكظومة في ألفاظ شعره ، يبينها للتذوق من وراء هذه الحجب . فلما ماتت ورثاها بتقصيده الميمية ، مهّد لي تذوقها أن أعرف مقدار الصدق في عواطف أبي الطيب ، وأن أقف على أسلوبه في الكشف للثم عن هذه العواطف ،<sup>(١)</sup> وعندئذ تمكنت من استخراج الدلالة من شعره على زواجه [ الباب السابع : ١٢٠ ، وما بعدها ] وعلى تاريخ ولادة ولده « محمّد » سنة ٣٢٦ [ س : ١٢٠ ] ،

(١) انظر الباب الثاني : ٣٧ . والزابع : ٥٥ ، والباب الماشر : ١٦٤ ، ومواضع أخرى متفرقة .

ثم ما كان من مرض زوجته وموتها في سنة ٣٣٧ [س : ٢٠٨ - ٢١٢] ، وأشياء  
أخرى كثيرة تراها مفرقة في الكتاب .

• • •

## (٦) الفقرة السادسة

كان أبو الطيب قد آتمَّ الثالثة والأربعين من عُمره ، حين عزم على  
قراق سيف الدولة = لم يفارقه مختاراً لفراقه ، فإن سيف الدولة كان مثلاً  
حيّاً لكلِّ ما كان مكتوماً في نفسه من الآمال والأحلام : وفي السنوات  
العشر التي لازمه فيها كان يزداد له محبة وتوقيراً ، وأفصى كلِّ واحد منهما  
لأخيه بأسراره وغاياته في الحياة السياسية التي قامت على « دولة الخدم »  
من الأعاجم . ولم يكن مقامه للمال ، كما يقول ذلك من يقوله ، وقد دلّتنا  
سيرته كلّها على أنه إذا لقي العربيَّ الرجل الذي يتوهم فيه آماله وأحلامه ،  
لم يبالِ بالمال أو ( طلب المعاش ) ، بل يبلوغ الآمال أو ( طلب المعالي ) ، كما  
بيّنتُ ذلك في مواضع من كتابي [ هذا السفر : ١٩١ - ١٩٢ ] ، يبدآن  
« الوشاة » و « الحساد » ، قد أكلوا السماية في حقّه ، حتى ظنَّ ظنّاً بلغ  
اليتين أن قلب سيف الدولة قد تغيّر عليه ، وكان هو بطبيعته شديد التوجُّس .  
وكان حبُّ « خولة » قد بلغ به شفاً الهاوية بسماية الساعين والكائدين .  
وبلغ منه هواها ذروة شاذة مخلّقة يضيّق بها صدره كأنما يصمّد في السماء

[ هذا السر : ٢٠٢ وما بعدها ] ، فاتخذ الليل مركباً وطار إلى دمشق ، وكأنه يقول لنفسه ، ما قاله بعد ذلك بسنوات :

ضَرَبْتُ بِهَا التَّيَّةَ ضَرْبَ الْقِتَارِ : إِمَّا لِهَذَا ، وَمَا لِذَا

إِمَّا رَاحَةَ النَّسِيَانِ ، وَإِمَّا رَاحَةَ الْمَلَكَ ! أَصِيبَ الرَّجُلُ فِي هَوَى قَلْبِهِ ،  
وَفِي آمَالِهِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَفِي الرَّجُلِ الَّذِي لَا يَمِيدُ لَهُ شَيْئاً أَنِّي تَلَفَّتْ خَيْرُهُ بِالرَّجَالِ  
وَالْأَعْمَالِ ، وَدَاخِلَهُ الْيَأْسُ ، وَتَمَنَّى الْمَلَكَ ، وَمَاتَ اللَّهْيَبُ فِي نَفْسِهِ ، وَرَمَتْهُ  
الْهَوَادِي وَالْفَلَوَاتُ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ ، وَإِلَى كَافُورٍ ، فَلَمْ يَمَلِكْ إِلَّا أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ  
بِمَا فِي نَفْسِهِ ، فَايْتَدَأْ قَوْلَهُ حِينَ لَقِيَهُ :

كَتَبْتُ بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِئاً وَحَسَبُ الْمَنَآيَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا  
تَمَنِّيْنَهَا لَسَا تَمَنِّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقاً فَأَعْبَى ، أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيئَا

ومنذ ذلك اليوم وآمالُ أبو الطَّيِّبِ كُلُّهَا تَتَقَلَّصُ ، وَكُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي  
بِقِطْعَةٍ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ آمَالِهِ تَقَعُ فِي حَوْزَةِ الْأَمْسِ الَّذِي لَا هَوِيَّ رُدُّ وَلَا هُو  
يُسْتَرَدُّ . ذَهَبَ أَبُو الطَّيِّبِ الْأَوَّلُ ، وَجَاءَ أَبُو الطَّيِّبِ الثَّانِي ، فَكَانَ يَرَى ذَلِكَ  
رَأْيَ الْعَيْنِ وَهُوَ يَكْظِمُ فِي نَفْسِهِ كَفْظاً يَذِيبُ الْقُلُوبَ ، « فَإِنَّ الشَّبَابُ ،  
وَأَيُّ الزَّمَانِ ! » . وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ فِي مِصْرَ حَبِيسًا فِي قَبْضَةِ كَانُورَ مِنْ  
جَادِي الْأَوَّلَى سَنَةِ ٣٤٦ إِلَى أَوَاخِرِ سَنَةِ ٣٥٠ . وَفِي هَذِهِ اللَّذَّةِ صَارَ شِعْرُ  
أَبِي الطَّيِّبِ نَعْمًا آخِرَ غَيْرِ النَّمَطِ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا مَعَ بَدْرِ بْنِ عَمَارِ الْأَسَدِيِّ ،  
ثُمَّ تَمَّ تَمَامُهُ مَعَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ صَارَ شَاعِرًا مُحَنِّكًَا مَمْقُودًا

المهارة في صياغة معانيه والفاظه ، يحتاج تذوقها إلى خبرة بأساليب صياغته كلها ، منذ بدأ الشعر فتى جاداً قليل الإغضاء عن التجويد ، ثم شاباً أكثر مما يرزله ما يكتمه ، ثم مكتهلاً يتفجر الشعر منه مغموساً في صنيغ الحوادث التي تمر به ، فلا هي تحول ألوانها ، ولا هو ينساها أو يقفل عن آثارها في نفسه .

والآن سقط وحيداً في تيه الغربة ، عاد غريباً كما بدأ ، ولكن شتان !! فهو يقول في غربة الصبي الحميد ، واثقاً مديلاً متحدياً :

أنا في أمة ، تداركها الله ، ( غريب ) كصالح في تمود

وهو اليوم في غربة الكبير ، وآخر عهده بمصر وكافورها ، يقول متحدياً ضائعاً مستسلماً :

يَمَّ التَّمَلُّ ؟ لا أَهْلٌ ، ولا وَطَنٌ ولا نَدِيمٌ ، ولا كَأْسٌ ، ولا سَكَنٌ  
أريدُ من زَمَنِي ذا أَنْ يُبَلِّغَنِي ما لَيْسَ يَبْلُغُهُ في نَفْسِهِ الزَّمَنُ  
وإذا كان ، وهو في صباه قادراً على أن يخرج من بنداد مملى النفس قوة  
وتحدياً ، حين سمع وسمع الناس أحد المماليك قادة الأعاجم ، قد وضع التاج  
على رأسه مكللاً بالذر والياقوت ، وجلس على سرير من فضة حوالية الذهب  
مرصعاً بالجوهر ، ويقول للناس متكبراً متحدياً : « أنا أُرَدُّ ( دولة المعجم )  
وأبطل ( دولة العرب ) » ،<sup>(١)</sup> وإذا كان يومئذ قادراً على أن يرد على كلمته

(١) هو « بجم الترك » ، قال ذلك في حوال سنة ٣٢١ أيام كان التتشي يبتدأ . انظر كتاب الأوراق لاصولي ، في أخبار الرازي : ٦٢ .

هذه في شعره نائراً مهدداً متوعداً هازناً :

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مَتًى مَضْرِبَهُ وَيَنْجَلِي خَيْرِي عَنْ صِيَةِ الصَّيْمِ  
بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مَازَالَ مُنْتَظَرِي حَتَّى أَدَلْتُ لَهُ مِنْ (دَوْلَةِ الْخَلْدَمِ)

... فالآن ، مريدًا أو غير مُريد ، يجد نفسه لسانًا ناطقًا في « دولة الخلدَم » ، ويتورط في المحنة تورطًا مؤيسًا ، في طريق طويل من أول حقدمه على كافور سنة ٣٤٦ ، إلى أن ينتهي عند عضد الدولة الديلمي في سنة ٣٥٤ ، ويحتم شعر هذه السنوات للذلة ، باليأس والضيق بهذه التفتة ، [وهي آخر ما قاله أبو الطيب] :

إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بَدَأَ فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَ  
وَأَنْتَ شَيْتٌ ، بِاطْرُقِي ، فَكُونِي ، أَدَاةً ، أَوْ نَجَاةً ، أَوْ هَلَاكَ

كان داؤه فراق (دولة العرب) تحت ظل سيف الدولة ، فطلب البرء والشفاء في (دولة الخلدَم) ، فإذا هو داء لا شفاء ، وكان أقتل الداءين ! ورائي يومئذٍ السلم ، مُدْعِنًا ضارعًا مقادًا لما تأتي به المقادير .

لذلك ، فقد كان شعره في هذه السنوات التسع الأخيرة من عمره مختلفًا كل الاختلاف من جميع شعره ، مباينًا له في الضيافة ، حافلًا بمهارات لا يعطيها إلا قلة من الشعراء الكبار ، ثم لاتقأني لهم إلا حين يقومون في المحنة المحرقة ، بين وجوب السكتمان وضرورة الإفصاح = بين ما يُبطنونه في أغوار أنفسهم ، وما يظهرونه فيما يجري على ألسنتهم . وشعر هذه السنوات

التسع ، لم يقرأه أحدٌ بعناية كافية ، وكلُّ ما خرج به قارئو شعر المتنبي هو هذه القضية الرثيةُ السخيفة : أن اللغني مدح كافوراً ثم هجاءه ! وأشبه ذلك من القضايا المستبردة المألوفة ، يتعاملُ بالحديث فيها دفاعاً عنه أو قدحاً فيه . من يتعاملُ . وشعر أبي الطيب في هذه السنوات ، كان خلاصة تجاربه في حياته ، وجماع معرفته بالرجال والأمم ، وثمره ناضجة قد استمدت إثناءها . ونضجها ومدّاقها من حياته كلها ، منذ كان صبياً إلى أن بلغ ما بلغ ، حيث وقع التناقض بين آماله التي عاش بها وفيها أكثر من ثلاثين سنة ( ٣١٤ - ٣٤٦ هـ ) ، وبين الواقع الذي يصبح فيه ويمسى ، وهو في قبضة ( دولة الخدم ) ، أي ذهب .

كانت ألفاظ شعره هذا تحيلُ كلَّ ما يكتمه من الكراهة والازدراء والاستنكافِ تماماً هو فيه ، وإن كان ظاهرها يمدحُ سامعه عن حقيقة ما يكتمه . وقد استوقف هذا الشعرُ ، في حياة أبي الطيب نفسه ، بعض سامعيه أو قارئيه ، كابن جني وغيره . فإن ابن جني كان يقرأ على المتنبي شعره في كافور ، فربما وقف على البيت من المدح قد انطوى على معنى من الهجاء ، فيضحك ابن جني ، ويضحك المتنبي لأنه كان يقصدُ به الهجاء . والمتنبي قد أغنانا عن هذا بقوله في كافور ولقبه « الكركدن » ، [ وهو حيوان عظيم الجثة ، تصير القوائم ، غليظ الجلد أسود ، له قرن واحد ، وهو الخريت ، وحيد القرن ، شبه الأسود كافوراً به ] .

وشعر مَدَحَتْ به الكركدن بين القريص وبين الرقي  
وما كان ذلك مدحاً له ، ولكنّه كان هجواً للورى



وقد بلغ أحد المتأخرين الناية في ذلك ، وهو عبد الرحمن بن حسام زاده الرويحي (أى التركى) (١٠٠٣ - ١٠٨١هـ) ، قد ألف كتاباً سماه : « رسالة في قلب كافوريات اللتى ، من المدح إلى الهجاء » ، ونشره الدكتور محمد يوسف نجم . ومؤلف الكتاب تركى أجاد العربية وخالط أهلها طويلاً ، وقد كان حيث نزل في حلب والقدس ودمشق والقسطنطينية مائلاً للأدباء ، وله ألف يوسف البديعى كتابيه : « ذكرى حبيب » و « الصبح المنى » ، عن حيثية اللتى . وقد استقصى المؤلف مدائح كافور قصيدة قصيدة ، فبين ما يضره المتنى من القدم لكافور ، وإن كان ظاهر اللفظ يوم المدح . وهو كتاب غريب فريد ، أجاد المؤلف فيه مع سوء عبارته ، وأصاب الصواب من وجهه ، وأخطأ من وجه آخر . وقد أشرت إلى اللغى الذى قصده المؤلف في كتابى ، [ هذا السفر ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ - ٢٦١ ] .

ولسكن القضية ليست محصورة في ألفاظ قصدها أبو الطيب قصداً ، وجعلها رموزاً لما ظاهر مكشوف ، وباطن مضر ، بل القضية في صياغة شعره في حقيقتين متباينتين : تركت كل حقيقة منهما أثرها الواضح على صياغته وألفاظه بلا قصد متعمد ، يستطيع المتذوق أن يميزه تمييزاً واضحاً ، لأن كلاهما خرج من نفس واحدة جميمة ، مصبوغاً بصبغة الحقبة التى انغمست فيها انهماسا إلى الأحقاد . كان شعراً يفهم كُله عن نفس متطلعة متبهة واجمة ، تستغنى الآمال والآلام والأحزان ، ماضية إلى فضاء فسح تيسطه البهجة المنيرة من شمس مشرقة = فإذا به يفهم عن نفس متقبضة كثيفة بائسة ، تؤودها الآمال والآلام والأحزان ، دالقة إلى أفق ضيق يقبضه

الكبد للظلم من شمس غاربة . ومن لم يُعط هذه القضية حقها من الأمانة والتأمل عند تذوق شعر أبي الطيب في هذه السنوات التسع الأخيرة من حياته ، لم يظفر بباطل ، ووقع في غثاثة الدراسات التي لا تفرّق بين تذوق الشعر ، وبين التعلّط بالكلام ومضغّه ، تماثلاً بحتاً ١١ و « المذشّع بما لا يملك كلّابيس ثوبَي زور » ، كما جاء في الحديث .

وفي كتابي هذا لم أستطع أن أوفّي هذه القضية حقّها كتابةً ، لأنّي قطعتُ هذه السنوات التسع في نحو ثمان وثلاثين صفحة من الكتاب ،<sup>(١)</sup> فإني كنت في عجلة من أمرى حتى أفرغ من الكتاب في ميقات محدّد ، كما قلت آنفاً ، وكنت قد نويت أن أعود فأكتب عن الملتفتي كتاباً كبيراً آخر ، على هذا السياق الذي التزمته في كتابي هذا ، ولم أفِ بما عقدت عليه نيّتي ! إلّا أنّ الذي كنت قد استفدتُه من تذوق شعره في هذه السنوات التسع ، كان هو في الحقيقة أقوى مُعين لي على تصفية تذوق لشعره الذي قاله قبل ذلك ، وعلى التعبير عن التذوق تعبيراً سهلاً متساوياً يقضي إلى انسياب حركة تخطيط صورة الملتفتي ومعارفها وقسماتها ، وهي تتخلّق حول « عمود الصورة » . فن أجل ذلك ، لم تكن هذه الفقرة السادسة ظاهرة كلّ الظهور في الذي كتبته ، وإن كانت آثارها في الكتاب ، وفي الأبواب الثلاثة الأخيرة ، دالة على الأصل بمض الدلالة .

هذه هي الفقر الثمان التي استوت لي منها شخصيّة أبي الطيب ، عن

(١) من الباب الرابع عشر إلى السابع عشر من ص : ٢٥٠ إلى ص : ٢٨٩ ، آخر الكتاب .

منهج محدّد في تذوق الشعر ، كلّ فقرة منها لا تقوم وحدها معزولة من الأخريات ، بل كانت كلّ فقرة منها مقابلة بأخواتها ومؤثرة في سائرها تأثيراً بالغ العمق ، فقرّبت الأمر وبسّرتّه بالحديث عن كلّ فقرة على حدة ، ليكون قارىء كتابي بعد ذلك متحفّظاً من كلّ مؤونة تموّقه أو تنفّل عليه .

• • •

### الغمرات ، ثم ينجلي

حين خرج عدد المقتطف [ يناير سنة ١٩٣٦ ] ، مضمّناً كتابي عن « للفتى » ، كنت مطّيةً لصحّي عفيفةً هوجاء ، فلما أقلت عني وبدأت أفيق من برحائها ، كان أول ما قرأته عن كتابي هو كلمة الرافعي رحمة الله عليه ، منشورة في مجلة « الرسالة » ، [ السفرائث : ٢٤٣ - ٢٤٦ ] . هزنتي هذه الكلمة هزاً شديداً عند أول قراءة ، ففرغت منها وأنا لا أدري على الحقيقة ماذا قال الرافعي . كنت في ميّدة الإفاقة من الصحّي ، [ الليد : دوارٌ يميّد بالرأس مصحوبٌ بالخيرة ، كالذي يحده السكران أو راكب البحر من الاضطراب ] ، فجاء مع فرح غامر فادّ هو بي أيضاً حتى أعماني من معانيها . كنت في السابعة والعشرين من عمري ، وكنت كأنها منسورة في الكتاب ، لا أنوّه أن أحداً من القراء يعرفني أو يبالي بأن يعرفني ، ولم يكن مما يخطر ببالي يومئذ أن أكون معروفاً ، ولذا بي أهاجاً بثقةً بشاء أستاذي مبيد الصيت في العرب والعربية ، وفي مجلة بميدة الصيت في كلّ بقعة تعرف العربية . فعلت بي هذه المفاجأة فلما انخر بشاربي لم

يَذُقُهَا قَطْرًا . وَبَقِيَتْ أَيْامًا فِي نَشْوَةِ مُذْهِلَةٍ ، وَكَنتُ أَعِيشُ يَوْمئِذٍ وَحْدِي ،  
فَلَمْ أَجِدْ مِنْ أَحَدٍ عَنْ نَشْوَتِي ، فَلَمَّا تَمَلَّصْتُ مِنْ عِقَابِيلِ الْحَتَّى بَارئًا بِحَمْدِ  
اللَّهِ ، وَذَهَبَ الْمَيْدُ وَسَكَتَتِ النِّشْوَةُ ، رَاجَعْتُ قِرَاءَةَ كَلِمَةِ الرَّاقِعِيِّ مَرَّاتٍ ،  
فَكَنتُ أَتَوَقَّفُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ عِنْدَ قَوْلِ الرَّاقِعِيِّ فِي « الْمُغْنَى » :

« كَانَ الرَّجُلُ مَطْلُوبًا عَلَى سَيْرِ أَلْقَى النَّمُوضُ فِيهِ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِهِ ،  
( يَعْنِي عُلُوبَةِ الْمُغْنَى ) ، وَهُوَ سَرُّ نَفْسِهِ ، وَسَرُّ شَعْرِهِ ، وَسَرُّ قُوَّتِهِ . وَهَذَا  
« السَّرُّ » كَانَ الْمُغْنَى كَالْمَلِكِ الْمَنْصُوبِ ، الَّذِي يَرَى التَّاجَ وَالسَّيْفَ يَنْتَظِرَانِ  
« رَأْسَهُ » جَمِيعًا ، فَهُوَ يَتَّقِي السَّيْفَ بِالْحَذَرِ وَالتَّخَفُّفِ وَالنَّمُوضُ ، وَيَطْلُبُ التَّاجَ  
« بِالْكَيْمَانِ وَالْحِيلَةِ وَالْأَمَلِ » .

« وَمِنْ هَذَا السَّرِّ بَدَأَ كَاتِبُ الْقُتُوفِ ، خِجَاءً بِحُفَّتِهِ يَتَحَدَّثُ فِي نَسَقٍ  
« عَجِيبٍ » ، مُتَسَلِّسًا بِالتَّارِيخِ كَأَنَّهُ وَلَادَةٌ وَنُمُوٌّ وَشَبَابٌ . وَعَرَضَ بَيْنَ ذَلِكَ  
« شَعْرَ الْمُغْنَى » عَرْضًا خَفِيفًا إِلَى أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ قَدْ قِيلَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ قَبْلِ  
« شَاهِرِهِ » ، عَلَى حَوَادِثِ نَفْسِهِ وَأَحْوَالِهَا » .

وَسَبَبُ تَوَقُّفِي ، هُوَ أَنَّ يَوْمَ فَرَعْتُ مِنَ الْكِتَابِ وَمِنْ تَصْحِيحِهِ عِنْدَ  
الطَّبِيعِ وَقَضَيْتُ الْأَمْرَ ، تَقَاذَفَنِي طُورَالِ اللَّيْلِ رَعْبٌ شَدِيدٌ مِنْ غَفَاةٍ مَا يَقُولُهُ  
النَّاسُ فِيهِ إِذَا هُمْ قَرَأُوهُ ، وَأَمْسَيْتُ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِي : فَهَذَا أَوَّلُ  
كِتَابٍ كَتَبْتُهُ مَجْتَرِّئًا عَلَى التَّأْلِيفِ ، وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامًا عَلَى كِتَابَتِهِ عَلَى غَيْرِ  
مِثَالٍ سَابِقٍ تَمَّا عَهْدُهُ النَّاسُ فِي كِتَابَةِ التَّرَاجِمِ ، وَقَدْ اجْتَرَأْتُ أَيْضًا عَلَى  
الْإِتْيَانِ فِيهِ بِمَا لَمْ يَسْبِقُنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَفَارَبْتُ الرُّعْبَ وَالشَّاكَّ فِيمَا اجْتَرَجْتُ  
خَوَرَانًا أَذْهَبَ مِنْ قَلْبِي كُلِّ يَقِينٍ فِيمَا كَتَبْتُ ، وَكُلُّ قِيَّةٍ بِمَا بَذَلْتُ مِنْ جُهْدِي

وَتَثْبُتْ ، واغتيال الرُّعب سلطاناً على عقل ، وسرَى سَمُ الشكِّ في قلبه طولَ ليلتي . . . . . وركبني الحَيَّ ، فلما أفقت منها أفقتُ وأنا في قبضة رُعبٍ حتى وشكِّ عَمِيَّةٍ ، ثم جاءتْ كلمات الرافعيّ تَرْياقاً ، كلما أعدتُ قراءتها دَبَّتْ كلماتها إلى صميم هذا الرُّعب ديباً حتى قفلته ، وجعلتْ تَسْرِي حيث سَرَى سَمُ الشكِّ حتى أذهبتْهُ من قلبي فأحيته . وعندئذٍ عرفتُ شيئاً فشيئاً حقيقة طريقى الذى سرتُ فيه حين كتبتُ الكتاب ، وكأنه طريقٌ لم أَهْلِكْهُ من قبلُ قطُ ! وكذلك ثبت عندى أن منهجى فى « التذوق » الذى ألفتُهُ منذ أن دارست الشعر الجاهلى قديماً ، منهجٌ سليمٌ كُلُّ السلامة ، لأننى حققتُ به الوصول إلى « سرِّ » كان مطوياً فى شعر أبى العتَّيب وفى تاريخه ، واستطعتُ به أيضاً أن أكتب بحثاً « يتحدَّر فى نسقٍ عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونمو وشباب » ، كما يقول الرافعيّ ، أى أن « عمود صورة المتنبي » الذى بنيتُ أكثره على هذا « التذوق » ، كان صالحاً لجعل شعر المتنبي ناطقاً نطقاً مبيحاً من شخصيته منذ وُلد إلى أن مَلَت . وكان هذا حَسْبِي ، بحمد الله .

وقد حدثتْ بعد ذلك بقليلُ حادثةٌ أخرى غريبة ، زادتني قِمةً بنفسى وبمنهجى . كنتُ ألقى الأستاذ المقاديرحة الله ، مراراً فى « للثرو » ، عند نزولى إلى القاهرة أو عند عودتى . فقد كنّا جميعاً نَسكن مصر الجديدة . وكنتُ له مُحِبّاً لطولِ قراءتى ما يكتب ، فكنتُ أَسْلِمُ عليه فيردُّ السلامَ على غادته من الأدب الخفِش ، ولكنى كنتُ أرى ظلالاً من الجفوة فى أساور حُجْجِهِ ، وينقبضُ عني حديثُهُ إذا حدثته ، ولا ريبَ فى أن ذلك كان لما

يعرفه من علاقتي بالرافعي ، وقد كان بينهما ما كان . وكنت غير راضٍ في نفسي بالذي كان قد جرى بينهما ، وأرى أن كليهما كان ظالماً لأخيه ظُلماً مبرحاً . وإذا كانت المودة بيني وبين الرافعي قد أتاحت لي أن أحذّثه في هذا الظلم مراراً ، فإنّ جفوة العقاد لم تترك لي مسأغاً حتى أحذّثه بمثل ما حدثت به الرافعي ، بيد أنني كنت مُصرّاً على أن أبلغ ما أريدُ مع العقاد . فلما ظهر كتابي هذا في المكتطف ، سوّلت لي نفسي أن أهديه نسخة من المكتطف ، مع عِلْمِي أنه يرسلُ إليه بالبريد في كلّ شهرٍ ، ومع أنّي كنتُ قد عقدت العزمَ على أن لا أهدى كتابي إلى أحدٍ من الأساتذة الكبار . فاستأذنته بالماتف أن أزوره في بيته ، فأذن لي ، وكانت كلمة الرافعي في « الرسالة » قد نشرت في ١٣ يناير ١٩٣٦ ، بعد أيام من صدور عدد المكتطف . وكانت زيارتي للعقاد بعد ذلك بقليل . ولم أجدُ بين لقائيه في « المترو » ولقائه في بيته كبيرَ فرقٍ . فلما جلستُ واطمأننتُ ، أخرجتُ عدد المكتطف ، هديةً مني إليه ، فأخذه ووضعهُ إلى جانبه ، ولم يكلمني بكلمة واحدة في شأنه . وكنت أتوقع أن يكون قد قرأ العدد الذي وصله بالبريد . فكان صمته جارحاً لي أيّ جرّحٍ . فخرجتُ من عنده غَضْبَاناً أسيفاً .

وبعدَ أيامٍ قلائلَ ، كنتُ عائداً إلى بيتي ، فلما ركبتُ « المترو » فوجئتُ بالأستاذ العقاد يُناديني ويدعوني إلى مجلسٍ كان خالياً أمام مجلسه . ووجدتُ في وجهه البشاشة مكانَ الجفوة ، وفي حديثه التعلُّق مكانَ الانقباض . والعقادُ متحدثٌ قليلُ الأشياءِ إذا تبسّط وقال ما قال غير محشمٍ . وقطعتُ للساعة من أوّل محطة المترو إلى أن بلغنا المحطة التي عندها بيته في أول مصر الجديدة ، وهو في حديثٍ لا ينقطع ، مِلْؤُهُ النّواردُ والنكاهات التي يحثيها

ويحسن سرّدها . ثم نزل ، ولم يذكر كتابي بحرفٍ واحدٍ ، ولكنني أيقنتُ أنه قرأ الكتاب ، وأن هذه الحفاوة أو البشاشة التي لم ألقها ، كانت أثرًا من آثار قراءته كتابي . فلما صرتُ وحيدًا حتى بلغتُ بيتي ، كانت نشوتي بتغيّر المقاد ، تفوق نشوتي بما كتبه الرافعي ، وكانت يدًا للمقاد عتدي ، إذ زادتنى ، يومثقةً بنفسى واطمئنانًا إلى ما كتبتُ . وعلى الأيام ، لم أرَ تلك الجفوة مرةً أخرى . وتوثقت الصداقة بيني وبينه ، ومع ذلك لم أسمع منه مرةً كلمةً واحدةً واحدةً عن كتابي إلى أن مات رحمة الله عليه ! ولكنها كانت صنيعةً لا أنساها .

وبعد قليلٍ بدأت الرسائلُ تأتي باسمي على إدارة المقتطف وعلى بيتي ، وفيها ما فيها ، وقرأت يومئذٍ ثناء كثيرًا من رجال لا أعرفهم ، كشاعرنا الكبير الأستاذ أحمد محرم وآخرين ، فذهب عني كلُّ خوفٍ ومهابة ، وفي خلال ذلك أيضًا كتب أستاذٌ كبيرٌ كان قد علمني في التعليم الابتدائي ، ثم الثانوي ، هو الأستاذ محمد هاشم عطية رحمه الله ، فنقدني وسخّر مني ، فرددتُ عليه في صحيفة الأهرام ردًا عتيقًا ، ونقدني أيضًا الأستاذ على عبد الرازق في جريدة « السياسة الأسبوعية » ، فكُنتُ له كيلًا كما كال في نفس الجريدة . وتتابعت الأيام ورأيتُ اسمي مذكورًا بعد خول ذِكْرِي ، والفضلُ في الذي بلغتُهُ مردودٌ كُلُّهُ إلى أخي وصديقي الذي لا أنساه الأستاذ فؤاد صروف ، أطال الله بقاءه .

• • •

## كتابات في علم « السطو » !!

### الكتاب الأول

ثم جاءت بعد ذلك أمورٌ مستفكرةٌ بَشَعْتُ بها وضَعْتُ بها ذَرْعًا ،  
لأنها رَدَّتْنِي إلى حَوْمَةِ الفَسَادِ الذي اعتزلتُ من أجلهِ الجامعةَ والحياةَ  
الأدبيةَ كلها ، لكي أَصَحِّحَ طَرِيقِي ما استطعتُ إلى الغايةِ التي أُنَتِّقُ أن أبلغها .  
وأهمُّ ذلك حادثان : أولاً ، جاءَتني رسالةٌ من العراقِ بعد ظهورِ كتابي  
بثانيةِ أشهرٍ (سبتمبر ١٩٣٦) ، من رجلٍ لم أكن أعرفهُ من قبلُ . كان  
تاجرُ كتبٍ ناشئٌ ، لم يبلغْ ما بلغ من الشهرةِ فيما بعد ، وهو الكُتُبِيُّ المشهور  
« قاسمُ الرجب » ، رحمه الله ، دَلَّتْني رسالته على أَنه قرأ كتابي حرفاً حرفاً ،  
فإنه ضَمَّنَه مقابلةً بين ما في كتابي صفحةً صفحةً ، وبين ما جاء في صفحات  
كتاب آخر طبع في العراق سنة ١٩٣٦ ، أُرسلهُ إلىَّ بالبريد ، كما قال . ووصل  
« الكتاب بعد أيام » ، وهو كتاب « ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام » ، وكتبه  
هو الأستاذ عبد الوهاب عزَّام ، وفي آخره أَنه فرغ من تأليفه « لتسع بقين  
من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ ، عاشرموز (يوليه) سنة ١٩٣٦ » ، أي  
يعد كتابي بسبعة أشهر ، وختم مقدَّمته القصيرة بهذه العبارة :

« ومهما يكن فقد بذلتُ الجهدَ ، وأودعت الكتابَ من تفصيل سيرة  
الشاعر ، والكشف عن جوانب مجهولة من سيرته وأدبه ، ما يطوِّع له أن  
أقدمه للقراء ، راجياً أن يجدوه أهلاً لذكرى أبي الطيب ، ويرهوهُ أوسع  
وأعمق وأجدي ما كَتَبَ عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا ، عام الاحتفال



بعضى ألف سنة على وفاته ، والله وليّ الهدى والتيسير .

وكنتُ أعرف عزّاً ، أمّا ، رحمه الله ، ويعرفنى ، فقد كنتُ طالباً بالجامعة ،  
وكان أستاذاً بها . كان غايةً فى دَمَانَةِ الْخُلُقِ ، لَيِّنَ الْجَانِبِ ، رقيق الحاشية ،  
سَمَحاً سَهلاً طويلاً الأناة ، متواضعاً عند اللقاء ، خَفِيفُ الصَّوْتِ ، فإذا  
حدثته أجبك والحياه يكادُ يقطعُه عن الإجابة . وكان حافظاً للشعر ، يُسمعك  
منه ما تشاء إذا نَفَسَ عنه حياؤه . وكنتُ لذلك أَحَبُّهُ وأجلُّهُ لواسع  
سمرفته . فلما قرأت ما ختم به مقدمة كتابه ، رايتُ منه ما قال ، لأنّه أمر  
غير معروف فيه أن يتبيّح بذكر نفسه أو أعماله . وقد نشر فى سنة ١٩٣٤ ،  
ترجمة الشاهنامنه ، وبذلَ فيها جهداً كبيراً ، فكان خيرَ مانشر ، ومع  
ذلك لم يُثنِ على نفسه ، بل كان جَمَّ التواضع هاضماً لنفسه ، فكيف قال  
هنا عن كتابه إنه « أوسع ، وأعمق ، وأجدى ما كتب عن الشاعر منذ  
عاش إلى عامنا هذا » !! غريبة !! ولكن تعلم أنها غريبة الفرائب ، فأعلم  
أنّه حين أعاد طبع كتابه هذا فى مصر سنة ١٩٥٤ ، أثبت مقدمة الطبعة  
الأولى ، ثم ختم مقدمة الطبعة الثانية بما يلى :

« وأصدقُ القارىء أنى أردتُ أن أحذف من مقدمة الطبعة الأولى  
« دعوى أن هذا الكتاب أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر . واتفق أن جاء  
بلى كراچى ( بلدة بالهند ) وأنا أعد الكتاب للطبعة الثانية ، صديقنا العلامة  
الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وهو من أوسع الناس معرفة بالشاعر ،  
وكان يحفظ ديوانه كلّهُ ، فأخذ الكتاب وقراه ، ثم نهانى عن حذف الجملة

التي همتُ بحذفها وقال : دَعَوَى صَدَقٍ ، فلماذا تمحوها ؟ ! ! غريبة أخرى  
هندية لليلاد ! ! وستعلم السَّبَب في إرادة حذفها ، ثم في الشهادة التي أتى بها  
مُحَرِّجَةٌ له من إرادته ، فاستسلم للنهي وأثبتها راضياً عنها كُلُّ الرضى ،  
ولا غَرْوَ ! ! ولم يقع بذلك ، بل زاد في مدح كتابه ، فوصفه مرة أخرى  
بأنه : « أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر » ! ! غريبة أيضاً ! !

ما علينا ! ! تجاوزتُ المقدمة ، وأخذت الكتاب أقرؤه . فإذا به ،  
منذ أوله ، يتعمقني تعقبات متسترة متلغماً بمباهة الأخبار التي رواها الرواة ،  
فهو ينف عند ما وقفتُ عنده منها ، ويخالفي معرّضاً غير مصرّح ، أو  
يُمارضني موافقاً ليمض رأيي مُغفلاً سائرهُ ، وأثر ألفاظي في ألفاظه واضحٌ  
كُلُّ الوضوح ! ! ويقف أيضاً على كُلِّ شعرٍ من شعر أبي الطيب ، لم يقنّبه  
للقوف عنده أحدٌ قبل ، ويملأُ عليه بنفس ألفاظي التي علقتُ بها عليه ! !  
وظلّ يسلمُ من كتابي سلخاً مرةً بعد مرةً ، مقتفياً آثارى ، ويقول ، وكان  
ما يقوله مما يظهر لكل قارئ شعرَ أبي الطيب ، بلا معاناة وبلا سبب ،  
ويمرضه عرضاً كأنه اجتهد منه لم يسبق إليه من قبل ! ! وأعمال أخرى  
قبيحة ، مع الأسف ، وضنّ ضناً شديداً بأن يكرّمني ويشرّفي بذكر اسمي ،  
وما هو إلّا أن يقول في ثنايا سطور كتابه : « قال بعض الأدباء » و  
« رأى بعض الكتاب » و « قال كاتب المتقطف » ! ! يا للعجب ! ! فلما  
فرغتُ من الكتاب ، ساورني أن أكتب ، وإن أبيتَ قباحة هذا الأسلوب ،  
ولكني تأنيتُ به ، لأنني كنتُ لم أزل أحبه وأجلّه ، ولأنني رحمتُهُ وأشفقتُ  
عليه من حيّاته ، إذا أنا هتكتُ عريض كتابه .

وبشاه الله أن لا يطول على الثاني، فبعد أيام فلانل كنت جالساً في مجلس أستاذنا أحمد حسن الزيات في مكتبته بمجلة « الرسالة »، ونجاة قطع الأستاذ حديثه وقام وأشرق وجهه، ورحب وأهل وسهل، وإذا القادم هو الأستاذ عبد الوهاب عزام. فقامت وسلمت، وجلسنا. فلما برز المجلس، وانقضت لحظات الحفاوة بتقديمه، التفت إلى أستاذنا عزام، وأعلمته أنني قرأت كتابه، وبدأت أعاتبه على استنكافه أن يذكرني باسمي، فغلبه الحياء، وجعل يحاول أن يجامل، وأن يجعله أمراً غير مقصود البتة، وأنه عرض لآخرين غيري، فلم يذكر أسماءهم. فعاظمتي بجاملته، وغاظني حيازه أيضاً! فقلت له: ليس هذا بصحيح، فإني ذكرت الأعجمي المستشرق « بلاشير » باسمه مراتٍ اقمجل قائلاً: لأنني كنت أرد على أقواله التي كتبها في « دائرة المعارف » إفرادي تفرزاً، فقلت له: ياسيدي الأستاذ، إنك أيضاً كنت ترد على أقوال، منذ أول كتابك، فعلت كذا وكذا، وكان أسلوبك في مناقشة الأعجمي واضحاً، وقد تعرضت لنقد القضايا التي كتبها، مؤيداً بالنقل عنه والإشارة إلى كلامه، أفلمت أنا جديراً بأن أعامل معاملة على الأقل! ومع ذلك، فإن أقوال هذا الأعجمي المستشرق لا قيمة لها في الحقيقة، وهو لو انحلع من أبهة الاستشراق، ومن روعة الاسم الأعجمي، ثم جامك في زى طالبٍ لمتحنه، لاستكثرت أن تزيد درجة على درجة الصغر. فأى شيء هذا؟ وهب أنه جاء برأي غريب، كراهيه في أن التفتي « قرمطي » الرأي والهوى، فاستحق أن ترة عليه، أفلا يستحق رأيي في « علوية أبي الطيب » مثلاً، أن تذكره

وترد عليه ردًا مباشرًا ، كما فعلت مع الأعجمي ، دون أن تلجأ إلى التضمين  
 الملف ، وإلى الإغفال المتعمد ؟ ثمّ تزيد الأمر سوءًا حين تتعقّب ترتيب شعري  
 القسم الأول من ديوان أبي الطيب ، وتوقيتي لحلقه في الشّام منذ خرج من  
 الكوفة سنة ٣٢١ ، إلى أن لقي أبا العشائر سنة ٣٣٦ ، مع أنّي كنت  
 أول من نبّه إلى هذا الترتيب ، وأول من حاول هذا التوقيت ! أليق هذا ؟  
 ثمّ أليق بك أن تعارضني في كل توقيت قصائده ورحلته ، بلا جديد  
 وقت عليه بمهدك ، وإنما أنت متمدّد فيه على تخاليط « بلاشير » ؟ هذا  
 من عجب السّجايا ، وأعجب أنّك في كتابك قد أقررت ، غير مُريد !  
 أنك كنت تعتقد أن هذا القسم من الديوان مرتب على التاريخ ، ثم جاء  
 ما أزالك عن اعتقادك ، فن الذي فتّح لك الطريق حتّى توقفت في الأمر  
 وبمحت ؟<sup>(١)</sup> وطال الكلام ، ولم أدع شيئًا مما كنت أحبّ أن أقوله  
 له كتابة ، إلا قلته له بلساني : وخمت حديثي فقلت له : خير لك أن تعيد  
 النظر في كتابك هذا ، ففيه آفات كثيرة أرجو أن يبرأ منها إذا أعدت  
 طبعه مرة أخرى ، فهذا أليق بك ، وأكرم بك عند الناس .<sup>(٢)</sup> وكان هذا  
 حسبي ، وطرحتُ فكرة الكتابة عن كتابه جانبًا ، ولم أذكره بسوء حين  
 ترجمتُ لنقد الكتاب الآخر ، كتاب كبيرم الذي حلّمهم « السطو » .  
 وبمّجّ لهم أساليبه ، ومدّهم بقياسه وعَلَّه ! كما قال ابن سلام في إمامي  
 علم النحو « عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي » ! !

\* \* \*

(١) انظر ما يلي من ١١٨ ، س : ٦ .

(٢) انظر ما سيأتي من ١١٤ ، س : ٥ .

وليس سبيلى هنا أن أفصل القول فى نقد كتاب الأستاذ عزّام ،  
والوقوف بالقارىء على موضع موضع من أفعاله بكتابه فى كتابه ، فهو أمرٌ  
لا يمتنى الآن ولا غداً ، بحمد الله ، ولكن عنايتى هى إظهارُ فسادِ الحياةِ  
الأدبية ، فى زمنٍ مَقْصَى نَعَمٌ ، ولكنه ألقى بذور الفسادِ التى أبعثت من  
بعده إلى زماننا هذا .

ذكرتُ قبل ما عانيتُه فى ترتيب تاريخ قصائد القسم الأول من ديوان  
أبى الطيب [ انظر ما سنس: ٥٠-٥١ ] ، وكان عملاً شاقاً وعَرَّ المسالك ، لأنَّ  
اعتمادى فيه كان على « تذوق الشعر » ، وأما الأخيار و تراجم الرجال  
الذين قال فيهم هذا الشعر ومقّ قاله ، فكان يحتاج ضبطُ تواريخها إلى حذر  
شديد . وقد استطعتُ ، بحمد الله ، أن أوفّق إلى توقيتها توقيتاً مقارباً للحقيقة ،  
ولم يسبقنى إلى التفكير فيه ، أو إلى عمله ، أحدٌ أتقنع بعلمه . ولكفى لم أعقد  
فى كتابى باباً بعنوان « ترتيب قصائد المتنّى » ، بل فرغتُ من الترتيب  
ثم بثّنتُه فى مواضعه من الكتاب منذ أوّلِهِ إلى نهاية الفصل العاشر  
[ من ص : ١٣ - ١٧٦ ] . وقد كنت اشتهيتُ ، فى تذوقى لشعر أبى الطيب ،  
إلى أن الترتيب الذى وضعه أبو الطيب نفسه ، فى القسم الأول الذى لم يؤرخ  
قصائده كما أَرخ القسم الثانى من ديوانه ، كان ترتيباً مقارباً للصواب .  
وذلك لأنه كان واضحاً أن أبا الطيب كان ، عند جمع شعره فى ديوانه ،  
شديد الإحساس بالتاريخ فى القسم الثانى ، فهو خَلِيقٌ أن يكون شديد الإحساس  
به أيضاً فى القسم الأول ، ولكنه كان قد نسى الأيام والشهور والسنوات ،

قرب هذا القسم على ما بقى في نفسه من الإحساس الخلابى بهذه التواريخ التى  
قدم عهدُها ، [ انظر مائلته آفاً من ص : ٥٠٠-٥٠٣ ] .

والأستاذ عزّام قد قرأ كتابى بلا شك ١١ ورأى هذه الفصول المشرة  
الأولى « مرصعة » ١١ بالتواريخ التى تؤرخ شعر أبى الطيب الذى لم يؤرخه  
هو باليوم والشهر والسنة ، وأدرك كما أدرك الدكتور طه حسين : « أن أحداً  
لم يسبقنى إلى توقيت قصائد المتنبى هذه » [ انظر السفر الثانى : ١٧٣ ] ، بل هو  
قرأ التعليق الذى كتبته فى كتابى ، [ انظر هذا السفر الأول ص : ٢٧ ، تعليق : ١٦ ]  
حيث قلت : « واعلم أننا نجتهد فى تاريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبى ، وقد  
وجدنا فى ذلك المشقة فما فوقها ، لنترجم للرجل على بينة وهدى ، وسنجد  
فائدة ذلك فيما يمر بك إن شاء الله » ، فانظر الآن ماذا فعل ؟

عقد فصلاً فى كتابه بعنوان « ترتيب ديوان المتنبى » ، لا يتجاوز  
ثلاث صفحات من الطبعة الأولى العراقية ، وهو فى صفتين فقط من الطبعة  
الثانية المصرية ١١ وختم هذا الفصل المهم بقوله :

« كنت أعتقد كما اعتقد غيرى ، ( من غيره هذا لا أدرى ) ، أن  
« القسم الأول من كتاب ديوان المتنبى ، مرتب على التاريخ ، حتى عرفتُ  
بعد بحثٍ طويل أن القصيدتين اللتين مدح بهما « مساور بن محمد الرومى »  
نظمتا سنة ٣٢٩ ، يُعرف ذلك من ولاية هذا الأمير على حلب فى هذه السنة ،  
ومن ذكر هزيمة ابن يزداد فى إحدى القصيدتين ، وكانت هزيمته فى ذلك  
الوقت أيضاً . وهاتان القصيدتان فى الديوان مقدمتان على قصائد « بدر بن حمار »

التي نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩، وأظنّ مدح مساور كان بعد مدح بدر . ثم بين قصيدتي مساور ومدائح ابن عمار، قصائد كثيرة لا أظنّ أن المتنبي نظمها بين مدحَي هذين الأمرين . فهذا أضعف حققي بالترتيب في الديوان ، قسمه الأول = ومنعني أن أعتمد عليه في تاريخ الشاعر ، وإن ظننتُ أن الأصل في ترتيب الديوان كله الترتيب التاريخي . فأدعُ الاعتماد على ترتيب الديوان في القسم الأول ، إلى أن أجد من الأدلة التاريخية ، ما يكفي للثقة بترتيب قصائده كلها على التاريخ . انتهى الكلام والحمد لله . . . ثم إنَّ الله تعالى لم يخلق لنا الأسنة إلا للكلام ، فإبطال عملها لإبطال لنعمة من أجل نعم الله على الناس ، وهذا قبيح بنا معشر البشر !! أليس كذلك ؟

كان يعتقد أن القسم الأول مرتب على التاريخ ، ثم جاء ما زال اعتقاده ، فأضعف ثقته بهذا الترتيب ومنعه أن يعتمد عليه في تاريخ الشاعر = كلام مستقيم ، ولكن ما معنى الجملة التالية له : « وإن ظننتُ أن الأصل في ترتيب الديوان كله الترتيب التاريخي » !! تأمل هذا الكلام ، وما يدل عليه من الحيرة المفضية إلى التناقض ! ألم يقل قبل إنَّ هذا الظنُّ أو الاعتقاد ، قد جاء ما يبطله بعد « بحث طويل » ؟ هذا على كلِّ حال نصرٌ لكلامه في الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ . فانظر الآن ماذا كان من أمره في الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ ، بعد أن انقضى على حديثنا عشرون سنة ، قال في مقدمة الطبعة الثانية :

« وقد نفذت نسخ الطبعة الأولى بعد قليل... ثم يسر الله نشره... »  
 فأعدت النظر فيه ، وغيّرت قليلاً ، حاشا الفصل الأخير ، فقد أعدت كتابته .  
 ووجدت الكتاب ، بعد هذه المدة الطويلة ، كما وصفته في مقدمة الطبعة  
 الأولى ، ولم يتغيّر رأبي في شيء فيه ، فهو جديرٌ بمعاينة كلِّ معنىٍ بسيرة  
 أبي العليّ ، حقيق بثقة كلِّ قارىء .

وظاهر بعد الحديث الذي حدّثتك عما كان بيني وبين الأستاذ عزّام :  
 أنّه يعرّض بي ، على استحياء ١١ ، من وراء برقع لا يراه غيري أو انظر  
 إلى ثنائه على كتابه ، وقد وصفت لك من قبلُ حياته ، وأنّه أمرٌ غير معمولٍ  
 فيه أن يتبجّج بذكر نفسه والثناء على أعماله [ انظر ص : ١٠٧ : ٨ ] .  
 فليت شعري ما الذي غيّر الرجل ! وقد ذكر أنّه أعاد النظر في الكتاب ،  
 و« غير قليلاً حاشا الفصل الأخير... » ! وسأضرب لك مثلاً على ما غيّر في فصل  
 ترتيب الديوان الذي نقلته آنفاً [ ص : ١١٢ : ١٤ ، وما بعده ] ، فإنه قال هناك :

« كمت أعتقد كما اعتقد غيري... حتى عرفت بعد بحثٍ طويلٍ أن  
 القصيدتين ... » ، فكان التغيير هو هذا : « حتى عرفت بعد بحثٍ طويلٍ  
مُتَّعِبٍ أن القصيدتين ... » ، فزيادة « متعب » تغيير كان لا بُدَّ منه ، لأنّه  
 أمرٌ شديد الخطر ، ولا يستقيم الكلام إلا بهذا التغيير ! وهو يستحي أن  
 يراني قلت : « وأعلم أننا نجتهد في تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبي ؛ وقد  
 وجدنا في ذلك للشقة فما فوقها » [ انظر ما سلف ص : ١١٢ : ٨ ، ٩ ] ، ثم يقتصر



هو على وصف بحثه بأنه « طويل » ، والاقتصار على صفته بالماول مفسدة وإخلالاً وزلة لا تُفتخر ، فصار إلزاماً أن يغير فيقول : « بحث طويل متعب » .  
للتسوية كِفْتًا لليزان ! وإذا لم يكن هذا القدر من الدقة والحرص والأمانة  
هزلاً محضاً ، فإذا يكون ؟

\*\*\*

وينبغي أن تسبق ، إكراماً لى على الأقل ، أن الرجل لم يبحث  
بحثاً لا طويلاً ولا قصيراً ، ولا متمكناً ولا هيناً « حتى عرف أن التصديتين  
اللتين مدح اللتني بهما مُساور بن محمد الرومي ، نظمنا سنة ٣٢٩ . . . » إلى  
آخر ما قال . وتفسير هذا بسيط جداً عندي ، لأنني أعرف ما كتبتُ ،  
وأعرف ما يكتب الآخرون . أما كشف الستار عن حيل هؤلاء المؤلفين  
الذين يسترون تحت عباءة « البحث العلمي المتعب » ، ويتلقَّبون بعقول  
القراء ، ويفسدون الحياة الأدبية بتعميمهم في اختطاف ما يختطفون ، ثم يتعمهم  
في إخفاء ذلك بأساليبهم المبتذلة المتنوعة ، فيحتاج إلى بسط وإطالة . ولكني  
سأقف هنا بما لا بدُّ منه .

كنت قد قسّيت ديوان أبي الطيّب أقساماً . لم أذكر ذلك في كتابي ،  
ولا أجد ما يدعوني إلى تفصيل كل هذه الأقسام هنا ، والذي يهمنا هنا  
القسم الأول والثاني .

القسم الأول : يبدأ من أول الديوان ، إلى آخر القصيدة ٤٨ ( من شرح  
الواحدى واليازجى أيضاً ) ، ويتضمن ٢٧ مقطوعة ، و ٢١ قصيدة من قصار

القوائد : وتاريخها يبدأ من أول سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٢٥ تقريباً . وهي  
تتألف من الكوفة صبيها في الحادية عشرة ، ثم في الشام سنة ٣٢١ ، ثم في  
السجن سنة ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ثم في بغداد والكوفة سنة ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ثم في  
الشام مرة أخرى في أوائل سنة ٣٢٦ .

والقسم الثاني : يبدأ بالقصيدة ٤٩ وما بعدها ، عند نزوله بالتواريخ  
باللاذقية سنة ٣٢٦ وما بعدها .

أما القسم الأول ، فهو يقع في كتابي من أوله من : ١٣ إلى آخره  
ص : ١١٦ من هذه الطبعة . وقد استشهدت بأكثر مقطوعات هذا القسم ،  
أما قصائده ، فلم أستشهد فيه إلا بأربع قصائد من قصائده لا غير . وكان فيه  
توقيت رحلته والحديث عنها ، منذ خرج من الكوفة سنة ٣٢١ إلى الشام ، ثم  
سجنه ، ثم عودته إلى الكوفة وبغداد ، ثم عودته إلى الشام مرة أخرى  
سنة ٣٢٦ . ولما بلغت في كتابي ص : ١١٣ ، قلت في تعليق لي هناك :  
« أعلم أننا تركنا في هذا الحديث عن رحلته وحبسه ، ما قل من شعر في  
مدح رجالٍ لقيمهم في طريقه بالبلاد التي نزل بها ، إذ ليس يضرب لغفال  
ذلك ... » ، فكان مما أغفلته آخر قصيدتين في هذا القسم ( ٤٧ ، ٤٨ ) ، في  
مدح « مساور بن محمد الرومي » الذي ذكره الأستاذ عزام .

ثم شرعت بعد ذلك منذ ص : ١١٧ في القسم الثاني ، الذي يبدأ عند  
نزوله على التواريخ باللاذقية سنة ٣٢٦ - ٣٢٨ ، ومضيت في تاريخ هذه الحقبة  
إلى أن لقي بدر بن عمار الأسدي ، من أواخر سنة ٣٢٨ ، إلى سنة ٣٣٣ على

وجه القريب [س: ١٣١-١٥٣] ، وتابعت التاريخ والتوقيت بعد ذلك ، إلى أن انتهى المتنبي إلى أبي العشائر الحمداني في أواخر سنة ٣٣٦ ، ثم جاء القسم المؤرخ من الديوان ، منذ نزل المتنبي على سيف الدولة في جادى الأولى سنة ٣٣٧ .

فماذا حدث ؟ حدث أن الأستاذ عزام ، قد تمب تمباً شديداً حقاً ، ولكن تمبه هذا كان وهو يحاول أن يتبين هذا التقسيم الذى فصلته هنا بعض التفصيل ، وما فيه من التاريخ الذى لم يسبقنى إليه أحد ، وقد ظلّ يتمقبنى فى هذا القسم الأول [س: ١٣-١١٦ كالت] ، يأخذ من كلامى ، ويفرقه على أبواب كتابه « المدرسى » ، ثم يحاول أن يمارضى مرة بعد مرة ، بلا ذكر ولا بيان ، وبأسلوب غير مرضى ولا مستساغ ، لأنه توقف ، هكذا تظاهر ، على كل شعر من شعر أبى الطيب أو خبر من أخباره ، كنت أنا أول من توقف عنده وكشف معانيه . فمن ذلك أنه حين انتهى إلى مسألة نبوته وسجنه فى كتابى [س: ١٠٦] ، وجدنى قد توقفت عند شعر أبى الطيب الذى قاله وهو فى السجن ، وكتب به إلى « الأمير ؟ » وذلك قوله :

رَمَى (حَلْبًا) بَنَوَائِي الْخِيُولَ ، وَتَمَرَّ بِرُقْنِ دِمَا فِي الصَّعِيدِ  
فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ (الْخَرَشِيَّةِ) ، كَشَاءَ أَحَبِّ بَزَارِ الْأَسْوَدِ

وهو من القصيدة ٣٦ من القسم الأول ، فقلت فى توقفى على هذين البيتين اللذين لم يتوقف عندهما أحد قبلى : « والذى تنبهنا له هنا ، أنه ذكر فى هذه

القصيد (حلباً) و (الخرشني) ، وقد عيّنا (أى تمبنا ١١) بالبحث عن الحادثة التاريخية التي نستطيع بها أن نعين السنة التي قيلت فيها ، ثم وفقنا الله لتفسير ذلك بالاستنباط ، وذكرت الحادثة وتاريخها ثم قلت : « والخرشني هو ملك الروم ، لأنهم ينسبون ملوك الروم إلى جبل بيلادم ، يقال له (خرشنة) ، وتسكون هذه القصيدة لذلك ، مما كتب أبو الطيب إلى محمد بن طنج الإخشيد التركي (الأمير) ، في أواخر سنة ٣٢٢ ، وأوائل سنة ٣٢٣ » .

فتوقف الأستاذ أيضاً ، دون أن يذكرني أو يذكر ما قلت في ذلك ، وجاء بمارضني ويقعيني ويزعم أن (الخرشني) هو « بدر الخرشنى » ، وأنه ولي حلب سنة ٣٢٤ ، وكتب ذلك في فصل لطيف كله خلط عنوانه : « متى سجن أبو الطيب ؟ » وكان سبيله إلى هذا الكشف أن يلتمس كتاباً فيه « تاريخ حلب » ، فوقع على كتاب الأستاذ محمد راغب الطباخ ، فذكره ، وأخذ منه ما أخذ . وفيما هو يقلّب الكتاب وقع عَرَضاً على اسم « مساور ابن محمد الرومي » الذي مدحه المتنبي بالقصيدتين (٤٧ ، ٤٨) ، وهما في آخر القسم الأول عندي . فن هنا قال : « كنت أعتقد كما يعتقد غيري . . . حتى عرفت بعد بحث (مقعب) أن القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد الرومي ظلمتا سنة ٣٢٩ ، يعرف هذا من ولاية هذا الأمير على حلب في هذه السنة ، وفي ذكر هزيمة بن يزداد في إحدى القصيدتين . . . » إلى آخر ما قال [ انظر ماسلف ١١٢ ص ] ، ولم يشر إلى كتاب الأستاذ الطباخ هنا البتة !! مع أن خبر « مساور » ، وهزيمة ابن يزداد ، وهو الذي ساقه هنا ، كأنه شيء معروف مشهور = وهو أسلوبٌ مُبتَدَلٌ من أساليب القائل =

لا يوجد له ذكر في كتب التاريخ المعروفة، ولم يمر له ذكر إلا في كتاب الأستاذ الطباخ، وهو نقله من مخطوطة كتاب «زبدة الحلب» لابن العديم، الذي طبع بعد ذلك بزمان طويل (سنة ١٩٥٩). فالأمر كله غير «معتبر» كما ترى، وهو شيء جاء اتفاقاً، ولكنه فرح به أيما فرح، لأنه يتيح له أن ينقُصَ على «الترتيب التاريخي» الذي سرت عليه في كتابي، فيقول بعد ذلك مباشرة: «وهاتان القصيدتان في الديوان، مقدمتان على قصائد بدر بن حمار التي نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل ٣٢٩، وأظن أن مدح مساور كان بعد مدح بدر، ثم بين قصيدتي مساور ومدائح ابن حمار قصائد كثيرة لا يُظن أن المقتني نظمها بين مدائح الأميرين. فهذا أضف فتى بالترتيب في الديوان ....»، إلى آخر ما قال [انظر ما سلف: ١١٢، ١١٣].

والخلاصة، أنه لولا توقي عند (حلب) و (الطرشني) ثم وقوفه عرضاً على ذكر «مساور» في كتاب الطباخ، لظَلَّ الأستاذ على اعتقاده (كما اعتقد غيره) : أن الديوان مرتَّب ترتيباً تاريخياً !! فهذا هو الذي أحدث له الإشكال في هاتين القصيدتين !! ولكن الصحيح هو أن القصيدة الأولى (٤٧)، قالها المتنبي بعد خروجه من السجن سنة ٣٢٣، وبعد عودته إلى الشام سنة ٣٢٦، ثم طارق مساوراً، وذهب إلى التنوخيين، على سياق ما في كتابي. أما القصيدة الثانية (٤٨)، فقد قالها حقاً، سنة ٣٢٩، وهو عند بدر بن حمار في طبرية، بدليل ذكر هزيمة ابن يزيد فيها، وأرجح الظن هندی أنه كتبها بطبرية، وأرسلها إلى «مساور»، وهو بحلب. ثم لما جمع المتنبي شعره، على ما بقي في نفسه من تواريخ قصائد القسم الأول، ضمَّ القصيدة

الثانية التي قالها سنة ٣٢٩ ، إلى القصيدة الأولى التي قالها سنة ٣٢٦ ، وقد فعل المتنبي ذلك مراراً ، حتى في القسم المؤرخ ، فإنه ضمَّ قصائد أو أبياتاً في تاريخ متأخر ، إلى قصائد في تاريخ متقدم ، وقصائد في تاريخ متقدم ، إلى قصائد في تاريخ متأخر ، ليكون شعره في الرجل الواحد ، مجموعاً في مكان واحد . وقد أشرت إلى ذلك من فعله فيما سلف [ انظر ص : ٥١ ] .



ولست هنا مريدًا للوقوف على جميع ما أستعجته من أفعال الأستاذ عزام ، وهي كثيرة جداً ، ولكنني سأقتك على هذه الأشياء الغريبة التي تحرك هؤلاء الكتاب ، ملقنة في الفموس والإبهام . فالأستاذ عزام ، لم يلق بالآ إلى شعر أبي الطيب عن الرجل الذي ذكره آنفاً في عرض كلامه ، وذكر تاريخ قصائد أبي الطيب فيه ، وهو بدر بن عمار الأسدي ، ثم أغفله في كتابه . إغفالاً يكاد يكون تاماً ، ولا أدري لم ؟ إلا ما كان من قوله آنفاً : إن قصائد أبي الطيب فيه كانت سنة ٣٢٩ ، ثم لم يذكر عنه شيئاً ذا بال سوى هذا التاريخ « المحدد » !! أما أنا فقد عقدت له فصلاً كاملاً مفرداً ، هو الفصل التاسع كله [ هذا الفر : ١٣٩ - ١٥٣ ] ، ورددت ذكره قبل ذلك وبعد ذلك [ اطلبه في فهرس ] ، وحددت شعر أبي الطيب فيه من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ . وجملت لقاء أبي الطيب ببدر أول إسفارتي واضحة عن طبيعة أبي الطيب وأهدافه بعد أن خرج من السجن ، وعن تأملاته وآلامه وحوافزه ، حيث استعملت « عصبية أبي الطيب للعرب والعربية » وهيأت شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العبري المدوي ، هازم الروم .

وقامع المدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق » ، كما قلت [ ص : ١٤١ ] .

وقد أحدث هذا الفصل للأستاذ عزام غمًا شديدًا ، وارتباكًا متعمقًا ، ولم يستطع أن يقول فيه شيئًا في كتابه البتة ، ولم يستطع أن يتمقني كما دتته ، فوقف بحته « المتعب » كله عند مسألة التاريخ التي يذكرها عرضًا بلا دليل للبتة ١١ لأن الدليل لم يكن عنده في كتب التاريخ المعروفة ١١ ولا وجد ذكره واضحًا فيها ، فأخذ تسليًا = ثم اجتهدًا من عند نفسه = من رجل آخر ، أخفى ذكره في هذا اللوضع إخفاء تامًا ، مع أنه ذكره في مواضع أخرى كثيرة من كتابه ، إلا هذا اللوضع ١١

فالأعجمي المستشرق « بلاشير » ، كتب ترجمة لأبي الطيب في دائرة المعارف الإسلامية ، وقد ذكره الأستاذ عزام وذكرها مرارًا كثيرة جدًا في كتابه ، وبأدب جمّ حتى عند أشدّ المخالفة . فكان مما قاله « بلاشير » أن للتنبّي بعد « ثورته » : « رجع إلى احترام اللدبح ١١ واستئناف حياة العجول بداية عام ٣٢٥ ... وقنع بمدح أهل أنطاكية ودمشق وحلب وغيرها وبعض صفار المال في هذه المدن ، اللذين كانوا يقترنون عليه في العطاء كلّ التقدير ( ياسلام ١١ ) . وذاع صيته شيئًا فشيئًا حتى أصبح في أوائل عام ٣٢٨ شاعر الأمير بدر الخرشاني ( هكذا ، والصواب : الخرشني ) الذي ذكره في ديوانه باسم « بدر بن عمار » ، وكان واليًا على دمشق ، من قبل أمير الأمراء السابق ابن رائق ، الذي كان قد احتل الشام وشيكًا . ولما كان بدر من

أهل عربي، فقد اعتبره المتنبّي مولاة الذي كان ينتظره من أميد بعيد .  
ثم يقول : « ولم تدُم صداقة المتنبّي لبدر إلا حوالى عام ونصف عام » .

ثم يقول هذا الأعجمي أيضاً مادة « بدر الخرشني » من دائرة المعارف الإسلامية : « بدر الخرشني ، أمير يرجّح ( يا سلام ١١ ) أنه من أهل خرّشنة ... ويمرّف أحياناً ( لا يا شيخ ) بنسبة ربما كانت أسطورية ( بالعلف ) !  
وهي « بدر بن عمار الأسدي » ، حاجب الخليفة القاهر ... ووُلّي على جند الأردن ، وجعل مقرّه في طبرية سنة ٣٢٨ هـ ، وحوالي هذا الوقت مدحه المتنبّي . وأثناء الصراع بين ابن رائق وأمير الموصل الحداني ناصر الدولة ، عاد بدرّه هو أيضاً إلى العراق ، ونال الحظوة مدة قصيرة لدى الخليفة المتقي ، ولكنه اضطر إلى الالتجاء إلى الفسطاط في مصر عند محمد الإخشيدي . وتوفّي بدير هناك في نهاية سنة ٣٣٠ هـ . »

اللهم اغسلْ حَوْبِي ( أي لثمي ) ، وتقبّل توبتي ، فإن الأستاذ عزام قد أوقعني في إثم كبير بنقل هذا الخلط الخبيث إلى كتابي هذا . وأنا لا أشك لحظة أن الأستاذ عزام قد استقذر هذا الكلام كما استقذرت ، ولذلك لم يذكره في كتابه ، لا فاقلاً ولا مُعلّقاً ولا ناقداً ولا مصحّحاً ، وعلّة ذلك معروفة ، وهو أن هذا الجيل من الأساتذة كان لا يملك إلا أن يقف خاشعاً مُخَبِّتاً بين يدي « العلماء المستشرقين » ! ! فاجدوا من « جديده » أخذوه فاذاعوا به وتقدّروه ، أو انتحلّوه وتابّطوه ، وأما ما وجدوا من « خبيث » فقد أجزّوا عليه السنة في كلّ خبيث ، أن يُضَوّعه وأن يدشّوه في التراب !



وكذلك فعل الأستاذ عزام . وأنا لا أستعمل نقل هذا الخلف دون أن أبين  
مصادره ، وإن كان على هذا لا يتناول مثل هذه الخبايا .

« بدر الخروشي » ، غلامٌ روميٌّ من « خرشنة » في بلاد الروم ، ظلَّ  
يعمل شأنه حتى صار من كبار رجال الدولة . وحين ولي الخليفة المتقي في ربيع  
الآخر سنة ٣٢٩ ، كان بدرٌ ببغداد ، فخلع عليه المتقي ، وقَّله الحجابة ،  
وجعله حاجب الحجاب . ثم جرت له أمور ببغداد ، فصرف عن الحجابة سنة  
٣٣٠ ، وقَّله المتقي طريق الفرات ، فسار إلى الإخشيد محمد بن طنج ، أمير  
حصر ، مستأمنًا ، فأمنه الإخشيد وولاه إمرة دمشق ، فوليا شهرين ، ومات  
حتى ذى القعدة سنة ٣٣٩ . وكذبٌ بحث أن يقال إنه جعل مقره في طبرية  
سنة ٣٢٨ = أو أن يقال : إنه من أصل عربي = أو أن يقال إن المتقي  
حدسه ، إلى آخر هذا الإفك .

وأما « بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني » ، فهو عربيٌّ  
صلبيٌّ من بني أسد ، يقول المتنبي ، وهو أعلم ببدر من يكون ، يذكر  
باسمه كاملاً في شعره ، حيث يقول :

حَدَقَ يَدِيْهِ مِنَ الْقَوَانِلِ غَيْرَهَا      بَدْرُ بْنُ عَمَّارِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ

ويذكر نسبه في العرب فيقول :

طَلَى الْبَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ الَّذِي لَمْ      يَكُنْ فِي غُرَّةِ الشَّهْرِ الْمَلَالَا

سِنَانٌ فِي قَنَاةِ بَنِي مَعْدٍ ، بَنِي أَسَدٍ ، إِذَا دَعَوْا النَّزَالَا

وبنو أسد ، من معد بن عدنان . وهو ليس أسطوريًا ، وليس عند العرب ما يقال له شخص « أسطوري » كالذي عنه الأعاجم ، فقد ذكره محمد بن عبد الملك الغرضي الهذلي ( - ٥٢١ هـ ) ، صاحب تكملة تاريخ الطبري فقال : « وكان بدر بن عمار الأسدي الطبرستاني ، يتقصد حرب طبرية لابن رائق ، وهو الذي مدحه المنفي بقصائد عدة » ، وليس له ذكر في كتب التاريخ المطبوعة التي بين أيدينا ، سوى هذا الكتاب ، وما جاء في ديوان أبي الطيب . ولم يكن واليًا على دمشق قط ، وزال بحمد الله الخبث والتلطط . فهما إذن رجلان مختلفان لرجل واحد ، أحدهما حقيقي والآخر أسطورة !! هذا مجرد عبث بارد .

ثم إن الاحتاذ عزام الذي اجتنب هذا الخبث فلم يذكره في كتابه عن المنفي ، واقتصر ، وهو في حيرة من أمر ما قرأه في كتابي ، على أن ذكر « بدر بن عمار الأسدي » في مواضع قليلة ، ولم يؤرخ له إلا في أول الكتاب ( سنة ٣٢٩ ) ، واستخرج هذا التاريخ استخراجاً من بين التواريخ التي ذكرها بلاشير في تحاليله السالفة بين « بدر الخرشني » و « بدر بن عمار » ، وكان الأستاذ كان في ريبة من أمره .

وقد كنت في حديثي معه في دار مجلة الرسالة ، قد أشرت إلى هذه الذي كان منه في شأن « بدر بن عمار » وإغفاله ، ومضت سنوات منذ

سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ، حين نشر الأستاذ ديوان المتنبي ، وبذل جهداً كبيراً في الجمع بين النسخ المختلفة للديوان ، وكتب له مقدمة طويلة ، وعقد فيها باباً بعنوان « ترتيب الديوان » ، وذكر القسم الأول الذي لم يورخ ، وكان كلامه مؤمهاً أن بعض هذا القسم قد عُرِف تاريخه في بعض النسخ المخطوطة ، وليس هذا صحيحاً ، والتواريخ المذكورة فيه هي مما أودعه هو كتابه عن أبي الطيب ، ولكنه انتهى أخيراً إلى غلبة الظن بأن ترتيب هذا القسم موضوع على الترتيب التاريخي ، ولم يزد على أن قال متواضعاً في هذه المرة : « ولم أعرف في ترتيب هذا القسم ما يخالف الترتيب التاريخي ، إلا القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد . فقد قدرتُ أنهما نظمتا سنة ٣٢٩ » ، إلى آخر ما قاله في كتابه عن أبي الطيب . وقد أزلنا نحن إشكالهما آنفاً بحمد الله ، وبقي ترتيب المتنبي للقسم الأول من ديوانه سليماً مطابقاً للترتيب التاريخي .

ولما بدأ الديوان ، لم يتدخل الأستاذ عزام في حواشي الكتاب بشيء ، فإنه لما بلغ قصيدته التي قالها في سجنه ، وزعم في كتابه وفي مقدمته أن « الخرشني » هو « بدر الخرشني » ، وأن تاريخها هو سنة ٣٢٤ أو ٣٢٥ ، لم يعلقَ شيء في داخل حواشي الديوان = ولما بلغ القصيدتين التي قالهما في « مساور بن محمد الرومي » ، والتي أرخهما في كتابه وفي مقدمته بسنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ ، لم يعلقَ أيضاً بشيء في داخل حواشي الديوان . وقد أحسن إذ لم يفعل ، وليته استمرَّ على ذلك ! غير أنه لما بلغ مدائح

أبو الطيب في « بدر بن عمار » ، لم يملك نفسه ، فقد كان حديثي يورقه منذ سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ، فأحدث هذا التعليق ، وهو التعليق الفردي الذي جاء به من عند نفسه ، في هذا القسم الأول ، لا بل في سائر الكتاب قال :

« قصائد بدر بن عمار » يسهل تأريخها ، فبدر كان إلى طبرية من قبل ابن رائق . وكان استيلاء ابن رائق على الشام سنة ٣٢٨ ، وقتل في رجب سنة ٣٣٠ ، قصائد بدر نظمت بين هذين التاريخين . ثم أبو الطيب في القصيدة الآتية التي مطلعها : « بقاى شاء ، ليس ثم ، ارتحالاً » ، يدح بدرأ بقوله :

حسام لابن رائق للرحى ، حسام للثقي أيام صالا

وكانت خلافة الثقي في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ ، فقد نظمت هذه القصيدة بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، ورجب من السنة التالية . والظاهر أن القصائد الأخرى توالفت قبل هذه القصيدة . فشمس الثقي في « بدر » ينبغي أن يورخ بسنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

وهذا كلام في غاية الغموض والإبهام والاضطراب ، سقيم التركيب لا يتركب على هذا الوجه إلا في نفس تركتها الرعدة تدور في مكان ضئلك ، أشلاء مطايرة ، وألفاظاً في ظلمة تصادم ، ليس هذا خيالاً ، بله

هو تصوير الحقيقة . إجمالاً ، فانظر إلى سياق منطقته ا ولكن ينبغي أن تعرف ، أوّل كل شيء ، أن عدد القصائد التي قالها المتنبي في بدر بن عمار (هـ) خمس قصائد لا غير ، و ٢٣ مقطوعة . وهو كلام يتركّب من ثلاث مقدمات ونتيجة ، وهذا تشقيقه وتحليله :

المقدمة الأولى : « قصائد المتنبي في بدرٍ قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ » .

المقدمة الثانية : « القصيدة الثالثة ، نظمت بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، ورجب سنة ٣٣٠ » ، ( بينهما سبعة عشر شهراً ) .

المقدمة الثالثة : « الظاهر أن القصائد الأخرى ( الأربعة ) توالّت قبل هذه القصيدة = أى قبل القصيدة ( الثالثة ) .

النتيجة : « فشر بدرٍ ينبغي أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ » .

وأنا أرجّح أن ( المقدمة الأولى ) لم تذكر إلاّ تمهيداً وحصرّاً لما يأتي بعدها ، وإلاّ صار الكلام سُقماً خالصاً كلّّه ، لأنه يناقض ( النتيجة ) ، ولكنه أساء التعبير .

وأما ( المقدمة الثانية ) : فهي تجعل ( القصيدة الثالثة ) متردّدة بين طرفين في زمن مقداره سبعة عشر شهراً = ممكن أن تكون في الشهر الأول ،

أوالذى يليه ، إلى الشهر السادس عشر ، (٩) تسعة أشهر فى سنة ٣٢٩ ،  
و (٧) أشهر فى سنة ٣٣٠ . كل ذلك جائز .

وأما (للقعدة الثالثة) : فجعل ظاهر الأمر أن القصيدتين الأولى  
والثانية ، والقصيدتين الرابعة والخامسة ، قالها للتنبى متوالية قبل ( القعدة  
الثالثة ) ، أى هى تابعة لقعدة مترددة بين طرفين فى زمن مقداره ( ٩ )  
تسعة أشهر فى سنة ٣٢٩ ، و (٧) أشهر فى سنة ٣٣٠ .

ومعنى ذلك أننا إذا فرضنا أن ( القعدة الثالثة ) قيلت فى رجب سنة  
٣٣٠ ، فالقصائد الأربع الأخرى التى توالى قبلها ، ممكن أن تقع جميعاً فى  
الأشهر الستة الأولى من سنة ٣٣٠ فقد خرجت ( سنة ٣٢٩ ) خروجاً كاملاً  
سهلاً من تاريخ هذه القصائد !! أليس كذلك ؟

فكيف يمكن إذن أن تكون ( النتيجة ) الخامسة : « فشمز المتنبى ينبى  
أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ ؟ » « ينبى » ، باللمجب ! هذا هو السهل المتنبى ! ! .  
وهذا السهل المتنبى ، هو الذى يجعله سهلاً عليك أن تقبل متى ما وصفت  
به هذا الكلام ، وأنة حقيقة واقعة ، لا خيال فيها !

لا ، بل إذا فرضنا فرضاً آخر ، وهو أن ( القعدة الثالثة ) قيلت فى  
أول ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، كان ممكناً أن تنزحزح معها القصائد الأربع  
الأخرى ، راجعة للتقترى ، حتى تدخل جميعاً فى سنة ٣٢٨ دخولاً مريحاً  
ربما انتهى إلى أوائل هذه السنة . فكيف يمكن ، إذن ، أن تكون  
النتيجة الخامسة : « فشمز المتنبى ينبى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ ؟ باللمجب ! .

جائز جداً أن يكون الأستاذ لم يتعلم الحساب قط ، ولكن ليت شعري  
 هل يجوز أن يكون ضعيف الذاكرة أيضاً ضمناً يحمله ينسب ماقاله في كتابه  
 الذي هو « أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر » ، والذي هو « جديرٌ بعناية  
 كلٍّ معني بسيرة أبي الطيب وشعره ، وحقيق بثقة كل قارئ » ، فإنه قال هناك  
 على وجه القطع : « قصائد بدر التي نظمت في أواخر سنة ٣٢٨ ، وأوائل سنة  
 ٣٢٩ » ، بهذا التحديد الحاسم وللبهم أيضاً ، وأيضاً بنير دليل ؟ وإذا صح  
 أنه قد نسي ماقاله في كتابه سنة ١٩٣٦ ، فكيف تذكر في سنة ١٩٤٤ أن  
 يفتله ينصه في مقدمة الديوان الذي فيه تحديد التاريخ بسنة ٣٢٩ ، على وجه  
 القطع بقوله « ينبغي » ؟ بالمعجب ! إنه : كما قلتُ آنفاً ، كلامٌ ، والله تعالى  
 لم يخلق لنا الألسنة إلاّ للكلام ، فإذا فعلنا ، فذلك لإقرارنا منا له سبحانه  
 بعظيم نعمته ، والحمد لله رب العالمين .

وفي هذا الكلام آفاتٌ أخرى كثيرة ، أنا أعلم من أين أنت ، ولكنني  
 لأتركها جانباً ، وأحلّ لما فيها الرجل الذي أخذ الأستاذ عنه ، وإن لم يصريح  
 بذلك . قلتُ آنفاً في ( المقدمة الأولى ) التي قال فيها : « قصائد اللقي في  
 بدر قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ » ، قلت : « إنني أرجح أنه  
 لم يذكرها إلاّ تمهيداً وحصرًا لما يأتي بعدها » ، إفراطاً في حسن الظن ،  
 وتبرئة لكلامه من التناقض الفاحش . وهذا التاريخ المحدّد في ( المقدمة  
 الأولى ) إنما هو تاريخ ابن رائق منذ ولايته على الشام سنة ٣٢٨ إلى أن نقل  
 على رجب ٣٣٠ ، وليس تاريخاً لبدر بن عمار ، حتى يصحّ أن تكون مقدمة  
 حاصرة لما يأتي بعدها من التواريخ .

كل ما في الأمر أن بدر بن عمار الأسدي « كان على حرب طبرية من قبل ابن رائق » ، كما قال المتنبي نفسه ، أي أن ولايته تبدأ سنة ٣٢٨ حين ولّاه ابن رائق . فإذا قُتل ابن رائق في رجب سنة ٣٣٠ ، أفغنى ذلك أن يكون ابن عمار قُتل هو الآخر ( أتوماتيكياً ) في هذه السنة ؟ أو معناه أن يكون صُرف عن ولاية حرب طبرية ( أتوماتيكياً أيضاً ) ساعة قتل ابن رائق ؟ من أين للأستاذ أن يكون العمل الجارى في الولايات أى يُصْرَفُ كُلُّ العمال عن ولاياتهم ، إذا مات أو قُتل الذى ولّاهم ؟ أليس يمكن أن يكون ابن عمار بقى على حرب طبرية بعد قتل ابن رائق ، سنة أو سنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، أو فوق ذلك ؟ ممكن بلا شك ، وإذا كان هذا ممكناً ، فما قيمة هذا التاريخ ، « سنة ٣٢٨ إلى رجب سنة ٣٣٠ » في الخضر المؤدّى إلى حصر تاريخ شعر المتنبي في يدري بين هذين التاريخين ؟ الأمر كُلُّه فسادٌ وخَلَطٌ ودَعْوَى ، ورغبةٌ في مخالفتي ، لا أكثر ولا أقل ، لأنى قلت في كتابي : إن المتنبي بقى في جوار بدر بن عمار : « من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٢ على وجه التقريب ، لا على وجه التحقيق » [ انظر السمر الأول س : ١٤٠ ] ، هذا كُلُّ ما في الأمر « والسلام » . وكلُّ ما في الأمر أيضاً أن الأستاذ عزام ظل ثمانى سنوات ( من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ) ينتفضر في قبضة كلاتي التي قتلها له ونحن في دار مجلة « الرسالة » ، لحاول هذه المحاولة « اليتيمة » البائسة ، في الردّ على من وراء حجاب أمتا عقول القراء ، وأما التحقيق التاريخي ، وأما أمانة العلم ، فأمر لاقية لها ، مادام قد بَلَغَ في يَظَنُّه مبلغاً حتى سَمِعَ في يَدِي ، وأطرقت أنظر إلى الأرض ، أقرع السنن من ندم على ما قلت .



هكذا كانت تجري الأمور ، ولا تزال تجري ، على المثل الجارى :  
 « مِنْ دَقْنُهُ وَأَقْتَلَ لَهُ » ، يَأْخُذُونِي وَيَرُدُّ عَلَيَّ ! وَيُظَنُّونَ أَنَّهُ بَابُ خِيَّتِي مِنْ  
 أَبْوَابِ عِلْمِ « السُّلُوكِ » ، فَسَبَّحَانَ رَبَّنَا الْأَكْرَمِ ، الَّذِي عِلْمٌ بِالْقَلَمِ ، عِلْمُ الْإِنْسَانِ  
 مَا لَمْ يَعْلَمْ !

إنما عرضت مثلاً مما فى الكتاب لا أكثر ، أما سائر ما أخذه الأستاذ  
 عزَّام اجترأ مجرداً ، أو سطواً عربانياً ، فلم أتمرص له هنا ، وقارىء كتابى  
 وكتاباه قادرٌ على أن يراه ، كما رأى بعضه ذلك الشاب المراقى الذى لم يدخل  
 « جامعة » ، ولكنه ثَقَّفَ نفسه بالقراءة ، وهو جالسٌ فى دكانٍ صغيرٍ يبيعُ  
 فيه الكتب ، فكتب إلى رسالة يذكر فيها أكثر من ثلاثين موضعاً فى  
 كتابى ، أخذها الأستاذ فوزَّعها بالعدل والتسلسل على أبواب كتابه ، ورحم  
 الله الشابَّ قاسمَ الرَّجَبِ الْكُتُبِيِّ ، فقد كان مثلاً لا يتفطَّرُ فى شبابٍ وشيوخٍ  
 كثيرٍ ، قد نامت عقولهم واسترختْ « تحت التخدير الثقافى » !

• • •

## الكتاب الثانى

أما الكتابُ الثانى . . . أما الكتابُ الثانى . . . أما الكتابُ الثانى ،  
 وأمرنا جميعاً إلى الله ، فهو كتابُ الدكتور طه حسين « مع المتنبى » الذى  
 نشره بعد صدور كتابى بسنة واحدة أو أقل .

قلتُ آنفاً [ انظر ماسلف من : ٤٦ ، ٤٧ ] إنى حين قرأت شهادة الدكتور

مله على جيلنا المفرغ من ثقافة أمته في سنة ١٩٣٥ ، توهمت ، بحسن الظن ، أنه سوف يبدأ عهداً جديداً في تفكيره ، وأنه سيفارق السُّنة التي سَنَّها هو والأساتذة الكبار ، أعنى سُنَّة « السطو » وسُنَّة التلخيص ، ولما فرغت من من قراءة آخر مقالاته في مايو سنة ١٩٣٥ ، وجدتُ أيضاً أنه يُحاول محاولة أن يسلك طريق « تذوق الشعر » [ انظر ماسلف : ٤٧ ] ، وهو الطريق الذي حاولتُ قديماً ، وأنا طالبٌ في الجامعة أن أقنعه به فيأبى ويُعرض ، وذلك الطريق هو كما قلت : « ضرورة قراءة الشعر الجاهلي والأُموي والعباسي قراءة متذوّقة مستوعبة ، ليستبين الفرقُ بين الشعر الجاهلي والإسلامي ، قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية ، والتماس الشُّبه لتقرير أنه باطلٌ النسبة ، وأنه موضوع في الإسلام ، من خلال رواياتٍ في الكتب ، هي في ذاتها بحاجةٌ إلى النظر والتفسير » [ انظر ماسلف : ٣٣ ] :

ثم قلت : [ ص : ٤٧ ] واصفاً تذوّقه للشعر في مقالاته : « ولكنه تذوّقٌ بلا منهج ، وبلا هدفٍ ، وعلى غير أصلٍ . وإذا أنا غلطٌ في الأمرين جميعاً فادحاً .

وجاء أسبوع الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة أبي الطيب ، بدار الجمعية الجغرافية سنة ١٩٣٦ . وقبيل ذلك بأيام كان قارئ الدكتور طه المصاحبة ، قد لقيني في الطريق ، فأخبرني أن صاحبه يرى أن المتنبي « لَقيطٌ لَقيّة » ، فاستكبرت ذلك واستفكرته مستعيذاً بالله من سوء ما أسمع . كنتُ لم ألقَ الدكتور طه منذ فارقتُ الجامعة في سنة ١٩٢٨ ، حتى كان أسبوع هذا

الاحتفال . وفي أول يوم من الأسبوع بدأ الدكتور طه محاضراته ، واستفتحتها قائلاً : « لقد شكَّ بعضُ الناس في نسب المتنبّي ، وأنا أواقفه على هذا الشكِّ » ، فكذت أقوم من فوزي لأردّ عليه ، ولأعلمه أنّي حاضرٌ غير غائب ! فقد غاطني زهوّه وخيلاؤه ، وعُجبُهِيته وهو يرثي ألفاظه ترتيباً ، ليجمع أنظارَ الناس إلى تخرّج كلماته ، كمادته في الزّهو . وكان إلى جوارى أحدُ الأساتذة المقرّبين إليه ، فأحسّ بما هممتُ به فأمسكني وقال : لا تعجل ! فقلتُ له : إذن : فأبلغ الدكتور طه أنّ موافقته أو مخالفته لا تساوي عندي « قرشاً ماسحاً » تتلافظه الأيدي في الأسواق ، لأنّه لفظة لا تصلح للتداول ! وانهت المحاضرة .

وعند انصرافي رأيّ أستاذنا عبد الحميد العبادي رحمه الله ، فأقبل وأخذ يبيدي وخرجنا من القاعة ، وإذا نحن فبجأة عند الباب خلف الدكتور طه حين انصرافه ، فعزمَ على أستاذنا العبادي أن أسلمَ على الدكتور ، فاستعان غصني وأبيت ، ولكن لم أكُ حتى سمعته يقول للدكتور : هذا محمود شاكر ، يادكتور ! فوقف ، والتفت الفتاة بسيرة ، ومددت يدي فسلمتُ ، وغلبني الحياء والجلُّ فما لقيني به من قرط البشاشة والخفاوة ، ثم أخبرني أنّه قد قرأ كتابي كله ، وجاء بثناء لم أكُن أتوقّعه ، وأطال وأفاض ، وعمرني ثناؤه حتى ساخت بي الأرض [ انظر خبر ذلك في السفر الثاني : ١٧٣ ] . فأتّ لسانِي في قمي ، فلم أستطع أن أنبس بحرفٍ حتى فرغ ، وهو أخذ يبيدي لا يزلّسها ، إلى أن ركب ، وافترقنا . خير أن صاحبتنا الذي كان إلى جوارى ، لم يكذب خبراً ، فأبلغ الدكتور طه رسالتِي إليه ، لأنّي لم أكُ

أبلغ باب دار الجمعية الجغرافية في اليوم التالي ، حتى وجدتُ صاحبنا على الباب ينتظرني ، ويأخذني إلى الدكتور طه ، فإذا هو جالسٌ ومعه الدكتور منصور فهمي وأستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرزاق وآخرون ، فاستقبلني الدكتور مهلاً ضاحكاً أشدَّ ضحكٍ وهو يقول : لا تخرجُ أن تكونَ صعيدياً ، كما كنتُ قديماً !! واستمرَّ الحديثُ بيني وبينه وبين الجماعة ساعةً ، حتى دُنا ميعادُ محاضرة اليوم ، فقمنا إليها ، [ انظر طرفاً من الحديث في السفر الثاني ص : ٤٧ ] .

تصرَّم الأسبوع كله ، فلا أنا سمَّيتُ إلى لسانه مرَّةً أخرى ، ولا هو ذكرني فناداني ، ولكنتي ، في الحقيقة ، قضيتُ بقية الأسبوع أقلبُ أمرَ الدكتور طه في نفسي ظهراً لبطني ! لم أرتح إلى هذه الخفاوة المُعْرِطَة ، ولا إلى حديثه المُسَهِّبِ الذي يَرشِّحُ ثناءً وإطراءاً ، ورأيتُ ما رأيتُ من أمره ، لأنِّي أعرفُه معرفةً !! فلما لقيتُ الشيخ مصطفى عبد الرزاق في داره بعد أيام ، وكان قد ذكرني في كلمته التي ألقاها في أسبوعٍ للتَّجَنُّبِ ، بَلَّغْتُ الشيخَ ما في نفسي من الارتياحِ في أمر الدكتور ، وأنِّي مُقْبِلٌ غداً على تَجَرُّعِ إحدى قَمَلَاتِهِ ! فاستنكر الشيخُ حديثي استنكاراً شديداً ، وغضبَ مُزَوَّراً عن كلامي ، وقال لي : لا تكُنْ سَيِّءَ الظَّنِّ بِأستاذك ! وأمسِكَ عليك لسانَكَ وأوهامَكَ ! ورحمَ اللهُ الشيخَ ، فقد كانت صداقته للدكتور طه وحبُّه إياه يزبدان في سلامة طويِّتِهِ !! ويقدَّدان بها على شَفَاخُفَرَةٍ هاوية لا يراها ويأبى أن يراها ، « وعَيْنُ الرِّضَا على كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ » ! ولا أدري بمدى ذلك ما كان ؟ وهل أحسَّ ساعةً أن الدكتور طه قد خَذَلَهُ وخَذَلَ فَقَتَهُ ؟

حَدَّثَنَا كَبِيرًا ، أَوْ لَا ؟ فَإِنْ كَلَّ مَسَمِعَهُ الشَّيْخَ مَنَى مِنْ شَكْوَيْهِ وَرَبَّيْ ،  
 سُرْعَانَ مَانَعَتِي ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي فَصَّلْتُهُ لَهُ تَفْصِيلًا صَرِيحًا . وَكَانَ مَا كَانَ ،  
 وَ « رَجَعْتُ رِيَّةً ، إِلَى عَادَتِهَا الْقَدِيمَةِ » ، كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ ، بَلْ هِيَ لَمْ تَفَارِقْ  
 عَادَتَهَا قَطْ ، وَلَا تَمْلِكُ أَنْ تَفَارِقَهَا ضَرِبَةً لَا زَب .

• • •

فِي بَنَارِ سَنَةِ ١٩٣٧ ، أَيْ بَعْدَ أَقَلِّ مِنْ عَامٍ مِنْذُ ظَهَرَ كِتَابِي ، كَانَ  
 حَامِلُونَ قَعْمَهُ ، كَالَّذِي حَدَّثْتُ بِهِ الشَّيْخَ حَدَّثُكَ الْغُدَّةَ بِالْقُدَّةَ ، كَمَا يُقَالُ فِي هَذَا  
 الْمَثَلِ وَإِخْوَتِهِ . نَشَرَتْ « لَجْنَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنَّشْرِ » كِتَابَ الدَّكْتُورِ  
 حَلَمَ « مَعَ اللَّغْزِيِّ » فِي جَزَمَيْنِ كَبِيرَيْنِ ١ وَقَدْ حَدَّثْتُكَ قَبْلَ ، [ ص : ٦٦ ] ، أَنَّ  
 الدَّكْتُورَ طَهَ فِي سَنَةِ ١٩٣٥ ، وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا ، « كَانَ فِي فِتْنَةٍ بِجَدِّهِ الَّذِي  
 حَازَهُ بِالضُّعْجَةِ الَّتِي ثَارَتْ حَوْلَ كِتَابِهِ « فِي الشُّمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ » ، وَأَنَّهُ كَانَ  
 جُيُودِيَّةً وَبَقِيَّةً عَلَى ذُرَاهَا ، يَمْلُؤُهُ الزَّهْوُ ، وَتَسْتَحْفِظُهُ الْخَيْلَاءُ ، وَيَمِيدُ  
 بِهِ الْعُصْبُ » .

اشْتَرَيْتُ الْكِتَابَ ، وَكَانَ خَسَارَةً ١ وَلَكِنْ أَيْنَ الْفَرْ؟ فَكُلَّ حَبِّ  
 الْقَمْرَاءِ مِثْلِي يُوقِعُهُ حَبِّهِ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا فِي الْخُسَارَةِ بَعْدَ الْخُسَارَةِ ، ثُمَّ لَا يَقُوبُ ١  
 هَكَذَا كُتِبَ زَمَانُنَا الْقَدْ جَلِبْتُ عَلَى نَفْسِي شَرًّا كَبِيرًا ١ ١ شَرَعْتُ أَقْرُوهُ ،  
 وَأُجَارِكَ اللَّهُ وَعَصَمَكَ مِنْ كُلِّ تَلَفٍ . وَقَعْتُ فِي مَهْلَكَةٍ مِنْ غَمٍّ مَطْبُوقٍ  
 تَقْوِيَسٍ مِنْ كُلِّ نِيْمَةٍ . سِتْ صَفَحَاتٍ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ [ مِنْ إِبْر : ٣ إِلَى ص : ٨ ]

وأنا نمت أقدام مَزْهُوَّة ، وخطوات تَتَبَخَّر ، ونمت مواطىء عُجْب غليظة  
يدوسنى جَيِّنَةً وذُهوياً ، منذ أول سطر :

« لا أريد أن أدرس المتنبى ... لم أترك القاهرة إلى فرنسا للبحث  
والدرس ... كتب لا أستجيب لها إلا حين أدعُ مصر وأعزلُ المصريين ..

لا أريدُ إذن أن أدرس للمتنبى ... فررت بنفسى وأهلى من الدرس  
والتحصيل ... أكره لنفسى أن أمضى فى درس المتنبى ... أكتفى بأيسر

طبعة من ديوان المتنبى لأنى لا أريد درسا ولا بحثا ... ليس المتنبى من أحبه  
الشعراء إلى ... هو بعيد كل البعد أن يبلغ من نفسى منزلة الحبيب

والإيثار ... أحب أن أعاند نفسى وأخذها من حين إلى حين ببعض  
ماتكرة من الأمر ... لم أجد بأسا أن أقفل على نفسى ... بالتحدث إلى

المتنبى إذن ... إنما هى قراءة المتنبى ... لا أريد أن أدرس المتنبى  
إذن ... إنما هى قراءة المتنبى فى غير نظام ولا مواظبة ... قراءة إن

صورت شيئا ، فإنما تصور طغيان المرء على نفسه ، ولمبه بوقته وعَيْبَتُهُ بعقله ،  
وعصيانته لهواه ... قل ماتشاء فى هذا الكلام الذى تقرأه . قل إنه كلام

يُمْلِئُ رجلٌ يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلامٌ يهذى به صاحبه هذيانا ، قل إنه  
كلام يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلامٌ يصدر عن شذوذٍ ومجوح ، فأنتم

محققون فى هذا كله ... ما أظننى أعرفُ أدبا مقيدا مسرفا فى التعرُّج ، غالبا  
فى الاحتياط ، كأدبنا العربى الذى ينشئه أصحابه وهم يفكرُون فى الناس أكثر

مما يفكرُون فى أنفسهم ، حتى أطمعوا الناس فيهم ، وأصبحوا عبيدا للجماعة ،  
وخدماء للقراء .

« فلنتمرد على الجماعة ، ولننزع بالقراء ، ولننزع الاحتياط ، إلا هذا الذي

يثير الشر ويؤدي الأخلاق » ، انتهى تلخيصه ، من [س : ٣ ، إل : ٨] .

« لا أريد أن أدرس المتنبي » ، « ولا أريد بحثاً ولا درساً » ١١ زهو  
بفيض ، وخيلاء نابية ، وعجب لا يرحم بائساً رماه حُب القراءة في تنوير  
وقوده من زهرير ترزق قارسة . و « شئشنة أعرفها من أخزم » ،  
فهو دائماً يحب أن « يعيظ » القراء ، وأن يثير « سخطهم » ، وأن يماند نفسه  
و « يماند » الناس . سلسلة طويلة مكررة من الاستملاء والاستخفاف .  
ومضيتُ أقرأ محملاً ما حلتُ ، فرأيتُ الدكتور قد صدق وعيده حيث  
لا خير في الصدق ، فما هو إلا « الذي يثير الشر ويؤدي الأخلاق » ،  
كُلُّ ذلك فعلٌ ، وجاوزه إلى أكبر مما قال وأخشى ، حتى فرغ من الكتاب .  
ولكنني فوجئت بفصل في ثمانى صفحات [س : ٧٠٤ - ٧١١] ختم به  
كتابه ، بعنوان « بعد الفراغ » ، لا يقلُّ عن الفصل الأول إغراقاً في  
الزهو والمُجِبِّ وأُتْلِيَاء ، ولكنه جاءني أنا وحدي بأعجب العجائب ،  
فعرّفتني بشأن من شئون الدكتور لم أكن أعرفه أو أعهده ، من ذلك أنه  
رجل نساء ، ينسى كُلَّ ما يهضِبُ به لسانه نسياناً كاملاً في أقل من نصف  
سنة ، ثم يمود فيذكره ، فيقفض على نفسه ما قاله آنفاً نقضاً مبرماً !

وبيان ذلك : أنه كان مما قال لي يوم دار الجمعية الجغرافية ، على مشهد

من الأستاذة وقولاً حوله<sup>(١)</sup> : « يا فلان ؟ اعلم أنى قرأتُ كتابك مرتين ، بل ثلاثاً ، ولا أظنُّ إلا أنى عائدٌ إلى قراءته مرّات ، وأنا أشهدكم ( هكذا قال ) ، أنى لم أقرأ منذ سنوات كتاباً مثل هذا الكتاب ، ولا أستثنى ، لافى العربية ولا فى غير العربية ، لا عن الشعراء ولا عن غير الشعراء . وأشهد أنى ما قرأته مرة ثم عدت إليه أقرؤه ، إلا وجدتُ لذةً أخرى فوق التى وجدتُها فى المرة السالفة . وأشهد أنك مثلت لى المنفى تمثيلاً ، وأنتك أحقيقة إحياء كأنى أراه وأسمعه . وأشهد أنك درست للمنفى كما كان ينبغي أن يدرس ، وأشهد أنك صوّرت المنفى كما كان يعيش ، أو كما كان ينبغي أن يعيش . وأشهد ... » ، وثناؤه آخر طويلاً ، فقد وجد لسانه لذة ( أشهد ) ، فراح يكرّرها على عادته .

و ( من نفسى ) ، أحبُّ أنا أيضاً أن ( أشهد ) شهادةً واحدةً على نفسى :

(١) قلت فى هدى لكتاب الدكتور ، المنشور فى السفر الثانى من : ١٨٣ ، مانعه : « إن الدكتور طه نفسه ، فى أول لقاء لى معه فى يوم من أيام أسبوع المنفى بالجمعية الجغرافية ، وقف يثنى على كتابى بما أستحى أن أردّده فى هذا المكان من كلامى . ثم أترف بأن أحداً لم يسبقنى إلى توقيت قصائد المنفى هذه ، وأنه قد رضى كل الرضا . . . إلى آخر كلامه الذى أذكره ولا أنساه . قلت هذا فى مايو سنة ١٩٣٧ ، والذى أذكره هنا هو بعض ثنائه يومئذ ، ولا بأس إن شاء الله ، لأننى أقصُّ قصّةً ، ولا حياء فى القصص ، فيما أظن !! »



لأنني لم أجد لإسهابي يومئذ في الثناء ، ولا لإغراقه في الإطراء ، بعض الذي وجدته لثناء الرافعي حين ذكر كتابي ، ولا بعض الذي وجدته من الراحة والبهجة في صمت العقاد عن كتابي ، [ انظر ماسكس : ١٠٣ - ١٠٥ ] ، بل الذي وجدته جاثماً في نفسي بعد فراقه ، هو ما أنضيت به إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، لأنني كنت خبيراً بالرجل أعرفه معرفة ، و « خُرُ أَيْ بالرِّيقَاءَ لَيْسَتْ تُسَكِّرُ » ، أو هي ليست تسكرني أنا على الأقل ؟

قال ما قال ثم نسيه ، هكذا ينبغي أن أظن ! وبعد أن فرغ من كتابه تذكر ما قاله ، فأخذه ، فأكله ، فضغه فأجاد مضغه ، ثم ابتلعه ، ثم عاد فاستخرجه ، فأنشأه خلقاً آخر ، فقال : « الأمر الثاني أني أبعدُ الناس عن حسنِ الرأي فيما أملتُ ، ولا تظنَّ أني أريد التواضع = أو أن أغضَّ من هذا الجهد الذي أنفقته . . . إنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صورَ شيئاً ، فهو خليق أن يصوِّرني أنا في بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضي (١١) ، أكثر مما يصوِّر المتنبى » ، ( وهذه حقيقة كتابه هذا ، لكن من غير الوجه الذي أراده هو ١١ ) . ثم قال بعقب ذلك مباشرة : « وإنه لمن التورود أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر النثر ، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ ، أو بالمواطف والخواطر التي يثيرها فيها ما قرأ ، فأملى هذا أوسجَّله في كتاب ، ظنَّ أنه صورَ الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغي أن يُدرَس ، على حين أنه لم يصوِّر إلا نفسه ، ولم يعرض على الناس إلا ما اضطربَ فيها من الخواطر والآراء » ، وفهمت أنا تمريضه الخفي ، وفهمت أيضاً ( نظرية

الاحظاظ ١) التي أتى بها بعد ذلك ، حين استمرّ يتكلم ... حتى سكّت ... ووضعتُ الكتاب جانبا ، وعزمتُ أنا على أن أنكم .

وفي ١٣ فبراير سنة ١٩٣٧ ، كتبتُ المقالة الأولى ، من المقالات التي جعلتُ عنوانها : « بيني وبين طه » . وحين بدأتُ أكتب ، كنت قد حدثتُ طريقى تحديداً كاملاً ، وهو أن أواجه الدكتور طه بثلاث حقائق : الحقيقة الأولى أنه ، في أكثر أعماله ، « يسطو » على أعمال الناس سطواً عريانياً أحياناً ، أو سطواً متلفعاً بالتذكي ، والاستعلاء والمجيب أحياناً أخرى = والحقيقة الثانية أنه لا بصّر له بالشعر ، ولا يحسن تذوقه على الوجه الذي يتيحُ للكاتب أن يستخرج دقائمه وبواطنه ، دون أن يقع في التدليس والتلفيق = والحقيقة الثالثة أن منطقته في كلامه كله مُحْتَلٌّ ، وأنه يستزمر بالتكرار والترداد والنثرية . ولم أجد بُدّاً من هذه المواجهة ، لأني يوم فارقت الجامعة ، سنة ١٩٢٨ فارقتها « ومعنى ذلك العجز ، يومئذٍ ، على مواجهته برأى في تفاصيل « سُنّة السطو » التي سنّها لتلاميذه من بعده = ومعنى أيضاً ما أجده في نفسى من البشاعة ، بشاعةِ ادّعاء المرء امتلاك ما يسطو عليه ، كأنه مما اهتمدى إليه ، واستحقّ نسبته إلى نفسه بعد طول معاناة في البحث وشقاء في الدرس = وأن عجزى ، كان عن مواجهته بلسانى ، غير متميّب ولا متأدّب ، كان يهدمُ نفسى هدمًا ، وينسفُ أدبى نسفًا ، ويتركُ في ضميرى غُصّةً تأبى أن تزول : كان شيئًا بشمًا لا أطيعه » ، [ انظر ماسلنس : ٢٤ ] . كان ذلك كله مما أجده ، لأنه كان أمرًا يَشْنِي ، لا ، بل لأنه كان يسُنُّ سُنّةً مُتلفّةً مفسدةً للحياة الأدبية والحياة

العملية والحياة النفسية في الجيل البائس الذي أنا منه ، بسطوه سطوا عربا  
على مقالر الأعجمي المستشرق « مرجليوث » ، ثم بسطوه على آخرين لم  
أذكرهم سطوا متلفعا بالتذاكي والاستعلاء والمعجب . ذلك عجز كان ،  
ثم انقضى .

أما الآن ، فلا وإذا كان غيري قد قبل راضيا بما يفعله الدكتور  
يجهده ونصيبه ومماناته ، أو قبل ذلك صامتا على مضض ، انقاء لمرة لسانه ،  
أو هيبه لما حازه من المجد والذكر والصيت ، أو خفاة من سوء ظن  
الناس به ، أو رجاء تلخير يتوقمه على يديه ، فإني أبيت . أبيت في سنة  
١٩٣٧ أن استخذى لهذا السطور والإرهاب (الثقافي) ١١ وأخذت هذه المقالة  
الأولى ، وذهبت إلى دار صحيفة « البلاغ » ، إلى أستاذنا إبراهيم عبد القادر  
الساكني ، وسألته أن يقدمني إلى صاحب « البلاغ » عبد القادر حزة باشا ،  
ولم أذكر له شيئا مما أريده ، فقدمني إليه وانصرف . وبعد حديث قصير  
عرفته فيه بنفسه ، أخرجت المقالة ومددت يدي بها إليه ، وقرأ العنوان :  
« بين وبين طه » والأسطر الأولى ، ثم نظر إلى ، وقال بهدوء الركين :  
قد قرأت عدد المقتطف ، ولكني لم أر كتاب الدكتور طه . ثم عاد يقرأ  
حتى فرغ . ثم وضع المقالة أمامه على مكتبه ، وقال لي : لماذا كل هذا  
المنف ؟ فبدأت أحدثه عن أولية أمري مع الدكتور طه في الجامعة ، حتى  
بلغت ما كان منه يوم دار الجمعية الجغرافية ، وما أفضيت به من شكوكي  
إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وما تحقق من هذه الشكوك بآلافه كتاب

« مع الغنى ». وكان حُسن استماعه لى وإصغائه ، يزيدنى عُنفًا فى الحديث ، فلما بلغت الغاية وسكت ، قال لى : ألا تخافُ لذَّة الدكتور طه ؟ فقلتُ : لى لا أهابة ، بل أنا أعرفُه ، وأعرفُ أنه إذا ما قرأ المقالة الأولى وما بعده سوف يعرف ما عندى . والذى عندى من أدلة سطوه على كتابى ، مادةً وأسلوبًا وطريقةً فى تذوق الشعر ، وما عندى من أدلة سطوه على آخرين ، سوف يمنه أن يتكلم ، ولو تكلم ، « فكلُّ بيضاء شحمة ، ولا كلُّ سوداء نثرة » ! فضحك وقال : بالك من غاصم عنيد ! ثم قال : سأنتشر كلَّ ما تكتبه ، ولكنى أحبُّ أن تفعل كذا وكذا ... نصيحة ضمنتُ بعضها أولَ المقالة الثانية ، [ انظر السفر الثانى : ص ٢٦ وما بعدها ] .

ومضيتُ أكتب أسبوعًا بعد أسبوعٍ فى البلاغ بعنوان واحد هو « بينى وبين طه » من بلاغ يوم السبت ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥ ( ٣ فبراير سنة ١٩٣٧ ) ، إلى أن كان اليوم الأخير من صفر الخير سنة ١٣٥٦ ( ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ) . لم أكُد أفرغُ من كتابة المقالة الثانية عشرة ، حتى جاءنى نعى أستاذى وصديقى مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ، فأنهدمُ فى نفسى كلُّ ما كان قائمًا ، وذهبَ الدكتور طه وكتابُه جميعًا من نفسى تحت الهدم ، فزدت على آخر المقالة : « ولكن .... ونتهى من هذه الكلمة حيث انتهى بنا هذا الفصل من كتابه فى ص ٩٨ ، فإنَّ الذى يستقبل من كتاب الدكتور طه طولًا قد امتدَّ وسمَّى وتسامى ! وإنَّ فى حاجة النفس لما يشغلنا من الدكتور طه ، وما يأتى به ، أو يقع فيه ، أو يمرض دونه ، ليتَ الحوارثُ باعتنى الذى أخذتُ

مِئى ، يحلِّى الذى أعطتُ وتجربى ! »

واقطعتُ عن البلاغ أَيْاماً طويلاً ، فلما زرت الأستاذ عبد القادر حمزة ،  
سأول أن يجعلني أعاود الكتابة ، فأصررتُ على تركها . وحاول آخرون ، فلم  
أستجب ، وكرهت كتابتي وكتاب الدكتور طه جميعاً ، وعدتُ إلى عزلة  
لا أبالي .

• • •

وكذلك لم يكن مقدراً لي أن أتمم هذه اللقائات على الوجه الجامع ،  
لأنني لم أتناول في نقدي كتاب الدكتور طه الصنحة الثانية والتسمين من  
٧١١ صفحة . ونعم ، كنتُ حريصاً ، منذ أول ما كتبت ، أن أكشف في  
مقالاتي الأولى عن أساليبه للتقوُّع الماهرة في « السطو » الثريان ، وعن  
أساليبه أيضاً في « السطو » الخلفي الذي يحاول بالثرثرة الباردة ، أن يجعل  
ماسطاً عليه ، يبدو كأنه رأى ارتأه هو بعد بحث ودرس وتنقيب وتحقيق ،  
إلى آخر ألفاظه التي يفرُّ الناس بها عن الحقيقة . ومع ذلك فأنا أستطيع أن  
أقول إن الذي ذكرته منها بلا تفصيل في مقالاتي ، هو جِماعُ أساليبه التي  
دُرِب عليها من قبل في كتابيه : كتاب « في الشعر الجاهلي » ، وهو الحاشية  
الصغرى على مقالة مرجليوث ، وفي تَوَاضُّع المدلِّ بعد أن علَّت به السن !  
وهو كتاب « في الأدب الجاهلي » ، وهو الحاشية الكبرى على هذه المقالة  
[ انظر ماسلف من : ٧٠ ] . بيد أنني في الحقيقة لم أبلغ في الذي كتبتُه  
يومئذٍ ، كلَّ الذي كان ماثلاً في نفسي بعد الفراغ من قراءة كتابه « مع  
المتنبي » ، وحين بدأتُ أكتب ، لأنني كنتُ أدخِر شيئاً كثيراً لأبواب  
الكتاب الأخرى ، من ص : ٩٩ إلى ص : ٧١١ .

وكتاب « مع المتنبي » هو في الحقيقة حاشيةٌ كُبرى على ثلاثة كُتب :  
أولها كتابي ، ثم كتاب الأستاذ عزّام ، ثم كتاب بلاشير عن المتنبي ، وكان  
الدكتور طه قد اكتسب خبرة فائقة ، بعد عشر سنوات من ( سنة ١٩٢٦ ،  
إلى ١٩٣٦ ) ، في كتابة الحواشي ( الحديثة ) . ففي هذه الحاشية الكبرى  
جمع كل ما استطاع أن يجمع من هذه الكتب الثلاثة ، ولكنه لم يفعل  
ذلك إلا بعد أن تجاوز هذه الصفحات الثمانية والتسعين التي وقفت عندها .  
وقد أقرّ هو نفسه على ذلك بلسانه ، وذلك أنه قال في خاتمة التي سماها  
« بد الفراغ » ، بهذا الزهو الغريب الذي كان يستغفنه مدلاً على  
القراء :

« ..... لم أكن جاداً ولا صاحبَ بحثٍ وتحقيق ، وإنما كنتُ عابثاً  
أريد أن أداعب المتنبي ، أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعاً ، وليس أدل على  
ذلك من هذه الصفحات التي تقرأها في صدر هذا الكتاب . فهي لا تصوّر  
بحثاً ولا جدّاً ، وإنما تصوّر عبتاً ولهواً ، ولكنتي لم أكّد ألقي المتنبي وأخذ في  
الحديث معه أو الحديث عنه ، حتى صرفني عن اللهو والعبث ، [ الكتابة عملٌ  
ظريفٌ ، ليس كذلك ؟ ] ، واضطرتني إلى محاولة البحث والتحقيق ، وأنت  
غراية في ذلك ؟ [ لا ، لاغراية ! ] ، ولم يكن للتنبي صاحب راحة ولا ميلاً  
إلى اللهو ، وإنما كانت حياته كلها جدّاً ، وجدّاً قليلاً ، ينتهي به وبقرائه  
إلى الملل أحياناً ، ( ص : ٧٠٤ ) .

لأرب عندى في أن هذا الزهو كله بمبته وجدّه ، عبتٌ محضٌ ،

وخيلاه بنهضة . ومع ذلك ، فإن صحت عند أحد أنه جد ، إذا هو تورط في الموضوع لمنطق الثمرة ، فإن هذا الجد ليس من جده هو ، بل من جد كتاب الأستاذ عزام ، وكتاب الأستاذ بلاشير ، فهما الكتابان اللذان أخرجاه من العيب الجاد إلى الجد العابت ! ولذلك صار فيما بعد من ٩٨ ، يذكر أسماء بعض من كتب عن المتنّي وخاصة بلاشير ، ويرصع بعض الصفحات القليلة بمحاشير قليلة ، يذكر فيها المراجع بالجزء والصفحة ، ويذكر أيضاً ديوان المتنّي بشرح الواحدى ، كأن هذه المراجع مراجعته هو ، وعنها أخذ ما أخذ ، ولكنها في الحقيقة مأخوذة من كتابي عزام وبلاشير ، والجد لله الذى عافاني ، فليس في كتابي ذكر للمراجع . ونسى الدكتور طه أنه حدثنا في أول كتابه أنه كان معتزلاً في « قرية من قرى الألب بفرنسا » ، وأنه لم يحمل معه من مصر من الكتب ، إلّا « أيسر طبعة من طبعات ديوان المتنّي » ، وشرح الواحدى لـ ديوان المتنّي لا يدخل في باب « أيسر طبعة » ! فن أين له المراجع ؟

لم ينس ، ولكنه مُستخفّ بالقراء وبمقوله ، ولكن الكتابة عمل ظريف ، وتأليف الكتب عمل أطرف ! فإن الدكتور طه لم يخرج في كتابه هذا عن أن يكون عابثاً بلا جد ، فقد جمع الكتب الثلاثة وعجنها عجناً حتى كانت صلصالاً من حيا مسنون ، يستجيب أحسن استجابة لأنامه الماهرة ، فهو يشكّل منها أشكالاً كما يشاء أو يشاء هواه !

ولماذا كنت محباً للوقوف على قدرة هذا المثال المتقدر في العيب ، فإني

أدلك على المقالات الثلاث الأخيرة من مقالتي [ السفر الثاني : ١٢٧ - ١٨٧ ] حين احتجبت من بلاشير فكرة « القرامطة » احتيال الصائد ، وجعل يردّد لفظ « القرامطة » و « قرمطية المتنبّي » ترديداً غليظاً ، تلذّذاً وتشدّقاً وتشبّهاً بالذين « يملأون أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الفلاظ » أو كما قال : [ انظر ماسلف : ٤٣ ] . وهذا من فعله سَطَوَ مجرداً على بلاشير . وفكرة « قرمطية المتنبّي » ، على سخافتها وتفاهتها ، فكرة واهية دالة على خلو عقل القائل بها من فهم « القرمطية » ما هي ؟ ولكن الدكتور ظنّ أنه قادرٌ بالثبوت ، وبمعن ما في الكتب الثلاثة ، على أن يجعل شعر المتنبّي مبيّناً عنها ، مع أن شعره دالٌّ على خلافها تمام الدلالة ، وكلامي الذي افترسه من كتابي ، وعجته في صلصاله ، مناقضٌ لها كلّ المناقضة . فكيف أطلق أن يفعل ما فعل ! هذا عبثٌ مجردٌ لا خير فيه . فاقراً ، غير مأمور ، ما كتبتّه في المقالات الثلاث ، فستعلم علم اليقين أن حياتنا الأدبية والثقافية والفكرية عامة ، قد بُذرت فيها بذورٌ من الفساد والتبث والاستخفاف ، والعالم البهيم ، والسفّه المؤدّي إلى انتفاض عرى العقل عروة عروة ، حتى أثمرت هذه الثمرة اليانعة النضيرة التي تعجّل بها حياتنا الأدبية اليوم ، ( سنة ١٩٧٧ ) ، وتمييزٌ تميّزاً ظاهراً ، في كتابة الكتاب وبحث الباحثين ! لا يكاد أحدنا يستغنى نفسه ، فهو كجائس صاحب الكبر ( الحداد ) ، إن لم تحرقه ناره ، ناله من شرّره ! ما علينا ، والأمر لله وحده ، لا ملجأ ولا منجى إلا إليه .

وكتاب « مع المتنبّي » ، مبني على طرازٍ غير معمولٍ في كتب الدكتور



طه أو كتب غيره ممن كتب عن الشعراء ، فذلك قلت مراراً في مقالاتي ،  
وفي الذي تروؤه من قصة كتابي : إن الدكتور طه لم يكن إلّا مقلداً لي . وقد  
وصفت نفسي آنفاً [ س : ٢٧ ] ، وأنا أميل الرأي حاراً بين أساليب الكتابة ،  
وذكرت طرفاً من مناهج المحدثين من كتابنا في تأليف الكتب في تراجم  
الشعر وغيرهم ، ويثبت متى استعمتُ على الطريق وكيف ؟ [ س : ٦٣ ] ،  
وهو طريق مخالفٌ كُلِّ المخالفة للممهور من كُتُب التراجم ، وقد انفردتُ  
بهذا النهج على غير مثال سابق [ س : ١٠٢ ] ، فإذا جاء بعدى رجلٌ يقصُّ  
على آثاري قصصاً ، خطوة خطوة ، فهو بلا ريب مقلدٌ لا أكثر ولا أقل .  
وقد يثبت ذلك في مقالتي بياناً صريحاً ، ثم قلت : « ونحن هنا لا نتفخر بأننا  
أول من كتب تاريخ المتنبي على هذا الوضع الذي تراه في كتابنا ، ولكننا  
نقرّر ذلك إقراراً للحق ، وبياناً للذي فعله معنا الدكتور طه ، حين أخذ  
آرادنا فأفسدها ، ووضعها في غير موضعها ، واستعملها بغير حقها ، وأخرج  
كتابه على غرار كتابنا غير مهتبه ولا متورّع من مذمة أو إثم . وأغراه  
بذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحن فيه من انقفاء  
والصمت وقلة الاكثارات بالدهاية الملتفة لأنفسنا ٠٠٠٠ » [ السفر الثاني  
. [ ١٨٩ ]

ومع ذلك فإن بناء كتابه قائم على جذرٍ تريد أن تنفض ، لأن  
بناءه كان فاعلاً يفيده ، لا بنفسه . وبناء كتابي كان بناءً « متذكراً  
للشعر » بنفسه وعلى طريقته .

وقد ذكرتُ آفكاً ، [س : ٢٣] أن أول صراعي مع الدكتور طه في الجامعة ، كان صراعاً على ضرورة قراءة الشعر الجاهلي « قراءة متذوقة مستوعبة » ، وأني كنت أحاولُ يومئذ أن أقنعه به فيأبى ويعرضُ ، [س : ١٣٢] ، كان ذلك سنة ١٩٤٧ وما بعدها = ثم لما جاء هو في سنة ١٩٣٥ ، وتذكر ما كنت أصارعه عليه ، حاول محاولة ثا أن يسلك طريق « تذوق الشعر » ، فعل ذلك ، ولكنه « تذوق بلا منهج » ، وبلا هدف ، وعلى غير أصل ، [س : ١٧ ، ١٣٢] . فلما كانت سنة ١٩٣٦ ، وقرأ الدكتور طه كتابي ، كما قال هو : « مرتين » بل ثلاثاً ، وما أعلن إلا أنني عائدٌ إلى قراءته مراتٍ » ، [س : ١٣٨] ، ظنّ ، وأكذبُ الحديثِ الظنّ ، أنه قد قتل « تذوق الشعر » علماً حتى طاعت له عواصيه ، بعد أن رأى تفسير هذه القضية ، قضية « تذوق الشعر » التي كان أباهاً على ورفضها من رفضاً = رآها مطبقة تطبيقاً شاملاً لكتابي كله .

وسوّلت له نفسه أن يقتال « تذوق الشعر » ، ووجده أمراً لا غبار عليه أن يفعله معي ، جزاءً وفاقاً = ولم لأنه ظنّ أنني اغتلت « منهج الشك » وسرقته منه وغلبته عليه « سطوا » فاجراً ، حين شككتُ في نسب المتنبي الذي رواه الرواة . فواحدة بواحدة ، والبادئ أظلم .

• • •

وهنا نكتة لطيفة أحب أن تقف عليها ، لتعرف أساليب النكر

اللطيف في الكتابة ، وفي صناعه « السطو » خاصة ، لأنها نافعة مجربة ا  
فالدكتور طه حين قرأ كتابي ، وقام قائماً في الجمعية الجغرافية يلقي كلمته ،  
كان أول ما افتتح به كلامه أن قال [ انظر ما سلف : ١٣٣ ] : « لقد  
شكَّ بعضُ الناس في نسب المنفي ، وأنا أوافقه على هذا الشكِّ » ،  
وانطلق يرددها مراراً مالتاً بها فمه . فلما حلتُ صاحبي الذي كان إلى  
جوارى مائكة ( أى رسالة ) يبلِّغها الدكتور وهي : « أبلغ الدكتور أن  
موافقته أو مخالفته لا تساوى عندي قرشاً ماسحاً ، تغلافه الأيدي في  
الأسواق ، لأنه لقائلاً لا تصلح للتداول » ، لم يكذب صاحبي قبله إلباهاً .  
فلما استدعاني في اليوم التالي ، استقبلني ، كما قلت ، مهلاً ضاحكاً أشدَّ ضحك  
وهو يقول : « لا تبرح أن تكون صميدياً ، كما كنتَ قديماً » ، يعنى أيام  
جدالى إياه في الجامعة ، في « المنهج » و « الشك » و « تذوق الشعر » ،  
[ انظر س : ٧٣ ] . ولا شكَّ عندي البتة في أمر الدكتور طه ، أنه حين  
بلغته الرسالة ، علم علماً ليس بالظنِّ ، أنى أعنى « الشكِّ » الذى اصطغته ،  
كما يقول هو ، منهجاً ، وذكَرَ كُلَّ ما كنتُ أقوله له من القوادح المهلكة  
لهذا المنهج ، « منهج الشكِّ » ، وعادت إليه ذكرى استغفاني به ، وأنه  
ليس شيئاً يمتدُّ به ، وأن أمر العلم عندنا ، نحن أهلَ العربية والإسلام ، قائمٌ  
أبدًا في كُلِّ خيرٍ من الأخبارِ على « التبيين » ، وهذا « التبيين » هو الذى  
أنشأ علم « الجرح والتعديل » في الحديث ، وأن منهجه هذا لا يساوى شيئاً ،  
إذا ما قُورنَ بالذى عندنا في ذلك مبدولاً لكل طالب علم هو حقُّ الطالب  
لعلم ، لا الطالب للثرثرة = وأن هذا مبدولٌ عندنا في كُلِّ كتابٍ = وأن

أصله كله راجعٌ إلى هداية الله تعالى لعباده المؤمنين ، حيث قال لهم في سورة الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَّبِعْنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ، [ وقد يثبت ذلك في كتابي : « كتاب الشر » ] .

فانظر ماذا فعل بعد ذلك ؟ أَلَفَ كتابه « المتنبى » ، وتجاهلَ كُلَّ التجاهل كلته التي افتتح بها محاضراته ، والتي جَمَلَ فيها اسمي تجهيلاً ، فقال : « لقد شكَّ بعضُ الناس في نسبِ المتنبى ، وأنا أوافقُه على هذا الشكِّ » وألغاهما إلغاءً = مع أن « الشك » منهجه ! = وافتتح كتابه بهذه العبارة :

« قد تموّد الناسُ أن يؤمنوا بأن المتنبى عربىٌّ خالص النسب .... » ،  
 وغلَّ بِأَكُلِّ الكلام أَكْلاً ليثبت « أن المتنبى » لقيطٌ رَقِيَّةٌ ، لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ، ، واجتنب لفظ « الشكِّ » اجتناباً يقطعاً جداً ، وحشا هذا الفصل والذي بعده بالفاظ « والشئ الذى ليس فيه شكٌّ » و « أنا لا أشك .... » و « لا نكاد نَشْكُ » ، و « أنا لا أفهم الشكَّ في عريية المتنبى » على نقي « الشك » جيماً ، ثم يأتى بها بعد كلامٍ طويل في معرض شئٍ آخر ، في قوله : « ومن حَقَّ أن تسألنى لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبى ، وأظهر الشك في معرفته لأبيه وأمه ، ما دمت لا أميل إلى الجدل . في عنصره العربى الصريح » ، [ م : ٢٥ ] . ومع ذلك قد كان في هذا « الشكِّ الملقف » مقلداً مُسِيئاً .

وقد قلتُ آنفاً [ س : ٧٢ ] : « كنتُ أوّل من شك في نسب أبي الطيّب الذي رواه الرواة ، ولكنتي لم أفت عند الشكّ المجرّد ، كما ذهب إليّ من قلّدي ( وهو الدكتور طه ) = بل أبنتُ عن علّة الشكّ ، لأثبت صكّانه حقيقة أخرى ، دلّني عليها شعره ومواقفه في حياته كلّها ، مما كان له ارتباط وثيق بعلّة الشكّ » . وقد فسّرت أسباب الشكّ في بيان « الفقرة الأولى والثانية » من عود صورة اللّغني بياناً كافياً [ ما سلف س : ٦٩ - ٨١ ] .

وهذا الأسلوب في تجاهل الألفاظ ، ثم الالتفاف حولها بألفاظ أخرى ، وإخراجها من حرج الأمر غير المتعمّد ، وإخفاء « المحرّك » وراء نقاب محوّ هو من الأساليب الفاجعة أيضاً في « علم السطو » ، والذي يقتدر عليه يبلغ مبلغاً عظيماً في باب « السطو الخفي » ، فاحفظه ، فإنه نافع جداً ، وإذا حُطّ بمسحوق حبّ « الثمرة » ، طيّب نفس القارئ ، وأطفا حرارة الفهم ، وسهّل عمل الغفلة<sup>١١</sup> عن ابن البيطار ، العشّاب الطيّب . و انتهت  
الكتابة الطليفة !

\* \* \*

قلت آنفاً إن الدكتور طه ، غرّنه نفسه أن يقال منّي « منهج تذوق الشعر » ، كما اغفلتُ أنا منه « منهج الشك » جزاءً وفاً ، وقد رآه سائماً له = مطبّقاً في كتابي من فاعلته إلى خاتمه . رآه مطبّقاً ، ولم يعرفه مضمّلاً ولا مشروحاً ، لا في كتابي ، ولا في كتاب غير كتابي ،

فاجتهد اجتهداً مبروراً ، ( أى لاشبهة فيه ولا كذب ولا خيانة ، ولا يخالفه شيء من المآثم ) .

ولما كان « موضوع » التذوق بيني وبينه واحداً ، وهو شعر المتنبي ، وآه على نفسه سهلاً يسيراً ، وهيناً ليناً للعاطف ، أن يتذوقه كما تذوقته ، وأن يستخرج منه حياة أبي الطيب ، وطبائمه وعواطفه وآماله وآلامه وأحزانه ، وأثر ذلك على بناء قصائده ، ودلالة هذا الأثر على أحداث حياته وقد لاقى الأمرين في هذا التذوق لأنه كلما جاء إلى شعر يتذوقه ، فوجد لسانى عنده يتذوق ، زاحنى عليه ، والتقى اللسانان ، ثم رفع لسانه ليكتسبه عن أثر تذوقه ، وإذا هو من حيث لا يدري قد تذوق بلساني ، فقطابق ذوق اللسانين ، والحمد لله ! وقد صربت لذلك مثلاً أو مثليين أو ثلاثة ! وتستطيع أن تجد شيئاً من ذلك مثلاً ، في المقالة التاسعة [ السفر الثاني : ١٢٧ - ١٤١ ] . وتستطيع أن تجد مثلاً آخر في المقالة الحادية عشر حين تفرّد لسانه بالتذوق ، في قصيدة لم أكتب شيئاً مفصلاً في تذوق لها ، فأشرت إليها إشارة ، فأخذها فاجتهد فيها اجتهداً مبروراً فتذوقها وحده ! ! وأثبت في كتابه تذوقه هو ، نخرج منها بكل استنباط جديد يخالف ما كتبت في كتابي . فكانت العاقبة أن أتى بضروب مختلفة المذاق من الأخطاء ، ومن قلة البصر بالشعر ، ومن إهدار ألفاظ الشعر نفسه إهداراً لا يكون مثله أبداً من متذوق قد عرف معنى « تذوق الشعر » ، وإنما هو تذوق هابط مفتعل ، يحكم في الشعر والشاعر تخاليط بلاشير وأضرابه ، مع أن أول شرط في

« تذوق الشعر » أن نجعله محكما لا في شأن هذه التخليط الأعجمية ، بل في تمديد أخبار الرواة القدماء أنفسهم أو تجريعها ، أو استخلاص الصدق من فصوصها ونفى ما زيفه التذوق ، [ انظر السفر الثاني : ١٦٠ — ١٧٠ ] .

فلما تخطى الدكتور مرحلة التثبت واللهم ، و « الشقاوة » في مداعبة اللغتي ومداعبة خصومه وأصدقائه جميعا ، كما قال [ انظر ما سلس : ١٤٤ ، س : ١٠ ، ١١ ] ، و « شبَّ عمرو عن الطوق » ، هند ص ٩٩ من كتابه أو قبلها بقليل = جاء ما صرفه عن اللهو والمبت ، واضطره إلى محاولة البحث والتحقق ، ( بحكم السن على الأقل ) . جاء هذا الجأى ومعه كتاب عزام بمراجعته ، وكتاب بلاشير بمراجعته ، وكتب اثنين آخرين ذكرهما بعد دهر في ص ٤٣٥ من كتابه ، وزعم أن كتبهم « ليست في أيدي قراء العربية » ، لأنها كتبت في الفرنسية والإيطالية ، ( وليس هذا صحيحا على إطلاقه ! ) ، فمتدئذ فكروا وقدروا ، ثم نظروا ، ثم عكسوا وبسروا ، ثم استبان له النهج ، واستتب له الطريق : أن يكون باحثا محققا ، وناقدا متذوقا ، في قرن واحد !! [ والقرن : الحبل ، أى مجتمعين فيه معاً ] ، وهذا مركبٌ وعرٌّ شاقٌ ، لا تصلح معه السجاي المتناقضة في النفس الواحدة ، حين يكون : « من سجيته الأناة ، ومن سجيته التجلة » ، ومن سجيته الجد ومن سجيته اللهم ، ومن سجيته التفكير ، ومن سجيته الهذيان » ، [ كتابس : ٧ ] ، ويرضى أن تلتنى عليه بعض سجايه هذه طمينا « يصور لمبة بوقته وعيشه يسقله ، وعصيانه لهواه ، وطاعته لهذا الهوى أحيانا » [ أيضا : ٧ ] .

والذى هذه سجاياه ، ثم يكونُ لا يملك أمر نفسه ، ولا يفرق في أمرها بين القبيح والحسن ، ثم يبلغ به إرسال النفس على سجيته ، أن لا يفرق بين مواضع الجدة ومواضع العبث ، حتى يرضى أن يأمر قارنه غير مبالٍ : « قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذى به صاحبه هذياناً .. » [إمامست: ١٣٦] ، فهذا بلا ريب لا يؤمن على ركوب طريق لا يصلح معه إلا الجدة والصبر والحزامة وخفاة المثار = إلا أن يكون غير صادق فيما يقول عن سجاياه = أو إلا أن يكون مترجماً سىء الترجمة لشعر المعجز السلولي :

إذا جدَّ عندَ الجدِّ ، أرضاكِ جدُّه ،

وذو باطلٍ ، إن شئتَ أرضاكِ باطله

= أو إلا أن يكون قال ما قال ، من قرط الزهو بنفسه ، والإدلال على سامية أوقارثيه ، وهم من تحت سمائه ، قيام شواخص الأبطال إلى أئمتهم في عليائه ولكن مالى أنا ولهذا ؟ فإن الله لم ينصني محامياً أرفع عن كرامة حقول البائسين من السامعين والقراء

أما الذى يعينى ، فهو منهج « تذوق الشعر » ، فإنه قد وقع في محنة عظيمة منذ ص ٩٩ ، إلى آخر الكتاب ، لا ، بل كان ذلك منذ أوّله أيضاً ، فقد صار مفروضاً عليه فرضاً لازماً ، أن يكون خادماً سامعاً مطيعاً للمعارضات الخفية الماكرة التى جاء بها الأستاذ غزام في كتابه تحت عباءة « البحث الطويل المتعب » ، وللتخاليط التى تتغلغل كتاب بلاشير وغيره عن المتن ، وصارت هذه الكتب محكمة في تذوق الشعر ، وفي حياة أبى الطيب ، ولم



تَمَدُّدٌ لِلشَّعْرِ نَفْسَهُ وَلَا لِتَذَوُّقِهِ هَيْمَةً عَلَى شَيْءٍ ، لَا عَلَى حَيَاتِهِ ، وَلَا عَلَى تَحْصِيلِ  
 الْحَوَادِثِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي تَقْصُلُ بِحَيَاتِهِ ، [ انظر ماسلف : ٥٤ ، ٥٥ ] . وهذه  
 اللجنة القاسية الغليظة = مع إصرار الدكتور طه على تقليدي في « تذوق  
 الشعر » على الوجه الذي توهم أنه فهمه من كتابي = أدت بالدكتور طه  
 نفسه إلى بذل جهد كبير في التقليد حين يتعرضُ لشعر لم أترصُّ له مكتوباً  
 بالخبر والقلم ، وأما الذي رآني قد ترصّنتُ له ، فقد اضطرّهُ أن يبذل جهداً  
 مضاعفاً مضاعفاً كثيرة في توبيه حتى يُخَفِّي آثار سطوه عليه ، وقلما نَجَحَ =  
 وإن يبذل أيضاً جهداً أكبر في تطويعه للتجنُّب في خَلِيطٍ من أخلاط  
 مجلوبة من أرضٍ بعيدة غير أرضه ،

وَمُسْكَفُ الْأَشْيَاءِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ، مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جُذُوءَ قَارٍ ،

« وَحِلْمُ الْقِطَطِ كُلُّهُ فِرَانٌ » ، كما يقال في المثل العامي . فالدكتور طه  
 بدأ كتابه مشغولاً بكتابي ، وبتطبيق فيه منهجي في « تذوق الشعر » ،  
 وكلمة « التذوق » لا تزال أصدائها في نفسه منذ كنت طالباً في الجامعة ،  
 [ انظر ماسلف قريباً : ١٤٨ ] . فلما بدأ يكتبُ اجتنب لفظ « التذوق » اجتناباً  
 كاملاً متعمداً ، « فَيَكُنْ يَسْتَعْمَلُ مَكَانَهَا « التَّيْبُنُ » وَ « وَالْإِسْتَبْطَاءُ »  
 تَوْ « الْإِسْتِخْرَاجُ » وَ « التَّدْبِيرُ » وَ « التَّأْمُلُ » ، وهي كلمات دائرة أيضاً  
 في كتابي ، وخاصة حيث أختصر الكلام اختصاراً ، مجتنباً الإطالة ،  
 راجعاً إلى القارئ في هوامشي على شعر أبي الطيب ، لينظر فيه على الأصول

التي درجتُ عليها في الكشف عن حياة المتقّي وعن شخصيته. <sup>(١)</sup> ولكنّه حين بلغ ص ١٠٦، وأراد هو أيضاً الاختصار لم يملك إلا أن يستعمل كلمة «التذوق»، التي توارثها، لأول مرة حيث قال كما أقول: «وخذ أنت هذا الشعر، وقف عليه من وقتك أياماً، فإشك في أنك ستصل إلى ما لا أريدُ أنا أن أطيل فيه، ولكنّي واقفٌ معك عند بعض هذا الشعر، فاجتهد أن تتذوّقه، لعلنا نتعرفُ على أصول فنّ التقّي في شيء من التفصيل والوضوح». هذه أوّل مرّة، ثم انطلق يستعملها مراراً بعد ذلك غير متحرّج. ولكن ظهر ظهوراً ينفّساً بعد ذلك في سائر كتابه: أنه لم يخرج قط عن أن يكون تذوّقه هو التذوق الساذج الذي ألفه فيما كتبه عن بعض شعراء الجاهلية، وعن شعر الغزّلين، وشعر أبي نواس وأضرابه، في كتابه «حديث الأرباء» = إلا ما شدّ قليلاً حين تذوّق بلساني بعض شعر المتقّي، كما أشرت إليه منذ قليل.

وهو معذور في ذلك، لأنّ القدر الذي عرفه من تطبيق منهجي فيه «تذوق الشعر»، وفي تذوق الأخبار أيضاً، كان قدراً لا يكتفى. فهو لم يستطع أن يدرك «تذوق الشعر» بمنجاة من تأثير الأخبار الرويّة، كيف يكون، ولم يستطع أيضاً أن يعرف «تذوق الأخبار» أيضاً معروضةً على الشعر، «ولا كيف تكون قيمة الشعر على الأخبار، حتى يُزيّف «تذوق الشعر» منها ما يزيّف، ويصحّح منها ما يصحّح، لكي يحلّوها جلاءً جديداً يجعلها قادرةً على أن تجعل حياة أبي الطيّب، واضحةً جليّةً مستوية. ولا كيف يكون ذلك

(١) انظر السفر ص: ١٢٧، ١٣٣، ١٤٤، ١٥٨، ١٦٩، ٢٠٣، ٢٤٥، ٢٧٨، وتطبيق المواش فيها. ومواضع أخرى في الكتاب نفسه.

الصحيح من الأخبار قادراً على أن يجعل حركة وجدان أبي الطيب في شعره  
أشدَّ ظهوراً ووضوحاً = ويجعل صورة حياته التي دلَّ عليها تذوق شعره  
أدنى إلى الوضوح ، وأقدر على الالتحام بصورة الحياة التي يدلُّ عليها ، ماصح  
من الأخبار ، [ انظر ما سلف : ٦٥ ] . وهذه هي بعض الأصول التي يمكن  
أن تجعل « تذوق الشعر » قادراً على استخراج صورة صحيحة مستوية غير  
مناقضة لحياة الشاعر ، وتعمم الكاتب أيضاً من أن تضلَّه الأخبار ، فبرى في شعر  
الشاعر معاني بعيدة كلَّ البعد عن المعاني التي يدلُّ عليها تذوق شعره جملة  
واحدة ، وإلا خرجت الصورة كلها مشوهة تشويهاً ، [ انظر ما سلف : ٥٥ ] .

فلما كان الدكتور طه لم يدرك قدراً كافياً من هذا المنهج ، وكان في  
عجلة من أمره ، وكانت المجلة إحدى سجاياها ، لأنه قد طوى ريقه على  
تأليف كتاب عن التنبي في صيف سنة ١٩٣٦ بفرنسا ، <sup>(١)</sup> ليطمس به ذكر  
كتاب كتبه كاتب مغمور خامل الذكر في يناير سنة ١٩٣٦ ، كما قلت  
الشيخ مصطفى عبد الرازق ، [ انظر ما سلف : ١٣٤ ، ١٤١ ] = فإنه بدأ كتابه  
وانتهى منه على الصورة التي في وصفها في فصل « بمد الفراغ » : « ولكن  
لم آخذ في الإملاء حتى دفعتُ إليه دفماً عتيقاً ، لم أستطع له مقاومة ولا عليه  
امتناعاً ، وإذا أنا أجرى في الإملاء أو أعدو فيه أشدَّ العدو ، حتى لا يتابعني  
صاحبي إلا بجهد كلَّ الجهد ، ومشقة كلَّ المشقة ، وإذا أنا أملى إذا أصبحتُ ،

---

(١) تبين من رسالة الدكتور طه إلى توفيق الحكيم في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، أنه  
قد فرغ من كتاب التنبي قبل ذلك بأسبوع ، أي في ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٦ تقريباً ، فإذا  
كان قد غادر مصر في أواخر مايو ، فقد استغرق تأليفه ثلاثة أشهر أو أقل . وانظر كتاب  
توفيق الحكيم « وثائق من كواليس الأدباء » .

وأمل إذا أمسيت ، وأمل بين ذلك ، وأبفض الراحة أشدَّ البفض » ، إلى آخر ما قال ، وصدق [ كتابه س : ٧٠٥ ] . لما كان ذلك وفرغ من الكتاب ، مكدوداً قد انتهى به الإعياء إلى أقصاه ، وجد نفسه لم يقل للمتنبي ولم يقل عن المتنبي كل ما كان يريد أن يقوله [ س : ٧٠٥ أيضاً ] . ولكن حقيقة هذا الكلام أنه وجد « صورة المتنبي » التي كتبها ، صورة لا تمثل شيئاً له قيمة ، فعبّر عن ذلك بقوله : « لئن أبعد الناس عن حسن الرأي فيما أملت ، ولا تظن أني أريد التواضع . . . . وإنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صور شيئاً ، فهو خليق أن يصورني أنا في بعض لحظات الحياة . أثناء الصيف الماضي ، أكثر مما يصور المتنبي » [ كتابه س ٧٠٦ ] . وهذه صحيح جداً مع الأسف ، لأنه يصور حقيقة أعماله ، ودوافعه دائماً ، منذ كتب حاشيته الصغرى على مقالة مرجليوث السماة « في الشعر الجاهلي » في سنة ١٩٢٦ ، منذ عشر سنوات ، ولم يتغير كثيراً ولا قليلاً ، وأهجزته دوانه ، « فلم يستطع لها مقاومة ولا عليها امتناعاً » .

ولما كان كتابه ، كما قال ، خليق أن يصوره هو أكثر مما يصور المتنبي ، وأدرك ذلك إدراكاً بقيقاً ، فإنه نظر إلى صورة المتنبي عنده ، صورته عنده ، فأنكر ما عنده إنكاراً شديداً ، فقد وجدها خلقاً شيئاً تضيق به نفسه ، [ وللشياً : الخفيف الخلق ، الخبله ، التبعيض الصورة ] . ولكني تعلم أن هذا كما أقول ، فإني موجز لك صورة المتنبي التي اختلطت في كتابه حتى خرجت ، فأنكرها هو أشد الانكار .

لقيطٌ لَنِيَّةٌ ، لا يعرف لنفسه أمًّا ولا أبًا ، شاذٌّ لأمرٍ ليس له في يد ،  
 لا يستطيع أن يفاخر بأسرته ، فهو يشعر بالضعفة والضعف ، ( من عنده ) ،  
 نباتٌ شعبيٌّ خالص ١١ ( من عنده ) ، شابٌ مستعدٌّ لسانه للسخرية ( من  
 عندي ، والتصور من عنده ) ، صبيٌّ شيعيٌّ متشيعٌ للعلويين ، وقرمطيٌّ  
 لحبه سفك الدماء ( من عنده ) ، حاققٌ على النظام الاجتماعي والسياسي  
 ( خليط ) ، قوى الحسَّ عنيف النفس ( من عندي ) ، يمتحن بمدوحيه ليتبين  
 استمداهم للخروج على السلطان ( خليط ) ، صاحبُ مذهبٍ سياسيٍّ أشمل من  
 القرمطية والتشيع ، وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم ملكهم  
 وسلطانهم ، وأن يردَّ غير العرب من الخدم إلى طورهم الذي كانوا فيه  
 ( الأصل من عندي مع خلط ) ، يَفْشُدُ أميراً عربيًّا يحمي أماله ، مثل بدر بن  
 همار ( من عندي ) ، كان يسأل جدته عن خبر أبيه وأمه ، ( من عندي  
 مع خلط ) ، نشأته علقته الحيلة والحذر ( من عندي مع خلط ) ، سجنه جريمة  
 من جرائم الرأي ( من عندي مع خلط ) ، ما ينسب إليه من الدبوة مرفوض  
 ( من عندي مع خلط ) ، كفكف السجن من غلوائه ( من عندي ) ،  
 شقيٌّ بالأمل في أول أمره ، شقيٌّ باليأس بعد سجنه ، فأنضج ذلك نفسه  
 ( من عندي ) ، ظهور شخصيته في أوقات العنف ، وفي أوقات الحزن ( من عندي ) ،  
 يشعر بالغيرة ، لولا جدته ( من عندي ) ، لقاء بدر بن همار وثب بفته ،  
 قبيل من الرقِّ ما لم يبلغه في الأيام السالفة ( من عندي ) ، وثب فقه الوثبة  
 الأولى عند القنوخيين ، والثانية عند بدر ، وكانت نواةً ستنبت وتعمو  
 وتمطي شيئاً كثيراً مختلفاً ألوانه في الوثبة الثالثة عند سيف الدولة ، حين وثب

وثبته الأخيرة التي رفعته إلى الأوج ( كله من عندى ) ، يمتلئ قلبه بالبهجة عند لقاء بدرٍ وأمثاله حتى يمجز عن إخفاؤها ( من عندى مع خلط كثير ) ، يثورُ آبياً للضيم على من أرادوا أن يضيّموه ( من عندى ) ، جبانٌ ( من عنده ) ، طبيعته التي يصورها شعره : جوع وأحاديث ، وفلسفة في الهواء ( من عنده ) ، امتناعه عن مدح المولى طاهر من زهو وغرور ( من عنده ) ، يلتم برأيه حين يستغنى ، ويضعى حين يخاف أو يطعم أو يحتاج ( من عنده ) ، اتخذ لنفسه مذهباً سياسياً وفلسفياً ، ( من عندى مع خلط ) ، يتخذ الشعر وسيلة لا غاية ، وكان عبداً للطمع والمال ، لا للجمال والفن ( من عنده ) ، يمثل فكرة الجهاد بين الروم والمسلمين عند سيف الدولة ، وتجد فيها فناً وجمالاً ( من عندى ) ، ينتقل انتقالاً مفاجئاً في شعره ( من عندى ) ، ولكن بغير دلالتها على شيء ( ١ ) ، ذليل ضعيف مهين بين يدي السلطان ، لم يكن صاحب مذهب ولا رأى ، إنما هو رجل متهاك على المنافع العاجلة ( من عنده ) ، رجلٌ مضطربٌ متلونٌ ( من عنده ) ، نفسٌ غير متحضرة ولا رقيقة الحس ( من عنده ) ، لا يقول الشعر إلا حين تدفعه ذاوغة كامنة أو ظاهرة ( من عندى ، مع خلط ) ... و « حسبك من شرِّ سماعة » .

هذه بعض ملامح الصورة ، لم أستوعبها لأنى في مقام غير مقام نقد هذا الكتاب ، ولكنها كافية في الدلالة على شيئين : على « السطو » المجرّد ، وعلى الخلط المحكم الذى وصفته آنفاً [ انظر : ١٤٥ ] . فلما أفاق الدكتور من إملاء كتابه وهذا ، أنكرها ، لا إنكار مقررٍ بيشاعة

الصورة ، ولكن بزيادة وفلسفة وتدقيق ، فقال في فصل « بعد الفراغ » .  
[ ج : ٧٠٧ ، ٧٠٨ ] :

« وأكثر من ذلك أني أخذت أرى رأياً ، ما أظن إلا أن كثيراً من الناس سيضيعون به ، ولعلهم أن يفكروه عليّ ، وقد ضقتُ به أنا وأنكرتهُ على نفسي ، ولكني لم أزد إلا إيماناً فيه ، وإطمئناناً إليه ، وتعبئاً من أني قد اعتظرتُ هذه السن ، وهذا الطور من أطوار الحياة ، قبل أن أظن إليه وأطيل التفكير فيه ، وهو : أن شعر المتنبي لا يصور المتنبي ، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويراً كاملاً صادقاً ، يمكننا من أن نأخذهم منه أخذاً ، مهما نبهت ، ومهما نجد في التحقيق . وما أريد أن أحيل الاستدلال على ذلك ، ولا أن أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق المتلوية التي يسلكها الفلاسفة والملاء والأدباء أيضاً ، وإنما أريد أن ألفتك إلى شيء يسير ، وهو أن ديوان المتنبي إن صور شيئاً ، فإما يصور لحظات من حياة المتنبي ، لا أكثر ولا أقل . . . وطلق فيفلسف !

وبالطبع ، كما نقول نحن المصريين في درج الحديث ، لا يوجد شيء كهذا الذي يؤرم الدكتور بكلامه أنه كائن . لا يوجد شيء كهذا يقال فيه إن شعر الشعراء ، أو كلام غير الشعراء ، يصورهم تصويراً كاملاً صادقاً ، « يطابق الأصل ويوافقه » . لا توجد « نظرية » كما سماها ، تبلغ هذا الحد من الشغف والتفاهة والإسفاف ، وبحسب حاج الرد معها « أن ينتظر هذه الثلث سن ، وهذا الطور من أطوار الحياة » ، ويحطّم الثامنة والأربعين من عمره .

وينطرح بقرون رأسه جدار الخسین ، حتى يظن ويحيد الفطنة ، وحتى يفكر  
ويطيل التفكير ، حتى يقبّل أنها باطلّة ۱ ثم يحتاج بعد ذلك أن ييسر على  
قارئه المسكين فهم وجه بطلانها بضرب الأمثال ، فيقول : « فكما أنك  
لا تستطيع أن تزعم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لى تطابق  
الأصل وتوافقه ، بل لا تستطيع أن تزعم أنك قادر على أن تستخرج من  
كتبي كلّها صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، فكذلك أنت عاجز  
عن أن تخرج من ديوان اللّنبى صورة صادقة ، تلامّ حياة النّبىّ ، كما  
كانت فى النصف الأوّل من القرن الرابع من الهجرة . »

هذه نثره حائرة ، ومجرد عيب محض بالألفاظ ، وهو فارغ يلهو به  
من يكون بجلّ مفيدة ، من ألفاظ مسطّورة : « صورة » و « أصل »  
و « تصوير » و « قادر » و « عاجز » و « صادق » و « تطابق »  
و « توافق » ۱ والناس حين يقولون : « صور الكاتب صورة صادقة  
لشاعر » ، لا يعنون بداهة ما حاول الدكتور أن يؤمّ به قارئه ، ويستزّل  
عقله بتأكيده التواصل : « تصويراً صادقاً كاملاً ۱۱ » = عن المعنى الذى  
يدركه عامة الناس بالبداة ، وهو أن الذى استخرجه الكاتب من شعر  
الشاعر ، يجعل شعره أكثر وضوحاً ، وأظهر دلالة على فقه ، وأقوى بياناً  
عن طبيعته وعواطفه ، ويعلمهم أكثر قدرة على تمثّل ما تحبّوه ألفاظ شعره  
من موقفه تجاه أحداث حياته التى عاشها ، فصاغها صياغة مينة عما كان  
يعتلج فى نفسه حين صاغها . وهذا موضع للثل : « زى الطّبل منفوخ غ  
للفارغ » ، وصدق من قاله .



وكل ما في الأمر أن الرجل حين فرغ من كتابه ، رأى صورة أبي الطيب في كتابه ، وقد رآها من قبل في كتابي ، وأدرك أن بين الصورتين بوناً بعيداً ، كالبعد بين المستقيم والمموج ، وبين الوليد الذي ولد لتمامه ، والسقط الذي ولد لغير تمام ، فاعتذر ، فأساء الاعتذار ، ولم يدر كيف يقول !

• • •

أما الآن ، وقد فرغتُ من لَمحة خاطفة في القسم الذي يبدأ من ص ٩٩ إلى ٧١١ ، من كتاب « مع المتنبي » ، وهو الذي لم يكن مقدراً لي أن أنعم كلامي فيه في مقالتي : « بيني وبين طه » التي كتبها سنة ١٩٣٧ ، ونشرتها اليوم في أول السفر الثاني = أما الآن ، فإنني أتلفت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أشفق من مَنِيَّة السَّن التي سَنَّا لنا الأساتذة للكبار ، كسنة « تلخيص » أفكارِ عالم آخر ، ويقضى أحدهم عمره كله في هذا التلخيص ، دُونَ أن يشعر بأنه أمرٌ مخفوف بالأخطار ، ودون أن يستنكف أن ينسبهُ إلى نفسه نسبةً تجعله عند الناس كاتباً ومؤلفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من القديس كريمة . ومع ذلك فهو أهونُ من « السطو » الجرد ، حين يعمد الساطي إلى ماسطاً عليه ، فيأخذه فيمزقه ثم يفرقه ويُفرقه في ثُرثرة طاغية ، ليخفي معالم ماسطاً عليه ، وليصبح عند الناس صاحب فكر ورأى ومذهب يُعرف به ، ويُنسَبُ كُلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أهونُ من « الاستخفاف » بتراثٍ متكامل بلاسبب ، وبلا بحث ، وبلا نظر ، ثم دعوة من يعلمون علماً جازماً أنه غير مطبق لما أطلقوا ، دعوته إلى الاستخفاف به

كما استنسخوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهونُ مما فعلوه وسئوه من سُنَّة  
« الإرهاب الثقافي » الذي جعل ألقاب « القديم » و « الجديد » و « التقليد »  
و « التجديد » و « المتخلف » و « التقدم » و « الجود » و « التحرر » ،  
و « ثقافة الماضي » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلهِبةً : بعضها سياطُ حثِّ  
وتخويفٍ لمن أطاعَ وأُتِيَ ، وبعضها سياطُ عذابٍ لمن خالفَ وأبَى .

أنتَلَفْتُ اليوم إلى ما أشقَّتْ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار لقد  
ذهبوا بقَدِّ أن تركوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدوا ، حياةً أدبيَّة وثقافية  
قد فسدت فساداً وبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجددت الأساليب وتنوعت ،  
وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى في الناس  
طليقاً عليه طيلسانُ « البحث العلمي » و « عالِمِيَّة الثقافة » و « النقافة  
الإنسانية » ، وإن لم يكن محصوُّه إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غرباء  
صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم في كُلِّ قضية ، واختلط الخابل  
بالتابل . قل ذلك في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنِّ أو ماشئت ، فإنه  
صادقٌ صدقاً لا يتخلف . فالأديب مصوِّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف مفكِّرٌ بمقل  
سواه ، والمؤرِّخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان نابضٌ  
قلْبُه بنبضِ أجنبيٍّ عن تراثِ قُتْهِ .

وأما الزُّرَّة والاستخفافُ ، فحدث ولا حرج ، فالصبيُّ الكبير يهزأ  
مزحواً بالخليل وسيبويه وفلان وفلان ، ولو بُعِثَ أحدهم من مرقده ، ثم نظر

إليه نظرة دون أن يتكلم ، لأجله العرق ، ولصار لسانه مُضغَّةً لانتجاع  
بين فكَّيه ، من الهَيْبَةِ وحدها ، لامن علمه الذى يستغفُّ به ويهزأ .

والله المستمانُ على كُلِّ بَلِيَّةٍ ، وهو المستولُ أن يكشفها ، وهو كاشفها  
بمشيئته ، رَحمةً بأمةٍ مسكينة ، هؤلاء ذُنُوبُها كانوا ، وأشباهُ لهم سبقوا ،  
وغفرانك اللهم ؟

محمود محمد شكر

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧  
٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧



# المُتَنَبِّي

• على هيئته التي نُشر عليها في عدد المقتطف ، يناير ١٩٣٦

• الشعر الذي في رأس كل فصل ، من شعر المتنبي

من : ١٢٨ س : ١٥ ، اقرأ : « وَرَبِّ مَالٍ » ، ويحذف التعليق



هذا العدد من اللقطات يختلف عن كل عدد  
صدر منذ ستين سنة إلى يومنا هذا ، فهو في  
موضوع واحد ، ولكاتب واحد .

أمّا الموضوع فأبو الطيب المتنبي .

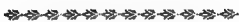
وأمّا الكاتب فالأستاذ محمود محمد شاكر .

وقد رأى محرر « اللقطات » في المئاة  
بالاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبي ،  
وفي طرافة للباحث التي انطوت عليها رسالة  
الأستاذ شاكر ، ما يُسوّغ له أن يجعل هذا العدد  
بمناسبة كتاب يرفعه :

إلى أبي الطيب المتنبي







أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي  
وَأَسَمَعَتِ كَلَامِي مَنْ يَدِ صَمٍّ  
أَنَا مِلٌّ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا  
وَيَسْرُ الْخَلْقُ جِرَاهَا وَيَخْتَصِمُ



كنت في غلواء الشباب حين وقعت لى ، فيما كنا نتعلم من « المحفوظات العربية » ، أبياتُ المتنبي حفظتها في غير عناء ، وجعلت أرددها بكثير من الالفة والحماسة ، لأنها كانت تنطوى ، فيما أظن الآن ، على ذكر سجايا يقيه بها الشاب وتهنز معاطفه ، إذ لا يزال في مستهل الحياة ، يراها ، أو يتصورها ممتدة أمامه ، ميداناً رحباً ليس له فيه إلاّ الاقتحام والغزو والظفر . فكذلك كان مما حفظته ، وكأنا طبعته في ذاكرتي بأحرف من نار :

رَدِي حِيَاضَ الرَّدَى ، بَأَنفَسُ ، وَأَتَرِكِي  
حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ  
إِنْ كَمْ أَذْرَكَ عَلَى الْأَرْحَامِ سَأَلَةً      فَلَا دُعِيَتْ ابْنُ أُمِّ الْخَيْدِ وَالْكَرَمِ

\* \* \*

أَيْنَ فَضْلِي ، إِذَا قَنِعْتُ مِنَ الدَّهْرِ بِمِيشٍ مُجَبَّلِ التَّنْكِيدِ ؟  
مَبْدَأُ أَقْطَعَ الْبِلَادَ ، وَنَجْوَى فِي نَحْوِمْ ، وَهَمَّتِي فِي سُغُودِ

\* \* \*

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُّ

\* \* \*

وَلَا تَحْسَبَنَّ لِلْجَدِّ زَقًا وَقَيْنَةً فَمَا الْجَدُّ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ  
وَتَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْمُلُوكِ، وَأَنْ تُرَى لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالسُّكْرُ لِلْجَرِّ  
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

\* \* \*

وعندما أراجع ديوان المتنبي الآن تمرُّ بي أبيات من الشعر كأن رنينها  
إذ أقروها عمول إلى من مغاور متغلغلة في جوف الماضي . وأكثر هذه الأبيات  
من شعر الغزل والنسيب الذي كان المتنبي يستعمل به بعض قصائده . ولست  
أحفظ الآن من ذلك إلا نزرًا يسيرًا ، لأن رجولة المتنبي كانت هي التي فتنتني  
في صباى دون رِقته ونسيبه ، وقد كنت أظن أن رجولته هذه يكون مردُّها ،  
في الغالب ، إلى خياله المتوثب وحده — إلى أن قرأت أصول هذا الجزء من  
المقطف وتجاربه ، فإذا هي ، بحسب رأي الكاتب ، متصلة أوثق اتصال بأصله  
ونشأته وتربيته التي قامت عليها جدته ، « أم أمه » وحوادث عصره وحياته ،  
وإذا أقوى شعره لإعراب بليغ ، وبيان واضح عن ذلك كله .

وكنت أطلب العلم في جامعة بيروت الأمريكية فكان أستاذنا في الأدب  
العربي « جبر ضومط » رحمه الله عليه ، مولمًا بدراسة المتنبي وتدرسه ،  
فقتبيناه معه سنتين نحفظ من قصائد المتنبي ما يتخير لنا منها ، ونعمن في حل  
أبياتها وإعراب ألفاظها ، ويعمن هو في تفسير معانيها وبيان ما تحمل في ثناياها

من حكمة وفلسفة . وكان لا يفوته أن يلمح أحياناً إلى أن حياة المتنبي على صلة وثيقة بعصره . وكان معظمنا لا يبي من تاريخ الشرق العربي في ذلك العهد إلا السير ، فربّ بهذا التلميح غير آبه .

وأكبر الظن عندى الآن — وقد اطلعت على رسالة صديق الأستاذ محمود محمد شاكر ، وما جلاه فيها من دقائق هذه الصلة — أن أستاذنا كان قد حاول أن يحتلّى بعض هذا الغامض ، فتبينت له أشياء لم ينشرها ، إمّا التزاماً بالحذر العلمى قبل القطع برأى ، وإمّا مراعاة للأحوال السياسية .

وعلى ذلك ظل المتنبي — على علوّ مقامه فى الأدب العربى ، ونصوع معانيه ، وسمو حكيمته ، وكلل رجولته — تكتمفه فى ذهن غمامات من الغموض ، على كثرة شراح ديوانه ومفسريه .

ولكن مشاغل الحياة ، وانصراف أساتذتنا ، عند طلبنا العلم ، عن ترسيخنا فى معرفة أصول تاريخنا الشرقى العربى صرفتني عن دراسة المتنبي ، فكنت فيما تلا من عهد الدراسة لا أذكره إلا عندما أسكن إلى ساعة من الراحة ، فأخرج شرح اليازجى ، وأقرأ بعض قصائده المشهورة ، صادقاً عما قد تنطوى عليه أحياناً من مغلقة المعنى ، أو مهجور اللفظ ، أو معقد التركيب ، مكتفياً بما فيها من قوة ورجولة ، تكاد تحسبها ، بعد انقضاء عشرة قرون ، تنفجران من معاطف هذا العربى كالينبوع ، وتتطايران من عينيه كالشرر .

فلما ذكر المذكرّون باقضاء ألف سنة على مصرع المتنبي فى ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ ( وقد كان مصرعه فى ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤ ) قلت : هى فرصة فذة تتيح للعتطف أن يشارك فى إحياء ذكر عظيم من عظماء العرب ، وناطقة

من نوايغ اللسان العربى ، كسنته فى الاشتراك فى إحياء ذكرى العظام من علماء الفرنجة ، وفلاسفتهم ، وكتابهم ، وزعمائهم ، ولكن الفرق فيما يجب على المقتطف فى الحالين واضح .

فنحن حين نحفل بذكر عظيم من عظام الفرنجة نجتزئ بمجمل من سيرته وأثره ، لأن الغرض إنما هو التعريف بآثاره من الناحية الذهنية ، والإشادة بخلقته أو مثاله من الناحية الأدبية . ولكننا — إذ كان المتنبي من عباقرة شعرائنا — لا ينبغي لنا أن نجتزئ بمجمل أقوال الرواة والنقاد فى حياته وشعره .

فتحدثت فى ذلك مع صديق المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر ورغبت إليه أن يكتب كلمة مسهبة بعض الإسهاب عن المتنبي . وأقرأتى كنت مقتنعا — عندما أليت إليه هذا الاقتراح — أن الكلمة لن تزيد عن عشرين ، أو ثلاثين من صفحات المقتطف ، فوعدت أن يبذل ما لديه . ولكن البحث كشف أمامه ، ومواطن الاستنباط والمقابلة تعددت ، فلم يرض ، وقد وجد مجال القول داسعة ، بالنهج المطروق . فبعد أن كتب عشرات من الصفحات مزقها ونهبها ، وعاد إلى الكتابة على نهج آخر . فأصبح المقال عددا كاملا من المقتطف ، أو يزيد . وليس هذا المدد الكامل إلا موجز سفر فى المتنبي بنوى أن يجمعه فى أربعة مجلدات أو أكثر .

ولا أخفى عن القارئ أننى مقتبط بهذا كل الاغتباط . فى هذه الرسالة ، على إيمائها بالقياس إلى ما كان يجب أن تكون ، دلائل على تبحر الكاتب فى تاريخ هذا العصر من حياة شرقنا العربى ، ومقدرته على تبين الإشارات الخفية فى شعر المتنبي إلى حوادث ذلك العصر ، وبراعة عجيبة فى استنباط

حالات الشاعر النفسية من أبيات شعره وربطها بحياته الخاصة ، والأحداث التي كانت في الأمة العربية بوجه عام . وفي الغالب أن يكون عمل كهذا متعذراً إذا لم يوفق الكاتب إلى دليل يهديه سواء السبيل ، في تيه الحوادث ومجاهل الآراء ، فضلاً عما يقتضيه من سمة نادرة في العلم ، وبراعة فذة في الاستنباط . وهذا الدليل الذي هداه هو رأى جديد في أصل المتنبي ونشأته ، أشبه ما يكون بالنظرية العلمية في ميدان العلوم الطبيعية .

فالحقائق في علوم الطبيعة هي خصوم النظريات ، والبحث عن الحقائق بالجهر والمطاياف وغيرها من أدوات العلم ، عمل لا يتقطع ولن يتقطع ما بقي الإنسان على فطرته في حب الاستطلاع . ولا يخفى أن النظريات توضع لتفسير طائفة معروفة من الحقائق ، فإذا انقضت عقود من السنين أو سنوات قلائل ، فالغالب أن تجيء هذه الحقائق الجديدة التي يكشف عنها بعد وضع النظرية مخالفة للنظرية في مجملها أو لنواحي منها ، فتمدّل النظرية القديمة ، أو تُطَوَّى وتوضع نظرية جديدة . ويشترط في النظرية الجديدة أن تكون تفسيراً عاماً مُنَسَّقاً للحقائق الجديدة والقديمة معاً ، وأن يكون فيها من المرونة ما يجعلها تحتمل تفسير الحقائق التي تستجدّ ، والتمهيد للكشف عن أمور مجهولة .

فالأستاذ شاكر وضع هذا الرأى أولاً فيما قيل عن أصل المتنبي ووالده وذعابه إلى الكوفة لزيارة جدته ، وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة في الروايات المنقولة على أساس هذا الرأى الجديد . ثم لما طبقه على نفسية المتنبي في شعره ، وحوادث حياته الأخرى ، وخاصة حديث نبوته إلى أن اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الأول منها بالآخر . واستقام كذلك فهمها على منوال يرتضيه العقل ، ويؤيده ما كان من حوادث العصر . ولا يبعد

أن تكون هذه النظرية تمهيداً للكشف عن أشياء في حياة المتنبي وتاريخ عصره على منوال ما تولّده النظريات في العلوم الطبيعية ، كما قدمنا . ولعل الأستاذ محمود يحقّ كل هذا تحقيقاً مفصلاً في سفره المرتقب ، إن شاء الله .

ولا يسعني في هذه السطور أن أفصل القواعد التي بنى عليها الأستاذ شاكر رأيه ، فهي كثيرة مفرقة في جميع الفصول ، وهذا البحث الطريف في حياة المتنبي وأدبه ليس إلا وليد تطبيقها .

فقد استطاع أن يكشف من شعر المتنبي عن دقائق حياته ، وينتقض الروايات النقول إلى بنا عن أصله ونشأته وتنبؤه وحبه ومصرعه ، ويصل بين حياة الرجل وأحداث عصره . وبذلك اتسقت حياة المتنبي ، واتصل أولها بآخرها ، وقلّت الفجوات في تسلسلها ، واستقام فهمها على أساس معقول من الأدب والتاريخ .

فالذي يقرأ هذا البحث ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبي ، متدبراً ، تنكشف أمامه معاني شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وتاريخ عصره من ناحية أخرى .

فقد نقض الأستاذ شاكر الرواية المتداولة عن أن والد المتنبي كان سقياً بالكوفة ، ورسم صورة لحدثه في مدارس الأشراف العلويين فيها ، وبين صلة المتنبي بالعلويين من نشأته إلى وقت مصرعه ، وتأثير ذلك في حياته وشعره وآرائه السياسية ، ونقّى ما أتهم به المتنبي من النبوة مستدلاً على صحة ما يذهب إليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دقائق الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع أن يصل إلى السبب المعقول في تسمية أبي الطيب باليتيم .

وقد درس حياته وهو في جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتني ، وأنها كانا يعملان معاً على تحقيق الأمل السيامي لردّ الحكومة إلى العرب ، ونزعها من يد الأعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، ويُنْ أثر هذه الصلة السياسية في شعر أبي الطيب الذي قاله لسيف الدولة .

وأثبت فيما أثبتته من تاريخ هذه الفترة أن أبا الطيب كان يحب « خولة » أخت سيف الدولة ، وما كان لهذا الحب من الأثر في سمو شعره ، وروعة بيانه.

فؤاد صرّوف





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَائِفَةٍ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا »

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »

وبعد ، . . . . فهذه كلمة مئة عن شاعر العربية ولسانها الحكيم :

أبي الطيب المتنبي

وأنا أشكر لكل من أعاننى — بعلمه أو قلبه أو عطفه — عونته ، وأخصه بالشكر الفريق أمين فهد المعلوف ، والأستاذ محمد فريد نامق ، والأستاذ فؤاد صرؤف ؟

محمود محمد شام

مصر الجديدة : شارع النصورة ٢٢  
أول شوال سنة ١٣٥٤  
٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٥



ذَكَرْتُكَ يَئِينَ ثَنَاءِ الشُّطُورِ ،  
وَأَضْمَرْتُ قَلْبِي بَيْنَ الْكَلِمِ  
وَلَسْتُ أَبُوحُ بِمَا قَدْ كَتَمْتُ ،  
وَلَوْ حَزَّ فِي النَّفْسِ حَدُّ الْأَلَمِ  
تَمَزَّقْتُ — مَا حَيَّيْتُ — لَأُنِي ،  
فَأَرْقَعُ مَا مَزَّقْتَ بِالظُّلَمِ  
فَكَمْ كَتَمَ اللَّيْلُ مِنْ سِرِّنَا ،  
وَفِي اللَّيْلِ أَمْرَارُ مَنْ قَدْ كَتَمَ  
نَشَابَةً — فِي كَتَمِ مَا نَسْتَسِيرُ —  
سَوَادُ الدُّجَى ، وَسَوَادُ الْقَلَمِ

محمود محمد شاكر



أَنَا أُبْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَاكَ  
يَلْحَثُ وَالنَّجْلُ بِمَضْرُ مِنْ نَجَلَةٍ  
وَأِنَّمَا يَذْكُرُ (الْجُدُودَ) لَهُمْ  
مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَةَ  
إِنَّ الْكَذَّابَ الَّذِي أَكَادُ بِهِ  
أَهْوَنُ عِنْدِي مِنَ الَّذِي نَقَلَهُ

« أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي  
« أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي  
« أحمد بن محمد الحسين بن عبد الصمد الجعفي »

هو أبو الطيب الملقَّبُ بالمتنبي. ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ بمحلة كانت بها  
تسمى كيندة ، وكان أبوه الحسين سقاء يسقي الناس على جبل له بالكوفة ،  
وكان لقبه الذي يلقَّب به هو : « عِيدَانُ السَّقَاءِ » .<sup>(١)</sup>

(١) ضبطه ابن المديم في « بنية الطلب » في ترجمة المتنبي ، نقله عن الخطيب البغدادي أنه  
قال : « عيدان ، بكسر الميم ، وبالياء المعجمة بائنتين من تحتها » ، وكذلك ضبطه صاحب  
القاموس ، وذكره الزبيدي في تاج المروس فقال « هكذا ضبطه الصاغاني » ، وهكذا ضبطه  
الأمير ابن ماكولا في الإكمال ( ٦ : ٩٩ ) . ونقل الحافظ الذهبي في مشيخته النسيبة : ٤٣٣  
عن أبي القاسم بن برهان النحوي ( عبد الواحد بن علي ) : « إن المتنبي : ابن عيدان » ،  
جمع عيدانة ( يفتح فسكون ) ، وهي النخلة الطويلة ، وأخطأ من قال بالكسر ، يريد  
عيدان ، ونقله أيضاً الحافظ ابن حجر في تبصير المنتبه : ٩٠٥ . و « السقاء » ، هو الذي  
يسقى الماء ، بتشديد القاف ، مضبوطاً في جميع المواضع من بنية الطلب .

حدث علي بن الحسن التنوخي، عن أبيه (الحسن بن علي التنوخي) قال:  
 «اجتمعت بعد موت المتنبي بستين مع القاضي أبي الحسن بن أم شيبان  
 الهاشمي،<sup>(١)</sup> وجرى ذكر المتنبي فقال: كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً  
 يسمى «عبدان»، يستقي على بغير له، وكان جُعْفِيًّا صحيح النسب».

وحدث التنوخي أيضاً، عن أبيه قال:

«حدثني أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي الزبدي،<sup>(٢)</sup> قال: كان المتنبي  
 وهو صبي ينزل في جوارى بالكوفة، وكان يُعرف أبوه، «عبدان السقاء» —  
 يستقي لنا ولأهل الحلة...».

وقال أبو الحسن العلوي أيضاً من حديث التنوخي عنه: «كان عبدان،  
 والد المتنبي، يذكر أنه جُعْفِيٌّ، وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب

(١) نقلته في الطبعة الأولى مصحفاً: «القاضي أبو الحسين بن أم شيان»، وترجمت له عن  
 الخطيب البغدادي في التاريخ ١٢: ٩٩ «علي بن محمد بن صالح». وهذا خطأ محض. ثم  
 بين لي أن الصحيح هو ماضطه ابن العديم وغيره «أبو الحسن بن أم شيان»، وهو والد  
 المذكور آنفاً، وهو: «القاضي أبو الحسن محمد بن صالح بن علي بن يحيى بن عبد الله بن  
 محمد بن عبيد الله بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب  
 الهاشمي، ابن أم شيان». و«أم شيان» هي والدة، يحيى بن عبد الله جد أبيه،  
 واسمها كنيته، وهي والدة يحيى بن عبد الله بن محمد، جد أبيه، ويعرف هو وأهله ببني  
 أم شيان. وهذا القاضي أبو الحسن بن أم شيان ولد سنة ٢٩٤، وتوفي سنة ٣٦٩ هـ،  
 وهو من الكوفة، بها ولد ونشأ، وفارقها إلى بغداد سنة ٣٠١ هـ مع أبيه، ثم تكرر دخوله  
 إليها. ثم دخلها سنة ٣٠٧، فقرأ على أبي بكر بن مجاهد ولقي الشيوخ، ثم استوطن بغداد  
 في سنة ٣١٦ هـ (تاريخ بغداد ٥: ٣٦٣ - ٣٦٥ / المتظلم ٧: ٥٦، ١٠٢).

(٢) كنت ظننت في الطبعة الأولى أنه هو «محمد بن عمر بن يحيى» ينتهي نسبه إلى زيد  
 ابن علي بن الحسين رضي الله عنهم. كان من أهل الكوفة ثم سكن بغداد، وكان التقدم على  
 الطالبين في وقته، والتفرد في علو عمله مع المال واليسار، وكثرة الضياع والعقار. ولد سنة  
 ٣١٥، وتوفي ببغداد في ربيع الأول سنة ٣٩٠، ثم حمل بعد ذلك سنة أو أقل إلى الكوفة  
 فدفن بها. ولكني أرجح الآن أن هذا خطأ، ولعل هذا المذكور «محمد بن يحيى» هو عم  
 «محمد بن عمر بن يحيى»، ولكن أعبأتني أن أبجد ذكره فيما بين يدي من الكتب.

لأشك فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ... » .  
ثم قال التنوخي ( علي بن الحسن ) ، قال أبي :

« فاتفق محيى المتنبي بعد سنين إلى الأهواز متصرفاً من فارس ، فذكرته  
بأبي الحسن ( يعنى محمد بن يحيى العلوي الذى مرَّ آنفاً ) فقال : تربى وصديق  
وجارى بالكوفة ، وأطراه ووصفه ... »

« وسألت المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به ، وقال : أنا رجل أخبط القبائل ،  
وأطوى البوادي وحدي ، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب  
بطائلة بينها وبين القبيلة التي أنتسب إليها . وما دمت غير منتسب إلى أحد ،  
فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني . »

هذا مذهب إليه رواتنا ممن وقع إلينا كلامهم في نسب المتنبي ، يزيد  
بعضهم وينقص بعض ... وقبل أن نبداً كلامنا عن نسبه ، نذكر لك طرقاتاً  
من أمر « الكوفة » التي ولد بها أبو الطيب وفيها نشأ ، عسى أن تكون منه  
فائدة فيما يستقبل من كلامنا .

\* \* \*

كان تمصير الكوفة وأول أمرها ، على مذهب إليه أكثر العلماء ، في  
زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما بين سنة ١٧ إلى سنة ١٩ من الهجرة ،  
وذلك أن المسلمين لما فرغوا من وقعة رستم بالقادسية وعصفوا بالفرس ثم  
انحدروا ، كان مما أنزلهم فيه سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، مكان من  
سواد العراق يقال له : « سوق حكمة » ، فنفض المسلمون وجهدهم المرض ،  
فكتب سعد إلى عمر بذلك فكتب إليه :

« إن العرب لا يصلحها من البلدان إلأ ما أصلح الشاة والبعير ، فعليك  
الزئيف ، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بجرأ ... »

فلما ورد كتابُ عمر ، دَلَّ ابْنُ بُقَيْلَةَ ( رَجُلٌ مِنْ سَوَادِ الْعِرَاقِ ) سَعْدًا عَلَى مَوْضِعِ الْكُوفَةِ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ « سُوْرَسْتَان » ، فَلَمَّا أَقْرَأَ سَعْدُ الرَّأْيَ عَلَى اخْتِيَارِ الْمَوْضِعِ أَسْهَمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَسْهَمَ لِنِزَارٍ وَأَهْلِ الْيَمِينِ سَهْمَيْنِ ، فَمِنْ خَرَجَ سَهْمُهُ أَوَّلًا ، فَلَهُ الْجَانِبُ الشَّرْقِيُّ ، وَهُوَ خَيْرُهُمَا ، فَخَرَجَ سَهْمُ أَهْلِ الْيَمِينِ أَوَّلًا ، فَصَارَتْ خُطَطُهُمْ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْكُوفَةِ .

وَمَا وَرَدَ فِي صِفَتِهَا مَا يَرْوَى عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ : كَانَ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْكُوفَةِ قَالَ :

يَا حَبِيزًا مُعَافَاً بِالْكُوفَةِ أَرْضٌ سَوَالًا سَهْلَةٌ مَعْرُوفَةٌ  
تَعْرِفُهَا جِمَالُنَا الْعُلُوفَةُ

وَمَا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَّازٍ الطُّطَارِدِيُّ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

« الْكُوفَةُ سُنَّتٌ عَنِ الشَّامِ وَوَبَائِهَا ، وَارْتَفَعَتْ عَنِ الْبَصْرَةِ وَحَرَّهَا ، فِيهِ مَرِئَةٌ مَرِيْعَةٌ . إِذَا أَتَيْنَا الشَّامَ ذَهَبَتْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ عَلَى مِثْلِ رَضْرَاضِ الْكَافُورِ ، وَإِذَا هَبَّتِ الْجَنُوبُ جَاءَتْ تَارِيحُ السَّوَادِ وَوَرْدُهُ وَيَأْسِمِينُهُ وَأُتْرُجُجُهُ .<sup>(١)</sup> مَا دَنَا عَذْبٌ ، وَعَيْشُنَا خِصْبٌ » .

فَهِيَ كَأَثَرِ أَرْضِ ذَاتِ طَبِيعَةٍ جَمِيلَةٍ ، حَبِيبٌ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْبَقَاءَ بِهَا فَأَتَرُوهَا عَلَى غَيْرِهَا ، حَتَّى كَانَتْ الْفَتْنَةُ الْكُبْرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَاتَّخَذَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قَاعِدَةٍ أَمْرَهُ ، وَاجْتَمَعَ فِيهَا أَشْيَاغُهُ وَغَلَبُوا عَلَيْهَا ، فَمِنْ يَوْمِئِذٍ وَالْكُوفَةُ مَعْقِلٌ مِنْ مَعَاوِلِ الشَّيْعَةِ وَالْعُلُوِيَّةِ وَالزُّيْدِيَّةِ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا . يَقُولُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَمِينِ الْحُسَيْنِيُّ الْعَامِلِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ (أَعْيَانِ الشَّيْعَةِ):<sup>(٢)</sup> « ثُمَّ إِنَّ الْكُوفَةَ ضَعُفَتْ بَعْدَ انْتِقَالِ الْخِلَافَةِ مِنْهَا إِلَى بَغْدَادَ ، ثُمَّ خَرِبَتْ . وَالْيَوْمَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعِمْرَانِ ، وَجَمِيعُ أَهْلِهَا شَيْْعَةٌ » .

(١) السَّوَادُ : الرِّيفُ

(٢) هُوَ كِتَابُ جَلِيلٍ عَلَى مَا فِيهِ .

أما أمر تخطيطها وعمرانها في القرن الأول والثاني أو القرن الرابع الذي عاش فيه أبو الطيب ، فلا نكاد نجد بين أيدينا شيئاً مما رُوى يدلنا عليه ، ويقفنا عنده ، إلا ما رُوى عن بشر بن عبد الوهاب القرشي من أنه ذكر قدر الكوفة فكانت ستة عشر ميلاً وثلاثي ميل ، وذكر أن فيها خمسين ألف دار للعرب من ربيعة ومضر ، وأربعة وعشرين ألف دار لسائر العرب ، ( وستة آلاف دار لليمن ) ، وذلك في سنة ٣١٤ وما قبلها .

وقد رمى إلينا النبي طرفاً آخر من تخطيط الكوفة لمهد صباه ، إذ يقول وهو بالشام فيما مدح به ( علي بن إبراهيم التنوخي ) :

أُمْنِي السَّكُونِ وَحَضْرَمَوْتَا ( ووالدتي ) وَكِندَةَ وَالسَّيِّمَا  
يقول الواحدى : « هذه أما كنُ بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا ينزلون هذه الحال » . ولا شك أن « محلة كندة » التي ولد بها صاحبنا أبو الطيب كانت خطية من خطط الكوفة ، نزلها في الصدر الأول من نزل من بطون كندة فسميت بهم ، وأن سائر الكوفة - أو الجانب الشرقي منها على التحقيق - كان مسمياً مخططاً إلى أحياء كثيرة غير هذه التي ذكرها أبو الطيب في شعره . ولكن بما نوجب له أن بشر بن عبد الوهاب يقول : إن دور أهل اليمن ( جميعاً ) في كل أحياء الجانب الشرقي ) بالكوفة كانت في سنة ٣١٤ وما قبلها وعدتها ( ستة آلاف دار ) ، ويقول صاحب ( إيضاح المشكل في شعر المتنبي ) أبو القاسم عبدالله بن عبد الرحمن الأصفهاني أن ( ابن النجار ) حدثه ببغداد :<sup>(١)</sup>

(١) كنت قلت هذا في الطبعة الأولى من خزانة الأدب للبغدادى ( ١ : ٣٨٢ ) ، حيث نقل القسم الأول من كتاب « إيضاح المشكل في شعر المتنبي » ، ثم طبع هذا الكتاب في تونس سنة ١٩٦٨ . و « ابن النجار » هو « محمد بن جعفر بن محمد بن هرون بن فروة ، أبو الحسن التميمي النحوي » ، ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة ، ورحل إلى بغداد ، ثم مات بالكوفة سنة ٤٠٢ . ( تاريخ بغداد ٢ : ١٥٨ / ومجم الأدباء ٦ : ٦٧ / وبنية الوعاة ) . ولابن النجار « كتاب تاريخ الكوفة » ، قال ياقوت : « وقد رأيت » .

« أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف (بكندة) بها ثلاثة آلاف بيت من بين رواده ونساج » ، وذلك سنة ٣٠٣ . فليت شعري أكان جُلُّ أهل اليمن النازلين بالجانب الشرقي من الكوفة ، وهو خير جوانبها ، ما بين سقاء ونساج ؟ هذا عجب أن يكون ذلك كذلك ، إذا كان النساجون والسقاؤون وحدهم قد شغلوا من دور أهل اليمن بالكوفة ، ثم بمحلة كندة وحدها ، ثلاثة آلاف دار ، فكيف شغل من بقي من أهل اليمن من أصحاب الصناعات ومن لفء لفهم من التجار وأصحاب الأرضين . ثم ما يبقى من حيِّ أهل اليمن لرجالات اليمن وأشرفها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها ، وهم كثر .

فهذه اللبالة وجه من وجوه إسقاط قول ( ابن التجار ) ، وسترى أن المتنبي قد مُنِيَ في حياته وبعد موته بضروب من المداوات قد جعلت تاريخ الرجل مزلّة لا تثبت عليها قدم ، ولا يهتدى فيها إلا بصيرٍ متنبّث . ولو نظرت إلى أقوال الأصفهاني صاحب ( إيضاح المشكل ) ، وما رواه في مقدمة كتابه ، رأيته ممن كان يتحامل على أبي الطيب ، ويذكره بالسوء في كل قوله ، وما أتى له بحميدة إلا وأتبعها بجملة بالمة قارصة . وهو قد ألف كتابه هذا لأصغر أبناء « عضد الدولة » — الذي مدحه المتنبي ، وكان آخر من مدح — بهاء الدولة خاشاذ بن عضد الدولة ، وكان التحاسد واقعا بين أبناء عضد الدولة ، حتى إن المتنبي حين ذكر أخويه ، وهما أكبر من بهاء الدولة ، في مدح أبيهما دعا لهما فقال :

فَمَاشَا عَيْشَةَ التَّمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْنِهِمَا وَلَا يَتَحَاسَدَانِ

فكأنى بالمتنبي قد أحرك ذلك منهما ، وألم بطرف من تحاسدهما . وقد خابت دعوة صاحبنا ، فإن شرف الدولة شيرزِيل بن عضد الدولة حارب



أخاه صمصام الدولة وظفر به بعد حروبٍ وحبسه . فلعلَّ بهاء الدولة هذا كان ممن يمتدح على المتنبي ، إذ لم يدحه أو يذكره في شعره (مع صفه إذ ذاك) ، فكتب الأصفهاني كتابه تقريباً وزُلِّقَ إليه . وما يؤيد ذلك أن كتاب الأصفهاني في نقد كلام ابن جني ، وهو صاحب المتنبي ومريده ومن الضالعين معه . وسيأتى طرف من غرائب ما ذكره الأصفهاني في ثنايا القول ، يؤيد رأينا في أن الرجل كان يلقى بالهوى الجائر ، وما كان يؤلف بالتاريخ .<sup>(١)</sup>

\* \* \*

والآن ، وقد فرغنا من القول في محلة كذبة التي ولد بها المتنبي ، وما وقف أمرها من المبالغة ، ننظر في نسب الرجل ، لترى كيف بالغوا أيضاً في الإساءة إليه ، وتعمير مولده ، والخط من أصله ونشأته ، لأغراض خافية قد أحاطت بصاحبنا ، أضرت به في حياته ، وأفسدت تاريخه بعد وفاته . رأيت قبل في أول ماروبنا لك من أقوال الرؤاة ، أنهم أرادوا أن يثبتوا بما رَوَوْا أن الحسين والد المتنبي هو عيذان السَّقاء ، كان يسقى الماء على بعير له بالكوفة . وروى القصة كلها هو علي بن الحسن التنوخي ، عن أبيه الحسن التنوخي ، ونحن نتمم فنشك في رواية الحسن التنوخي لأسباب نذكر طرفاً منها هنا ، ثم تأتى بعدُ أسباب أخرى تثبت ما نقوله إن شاء الله .

---

(١) هذا طرف من القول ، وبقيت أطراف ترجع إلى العداوة بين بني بويه وسيف الدولة ، وما جرت هذه من المصومة بين أهل العصر ، والأدباء خاصة . وقد اشتمت للناسه أخيراً بين بهاء الدولة وسيف الدولة وتورط الأدباء فيها فكتبوا وألقوا يرمدون بما ألقوا القرب إلى واحد من المصمين . وأيضاً فإن بني بويه كانوا يعرفون يقيناً أن المتنبي لم يكن خالسا للمدح لهم ، فقد شاب مدحه بالمسرة على لغاتهم في بعض قصائده ، وما كان ذلك ليخفى عليهم . . . . . وهناك كثير من القول أغفناه هنا ، وربما أتى بعضه عرضاً في آخر ما نكتبه عن مدح المتنبي بني بويه إن شاء الله .

القاضي أبو علي الحسن بن علي التنوخي ولد سنة ٣٢٧ ، وتقلد القضاء سنة ٣٤٩ ، فكان من أصحاب الوزير أبي محمد المهلب ، وكان المتنبي حين دخل بغداد في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز ، قد ترفع عن أن يمدح الوزير المهلب ، فأغرى المهلب به الشعراء وغيرهم ، كآبي علي الحاتمي صاحب الرسالة العجيبة المعروفة بالحاتمية ، ذكر فيها سرقات المتنبي ، وزعم أنها قد وقعت كما قيدها بينه وبين المتنبي ،<sup>(١)</sup> فلا عجب أن يكون محسن التنوخي من أعداء أبي الطيب لصلته القريبة بالوزير ، فقد بلغ به أن كان من قدمائه . ولا عجب أيضاً أن يسند التنوخي روايته (أو كذبه) إلى بعض شيوخه ثلثاً يفتضح . ولذلك زعم ، كما قدمنا لك ، أن القاضي ابن أم شيبان حدثه فقال : « كنت أعرف أباه بالكوفة . شيخاً يقال له عيدان . . . إلخ » . والقاضي ابن أم شيبان ، يحتاج أمره إلى بعض النظر ، إذا حدث عن المتنبي ، لأني أخشى أن تكون صلته قريبة جداً ، بحياة المتنبي وما لقيه من العلويين ، كما سأبينه فيما بعد .

وهذا الشيخ التنوخي يقول : إنه سأل المتنبي عن نسبه فما ( اعترف له به ) ، وكان إذ ذاك شاباً في السابعة والعشرين ، وكان المتنبي قد نيف على الخمسين ،<sup>(٢)</sup> فما نظن أن القاضي التنوخي كان يجرؤ أن يسأل المتنبي عن ذلك ، لُبعد ما بينهما ، ولتعالى لمتنبي وترُفُّه حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضاً لما يعلم من صلة القاضي بالوزير للمهلب وتحمقه بخدمته ( كما قال عن نفسه ) . فمن يترفع عن الوزير أبي محمد المهلب ، وهو من هو في سياسة عصره ودسائسه ، لا يتبدّل مع صاحبنا القاضي

(١) الرسالة الحاتمية ، مطبوعة ، وقد طبع صديقنا الدكتور محمد يوسف نجم كتاباً آخر للحاتمي في المحط على أبي الطيب ، سماه : « جبهة الأدب » ، ونشره الدكتور نجم باسم « الرسالة الواضحة » ( سنة ١٩٦٥ بيروت ) . والكلام هنا أكثر انطباعاً على الكتاب الثاني .  
(٢) لقيه التنوخي بالأهواز منصرفاً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته سنة ٣٥٤ .

التنوخى . هذا، فإن كان قد سأل المتنبي حقاً كما يقول، فما يكون جواب المتنبي عن ذلك هذا الكلام الملقق الضميف الذى يَصْعُ من رأى صاحبه ويستفسد من عقله : « أنا رجل أطوى البوادرى وحدى وأخيط القبائل . . . » . فلم يكن المتنبي ممن يطوى البوادرى وحده إذ ذلك، بعد أن سار اسمه مسير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبي الذى لم يخف أن يخرج غير محروس يوم قُتل . وقد أوعدوه ، وأرصدوا له ، وتحقق هو ذلك ، لا يقول : « متى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها » . وهل أذل من قوله : « وما دمت غير منسب إلى أحد ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » ؟ أهذا يقوله من أوعد الملوك وجاهرهم بالعداوة فى عصر كانت تذهب فيه الأرواح مع كلمات الوشاية والدسيس والمكر السيئ ؟ !  
كللاً يا أبا على . . .

وقد بالغ صاحبنا التنوخى فى روايته عن المتنبي حين سألته عن أبى الحسن محمد بن يحيى العلوى ، ومبالفته تدل على أنه كان يريد أن يولد كلاماً ، فأطال فيما روى ليوم السامع بطول قوله أن المتنبي حرّكته الذكرى ، فأفاض فقال عن أبى الحسن العلوى : « تربنى . . . وصديقى . . . وجارى بالكوفة . . . وأطراه ووصفه » .

وأخرى . . . فن جهل هذا التنوخى بأساليب الوضع للثقة — التى جرى عليها شيوخ الوضعاء وأحكاموا أمرها حتى خفيت على الحنفى البصير من العلماء نو الأدياء — أنه جمع بين التناقض فى الكلام الواحد الذى يرد به إثبات ما لا يكون ، أو كونه ما لم يثبت . فمن ذلك أنه روى أن أبا الرجل كان سقاه يسقى على بعير له ، ثم حدث عن الرجل نفسه أنه قال : « متى انتسبت لم آمن

أن يأخذني بعض العرب بطائفة بينها وبين القبيلة التي أنتمسب إليها . وهذا أمر من الأمر ، فإن العرب لذلك العهد كانت قد نسيت الترات القديمة ، وألقت بالسخائم الثوارثة ، وانصرفت إلى ماجد من الأحداث في دولتهم وفرق شملهم وجعل بأسهم بينهم تمسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، حتى لعبت بهم الأعاجم فخطمتهم الأيام . فإذا كانت العرب قد نسيت ما قدّم أو ذكرته قليلاً قليلاً ، فما خوف المتنبي مما لا يخاف منه ؟ وما خوفه وهو آمن في المدن بين الكوفة وحلب وأنطاكية ودمشق والفسطاط ؟ أو كان المتنبي وحده من أهل عصره هو الذي يخشى ذلك ؟ ألم يكن في عصره مثله ممن يطوى البوادي وحده ؟ كلا ، وإن رجلاً قد سقط بأبائه السواقط إلى السماء وغيرها من حقيرة المهن ، لا تُبتغى عنده طائفة ، وإن بُقيت فما يكون لدركها عنده نغمة . ( ابن السقاء هذا ) ما عرض في شعره كله إلى قبيلة فجعها أو عرض بها أو لمزها بشيء ، حتى يخشى ظهور كيد يسكاد به ، ولئن فعل لقالوا له كما قال الأول :

وكن كيف شئت ، وقل ما تشاء ، وأرعد يميناً وأبرق شمالاً  
نجا بك عرضك منجى الذبا ب حمتته مفاذيرُهُ أن يُنالا

وما عرض كعرض سقاء وابن سقاء ينجو به ناجر من طالب ناري أو  
مدرك زرة ١

وهلاً أدرك هذا المترفع المتعالي على الملوك والأمراء ، عنيت المتنبي ، بنسبه وجلا آخر غير هذا السقاء ، الذي هو أبوه ، فوقف عليه بنسبته ١١ ما كان يضير هذا الرجل ، لو أنه كان قد سئل عن نسبه ، كما يوم التوخي ، أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجل من الناس معلوم غير منكور ولا محقر ؟ إن الرواة قد

اختلفوا ، كما رأيت في صدر مقالنا ، في اسم جدّه (أبي أبيه) ولم يجمعوا على شيء ، وأخطأ بعضهم في اسم أبيه فسمّاهُ (محمداً) ، واقتصر جُلّ شراح ديوانه من الأوائل ، ثم أكثر النسخ المخطوطة — على اسم أبيه وحسب ولم يزدوا . فهذا دليل على أن الكتمان إنما كان كتماناً للنسبة كلها لا كتماناً إلى قبيلة بعينها يخشى من الانتساب إليها أن يلحقه من جرائمها أذى في تِرة ، أو مكروهاً في ضمنية قديمة أو محدثة ، وأيُّ ثأر يكون للعرب والقبائل عند من كان سقاء بالكوفة .

ثم إن التنوخى يروى هذا الخبر ، ويروى أيضاً أنه كان جمعياً صحيح النسب ، وما تصحّ نسبة سقاء إلى جعفي بن سعد العشرة إلّا أن يذكر نسبه متصلاً إلى جعفي ، لأن سقاء يدعى الانتساب إلى جعفي ، لا بدّ له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وما النسب المتصل المعروف غير المنكر ، ما من ذلك بدّ . ولو كان ذلك ، لوقع إلينا نصُّ واحدٍ يذكرُ فيه نسب المتنبي إلى رجل من جعفي لا يختلفُ في أمر نسبته . فإظنُّك بمن اختلف في جدّه الأدنى والذي بعده ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه من عهود النسب ؟

أو لم يكن الذي حفر التنوخى أن يسأل المتنبي عن نسبه فأخفاه عنه ، ليفتره أن يسأل ابن أم شيبان الهاشمي ، أو أبا الحسن العلوي ، كيف صحّت نسبة الرجل إلى جعفي ، وخاصة بعد أن جحدته المتنبي وكنم عنه ما عرفه غيره ؟ ولو كان فعل ، لكان نسب الرجل مشهوراً عندنا كما صارت مهنة أبيه مشهورة منقولة .

وبعد ، ألم يكن بين العرب جميعاً من يعرف أن الرجل جعفي القبيلة غير

« ابن أم شيان الهاشمي » و « أبي الحسن العلوي » و « أبي علي التنوخي » ؟  
 أو قد حرصوا ثلاثتهم على أن لا يذيع نسب الرجل إلى جعفي ؟ ولو كان ذلك ،  
 فما الذي حملهم على هذا الحرص ؟ والتنوخي نفسه لم يكن يعرف سبب حرص  
 المتنبي على كتمان نسبه إلا في السنة التي مات فيها ( سنة ٣٥٤ ) ! أكانوا  
 ثلاثتهم لا يأمنون « أن يأخذ المتنبي بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي  
 ينسب إليها » ؟ وكذلك شهد الرجل ( التنوخي ) على نفسه في حديثه بالتخليط  
 أو الوضع .

ولا يفوتك أن المتنبي في أول أمره كان بأنطاكية واللاذقية ، وكان  
 التنوخيون يزلونهما من قديم ، وقد نبئت بين صاحبتنا وبين رجال من تنوخ  
 هناك نابعة من المودة ، ثم تمت وربت واهترت ، فذهبهم ورائهم ، ودفع عنهم ،  
 ورعى دونهم ، وأقام طويلاً بينهم مكرماً ، وقد كان بين أصحاب أبي الطيب  
 من التنوحيين وأبناء أعمامهم عداوة ، فلما مات محمد بن إسحق التنوخي ورائه  
 المتنبي ، جرى في أنطاكية الخبر بأن أبناء عمه قد شتموا بموته ، فلجأ هؤلاء  
 الشامتون إلى أبي الطيب يسألونه أن ينفي الشتمة عنهم ، فكان مما قال  
 في ذلك :

( أبناء عم ) كل ذنب لا مريء إلا ( السعاية ) بينهم مغفور  
 طار الوشاة على صفاء ودايم وكذا الذباب على الطعام يطير

ثم عادوا فساؤوه أن يزيد ، فكان مما قاله على لسانهم :

رئى ابن أينا غير ذي رحيم له فباعدنا عنه ، ونحن الأقارب  
 وعرض أنا شامتون بموته ، وإلا فآزرت عارضيه القواضب

أليس عَجِيْبًا أَنَّ بَيْنَ ابْنِي أَبِي (لَنْجَلٍ يَهُودِيٍّ) تَدْبِثُ الْعَقَارُبُ

وهذه العداوة التي كانت بين التتوخيين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحدهم من تنوخ (كأبي على التتوخي) ممن يذكرُ من أمر أبي الطيب شيئاً ، وعلينا أن لا نعلمُن إلى قوله حتى نتطعنا الحجة بأنه كان ممن لا يميلون إلى هوى ، ولا يصفون أفتدسهم إلى بِنْفِضَةٍ ، فما ظنك بأبي على التتوخي وهو قد اجتمعت الدلائل — كما رأيت — على وهن روايته ، واختلاط حديثه ، وبيان هواه ؟

وليس عجيباً أن يكون التتوخي ممن يحمل لأبي الطيب في صدره شحنة لصلته المرووفة بأبناء عمومته ، فتحمله هذه الشحنة على وصف الرجل بكل نقیصة ، أو النيل منه بكل سبيل . واعلم أن عليّاً التتوخي (والد المحسن هذا) كان ممن وُلِدَ بأنطاكية وشبَّ بها ثم رحل عنها ، فلهذه رحل عن أنطاكية لِحَدَثٍ وقع بين أهله وبين أقاربهم ، وبقیت في صدره وصدر أبنائه حزازاتٌ موروثة وأحقاد لبني عمه هناك . ولا عجب ، فقد كانت هذه الفترة من العصر العباسي مِرْجَلاً يغلي بالأحقاد بين الأخوة وبنی الأعمام ، حتى قتل الرجل منهم أباه وعمه وأخاه ، وهتك عرضه ، واستباح حرماته ، وخاصة من رقی درجات الإمارة ، أو أدرك سبياً من السلطان كأصحابنا التتوخيين ، (وهم نسلُ ملوك تنوخ الأقدمين) .

\* \* \*

هذا ، ولو سلمنا للتتوخي رحمه الله بصحة روايته عن أبي الحسن العلوي ، وأن الذي قاله عن المتنبي هو من لفظ أبي الحسن جملةً ليس بموضوع ولا مبتدع من عند نفسه — فعدنا في أقوال العلويين الماصرين عن أبي الطيب سببٌ

للتوقف دون التسليم لهم هكذا ، لا نجادل ... (١)  
 ففي ديوان أبي الطيب معنى من المعاني ، وإخاله سرّاً من الأسرار ،  
 لعله أن يكون يوماً ما مفتاحاً تنسّق له الأبواب المغلقة في نسب الرجل ،  
 ومعرفة أصله الذي يصله بنسب غير مجهول ولا موضوع ، فعلياً أن نستوفي  
 هنا بعض الرأى الذي نذهب إليه ونقيده على مكث .

نشأ صاحبنا بالكوفة ، وهى إذ ذاك دارُ العلويين ، ومقل الأئمة منهم  
 والناهبين من رجالهم وشجعانهم ، فكان حقيقاً بمثله من ينال بالشعر ويؤمل  
 منه ، أن يمدح مَنْ تُرجى عنده الفواضل من كبار العلويين وأجوادهم ،  
 وهم أهل بلده الذين في ظلهم نشأ ، وبين ربوعهم نما ، ومن علومهم نهل  
 واغترف ، (٢) واستقى وأفاض ( على الناس من غيرهم ) مما استقى  
 وما اغترف .

فعبجاً لأبي الطيب ، أيما عجب ، أن لا يكون مدح من العلويين إلا  
 رحلين ما امتدّ به العمر ، وقد بين أبو الطيب في إحدى قصيدتيه ، وبينت  
 الرواية في الأخرى ، سبب ذلك المدح ...

---

(١) وقيل فلا تنس ما كتبنا لك : أن العصر الذى كان أبو الطيب أحد رجاله ، كان  
 من بين العصور المريعة عصر أحيث النفس ، فاسد الطوية ، قد طفت فيه الدساس ولعبت به  
 الأمواء واستعرت الأخاديد بين الرجل وأخيه ، والوالد وبنيه ، والوحيد وعشيرته التى تؤويه .  
 وفصل هذا المعنى ، وخذ به واعرضه في أثناء كلامنا فى كل موضع يمكن الإشارة ، ولا عند  
 كل مفرق من القول يجب التعليق والتفصيل ، وما يفوز القارىء حين يفوز إلا بما يفتن إليه  
 مما ينفل عنه غيره ويتجاوزوه سواء .

(٢) « اعلم كما سترى بعد أن المنتهى تعلم فى كتاب للعلويين » ، هكذا قلت قدتماً بل  
 الأمر الآن أكبر من التلم كما ستعلم بعد .



قال المكبري : « وكان محمد بن عبيد الله العلوي المعروف بالمشطب »<sup>(١)</sup>  
 هذا المدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شابٌ دون  
 العشرين سنة ، قُتِلَ منهم جماعة ، وجُرح في وجهه فكسته الضربة حسناً ...  
 فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا — :

فلدحه المتنبي بقصيدته التي أولها :<sup>(٢)</sup>

أهلاً بدارٍ سبائكُ أعيدُها      أبعدُما بَانَ عنكَ حُرْدُها

فذكر فيها أن ناقته حملته إلى ( ابن عبيد الله ) هذا المدوح :

إلى فَنَى يُصْدِرُ الرِّمَاحَ      أَنهَلَهَا فِي الْقُلُوبِ مُورِدُها  
 لَهُ أَيَادٍ إِلَى ( سَالِفَةٍ )      أَعْدَتْ مِنْهَا وَلَا أَعْدَدُها

ثم طلق يمدحه إلى أن قال :

وكم وَكم نِعْمَةٌ مُجَلَّلَةٌ      رَبَّيْتُها كانَ مِنْكَ مولدُها  
 وكم وَكم حَاجَةٌ سَمَّحَتْ بِها      أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى موعِدُها  
 وَمَكْرُمَاتٍ مَسَّتْ كُلَّ قَدَمِ الْبَرِّ ،      إِلَى مَنْزِلِي تَرَدُّدُها  
 أَفْرَ جِلْدِي بِها عَلَى فِلا      أَقْدِرُ حَتَّى الْمِائَةِ أَجْعُدُها  
 فَعُدَّ بِها لَا عَدَمْتُها أَبَدًا      خَيْرُ صِلَاتِ الْكَرِيمِ أَعُوذُها

(١) قال الأمير ابن ماكولا في الإكمال ١ : ٨١ « الأشتر الثقفي أبو الحسين محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، مدحه المتنبي ، وكان يلقب « المصريح » ، قاله لنا الشريف النساب » .

(٢) الرأي عندنا أن المتنبي قال هذه القصيدة بعد مرجعه إلى الكوفة من مقامه بالبادية سنة أو أقل ، وقبل خروجه إلى بادية كلب واللاذقية حيث سجن في دعوى النبوة ، كما يزعمون ، وقد كانت سنة حين قالها على الأرجح عندنا خمس عشرة سنة أي سنة ٣١٨ هـ . واعلم أننا إنما نجتهد في تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبي ، وقد وجدنا في ذلك الشك وما فوقها ، لترجم للرجل على بيته وهدى . وسجد فائدة ذلك في كثير مما يمر بك إن شاء الله .

والمتنبى، كما ستمعلم بعد، كان أول أمره وهو صبي<sup>(١)</sup> : « يخلتف إلى كتاب فيه أولاد أشرف الكوفة » من العلويين ، فكان<sup>(٢)</sup> ( محمد بن عبيد الله العلوى ) هذا كان من لذات أبي الطيب . أو أسنانه الذين كانوا معه في المكتب .<sup>(٣)</sup> وأخذت بينها المودة ثم ، ولعله كان يفضل على المتنبى ويتمهده ويكرمه فذلك قال : « له أباد إلى سالفه » . فأكدت هذه المودة القديمة سبب للدمع حين عاد من رحلته في البادية ينسقط اللغة وينتجع الرزق .<sup>(٤)</sup> وأرجح الظن أن المتنبى حين عاد إلى الكوفة : عاد إليه صاحبه العلوى بالإفضال والتمهيد ، فلما أصيب بالجراحة في خزيه ، مدحه المتنبى لصداقته ومودته ، ولما أسدى إليه من معروف ، وما اتخذ عنده من صنائع .

\* \* \*

أما آخر الرجلين العلويين ممن مدح ، فهو أبو القاسم طاهر بن الحسن ابن طاهر العلوى لم يمدحه المتنبى ابتداءً : كما مدح غيره ، وفي ما نرويه لك من خبره عجب !

(١) تقول فلان سن فلان أى مثله في سنه ، والجمع أسنان .

(٢) هذا ما قلته منذ أربعين سنة ، أما الآن فقد صار ما قلته هنا لا يعبر عن الحقيقة . فإن علاقة المتنبى بالعلويين لم تقتصر على تعلمه في كتاب فيه أولاد أشرف الكوفة ، بل ارتفعت علاقته إلى أخوة من الرضاع . فقد ذكر ابن العديم ( ٥٨٨ - ٦٦٠ هـ ) في ترجمته التي سنتمرها مع سائر التراجم الجديدة في آخر الكتاب ، أن المتنبى : « أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله » وأسنده فقال : « أخبرني صديقنا أبو الدرداء ياقوت بن عبد الله الرومى مولى الحوى البنداضى ، قال : رأيت ديوان أبي الطيب المتنبى بخط أبي الحسن على بن عيسى الرسمى قال في أوله » ، وذكر ما قلته وغيره كثير . و « على بن عيسى الرسمى » ، ممن روى عن المتنبى وأخذ عنه شعره . فالأمر إذن أجل من التعلم في كتاب أولاد أشرف الكوفة من العلويين . و « آل عبيد الله » ، هم بنو « عبيد الله بن على بن عبد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب » ، ومنهم « المشطب » الذى مدحه ، كما ترى في نسبه من : ٢٧ ، تعليق : ١ ، والأرجح الآن أنه أخو المشطب من الرضاع على الأقل !

كان الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طنج وهو بالرملة لم يزل يرأس  
أبا الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، ويعزم عليه في القدوم عليه ، فلما كثر ذلك منه  
أجابه ومدحه وأقام عنده مديّة ، فلم يزل أبو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طنج) ،  
يسأل أبا الطيب أن يخصّ أبا القاسم (طاهراً العلوي) بقصيدة من شعره (وأنه  
قد اشتمى ذلك) !! وأبو الطيب يقول : « ما قصدتُ إلا الأمير (ولا أمدح  
سواه) !! » فقال له أبو محمد : « عزمت عليك أن أسألك قصيدة تنظمها  
فيّ فأجعلها فيه » ، (تأمل هذا) ، وضمن له عنده مئاة من الدنانير ، فأجاب .

قال محمد بن القاسم الصوفي : « فسرّتُ أنا والمطلبيّ رسالة طاهر إلى  
أبي الطيب ، فركب معنا حتى دخلنا عليه ، وعنده جماعة من الأشراف ، فلما  
أقبل أبو الطيب ، نزل طاهر عن سريره ، والتفاه مسلماً عليه ، ثم أخذ بيده  
فأجلسه في المرتبة التي كان فيها ، وجلس هو بين يديه . فحدثت معه طويلاً  
ثم أنشد أبو الطيب نخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة » .

قال علي بن القاسم الكاتب : « كنت حاضراً هذا المجلس ، فראيتُ  
ولا سمعتُ أن شاعراً جلس المدح بين يديه مستمعاً لمديحه غير أبي الطيب ،  
فإني رأيت هذا الأمير قد أجلسه في مجلسه ، وجلس بين يديه ، فأنشده :

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهَوَ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ  
وَرُدُّوا رُقَادِي فَهَوَ لِحْظُ الْحَبَائِبِ<sup>(١)</sup>

(١) لا بد لنا هنا من التنبيه إلى خطأ بلغ وقع فيه أحد كبار أدبائنا في كتابه عن المتنبي ،  
لإذ زعم أن المتنبي قال هاتين القصيدتين ( في ابن طنج والعلوي ) بعد فراق سيف الدولة وقبل  
اتصاله بكافور ، والصحيح أنهما قيلتا سنة ٣٣٦ وهو بالرملة ، ومن ثم في تلك السنة رحل إلى  
أنطاكية قاصداً أبا العتاش الحمداني الذي وصل أسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧ . وسرى  
ذلك في موضوع من مقالنا . هذا على أن أسلوب الرجل في هاتين القصيدتين ونهجه في الشعر ،  
غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة ، وذلك بين لمن تدبر أدنى تدبر .

وفي هذه القصيدة التي يدح بها رجلاً علوياً ساجى القدر يقول :

كثيرُ حَيَاةِ المَرِّ مِثْلُ قَلِيلِهَا      يَزُولُ ، وَبَاقِي عُمْرِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ  
إِلَيْكَ ، . . فَإِنِ لَسْتُ مِنْ إِذِ اتَّقَى      عِضَاضُ الْأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْقَارِبِ  
أَنَايَ وَعَيْدُ (الأدعياء) ، وَأَنْهُمْ      أَعَدُّوا لِي السُّودَ أَنْ فِي كَفْرِ عَاقِبِ  
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَخَذَرْتُهُمْ      فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ  
إِلَى كَعْمَرِي قَصْدُ كُلِّ عَجَبِيَّةٍ      كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عُيُونِ الْعَجَائِبِ  
بَأَى بِلَادِي لَمْ أَجِرْ دُؤَابَتِي ١٩      وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَّاهُ رَكَابَتِي ١٩

ونفسُ الرجلُ في القصيدة يدلُّ على أنه كان قد لقي كيداً في سنته تلك من هؤلاء القومِ الأدعياء ( وهم الذين يدعون الشرف بنسبتهم إلى عليّ رضي الله عنه ) . ويُنَّ بما ورد في شعر أبي الطيب أنه حين أزعج الرحيل من طبرية سنة ٣٣٦ ، أُرصد له هؤلاء العلويون ( الأدعياء ) قوماً من السودانِ عبيدهم في طريقه بكفر عاقب ليقتلوه ، <sup>(١)</sup> فلم يظفروا بما أملوا ، وأخفَظ ذلك أبا الطيب ، فلما دخل الرملة كان ، على عادته كما سترى ذلك ، نائراً لا يفتأ يذكر ما يختلج في ضميره ، لا يراعى ولا يُحَابَى ولا يتهيب ، ومن آثار هذه الحفيظة قوله في هذه القصيدة أيضاً :

إِذَا (عَلَوِيٌّ) لَيْكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ      فَإِنَّهُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ <sup>(٢)</sup>  
ثم أجري هذا الأمر مجرى للثلث كما دتته فقال :

(١) كفر عاقب : قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن .  
(٢) النواصب : هم الخوارج الذين نصبوا المداوة لأبي المؤمنين على كرم الله وجهه ، واحلها ناصي .

إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النَّسِيبِ كَأَصْلِهِ      فَمَاذَا الَّذِي تُغْنِي كِرَامَ الْمَنَاصِبِ !  
وَمَا قَرَّبَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَبْعَدَ      وَلَا بَعُدَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَقَارِبَ

والبيت الأخير هو حجته في نفى العلوية عنهم ، وإثبات أنهم أذعياء لا يمتنون إلى الشرف بسبب ولا صلة . فلو كانوا علويين ، لاجرم ، لتشابهت الأخلاق في الكرم والسمو ، ولكانوا كهذا العلوي الذي يمدحه ( طاهر ابن الحسن ) .

ليس هذا فحسب ، فإن أبا الطيب ، قبل هذا بأيام ، يقول للأمير أبي محمد بن طنج في مديحه :

كَرِيمٌ نَفَضْتُ النَّاسَ كَمَا بَلَنْتُهُ      كَأَنَّهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادٍ قَادِمٍ  
وَكَاذِبٌ سُرُورِي لَا يَنُفِي بِنْدَامَتِي      عَلَى تَرْكِهِ فِي عُمْرِي الْمُتَقَدِّمِ  
وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَتُرْبَةً      بِهَا ( عُلُوٌّ ) جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمٍ

( وشَرُّ الأرض ) هي طَبْرَةُ التي كان بها قبل مقدمه إلى الرملة .

أو ما ترى بعد أن في تجنب المتنبي مدح العلويين وريالهم وأعمهم في أول أمره وهو بالكوفة ، إلا واحداً كان رفيق صباه وأجد أسنانه ، ومن خير الفضليين عليه ولتعهديه في محنته وقره — ثم في طلب الأمير منه أن يمدح طاهراً العلوي فيمتنع ويستعصى عليه حتى يكثر عليه الأمير ويقول : « أنا أشتى ذلك » ، فيقول أبو الطيب : « ما قصدت إلا الأمير ولا أمدح سواه » ، فلا يزال به يحتال عليه حتى يستخرج منه وعده ، ثم في إكرام العلوي له هذا الإكرام البالغ بنزوله له وإجلاسه في مرتبته وعلى سريره ، ولا يتورع المتنبي إذ ذاك

أن يذكر بعض العلويين بالذمة والتعريض ونفى النسبة الكريمة عنهم —  
 ألا ترى أن هناك سرّاً من الحفيظة بينه وبين العلويين الذين نشأ بينهم وفي  
 ديارهم ، ودرس في مكتبهم ، بين أولادهم ؟<sup>(١)</sup>

هذا ، وسيأتى طرف من ذلك بعد ، <sup>(٢)</sup> فترى أن أبا الطيب حين خرج في  
 أول أمره باللاذقية ، كان الذي عذبه وسجنه رجل هاشمي أو علوي هو ( ابن  
 علي الهاشمي ) ، وكان بكوتكين ، فجعل في عنق صاحبنا وزجليه خشبتين من  
 الصنصاف فقال له :

زَعَمَ الْمُقِيمُ بَكُوتَكِينَ بِأَنَّهُ      مِنْ آلِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ  
 فَأَجَبْتَهُ : مَدُّ صِرْتٍ مِنْ أَبْنَائِهِمْ      صَارَتْ قُيُودُهُمْ مِنَ الصَّنِصَافِ  
 يسخر منه ، ومما أخذه به .

أفلو شككنا ، من أجل هذا ، في صحة ما يقوله العلويون عن أبي الطيب ،  
 وتوقفنا دون الأخذ بأقوالهم في ترجمة الرجل ، نكون قد أتينا أمراً كبيراً  
 لا يقرُّنا أحد عليه ؟ لا أدرى !

رأيت قبل أن الذي قال : إنَّ والد المتنبي هو « عِيْدَانُ السَّقَاءِ » ، إنما  
 هو أبو علي الحسن التنوخي ، وهو من شيوخ المراق وأصحاب الوزير المهلب ،  
 فزد على هذا أيضاً أن المتنبي حين دخل المراق بعد فراق كافور ، أعرض عن  
 المهلب ، ولم يمدحه ، ولم يبال به ، فأغرى به الشعراء وغيرهم من الكتاب

(١) بل زاد الأمر على التعلم والنشأة وزاد العجب ! انظر ماسلف ص ٢٨ ، تعليق : ٢ .

(٢) سيأتيك في خبر نبوته أيضاً بعد أنهم زعموا أن أبا الطيب ادعى أنه علوي حسبي ، ثم  
 ادعى النبوة ثم عاد يدعي أنه علوي . وسترى بطلان ذلك إن شاء الله ، وتأويله عندنا على الرأي  
 والنظر لا الرواية .

والأدباء . وكان شعراء العراق خاصة يخافون أن يقال أبو الطيب في العراق ما نال في الشام ، فيذهب بأرزاقهم من المدح ، ويصف بذكركم عند الملوك والأمراء ، كما فعل بمن هم أعلى منهم طبقة من شعراء الشام كأبي فراس الحمداني ، والسري الرفاء ، وأبي العباس النامى ، وأبي الفرج البتقاء ، وخلق كثير من الشعراء . وقد هجم على أبي الطيب ووقع في عرضه شعراء العراق حين أغرام الوزير المهلب به حتى قالوا فيه :

أى فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفضلَ من الناسِ بُكْرَةً وعَشِيًّا  
عاشَ حينما يَبِيعُ بالكُوفَةِ اللآءَ ، ، وَحينما يَبِيعُ ماءَ المَحَنِيَّا

فزعوا أنه هو الذى كان سقاء لأبوه ، وهاج هذا القول الحسن بن لنسك شاعر البصرة ، وكان ، كما كان الخالديان ، (حاسداً له طاعناً عليه هاجياً إياه ، زاعماً أن أباه كان يسقى للآء بالكوفة) ، فقال ابن لنسك شتماً حين رأى وقعة شعراء بغداد في الرجل :

قُولُوا لِأَهْلِ زَمَانٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ ضُلُوعُ الرُّشْدِ مِنْ جَهْلٍ بِهِ وَعَمُوا  
أَعْطَيْتُمْ لِلتَّنْبِىِّ فَوْقَ مُنْبِئِهِ فزَوْجُوهَ بَرِّغَمٍ أَمْهَاتِكُمْ  
لَكِنْ (بغداد) جَادَ الْفَيْثُ سَاكِنَهَا نِعَالُهُمْ فِي قَفَا السَّعَاءِ تَزْدَحِمُ  
وَقَالَ أَيْضًا :

« مُتَنَبِّئِكُمْ أَبْنُ سَقَاءٍ كُوفَانِ ..... »

ونضح — بعد ذلك — إياه ابن لنسك بما فيه .

فذكرُ التنبى بالسوء وزعمهم أن أباه كان سقاء ، من « مصنوعات »  
( ٣ — التنبى )

العراق وتجارتها التي كان المهلبى (وزيراً) لها إذ ذاك على ما نرجح ، فكم  
 اتجبر أصحابنا المهلبى بالأكاذيب في أيام وزارته ، كما روت التواريخ عنه وعن  
 أيام أصحابه . وإلا فكيف (يصح في الأذهان) أن يقف ابن السقاء ، هذا  
 المتنبي كما زعموا ، في كل المواطن . موقف للمتعالى المتكبر الذي لا يرى أحداً  
 فوقه ، ولا أحداً مثله ، حتى سيف الدولة ابن حمدان ولي نعمته ، وصاحبه ،  
 ومكرمه على حين مساءة من الزمن ؟ يا عجباً ! ألم يكن في مجلس سيف  
 الدولة من يعرف ذلك يوم غضب عليه ، وترك الشعراء يقعون فيه ،  
 ويتصدى له أبو فراس وهو ينشد فيجبهه ويتقطعه عن الإنشاد ؟ يقول المتنبي  
 في هذا المجلس :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مَنَ ضَمَّ مَجْلِسَنَا      بَاتَى خَيْرَ مَنْ تَسَمَّى بِهِ قَدَمُ  
 أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي      وَأَسَمِعْتُ كَلِمَاتِي مَنَ بِهِ صَمَمُ

فانظر كيف فضّل نفسه على من ضمّ مجلس سيف الدولة وفيهم سيف  
 الدولة نفسه ، ولم يزد أبو فراس — وهو قريب المتنبي في الشعر وعدوه لمنزلته  
 عند سيف الدولة — على أن قال له فيما قال : « ومن أنت يادعي كندة » !!  
 وفي قوله : « دعي كندة » نظر . فما نظن الرجل ادعى لكندة ، وأصحابنا  
 يزعمون أنه كان يخفى نسيبه ! وكان أولى بأبي فراس ، وأوقع في المتنبي ،  
 وأوضح له في تبيّه وتعالىه على الأمراء والملوك وكبار الشعراء كأبي فراس  
 نفسه — أن يقول له إذ ذاك : « مَنْ أَنْتَ يَا ابْنَ سَقَامٍ كُوفَانِ » .. لو أنه كان علم  
 ما علمه التنوخي وأصحابه ، وشعراء العراق ، وشاعر البصرة الحسن بن لسكك ،  
 الذين كانوا بالعراق على صلة (ببلاط) الوزير المهلبى وزير معز الدولة أحمد  
 ابن بويه (الديلمي) عدو بني حمدان ، وفي رأسهم سيف الدولة (العدوي العربي) .



أَسْرَى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذِكْرهم ، ولم يُعْفِهِمْ من ذمِّهم  
 هُمْ في شعره ، كانوا لا يَتَقَصُّونَ خبر الرجل وقد استفحل أمره بينهم ، فعملوا  
 أنه كان ( ابن سقاء ) فيلزموه بذلك ، ويستخفُّوا به ، أو يعيشوا به ويتنادروا .  
 عليه ! وهذا ابن السقاء يتحدَّاهم ويتحدَّى سيف الدولة نفسه ، وأبو فراس  
 قريمه وعدوه في المجلس إذ يقول :

بِكَم تَطْلُبُونَ لِنَاعِيًّا فَيُجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالكَرَمُ  
 مَا بَعْدَ الْعَيْبِ وَالنَّفْصَانِ مِنْ شَرَفِي أَنَا الثُّرَيَّا ، وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ  
 أَنْتُمْ لِيَطْلُبُونَ لَهُ عَيْبًا فَيُجِزُهُمُ الطَّلِبُ ، وَيَكُونُ مُتَعَالِمًا فِي الْعِرَاقِ بَعْدُ  
 أَنَّ الرَّجُلَ ابْنَ سَقَاءٍ كَانَ يَسْقَى النَّاسَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ بِالْكُوفَةِ ! !

أَقْرَأ ديوان الرجل كله ، تجده تياهاً يتساهل بنفسه على كل مدح ،  
 ويتعالى على كل أهل عصره ، ولا يفتأ يوسع الشعراء من سُخْرِيته وهو قد  
 قطع أرزاقهم ، وألوى بهم وذكركم ، وكلامه كلام الواثق الذي لا يدخله  
 الشك ، ولا يروعه الكذب ، ولا يردُّه الافتراء ، فلو كان في نسب الرجل ،  
 إذ ذاك ، مطعن لطاعن ، أو في أصله تهمَةٌ لهم ، لتردَّد في قوله تردُّد  
 الحيران ، ولا يجنب الفخر حيث يكثر الحسد والمهمة والتفليق والدس عند  
 الأمراء ومن إليهم من رجال الدولة . ولو كان في نسب الرجل شيء ، لسمعت  
 عند كل موضع من غفره في شعره نادرة يتناقلها الأدباء ، وغمرة قد غرته بها  
 أُنْداده وأعداؤه من الشعراء . ألم يسمع هؤلاء إلى قوله في غفره :

لَا يَقْوَى شَرَفْتُ بَلْ شَرُّفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِمُجْدِي  
 وَبِهِمْ فَخَرْتُ كُلٌّ مِنْ نَطَقِ الضَّاءِ دَعَوْتُ الْجَانِي وَغَوْتُ الطَّرِيدِ

فهذا من أكبر الفخر، فامن قوم يفخر بهم «كلّ من نطق الصاد» غير  
أبناء على رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول  
يرثى جدته وقد ماتت بالكوفة، وكان صاحبنا إذ ذاك قريباً من الكوفة  
حيث نشأ وعُرف :

وإني لَمِنْ قَوْمٍ كَانَ نَفْسُهُمْ بِهَا أَنْفٌ أَنْ نَسْكُنَ الْأَحْمَ وَالْقَطْلَا  
والمعجب أن لا يصلنا عن هذا وغيره خبرٌ واحدٌ يُطَقَّن فيه الرجل بأنه  
ابن سقاء ! وما يكون لابن سقاء أن يقول مثل هذا، ويكون كل ما وصلنا من  
خبر أبيه إنما وصل في خبر دخوله بغداد في آخر عمره، ومن رجالٍ بينهم وبين  
الوزير المهلبى آصرة مودّة وتنادُّم، أو شعراء أسدّهم هذا الوزير المهلبى.  
وأغراهم بالرجل، حتى وقعوا في عرضه، وولّفوا في شرفِ نبيه، وجودة.  
قرىضه وبيانه إلى الله المعجّب وما فوق المعجّب !

قَوَا أَسَاقَا أَلَا أُكِبُّ مُمَيَّلَا  
لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرِ الَّذِي أَمَلْنَا حَزْمَا  
وَأَلَا أَلَا قِي رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي  
كَأَنَّ ذِكْرِي الْمَسْكُ كَانَ لَهُ جِنْمَا  
وَلَوْلَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدِ  
لَكَانَ أَبَاكَ الصَّنْعُ كَوْنُكَ لِي أَمَّا

هما ، ولا غيرهما ، . . . أبوه الذي كان سقاً ، زعموا ، يسقى على بعير له  
بالكوفة ، « وكان جعفيّاً صحيح النسب ... » ، وجدته ، « وكانت همدانية صحيحة  
النسب لا يشك فيها ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات » . هما ولا غيرهما ،  
أصله وقرعُهُ ، وقديمه وحديثه ، وعشيرته وأهله ، وعصبته وقومه ، والفاخون  
بأمره في أول حياته ، لا عمٌ ولا خالٌ !!

أَمَّا أُمُّهُ فقد جهلتُ أن أجدها لها خبراً واحداً ، أو ذكرأ في كلام ،  
فما وصلتُ . أَمَّا ما يزعم بعض الكتاب والأدباء من أنه أراد أُمُّهُ بقوله  
وهو في السجن ، وقد كتب به إلى الوالي :

بَيْدِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيبُ لَا لَيْشِي إِلَّا لِأَيِّ غَرِيبٍ  
أَوْ (لَأَمْرٍ) ، لَهَا إِذَا ذَكَرْتَنِي ، دَمٌ قَلْبٍ يَدْنَعُ عَيْنٍ يَذُوبُ  
فليس عندنا بشيء ، فإنه كَانَ يَسِي جَدَّتِهِ ( أُمُّهُ ) ، وقد جاء ذلك في  
قصيدته التي رثاها بها فقال :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِذَتْ أَكْرَمَ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الصَّخْمَ كَوْنُكَ لِي (أُمًّا)  
ومن قرأ قصيدته هذه وتدبرها ، وقع في قلبه اليقين أنه لم تعطفه عاطفة  
إلى أحدٍ من أهله ، ( ولا نستثنى أباه السقاء ١١ ) ، إلا أن تكون هذه الجدة  
الكريمة التي حملته صغيراً وثكلته شاباً بفراقه لها ، ثم ماتت به سروراً حين  
جاءها كتابه وهو متوجهٌ إلى العراق ( ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته  
تلك ١١ ) أو كما قالوا . . . وفي قصيدته هذه إشارة دقيقة بليغة مقدرة ،  
يشير بها إلى أن أمه قد ماتت وهو صغير ، فكفلته جدته المجوز رحماً الله ،<sup>(١)</sup>  
وذلك في قوله :

طَلَبْتُ لَهَا حِفْظًا فَفَاتَتْ وَفَاتَنِي (وَقَدْ رَضِيتُ بِي ، وَلَوْ رَضِيتُ بِهَا ، قِينَا)<sup>(٢)</sup>  
فتدبر الشطر الأخير فضل تدبر ، تجد المعنى الذي أردناه من أن أمه ماتت  
وهو صغير ، فكان بما ( قَسِمَ ) جدته أن تحضنه ، فرضيت بذلك رضى خالصاً ،  
وأحبته حباً عظيماً ، يقول في الدلالة عليه :

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَنُجُوعَةٍ بِحَبِيدِهَا قَتِيلَةٌ شَوْقِي غَيْرِ مُلْحِقِهَا وَصَمًا  
وفي تسميته جدته ( أُمًّا ) بعضُ النفي في الحجة المرجحة لقولنا هذا .

شهد التبوخي أو أبو الحسن العلوي ، أو من تشاء ، لجدة النبي أنها  
كانت من « صلحاء النساء الكوفيات » ، ولعل هذا أمر لا ريب فيه ، وإن

(١) كان هذا الذي قلته ظناً ظنته ، ثم جاء النص على ذلك فيما حدثنا به ابن المديم ،  
عن الربيع ، أن النبي أرضعه امرأة علوية من آل عبيد الله ، فدل هذا على أن أمه ماتت  
قبل أن يتم رضاعه ، أو لم لها ولادة ثم ماتت في ولادها ، ولم ترضعه قط .  
(٢) القهم بالكسر النصيب ، وقد مضى الفراح من أصحابنا ولم ينظروا في قوله ( لو  
رضيت ) . فاعلم أن ( لو ) في هذا البيت إنما هييد الأسف والحسرة ، وهما وجه من وجوه  
النفي ، وليت موضع آخر من مقالنا هذا نتولى فيه شرحه ، فقد أسفد الفراح . . .

لم يكن قد وقع لنا الخبر بذلك ، فإنها هي التي تولّت نشئة المتنبي من صفره ، حتى كبر ، وقد شهد له أكثر أهل عصره حتى أعداؤه : أنه كان كما قال على ابن حمزة البصري ( راوية المتنبي : كما سماه أهل المغرب ) :<sup>(١)</sup>

« بلوتٌ من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة ، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط » ، وقال ابن فورج : « لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشره على المال » .

وقد كان أثر جدّته يئثراً في أوّل شعره كما ستري ، وقد ذكر المتنبي خُلقه في أبيات له ، منها قوله :

وترى الرُوءَى والفُتُوَّةَ والأبُوَّةَ في كلِّ ما يبعثُ ضَرَاتِهَا  
هُنَّ الثلاثُ المَكَايِدُ لَدُنِّي في خُلُوقِي لَا الخُوفُ مِنْ تَبِعَاتِهَا

فلا شك أن أكثر ذلك من أثر جدّته ، وزكاء نفسها ، وصلاح قلبها . وقد وصفها المتنبي فجمع ما شاء ودلّ عليها ، وأبلغ ، صادقاً فيما قال :

فَوَاسَفَا أَلَا أَكِبَّ مُمَبَّلًا لِرَأْسِكِ وَالصَّدْرِ إِذَا مُلْتَا حَزَمًا  
وَأَلَا أَلَا فِي رُوحِكَ الطَّيِّبِ الَّذِي كَأَنَّ ذِكْرَكَ لِلْسَّكِّ كَانَ لَهُ جِسْمًا

وبيدلونا أن هذه العجوز الحازمة التي يئنت للمتنبي أمره ، ومهدت له طريقه ، كانت مع حزمها وهذبها ، وبصيرتها ، رقيقة القلب تكاد تنخلع من نفسها إذا أعطت عواطفها قيادها . ومع ذلك فقد كانت تحزم أمرها ، وتقسو

---

(١) كان من أئمة العربية ، مات في رمضان سنة ٣٧٥ بصفية ، ولما دخل المتنبي بغداد كان بها على بن حمزة فنزل المتنبي في داره ، وقرأ عليه شعره ، وقد تركنا بقية قوله في المتنبي لموضع من الكلام إن شاء الله .

على نفسها ، حتى يحْتَمِلَ لمن لم يحْثُرْها أنها لا تَعْلَى المَقَادَةَ لشيء إلا للمَقَلِّ والتدبير المحكم . وفي الذي رَوَوْا من خبر وفاتها ، دليلٌ بينٌ على ذلك ، فإنها كتبت تشكو إلى ولدها وحفيدها شوقها ولوعتها وطول غيبته عنها ، فلما توجه إلى العراق ( من الشام ) « ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك !! » ، انحد إلى بغداد ، وكتب إليها كتاباً يسألها موافاته ببغداد ، فلما أخذت كتابه « قبلته وحثت لوقتها ، وغلبها الفرح فقتلها » ، رحمة الله عليها . وقد ورث المتنبي عنها هذا ، فقد كان مع ما يبدو من شدته وصولته ورجولته ، متهاكاً لا يستمسك فيما يمس عاطفته ويلم بقلبه . وفي رثاء جدته بلاغ لك ، إن تدبرته . وسترى ذلك أيضاً في آخر ما نكتبه عن أمره مع سيف الدولة ، وعن أمره مع النساء ، أو مع المرأة التي أحبها فهلكت ، ثم أهلكه على إثرها جوى داخل وأسى دفين .

لَا يَقْوِي شَرَفْتُ بَلْ شَرُّوْا بِي  
وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا يَجْدُودِي..  
وَرِيهِمْ فَخَرُ كُلُّ مَنْ نَطَقَ الصَّ  
دَّ وَعَوْدُ الْجَانِي ، وَعَوْتُ الطَّرِيدِ

\* \* \*

وَأَيُّ لَيْنٍ قَوْمٍ كَانَ نَفْسُهُمْ  
بِهَا أَنْفُ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ

نَدْعُ الْآنَ أَمْرَ جَدِّهِ إِلَى حَيْثِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فِي كِتَابِنَا عَنِ اللَّتْنِي ،  
وَبِنْدَاءِ بَرَأى لَمْ يَجْدْ لَهُ مَا يُؤَيِّدُهُ مِنْ نصوص التاريخ ، ولكن ...

رَوَى الْأَصْفَهَانِيُّ أَنَّ اللَّتْنِي ، وَهُوَ ابْنُ السَّهَاءِ !! ، « اختلف إلى كتاب  
فيه أولاد أشرف الكوفة ، فكان يتعلم دروس ( العلوية ) شعراً ولغةً  
ولِعَرَاباً ، فَنَشَأُ فِي خَيْرِ حَاضِرَةٍ » .<sup>(١)</sup>

وتأويل هذا ، أَنَّ الْعُلُوَيْنَ ، وَهُمْ « الْأَشْرَافُ » ، كما يتضح من هذا النص ،  
كَانَتْ لَهُمْ مَكَاتِبُ خَاصَّةٌ يَتَلَقَّى فِيهَا أَوْلَادُهُمْ مَبَادِيءَ الْعُلُومِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ  
الْعُلُوَيْنَ كَانَتْ ، وَلَا تَزَالُ ، لَهُمْ مَدَارِسُ خَاصَّةٌ بِهِمْ ، تَقُومُ أَسْوَالُهَا فِي التَّعْلِيمِ

(١) الواضح في مفضل شعر اللتني : ٦ / والمزاةة ١ : ٣٨٢ ، ويحيل إلى أن سواب هذه  
العبارة : « وكان يتعلم دروس العلوية ، وحقق الحرية شعراً ولغة ولِعَرَاباً »

على أصل اعتقادهم . وقد مرّ بي في قراءتي كثير من ذلك لا أذكر موضعه الآن ، وإنما أذكر أن الشريف الرضي كانت له مدرسة سماها ( دار العلم ) . ونحن وإن لم نك نعلم نظام هذه المدارس العلوية ، إلا أنه يتبادر إلى الفهم أن هذه الكتاتيب والمدارس كان لا يدخلها إلا أبناء العلويين ، ونصّ الأصفياني يقول بذلك . فدخل « أحمد بن عبيد الله السقاء » ، الذي هو المتنبّي ، بين أبناء العلويين في كتاب لهم ، غريب عجيب ! فيجب هنا أن نفهم من هذا الشاهد أن بين جدة المتنبّي وبين العلويين سبباً موصولاً قوياً ، هو الذي شرح صدورهم وأرضاهم أن يدخلوا بين أبنائهم غلاماً كان أبوه سقاء في بلادهم .<sup>(١)</sup>

هذه واحدة من علاقة أبي الطيب وجده بالعلويين . ثم إنّ أبا الطيب فارق جدته ورحل لنير سبب معلوم إلى البادية ، ثم عاد إلى الكوفة شاعراً قولاً ذا لسان ، فلم يمدح إلّا « محمد بن عبيد الله الشطّب العلوي » ، الذي قدمنا ذكره وذكر السبب في مدحه ،<sup>(٢)</sup> ولم يمدح أحداً من العلويين قاطبة على كثرتهم ، وثرائهم وعلوّ مرتبتهم ، وخصوص عريتهم ،<sup>(٣)</sup> في عصر اختلعت فيه الأمور ، وصارت الشوكة إلى الأعاجم .

فلما خرج صاحبنا إلى الشام ، ذكروا فيما ذكروا من ( أمر الفضول الذي نُبِذَ به ، يَعْنُونَ النبوة ) : أنه ادّعى العلوية مرتين ، أي ادّعى أنه علويّ صليبيّ ، وكان الذي قبض عليه هناك وعذبه وسجنه ( ابن علي الهاشمي ) أو :

(١) قد برح الحفاء الآن ، فلا عجب . فالمتنبّي لا يكن علوي النسب ، فإنه أخو العلويين من الرضاة ، لأن امرأة علوية من آل عبيد الله ، هي التي أرضعته . انظر ماسلف من : ٢٨ ، تعليق : ٢ ، ثم من : ٣٨ ، تعليق : ١

(٢) انظر من : ٢٨ ، تعليق : ٢ ، ففيه لبس إلى « آل عبيد الله » .

(٣) والمتنبّي كما علم ، كان من أكثر أهل عصره تميّداً للعربية وتعبساً لها .



العلوي ، لا أدري . وكان إذ ذاك باللائقية سنة ثَيْفٍ وعشرين وثلاثمئة ،  
واللائقية يومئذٍ دارٌ من ديار العلويين ، يربض فيها رؤوس من الدعاة العلويين .  
ولما كان أبو الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، وأراد الخروج إلى الرملة ، أرصد  
لهُ العلويون قوماً من عبيدهم السودان ليقتلوه ، ولكنه فاتهم بحيلته ودهائه ،  
ودخل الرملة يمدحُ الأميرَ أبا محمد الحسن بن عبد الله بن طنج ، فكان مما قال  
في قصيدته : [ انظر ماسلف ص : ٣٠ ]

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَرَبَّةً      بِهَا (عَلَوِيٌّ) جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمٍ

ثم كان ما روينالك من امتناعه عن مدح العلوي (أبي القاسم طاهر  
ابن الحسن بن طاهر) ، ولم يمدحه إلا بعد إطلاع الأمير وتدنيه في السؤال  
منه ، وكان مما قاله أبو الطيب في هذا المدح : [ انظر ماسلف ص : ٣٠ ]

أَتَانِي وَعَيْدُ (الْأَدْعِيَاءِ) ، وَأَنْتَهُم      أَعَدُّوْا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ  
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذَرْتُهُمْ      فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ

ثم انتزع من ذلك أمثالا في النسبة إلى العلوية المكرومة فقال :

إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النَّسِيبِ كَأَصْلِهِ      فَمَاذَا الَّذِي تُنْفِي كِرَامَ النَّوَاصِبِ ؟  
وَمَا قَرُبَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَبَاعِدِ      وَلَا بَعُدَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَقَارِبِ  
إِذَا (عَلَوِيٌّ) لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ      فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

فلما دعتهُ جدُّته إلى العراق أن يزورها ، قضدها ، والنص الذي ورد  
في ذلك هو هذا : « فوجه نحو العراق ولم يُمكنه دخول الكوفة (على حالته

تلك ) ، فالتحدر إلى بغداد ، وكانت جدته ( قَدْ تَبَسَّتْ مِنْهُ ) ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه . . . » . وهو نص غريب كما ترى !! وليت شعري وشعرك ما الذى أرادوا بقولهم : « لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك » ، وهو قد أتاها قاصداً دُخُولَها ، ورؤية جدته التى تحبه ويحبها ، ويقطع صاحبنا الأرض من أقصى الشام إلى أسفل العراق ودخول الكوفة هُتَمَ ، ثم يمنع من دخولها لغير سبب مذكور أو معقول !! إذن فلا مناص من القول بأنه قد منع من دخول الكوفة ، وهذا هو الوجه الآخر لتأويل هذا النص الغريب .

فإن صحَّ أيضاً ما أسنده التنوخى ، ( وذلك ما أوردناه فى أول كلامنا ص : ١٥ ، ١٤ ) ، إلى أبى الحسن العلوى وابن أم شيان الهاشمى ، وهما كوفيان ، وأن ذلك من كلامهما ، كثرت الأدلة التى توجّه الحدس والظن إلى وجهه بعبثه ، وذلك أن بين المتنبي والعلوين سبباً مجهولاً حلهم أول أول إلى إكرامه بدخوله بين أبنائهم فى كتابهم بالكوفة ، ثم حلهم بعد على النية المقودة للفتك به فى الشام ، ثم حلهم على منعه من دخول الكوفة ليرى جدته المعجوز التى أرسلت إليه تشكو شوقها وطول غيبته عنها . ويزيدك فى هذا يقيناً وعليه اعتماداً ، رثاء المتنبي لجدته ، فقيه لطائف من الإشارة نكتفى بذكر البين منها هنا ، ثم نعود إليها بعد قليل . يقول المتنبي :

هَيْبِي (أَخَذْتُ الثَّأْرَ فَيْكِ مِنَ الْعِدَى) فَكَيْفَ بَأْخُذِ الثَّأْرِ فَيْكِ مِنَ الْحَيِّ

ثم يقول :

لَنْ لَدَّ يَوْمَ (الشَّامِعِينَ) يَوْمِيهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِأَنْفَرِهِمْ رَغْمًا  
قَدْ أَتَيْتُ أَبُو الطَّيِّبِ أَنْ لَجَدْتُهُ ثُمَّ لَهُ أَعْدَاءُ ، كَانَ هُمُ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ أَنْ

يأخذ منهم (نارها) وناره ، وأن هؤلاء الأعداء قد شمتوا بموتها يوم ماتت .  
فهذه الجدة الصالحة المعجزة قد اتخذت لنفسها أعداء يُرْضُون أنفسهم بالشتمات ،  
وهؤلاء الأعداء ، ولا بُدَّ ، كانوا من الكوفة ، والأرجح أنهم كانوا من  
العلويين ، والهاشميين ، لما رأيت قبل من الصلة أو المداوة القائمة بينهم وبين  
أبي العليّ المتنبّي .

\* \* \*

وأنا لا أرى بأساً من ترجيح الظن بأن المتنبّي كان من أبناء العلويين ،  
فإن هذا يفسّر كل غموض في حياة الرجل ، وفيما روى عن نسبه من الملفقات .  
وحسبي هنا أن أمرّ بك مرّاً على مواضع بعضها ، لترى رأيك ، وقلك الله ،  
فيما أردنا من القول به ، فإن رأيت حجتنا ساقطة فأسقطها ولا تؤاخذنا بما  
ظلمنا ، فإن رجعت ماقول به ... فإن ندعو الناس لأبائهم أقسط عند الله .

\* \* \*

ووضع القضية عندنا هو هذا :

تزوج رجل من العلويين ، ولا جرم أن يكون من كبارهم ، بنت  
جدة المتنبّي ، فعلمت منه ووضعت أحمد بن الحسين (وهذا الحسين غير عيّدان .  
السّقاء) ،<sup>(١)</sup> ولأمر ما أريد هذا الرجل العلوي على طلاق امرأته وفراقها ،  
وحمل العلويون على ذلك ، ففارقها وطلقها ، فرجعت إلى أمّها بمجنينها أو طفلها .  
وحزنت حزناً أهلكها ، فاستلّها الموت وذهب بها ، وبقي الطفل فكفّلتُهُ  
جدّته وتمهّدت له وقامت بأمره ، حتى بلغ مبلغ الفتيان ، ودلّته على الطريق بعد .

---

(١) يمكن أن يكون « عيّدان السّقاء » هنا جده لأمه .

أَنْ صرَّحتْ لَهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ ، وَصَحَّحَ نَسْبَتَهُ ، وَكَانَ مِنْ حَزْمِهَا أَنْ حَدَّثَتْ  
الْفَتَى عَوَاقِبَ التَّصْرِيحِ بِأَمْرِ نَسْبِهِ ، وَأَخَذَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاقِيقَ وَالْعَهودَ ، بِجَهْلِهَا لَهُ  
وَحُبِّهِ لَهَا ، وَأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ كَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهَا وَهَلَاكُهَا ، فَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ  
مُتَمَلِّلاً حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ مِنْ ادِّعَائِهِ الْعُلُويَّةِ بِالشَّامِ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ ،  
فَاضْطُرَّ إِلَى الْإِخْلَادِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَحَرَصَ عَلَى أَنْ يَطِيعَ أَمْرَ جَدَّتِهِ ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ  
حَزْمَها وَصَوَابَ رَأْيِهَا ، وَإِخْلَاصَها لَهُ الْمَشُورَةَ ، وَمَحَضَهَا لَهُ النَّصِيحَةَ .<sup>(١)</sup>

\* \* \*

وهذا الوضعُ لقضية المتنبي هو الذى يفسِّر لك طولَ تكلم المتنبي على  
نَسْبِهِ ، وَإِخْلَافَهُ جُهْدَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْأَلْسِنَةِ الْمُتَنَقِّلَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ ، وَبَيِّنُهَا أَيْضًا  
مُخْرِجَ قِصَّةِ (أَبِيهِ السَّقَاءِ) ، وَحَرَصَهُمْ عَلَى حِكْمِهَا ، وَالتَّعْدِيمَ لَهَا بِالطَّيْفِ الْقَوْلِ ،  
وَحَسَنَ الْعِبَارَةِ ، كَأَرْأَيْتَ فِي أَوَّلِ كَلَامِنَا (أَرْجِعْ إِلَى نَقْدِنَا لِكَلَامِ التَّنَوُّخِيِّ) —  
وَيَأْتِيكَ بِالْأَدْلِيلِ الْبَيِّنِ فِي أَمْرِ دُخُولِهِ كِتَابِ أَشْرَافِ الْعُلُوِيْنَ بِالْكُوفَةِ وَتَعْلَمُهُ  
دُرُوسُ الْعُلُويَّةِ — وَبَيِّنُ أَيْضًا عَنِ السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ سَكَتَ الْمُتَنَبِّى عَنْ مَدْحِ  
الْعُلُوِيْنَ وَعَظَمَائِهِمْ وَأَصْحَابِ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ مِنْهُمْ وَهُوَ بِالْكُوفَةِ ، ثُمَّ تَأْتِيهِ  
عَلَى مَدْحِ أَبِي الْقَاسِمِ الْعُلُوِيِّ صَاحِبِ الْأَمِيرِ ابْنِ طَنْجِجٍ حِينَ كَانَ بِالرَّمْلَةِ ، ثُمَّ  
مَا كَانَ قَبْلُ مِنْ إِرْصَادِ الْعُلُوِيْنَ لَهُ عِبِيدَهُمْ لِقَتْلِهِ بِكُفْرِ عَاقِبِ . وَكَفَالِكَ هَذَا ،  
فَإِنَّا سَنَبْنِي بَقِيَّةَ كَلَامِنَا عَنِ الْمُتَنَبِّى مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ عَلَى هَذَا الْاِسْمِ أَوْ مَا يَقْرُبُ  
مِنْهُ . وَجَسِبَتْ هُنَا أَنْ نَفْسِرَ لَكَ بَعْضَ اللَّعَانِ فِي رِثَاءِ جَدَّتِهِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ .  
وَنَصْ مَقْدِّمَةُ رِثَاءِ جَدَّتِهِ هُوَ هَذَا :

(١) سأذكر في آخر هذا الفصل (س : ٥٢) قصة تنبيه قصة هذه القضية ، وهي زيادة ،  
لم أذكرها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

« ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه ، وطول غيبته عنها ، فتوجه نحو العراق ولم يتمكن دخول الكوفة على حالته تلك ، فانحدر إلى بغداد ، وكانت جدته قد يئست منه ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه ، فتبّت كتابه وحثت لوقتها سروراً به ، وغلب الفرح على قلبها فقتلها » .

وتأويل هذه العبارة كلها : أنه حين ورد عليه كتاب جدته أزعج الرحيل من الشام إلى الكوفة ليلقي بها جدته ، فيلج الخبر مشيخة العلويين ، فذهب بعضهم إلى جدته ، وأبأنوا لها سوء رأيها ، ونهّوها أن يكون لقاء ولدها من همها ، وأخبروها أنهم قد أجمعوا رأيهم على منعه من دخول الكوفة بعد ما كان من أمره وهو بالشام ، من إظهاره العلوية ، ورغبته في تحقيق نسبته إلى العلويين . فلما فجعهم الخبر بورود صاحبهم « المتني » على طرف الكوفة ، خرجوا إليه وأنذروه أن يكون ذلك من إرادته بعد فضوله في الشام ، وأمروه بالانحدر إلى بغداد ، ورجعوا إلى جدته فأياسوها من لقائه بئناً . فلما استقرت بالمتني بغداد ، وزاد شوقه إلى جدته ، وبكى من خيفته عليها ، حله ذلك على الكتابة إليها ، بعد أن لم يجد عن ذلك محيصاً في نفسه ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه ببغداد ، ففرحت التجاوز فرح اليأس من أمر ، ثم أته البشري بالظفر من وجه آخر ، فاشتد ذلك عليها واستبدت العواطف المعتلجة للتنازعة المتضادة بذلك البنيان المهتم الضعيف ، فانقض بعضه على بعض ، فانت رحمة الله عليها ، وأتابها بما صبرت .

فلما ماتت المسكينة ثارت نفس الرجل ثورة اليأس ، وخاف أن يستعمل للعلويين بالعداوة وهو ببغداد : أن يقتلوه من أجل ذلك ، فأضمر مافي نفسه ،

وأشار إلى هذه المعاني من طَرْفٍ خَفِيٍّ . ويحسن أن نذكر هنا أن المتنبي خرج آخر مرة من الكوفة مُرْغَمًا على ذلك الخروج . وهذا أمرٌ طَبِيعِيٌّ إذا صَحَّ القولُ الَّذِي نقول به . فانظر الآن ماذا يقول الرجل في رثاء جدته :

بَكَيْتُ عَلَيْهَا خَيْفَةً فِي حَيَاتِهَا وَذَاقَ كِلَانَا تُكْلَ صَاحِبِهِ قَدَمًا

وقد شرح الشراح هذا البيت ، وأداروا معانيه ، ولكنه بقي في شرحهم لا معنى له ، كقولهم : « وكنت أبكى عليها في حياتها خوف فقدها ، وفُرقت الأيام بيني وبينها ، فذاق كِلَانَا تُكْلَ ( فقد ) صاحبه قبل الموت » ، فالمطف في الذي قالوا به « وفُرقت الأيام » لا معنى له هنا ولا فائدة منه . وتفسير البيت هذا :

لما أبأسوها من لقائي ، وقد منعتني من دخول الكوفة ، علمتُ يقينًا أنها ستحصل قتلًا يهددها ، فبكيتُ خَيْفَةً عليها من أثر الحزن فيها ، وما يبكيه أن لا ألقاها ، وكيف أبكى لذلك ( وقد ذاق كِلَانَا تُكْلَ صاحبه قديمًا ) ، بالفرق الذي حُمِلنا عليه ! ولو كنت باكيًا لبكيتُ للفراق الذي كان بيننا بمنزلة الموت ، فعدتني هي قد ميتة ، وعددتُها قد ماتت ( وهذا تأويل قوله : وذاق كِلَانَا ... ) ، أي تُكَلَّتني وتُكَلَّتُها .

ثم يقول بعد أبيات :

طَلَبْتُ لَهَا حَظًّا ، فَبَاتَتْ وَفَاتَتْ ، وَقَدَرَضِيْتُ نِي ، لَوْرَضِيْتُ بِهَا ، قَسَمًا<sup>(١)</sup>

(١) تفسر البيت عند الفراح هو هذا : فارتبها لأطلب لها حظًا من الرزق ففاتني هو وفاتني هذا الخط ، وقد كانت راضية أن أكون قسما لها من الدنيا ، لو رضى عنها قسما لي ( والقسمة النصيب ) ، وقد كنت أطلب من الرماح أن يسقيني دم الأعداء ، فلما ماتت تركت الحرب وجدأ عليها ، وصرت أطلب من السحاب أن يسقي قبرها - أو كما قالوا !! فانظر هذا التفسير والقرأ تفسيرا .

فَأَضْبَحْتُ أَسْتَسْقِي النَّعَامَ لِقَبْرِهَا وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَعَى وَالْقَنَا الصُّمَّا  
ومعنى البيتين عندنا: كانت المعجوز رضى الله عنها قد رغبت إلى أن  
أكنم أمر نسبتي العلوية إلى أن يشاء الله ، ولكنى خالفتها ، وآثرت فراقها  
لعلنى أصيب بعيداً عن الكوفة ما لم أدركه بها ، فخرجت أطلب لها (حظاً) ، أى  
فضلاً وخيراً في ردِّ شرف انتابنا إلى العلويين ، ولكن شاء ربك أن تفوتنى  
بها الأحداثُ فتدوت ، وفوتنى أيضاً بعد موتها ذلك الحظ ، لما أعلم من  
أنها كانت هى السبب فى امتناعهم عن الفلك بى إن حاولت أمراً ، فواحسرتاه !  
لم خالفتها ، وخرجت أطلب لها هذا الحظ ، وقد رضيت بى قسماً وحظاً ونصيباً  
وجعلت ظفرها بى عدلاً لما فاتها من الحظ الذى كنت أطلبه لها ؟ فى اليتنى  
رضيت بها كما رضيت بى ،<sup>(١)</sup> وجعلتها عدلاً لما فاتنى من هذا الحظ . وعلى  
هذا الأصل يكون معنى البيت الثانى واضحاً بيناً فهو يقول : كنت أريد القتال  
والحرب لأشقى بالدم المهرق غاليها ، وأردّ عليها حياتها فى شرف نسبتنا إلى  
العلوية ، فالآن وقد ماتت وفاتت ، لا حيلة لى إلا أن أسأل الله أن يبرّد قبرها  
بما يدرُّ عليها من ماء النعام . ثم قوله :

هَمِينِي أَخَذْتَ النَّارَ فِىكَ مِنَ الْعِدَى فَكَيْفَ بَأْخِذِ النَّارَ فِىكَ مِنَ الْحَقَى  
كَيْنَ لَدَّ يَوْمُ الشَّامَتِينَ بَيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدْتُ مِئًى لِأَنْفُسِهِمْ رَعَمًا<sup>(٢)</sup>

وقد مضى بعض القول فى هذين البيتين ، (ص : ٤٤) ولكن بقى أن  
نقول : إن هؤلاء الأعداء والشامتين كانوا من أشرف الكوفة ، لما رأت أولاً ،  
إذلاً يعقل أن يكون غير ذلك ، لا يعقل مثلاً أن يكون أولئك الأعداء  
والشامتون من طبقة السقائين والنسّاجين ومن إليهم ! ولو كان ذلك كذلك ، لما

(١) اعلم أن (لو) فى بيت التغنى معناها التنى والأسف والحسرة .

(٢) الأنف ، والآناف ، بالذ ، والأنوف جم « أنف »

حَلَّ الْمُتَنَبِّ بِذِكْرِهِمْ وَلَا التَّعْرِضُ بِهِمْ ، وَأَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ رَغْمًا لِأَنُوفِهِمْ ، وَهُوَ  
مَنْ هُوَ فِي الْكِبَرِيَاءِ وَالتَّسَامَى وَالْعُلُوِّ فِي التَّرْفَعِ وَالْمِظْمَةِ .

وعلى عادته أتى في القصيدة بإشارة عجيبة ، هي من باب التفات القلب إلى  
ما يبلغ فيه من الرأي المضمّر ... يقول :

قَوَا أَسْفَا أَلَا أَكِبَ مُقْبِلًا لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرَ الَّذَا مُلْتَا حَزَمًا  
وَأَلَا أَلَا فِي رُوحِكَ الطَّيِّبِ الَّذِي كَانَ ذِكْرُكَ لِلْمِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا  
ثم استيقظت في قلبه تلك الثورة العجيبة التي أصبحت طابع شعر الرجل  
كله ، فَأَنْقَلَ مِنْ مَعَانِي الْحَنَانِ وَالرِّقَّةِ إِلَى مَعَانِي التَّسَوُّةِ وَالْعَتَوَةِ ، فَقَالَ :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا  
لَئِنْ لَدَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ يَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدْتُ مِنِّي لِأَنُوفِهِمْ رَغْمًا

ذكرته روح جدته بالتأثر القديم الذي نسيه في قوله قبل ذلك : « هبني  
أخذت التأثر من العدى » فصرخ صرخته هذه ، فكأنني به يقول : أبعذك  
ونفوك ، فما يضير نفيعهم روحاً طيباً ، ونفساً زكية !! ولا تأمني ولا تحزني ،  
فإنك قد ولدتني ، وكهالك شرفاً أن تكوني لي أمّاً ، فإنني مُرَغَمٌ أَنُوفِهِمْ ، وحاملهم  
على خُطَّةِ التَّخَسُّفِ حَتَّى يُعْطُوا الْمَقَادَةَ وَهُمْ صَاغِرُونَ . فعلى هذا فسر قوله :

وَلِي لَيْنٌ قَوْمٍ كَانَ نَفُوسُهُمْ بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعِظْمَا  
كَذَا أَنَا بِأَدْنِيَا ، إِذَا شِئْتُ فَأَذْهِي ، وَيَا نَفْسُ زَيْدِي فِي كَرَامِيهَا قَدْ مَا  
فَلَا عَبَرْتُ بِي سَاعَةً لَا تُعْزِي وَلَا صَحِيتُنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا

وقوله :

مَا يَقْوِي شَرُفْتُ ، بَلْ شَرُّ قَوَا بِي ، وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا يَجْدُو دِي



وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّاءَ دَ ، وَعَوِذُ الْجَانِي ، وَعَوِثُ الطَّرِيدِ  
 وغر من نطق الضاد ، هم أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله  
 أيضاً :

وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذِيَابِهِ <sup>(١)</sup> وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ التَّشْمَاءَ  
 وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ تَحِيَّتِي وَإِلَّا فَلَسْتُ (السَّيِّدُ الْبَطْلُ الْقَرْمَا) <sup>(٢)</sup>  
 ثم فسر على هذا الأصل قوله أيضاً ، وقد جعل قوم يستعظمون ما أتى به  
 في رثاء جدته :

يَسْتَعْظَمُونَ أَبْيَاتًا نَأَمْتُ بِهَا ، لَا تَحْسُدُنَّ ، عَلَى أَنْ يَنَامَ ، الْأَسَدَ <sup>(٣)</sup>  
 لَوْ أَنَّ نَمَّ قُلُوبًا يَفْقَهُونَ بِهَا أَنْسَامُ الدُّعْرِ بِمَا تَحْتَهَا الْحَسَدَا  
 وتدبر قوله : ( لا تحسدن ) ولو كان غير المتنبي — هذا الموتور صاحب  
 الثأر عند هؤلاء القوم — لقال : ( لا تعجن ) أو ما يقرب من ذلك .

ومحزن لو شئنا أن ننقل لك هنا ونفسر كل شيء يدل من قريب أو بعيد  
 على ما نذهب إليه ، لكلفنا ذلك أن نشرح لك أكثر ديوان المتنبي ، ولكن  
 بقيت أشياء ننبه إليها . لو أنت قرأت ديوان الرجل لوقعت على كثيرات من  
 أمثالها . وذلك كقوله بعد وفاة جدته ومرجعه إلى الشام :

سَأَطْلُبُ (حَقِّي) بِالْقَنَاءِ وَمَشَائِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّشْمُوا مُرْدُ  
 وقوله : ( حق ) ، لا يقع هذا الموضع من شعر إلا من أحد رجلين :  
 رجل يدعى طويلاً الباع واللسان في الدعوى والكذب ، أو رجل صادق

(١) يعني سيفه و « ذيا به » ، حده

(٢) « القرم » فجع وسكون ، السيد العظيم المكرم الذي لا ينلد لشيء

(٣) التيم : زهير الأسد .

لا يكذبُ عَلَى نفسه ولا على الناسِ ، وليس المتنبي بأولهما . إذن فقد كان له حقُّ يُطلبُ بالحرب وهو الذى سَمَاهُ « حِظًّا » فى رثاء جدته ، وإنما خفف « الحق » فى الرثاء وجعله « حِظًّا » لما أشرنا إليه من قبل . ومثل هذا قوله لكافور :

فَارْزَمْ بِنِى حَيْثُ شِئْتُ مِثِّى فَإِنِّى      أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمُ الرِّوَاءِ  
وَقُوَادِى مِنَ (الْمُلُوكِ) ، وَإِنْ كَا      نَ لِسَانِى يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

فلا عَجَبَ بَعْدُ فى نحر المتنبي وتعاليه وتعاضله ، فكلُّ مفسِّرٍ بَيْنَ وَاضِحٍ الْعِلَّةِ والمعنى على هذا الأصل ، وكان عجباً عاجباً عند الناس أن تبلغ الحماقة بابتن سقاء ، أن يَفْخَرُ مثل هذا الفخر ويتعاضم على الملوك مثل هذا التعاضم . وذهبوا فى تأويل ذلك مذاهبهم . ولعلّ هذا ، إن شاء الله ، هو المذهبُ الحقُّ .

\* \* \*

أحبُّ أن أختِمَ هذا الفصل ، بقِصَّة اختَرْتُهَا من بين أشباه لها ، وهى قصة أبى جعفر النصور ، وولده كان له من إحدى بنات دهاقين الأهواز ، حيث كان مستتراً قبل توليه الخلافة . وقد زدتها على أصل الكتاب ، لأنى آثرتُ أن لا أُغَيِّرَ شيئاً من سياق الكتاب ، كما كتب منذ أربعين سنة . وهذه القصة ، شبيهة بالقصة التى افترضتها آنفاً فى مولد « المتنبي » ، وأن أباه كان رجلاً علوياً ، فزوّج امرأة ، ثم حيل بينه وبين إظهار نسب ولده إليه ، لسبب من الأسباب التى توجب الكتمان إلى حين . ونقلتها من كتاب « الوزراء والكتاب » للجّهشيارى ، [توفى سنة ٣٣٩ من الهجرة] ، وهى فى كتابه ص : ١٢١ — ١٢٣ ، قال الجّهشيارى :

لما كان [أبو جعفر] النصور ، [وهو ثانى الخلفاء العباسيين] ، مُستتراً

بالأهواز [ قبل توليه الخلافة ] نزل على بمض الدهاقين ، فاستقر عنده ،  
فأكرمهم الدهقان بجمع ما يقدر عليه ، حتى أخدمه أبنته ، وكانت في غاية  
الجمال ؛ فقال له أبو جعفر : أنت أستحل استخدامها وانخلوة بها وهي جارية  
حرّة ، فزوجنيها ؛ فزوجها إياها ، فمَلِكت منه [ أى حملت ] . وأراد أبو جعفر  
الخروج إلى البصرة ، فودّعهم ، ودفع إلى الجارية قبضه وخاتمته ، وقال :  
إن ولدت فاحتفظي بولدك ، فمَتى سمعت أنه قد قام في الناس رجُل يُقال له :  
عبدُ الله بن محمد ، ويكنى أبا جعفر ، فصيري إليه بولدك ، وبهذا القميص  
والخاتم ، فإنه يعرف حقك ، ويخبر الصنع إليك ، وفارقهم . فولدت ابناً ،  
وولدت الغلام وترعرع ، فكان يلعب مع أترابه . وملك أبو جعفر ، فقبر  
الغلام أترابه بأنه لا يعرف له أب ، فدخل إلى أمه حزينا كثيراً ، فسألته عن  
حاله ، فذكر لها ما قال أترابه ؛ فقالت : بلى ، والله إن لك أباً فوق الناس !  
قال لها : ومن هو ؟ قالت : القائم بالملك ؛ قال : فهذا أبى وأنا على هذه  
الحال ! هل من شيء يعرفني به ؟ فأخرجت القميص والخاتم . وشخص الفتى  
فصار إلى الربيع [ مولى أبى جعفر المنصور ، وأحد رجال دولته ] ، فقال له :  
نصيحة ! قال : هات . قال : لا أقولها إلا لأمر المؤمنين . فأعلم المنصور  
الخبير ، فأدخله إليه ؛ فقال : هات نصيحتك . فقال : أخلى ! فمَتى من عنده ،  
وبقى الربيع ؛ فقال : هات . قال : لا ، إلا أن يتنحى . فتنحاه ، وقال :  
هات . قال : أنا أبوك . قال : ما علامه ذلك ؟ فأخرج القميص والخاتم ،  
فعرّفهما المنصور ، وقال له : ما مَنَعك أن تقول هذا ظاهراً ؟ قال : خِفْتُ أن  
تتخذ ، فتكون سبّة آخر الدهر . فضمه إليه وقبله ، وقال : أنت الآن أبى  
حقاً . ودعا الثوريانى [ هو أبو أيوب سليمان بن أبى سليمان المودبانى ، أحد

رجال الدولة] ، فقال : يكون هذا عندك ، وما كنت تفعله بولدي لو كان.  
 لي عندك فأفعله به . وتقدم إلى الربيع في أن يسقط الإذن عنه ، وأمره  
 بالبُكور إليه في كل يوم والرواح ، إلى أن يظهر أمره ، فإن له فيه تديراً .  
 فضمه المورياني إليه ، وأخلى له منزلاً ، وأوسع له من كل شيء ، فكان  
 يقدو ويرُوح إلى المنصور ، وخص به جداً ، وكان الفتى في غاية من العقل  
 والكمال ، وكان المنصور يخلو معه ، فيسأله المورياني عما يجري بينهما .  
 فلا يخبره ، فيقول له : إن أمير المؤمنين لا يكتفى شيئاً ! فيقول له [ الفتى ] :-  
 فما حاجتك إلى ما عندي إذن ! فحسده المورياني ، واستوحش منه ، وتقل  
 عليه مكانه ، فأطعمه سُمّاً فات ، وصار إلى المنصور ، فأعلمه أنه مات فجأة .  
 ثم ولى ، فقال المنصور : قتلته ! قتلني الله ! إن لم أقتلك به ! فلم يلبث بعده  
 أن فعل به ما فعل .

أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلَوِي شَرِيقُهَا  
لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ، مَاعَاشُ ، وَأَنْشَحَا  
وَإِنْ عَمَزْتُ جَمَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةَ  
وَالسَّمَّهَرِيَّ أَخَا وَالشَّرَفِ أَبَا  
بِكُلِّ أَشْمَتَ يَلْقَى لِلْوَتِّ مُبْتَسِمًا  
حَتَّى كَانَ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرْبَا  
فَالْوَتُّ أَعْدَرُنِي ، وَالصَّبْرُ أَجْلُنِي ،  
وَالْبَرُّ أَوْسَعُ ، وَاللَّهُنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

ماتت أم (أحمد بن الحسين) أبي الطيب المتنبي وهو وليدٌ بعدُ ، فيما  
زعمنا ، فوقع إلى جدته واختارته وآثرته على حظها من الدنيا . فكفلته ،  
وألقت كلَّ ذاتِ قلبها وكبدِها في تعهده ورعايته ، ثم في تربيته وتنشئته ، ثم  
في النصيحة له وتطريقه وغير الدنيا عند قدميه ، ومنحته في ذلك حنان الأمِّ  
الناقد على ولدها اليتيم الملطَّم بلا أب ولا أم . وكانت المجوز ، كما وصفوها ،  
« من صلحاء النساء الكوفيَّات » ، وكما وصفها حبيبها ولدها ثم حفيدها ،  
« حازمة ، طيبة الروح ، زكية النفس » ، غَيْرَ أَنِّي الْمَقْلُ .

وكانت امرأةً متورةً ، كما ذهبنا إليه فيما مضى بك ، لا تزال تجدُّ في  
قلبها الأمر الذي يقول لها : « ها أنا ذا . . . فلا يَلْفِتَنَّكَ حنانك عن الجِدَّةِ  
في تدبير العزم وإدارة الرأي على وجوهه ، في طلب الثأر الذي لك في أعدائك

الْمُنْزِلِيكَ بِشَرِّ مَنْزِلَةٍ مَا تَرْضَاهَا نَفْسُ كَنْفَسِكَ فِي الطَّيِّبِ وَالزَّكَاءِ». وَأَطَاعَتْ  
 الْعَجُوزُ أَمْرَهَا بِالْإِنْصَافِ لِنَفْسِهَا وَلِحَفِيدِهَا ، وَلَا حِيلَةَ لَهَا إِلَّا تَنْشِئَةَ الصَّغِيرِ  
 عَلَى غِرَارٍ فَذَرَتْ بِكَفْلِ لَهَا إِدْرَاكَ مَا تَرُومُ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ . فَكَانَ الْمُتَنَبِّي فِي  
 الزَّمَنِ ، ثُمَّ فِي الشُّعْرَاءِ خَاصَّةً ، شَخْصِيَّةً عَجِيبَةً ، إِذَا أَخَذَتْهَا مِنْ يَمِينِ التَّوْتِ  
 بِكَ إِلَى شِمَالٍ ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تَطْلُبُهَا مِنْ وَجْهِ ، رَاغَتْ مِنْ وَجْهِهِ ، وَاسْتَبْتَمَ  
 أَمْرُهُ عَلَى النَّاسِ بِاسْتَبْتَامِ الْفَرَضِ الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ هَذَا الْإِنْسَانُ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ  
 ابْنُ رَشِيقٍ : « مَلَأَ الدُّنْيَا وَشَغَلَ النَّاسَ » ...

لَا نَدْرِي كَيْفَ تَمَّ الرَّأْيُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعُلُوِّينَ أَنَّ « يَخْتَلَفُ — الْفَتَى  
 أَحَدٌ — إِلَى كِتَابٍ فِيهِ أَوْلَادُ أَشْرَافِ الْكَوْفَةِ » ، كَمَا قُلَّ الْأَصْفَهَانِي ،<sup>(١)</sup>  
 وَلَعَلَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ أَنْ يُرَضُوا الْعَجُوزَ ، وَيَحْقُقُوا عَنْهَا قَتْلَ هُوْمَهَا ، وَيَحْمِلُوهَا  
 عَلَى الْمَطَاوِعِ لَمْ خَشِيَ أَنْ تَفْجَأَهُمْ بِمَا لَا يَحْبُونَ مِنْ إِيْظَارٍ مَا أَرَادُوا كِتَابَتَهُ  
 وَإِخْفَاءَهُ . دَخَلَ الْفَتَى الْكِتَابَ ، وَقَدْ قَالَ التَّنَوُّخِي فِي حَدِيثِهِ الَّذِي أَسْنَدَهُ  
 إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الْعُلُوِي ، وَهُوَ يَعْنِي الْمُتَنَبِّي : « وَنَشَأَ وَهُوَ مُحِبٌّ لِلْعِلْمِ وَالْأَدَبِ فَطَلَبَهُ .  
 وَلَا شَكَّ أَنَّ جَدَّتَهُ الْحَازِمَةَ الصَّالِحَةَ كَانَتْ مِنْ وَرَائِهِمْ تَسْتَحْتُهُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ،  
 وَتَسْتَفْزُهُ إِلَى ذَلِكَ ، لِيَتِمَّ لَهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، مَا تَوَمَّلَ مِنَ الْفَرَحِ بِنَبُوغِهِ وَتَفَوْقِهِ  
 عَلَى لِدَانِهِ وَأَسْنَانِهِ مِنَ الْعُلُوِّينَ ، وَيَسْتَطِيعُ بَعْدَ أَنْ يَذْرُوكَ لَهَا « حَقًّا » وَيَطْلُبُ  
 لِنَفْسِهِ « حَقًّا » هُضْمٌ وَمَنْعٌ مِنْ دُونِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي أَسْوَأِ مَجْهَلَةٍ وَبِشَرِّ مَنْزِلَةٍ ،  
 فِي خَفَاءٍ مِنَ النَّسَبِ ، وَقَلِيَّةٍ مِنَ الْمَالِ ، وَبُعْدٍ عَنِ مَسَاعِي الْمَجْدِ . وَقَدْ وَجَدَتْ

(١) أَعُوذُ فَأَكْرُرُ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ تَجَاوَزَ هَذَا الْقَوْلَ ، بظهور الخبر الذي رواه ابن العديم  
 عن الربيعي : أَنَّ الْمُتَنَبِّي قَدْ أَرْضَعَتْهُ امْرَأَةٌ عُلوِيَّةٌ مِنْ آلِ عَيْبِدَاللهِ ، فَكَانَ أَخَاهُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ ،  
 عَلَى الْأَقْلِ ! انْظُرْ ( من : ٢٨ ، تَلْيِيق : ٢ )

المجوز أرضاً صالحة بطبيعتها لما تريد من أمرينها ، فتأدّب الفتي بالعلم الذى كان يتلقاه في كتاب أولاد أشراف الكوفة ، واجتهد في ذلك ، وبرع وفقاً لأصحابه ، وأخذته جدّته بأخلاقٍ صالحةٍ طيّبةٍ ، وحاسبتُه وحَرَصَتْ على استطلاع خبره كلّهُ ، وألقت في قلبه وفكره وخياله طَلَبَ المجد بالعلم ، ثم زبّنت له الفتوة وعلوّ النفس وبُعد الهمة وعظَمَ المطلب ، وأدّبتَه بالصدق والأمانة وكتانِ السرِّ ، وعلّمتُه من حيلتها ودهائها وحذرِها ، سَمَةَ الحيلة ، وخَفَاءَ الدَّهَاءِ ، وتقديمَ الحذر . وبعد أن أدرك الفتي من الفكر ما يسرُّها ما تريد أن تبوح له به ، طَفِقت تُدِيرُ له السر من هنا ومن هنا ، وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم ، والاحتراس من ثورة الفتي إذا هي فجئته بما تريد ، حتى بلغت ما أرادت .

وهذه الممانى كلّها دأبته في حياة التنبى وشعره دَوْران الدّم في عروقه فإذا أنت قرأت ديوانه من أوله إلى آخره ، فلن يفوتك أن تراها جميعاً ، أو ترى بعضها ، ماثلاً غير خفيٍّ في كلّ موضعٍ من شعره .

ويؤيد قولنا هذا : أن الغلام ، وهو صغيرٌ بالمكتب ، كانت له وفرة من الشعر تسيل على أذنيه ، وكانت حسنة جميلة فقال له بعضُ أصحابه من الفتيان (العلويين) : يا أحد ، « ما أحسن هذه الوفرة » ؟ فكان جوابه أعجب جواب من صبيٍّ في مكتب :

لا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى      منشورة الصّفْرَيْنِ يَوْمَ الْفَتْلِ  
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةٍ      يَمْلِكُهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ<sup>(١)</sup>

(١) « الصفر » ، الحفلة المصغرة من الشعر كالنديرة . وقوله : « متقل صعدة » أى حامل ربحه إلى الحرب . « ويملكها » ، يسيها من الدمرة بعد مرة . و « الوافي السبال » ، هو الطويل اللحية .

فَظَنُّ مَا شئتَ بِنِغْلَامٍ فِي مِثْلِ سَنَةٍ لَا يَزَالُ فِي أَوَّلِ طَلْبِهِ لِلْعِلْمِ يَقُولُ مِثْلُ  
هَذَا الْقَوْلِ . وَيَحْسُنُ أَنْ نَطِيلَ الْقَوْلَ قَلِيلًا فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، فَمِنْهُمَا أَصُولُ كَثِيرٍ  
مِنْ حَيَاةِ الرَّجُلِ وَنَفْسِيَّتِهِ فِيمَا بَعْدَ .

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ : هُوَ هَذَا الْإِلْتِفَاتُ الشِّعْرِيُّ الْجَمِيلُ مِنَ الْمَعْنَى الْخَدِو،  
بِفَرْضِ قَائِلِهِ ، إِلَى الْمَعْنَى الْمَتْرَاحِي بِخَيَالِ سَامِعِهِ ، فَإِنْ أَصْحَابُهُ كَانُوا يُعْجِبُونَ  
مِنْ حَسَنِ وَفَرْتِهِ وَاسْتِرْسَالِهَا وَلِينِهَا ، فَتَجَاوَزَ صَاحِبُنَا هَذَا بَخْيَالَهُ مِنَ الصُّورِ  
الْحَاضِرَةِ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي يَرِيدُ أَنْ يَرَاهَا ، شَعْنَاءَ غَبْرَاءَ يَوْمٍ يَنْشُرُ مَضْفُورَهُ  
يَوْمَ الْقِتَالِ بَيْنَ الْغِبَارِ الثَّائِرِ وَالدَّمِ الْمِهْرَاقِ . وَهَذَا إِثْبَاتٌ لِلْأَصْلِ الشِّعْرِيِّ الْقَائِمِ  
فِي نَفْسِهِ .

وَالْأَصْلُ الثَّانِي : هُوَ الرَّجُولَةُ وَالْفَتَوَةُ ، وَبَعْدَ الْمَهْمَةِ ، وَعِظَمِ الْمَطْلَبِ  
وَانْصِرَافِهِ عَنْ سَفَاسَفِ الْأُمُورِ إِلَى مَعَالِيهَا ، لَا يَبْعُثُ بِلَذَّةٍ لَا تُجْدِي خَيْرًا ، وَلَا  
تَوْقِي ثَمَرًا ، وَإِنَّمَا يَجِدُ لَذَّتَهُ فِيمَا يَأْتِيهِ بِمَا يَرِيدُ ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ شَقَاؤُهُ وَجَهْدُهُ .  
وَقَدْ شَرَحَ صَاحِبُنَا هَذَا الْمَعْنَى النَّفْسِيَّةَ فِي شِعْرِهِ بَعْدُ فَقَالَ :

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي ، كَيْفَ لَذَّتْهَا      فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الْأَلَمِ  
الدَّهْرُ يُعْجِبُ مَنْ يَخْلِي نَوَائِبُهُ      وَصَبْرُ نَفْسِي عَلَى أَحْدَانِهِ الْخَطْمِ

وَهَذَا أَصْلُ رُجُولَتِهِ وَفَتَوَتِهِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ وَاسْتَعْلَنَتْ فِي كُلِّ شِعْرِهِ  
حَتَّى صَارَ بِهَا فِذَاً أَوْحَدًا .

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ : هُوَ الثَّوْرَةُ الدَّائِمَةُ ، فَأَنْتَ تَرَاهُ مِنْ صِغَرِهِ . هَكَذَا ،  
لَا يَرِيدُ إِلَّا الْقِتَالَ وَالدَّمَ .



والأصل الرابع : أن هذين البيتين من صغير كفاثلهما ، بضمران وراءهما معنى آخر غير هذه المعاني ، وهو أنه مُدْشَأٌ على طلب الثأر من عدُوِّ ، فهو لا يزال ينقلُ الصورة من وضع إلى وضع آخر يُرضى ما يدور في نفسه من للمعاني المحددة بطفولته ، وما غذيت به من الآراء والأخلاق . وإن شئتَ فقد برز السرُّ المجيب في قوله « يُعْلَمُها » ، أى يسقيها الدم مرةً بعد مرةً ، لا يكتفى بواحدة . وتعجب من قوة الأصل الشعري في هذا الغلام ، ومن طغيان الحقدِ والثأر على قلبه الصغير .

والأصل الخامس : هو بيان الخلق عن عدوه الذى يريد أن يحاربه ، وقد صرح بذلك في قوله « كُلِّ وافى السَّيَالِ » ، فانظر من أراد هذا الصغير بهذه الصيغة ! أترأه عنى كلَّ كبير السن ذى لحية طويلة ؟ أترى ذلك ! ! كلاً ، فالبيّن البيّن أنه أراد قومًا بأعيانهم كنى عنهم بهذه الصيغة ؟ ومن هؤلاء الذين يريدون بهذه الصيغة ؟ أليس للقول أن هذا الصغير إنما يتجه خياله إلى أقرب الناس إليه فى بلده ، ثم إلى الذين أوحى إليه جدته بأنَّ بينها وبينهم سَخِيمة من العدوة ؟ ومن يكون هؤلاء من أهل بلده إلا مشيخة العالوين الذين أنزلوا المواعين به وبجدته ،<sup>(١)</sup> فيما ذهبنا إليه من الرأى فيما مضى .

والأصل السادس : أن هذه الثورة التى تلبست به وأخذت عليه مذهبها فى حياته ، إنما هى من أثر جدته ، إذ باحت له بسرَّها وألقت إليه بمكنون

---

(١) وهذان البيتان من الأدلة على ما ذهبنا إليه فى قضيته مع العالوين فى الذى مر بك ولهم تذكرهما هناك لفادى الإطالة .

صدرها . وذلك لأنّ الفتى الصغير لا يكادُ يدرك هذه المعاني كلّها ويُسيِّفها حتى تظهر هكذا مُسَهَّلَةً على لسانه ، إلّا أن يكون قد أخذَ بها ، وهُمِّيَ لها ، وأُعطيَ من نفسٍ غيرِه قوّةٌ تخرجه من طبيعة الطفولة ، إلى عادة الرُّجولة والفتوّة .

ولولا أن صاحبنا أبا الطيب قد « أسقط من شعره الكثير ، وبقي ما تداوله الناس » ،<sup>(١)</sup> كما حدثنا بذلك أبو القاسم الأصفهاني ، عن أبي الفتح ابن جني ، لوجدنا فيما أسقطه كثيراً من أمثال هذا القول الذي يدلُّ على نفسيّة الصبي التي كبرت معه ، وكانت هي (المتنبيّ) الشاعر الفرد الذي لا يكاد ينفى شعره على أقلّ الناس بصراً بالشعر .

\* \* \*

وأبياتٌ أخرى قالها وهو بالكتب أيضاً :

إلى أيّ حينٍ أنت في زِيٍّ مُحرّمٍ      وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ ؟ وَإِلَى كَمٍّ<sup>(٢)</sup>  
وَلَا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا      تَمُتْ وَتُقَاسِ الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ  
فَتِيبْ وَاتَّقِ بِاللَّهِ وَثْبَةً مَا جِدِ      يَرَى الْمَوْتَ فِي التَّهَيُّجِ جَنَى النَّظْلِ فِي النِّمِ  
وهي وإن كانت مما قال في صغره ، إلّا أنها أمثل من الأبيات الأولى

(١) هذا القول يخل على شعر صباه ولا شك ، ولا شك أيضاً أن بعض شعره في فتوته وكهولته قد سقط ، أو أسقط ، ولكنه قليل جداً لا يكاد ينفع شيئاً .

(٢) هــي عـرم « كناية عن قـره لقلـة عيـايـه الـتي تـستره ، والحـرم من الحاجـلـا يلبـس إلّا لـزارين غير مخيطين .

في الدلالة على المعاني التي ذكرناها ، والأصول الستة التي استنبطناها . فتدبرها على ماقدّمنا لك ، تجد الشاعر الكبير في الشاعر الصغير ، إلّا في موضع واحد . قلّ في شعره بعد الكبر ، وذلك هو تقديم الثقة بالله ، على الثقة بسيفه ونفسه ، وهذا الموضع ولا شك من أثر جدّته التي كانت « من صلحاء النساء الكوفيات » . وهو يؤيد رأينا في أن العجوز كانت تمنحه نفسه ، وتمنحه نصحتها ، وتربيته على ما أرادت ، لم تكتف أن ترّكن في تأديبه وتثقيفه إلى المكتب أو إلى الزمن وأخذائه ، وهو العلم الأكبر والأستاذ البارع .

هذا ، وما نشك في أن الفتى كان وهو بالمكتب أكثر أصحابه تحصيلاً للعلم وإقبالاً عليه ، وانصرافاً إليه ، وذلك لما ذكرنا من قوّته ذاكرته التي كادت تكون إحدى الخوارق = ثم لما أخذته به جدّته من الأدب والرأى ، وما زينت له من طلب المجد ، ثم ما تهياً في نفس الصغير من أصل طبيعته التي تسرع به إلى السموّ ، ولهذا كان الفتى محسّداً بين أترابه ، منظوراً إليه بعين . فالחסد الصغير الذي مئى به وهو في المكتب ، وما يموج في صدره من حقد وثورة وبغض لمن أريد له أن يشأهم ويُنفضهم = كل ذلك كان هو الأصل فيما تعجّب منه المتعجبون من كثرة ذكر هذا الشاعر للحسد والحساد والوشاية والوشاة وما إلى ذلك مما يملّ به ، وقد ألمّ صاحبنا بهذا الذي أردناه في قوله وهو بأنطاكية فيما بعد :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي      فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحاً وَإِهْـمُونَا  
(وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي)      إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا  
(مُحْسَدُ النَّضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي)      أَلْقَى الْكَمَى وَيُلْقَانِي إِذَا حَانَا

فهو من يوم كان في وطنه الكوفة إلى سنة ٣٢١ حين رحل إلى الشام ،  
 كان يلقي التفت من الحسد والحساد ، وما تكذبوا به من أباطيلهم ، وما  
 ألقوا عليه من عيوبهم . فلما استمرّ مَرِيرُهُ وَبَرَّعَ وَفَاقَ الشعراء ، وأكل  
 أرزاقهم إلى رزقه ، أجلب عليه الحساد والوشاة ، فدسّوا له وأذاقوه من  
 بأسهم ، فبقي إلى آخر عمره يذكر ذلك في شعره ، ويتخيّل في صغير أمره  
 وكبيره .

\*\*\*

قلنا : إن الفتى كان أحقّ أسنانه وأسرعهم إلى التحصيل ، وأحفظهم  
 للعلم ، وظاهر شعره الذي قاله في أول أمره وصباه ، يدلّ على أنه لم يقصر  
 حرسه على « دروس العلوية وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » ، بل كان  
 كما كان إلى يوم وفاته ، متبعمًا للكتب يقرؤها ويحقّقها ويحفظها ، من  
 كتب الشعر والأدب والدين والفلسفة والكلام وغيرها من علوم عصره ،  
 وسنأني على طرف من شعره في سياق الدليل على ذلك . وقد روى بعض  
 الرواة ، هو صاحبنا الأصفهاني ، أن المتنبي « وقع في صفرة إلى واحد يُكنى  
 أبا الفضل بالكوفة ، فهو سه وأضله كما ضلّ » ، هكذا قالوا .

ولا شك أن أبا الطيب قد لقي هذا الرجل وهو بالمشيبي لم يرحه بعد ،  
 والتصيد التي في ديوانه ، والتي قدّموا لها بقولهم : « وقال وهو بالمشيبي  
 يمدح إنساناً ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه » ، هي في ذكر هذا الرجل  
 الذي ذكره الرواة ، وأولها :

كُنِّي، أَرَانِي، وَبِكَ، لَوْمَتِكَ، أَلُومًا هُمُ أَقَامَ عَلَى فُؤَادِهِ أَنْجَبًا<sup>(١)</sup>

ويقول فيها ، وقد ذكر اسم الرجل :

كَصِفَاتٍ أَوْحَدِنَا (أَبَى الْفَضْلِ) الَّذِي بَهَرَّتْ ، فَأَنْطَقَ وَاصِفِيهِ وَأَنْفَحَمَا

ومن قرأ القصيدة كلها أَلْفَاها كلها ، فإِ فيها يَتُّ واحدٌ من الشعر ،  
ولفظها وكلامها ومعاييرها غثٌ كَلِه ، وما ندرى ما الذي جعل أبا الطيب  
يحرص على إبقائها في ديوانه ، وقد أسقط الكثير من شعر صباه ، على ما ذكر  
تلميذه ابن جني ؟ وقد أَعْجَمَ صاحبنا القصيدة كلها ، وأتى فيها بكل  
ساقطةٍ من ألفاظ الفلسفة وما إليها ، وبالعَ حين مدح الرجل بما ينقل الكلام  
من معنى للدخ إلى معنى الهجاء ، حتى أَخَلَّ ذلك بمرئيتها إخلالاً يَبْنَا لم  
يقع مثله في ساقط شعره وسفسافه . والظنُّ عندنا أَنَّهُ لَقِيَ أبا الفضل هذا ،  
وكان يدعى الفلسفة ، ويتَّبَحَّجَ بذكرها ، ويظنُّ بنفسه العلم بها ، ويُرِصُ  
نفسه لقراءة دَرَس فيها ، وكان في ذلك أضحوكة يعجبُ منها ويتفكه بها ،  
وكانت صورته في ذلك كَلَمَ تستقصي الضحك وتستخرجُه ، فقال له أبو الطيب  
هذه القصيدة تندُّرأ به وعبثاً وسخريةً . ولا حاجة بنا إلى تفصيل ذلك بذكر  
الآيات التي تدلُّ على ما أردناه ، فإن قليلاً من التدبُّر ، فيما جمع فيها أبو الطيب  
خُن السُّخف والمضحكات والمناقضات والمبالغات ، فيه دليلٌ كافٍ وإي .  
ويُيِّنُ إذْن أن المتنبي ما أثبت هذه القصيدة في ديوانه ، إلاَّ لِأَنَّهُ كَانَ  
يذكرُ بها شخصيةً كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك ، وغاية  
الاستغراب .

(١) ترتيب ألفاظ صدر البيت : « كُنِّي لَوْمَتِكَ ، وَبِكَ [ أَيْ وَبِكَ ] أَرَانِي أَلُومًا »

والعجب للأصفهاني، صاحب « إيضاح المشكل » ، الذي مرّ في أول كلامنا ذكره ، أن يزعم أن معنوها كآبي الفضل هذا النكرة ، قد هوس أبا الطيب وأصله كما ضلّ ! فن كان في بديهة المتنبي وذكرائه وتوقّده ، لا يلعب به رجل مغموّر غير مذكور كهذا الذي ذكروه . وظاهر أمر الأصفهاني ، أو من قال له ذلك ، أنه وقع إليه خبر أبي الطيب وتندّرهُ بأبي الفضل ، هذا الدعوى . على الفلسفة ، فقلب الخبر من معنى الهزل إلى معنى الجدّ ، ونسب إلى المتنبي الأخذ عنه ، والابتداء بسخفه وهذيانه . فلولا جاءوا بشيخٍ مذكور من شيوخ الفلسفة ، وأدّعوا ذلك فيما ادّعوا على الرجل !!

ونحن لا ننفي عن أبي الطيب التأثير بالفلسفة وغيرها مما يداخلها أو تداخله على مذهب الأوائل ، وكيف يكون ذلك ؟ والدنيا يومئذٍ موجّ متلاطم بالجدل والخصام ، والعلماء يومئذٍ كثيرون ، وأصحاب المذاهب الغربية متوافرون ، وأصحاب الجدل مغرمون بإقامة الشبهة وردّها بالحجة والبرهان العقل ، والكتب الخلفّة كثيرة لم تذهب بعد ، وهي كتب نشأ منها بعد علم الكلام الذي اختلطت به الفلسفة وصارت أصلاً من أصوله ، والمساجد لذلك العهد كانت عامرة بالصّحّب الذي لا يُجْدِي ولا ينفع في أصول الدين وعقائده ، فلسنا نشكُّ بعد أن هذا الفتى المتوقّد = الذي قال عنه كثير من رآه إنه كان واسع العلم والمعرفة = قد اختلط وسمع وبحث ونظر وجادل ، وأخذ بأطراف مما سمع وقرأ وحفظ ، حتى بان ذلك في شعره الأوّل بياناً لا خفاء فيه ، ثمّ قلّ بعد أن استحسنت قوته وغلب عليه الأصل الشعري الذي استولى على أكثر موهبته وقدرته .

ونسوق إليك هنا طرفاً من ذلك فيه غنى إن شاء الله ، يقول :

وَصَافَتِ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى (غَيْرُ شَيْءٍ) ظَنَّهُ رَجُلًا  
يريد « لا شيء » فأبدل ، وهذه من ألقاظ المتكلمة ، والخيال  
خيالهم ، وقال :

يَتَرَشَّفَنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ (حَلَاوَةُ التَّوَجِيدِ)

وهذا من ألقاظ التصوفة . وقال :

كَتَبْتُ حُبَّكَ حَتَّى مِنْكَ تَكْرِمَةٌ ثُمَّ اسْتَوَى فِيهِ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي  
كَأَنَّهُ زَادَ حَتَّى فَاضَ عَنْ جَسَدِي فَصَارَ سُقْمِي بِهِ فِي (جِسْمِ كِتَابِي)

والبيت الثاني ، واللفظ الأخير خاصة ، دليل على تأثره بالمعاني الفلسفية  
والصوفية ، وهذه هي التي أخرجت له هذا الخيال السخيف . وقوله :

فَتَى أَلْفُ جُزْءٍ رَأَيْتُهُ فِي زَمَانِهِ أَقَلُّ جُزْءٍ مِنْ بَعْضِ الرُّأْيِ أَتَجَمُّعُ

فهذه قسمة حسابية 11 والجزء والجزء من ألقاظ المتكلمين والفلاسفة ،  
وقلما يأتي أحدهما في الشعر مستحسنًا . وقوله :

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقُ تَجِدُ كُلَّ لَفْظَةٍ (أَصُولُ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَفَرَّغُ)

وهذا مدحٌ فلسفي ليس بشعر ، وانظر إلى جمعه « البراعة » وهي من الغرائب  
التي تلدها الفلسفة . وقوله :

كَمَا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هَانَتْ عَلَيَّ (صِفَاتُ جَالِينُوسَا)

بَشَرُ (تَصَوُّرَ غَايَةٍ) فِي آيَةٍ تَنْفِي الظُّنُونِ (وَتُقْسِدُ التَّفْهِيمَا)

(٥ - التنبؤ)

قوله : ( صفات جالينوسا ) ، يريد ما يصفه جالينوس للأمراض من الدواء ، وهو دليل على نظره في كتب الطب ، ثم قوله : ( تصور غاية ) ، من أساليب المتفلسفة ، وقوله : « تُفسد التقييسا » يريد « تفسد القياس » ، وهو مما يرد في كتب السكلام . ومن تتبع سائر شعره في صباه ، وجد فيه آثاراً كثيرة تدل على ما قرأ أبو الطيب وما سمع من كتب الفقه والحديث والتفسير والجدل والمنطق والمثل والنحل والتاريخ وسير الأوائل والأنبياء الماضين ، وغير ذلك مما كان من علوم أهل عصره ، وقد أحاط بكثير من ذلك واستوعبه ونظر فيه نظرَ المتفكر المتدبر ، ولولا ذلك لما وُلِّعَ بذكره في شعره ، ولما دار على غير إرادة منه فيما نطن .

وقد كان في هذا القسم من شعره يلجأ إلى الأساليب الفلسفية في استخراج المعاني وتوليدها ، وكان يكثر من التقسيم الفلسفي ، والتوجيه المنطقي وغيره من ألوان كلام المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة والمزندقة أيضاً ، حتى فسدت معاني شعره ، فلذلك كان أكثر ما تجد من ساقطه ومرذوله = مما عابه عليه النقاد ، وخاصمه به المتعصبون عليه = هو من هذا القسم الذي قاله في صباه إلى أطراف سنة ٣٢٨ على وجه التقريب لا التحقيق .

\*\*\*

وهذا العهد من حياة المتنبي لم ترذ عنه رواية مؤثقة مستفيضة ، وإنما حملنا فيه الاستنباط من قليل شعره الذي قيل في صباه ، واستخراج الأصول النفسية منه ، ثم مسيرها بعد وتدرجها معه حتى بلغت مبلغها في كبير شعره الذي « ملأ الدنيا وشغل الناس » .



عندنا أن المتنبي بقي في المكتب إلى سنة ٣١٧ تقريباً ، وكانت سنة أربعة عشر ، ولكنه كان بتوقُّده وذكائه في درجة من أناف على العشرين ، وقد ذكر التنوخي أنه قال الشعر صبيّاً ، وذكر غيره أنه كان آيةً في الذكاء والقطنة ، وقال غيرها إنه من دهاء عصره ، أي كان كذلك فيما بعد. وكان مما ورثه عن جدته ، هذا الإحساس للرَّهْف الدقيق الذي يهتزُّ في قوته وكبريائه ، لا في ضعفه وذُلّه . واجتماع الذكاء والحسُّ للرَّهْف هما آلهُ كُلِّ شاعرٍ ، وقد ظفّر المتنبي من كليهما بنصيب الأسد المصور ، ولذلك كان شعره أروع شعر في العربية وكثير غيرها ، وكان محبباً إلى أهل عصره متداولاً سائراً بينهم ، لأنه كان يأخذ بنفسه الرِّهفة من شعور الناس وآلامهم وأحاسيسهم ، ويبني بها يأخذ بثبوت شعره ، وروائع بلاغاته .

وهب الله هذا الذكيَّ الرهف الحسَّ جَدَّةً حازمةً ، كانت ، فيما ذهبنا إليه ، تُوَقِّد في قلبه نيران الثورة ، وتورثها بالحق على قوم بينهم ، وتلدُّ به على كرائم الخلق كالصدق والأمانة والوفاء وحبِّ المجد ، والتطلع إلى التعلُّي ، والجرائف المستنقِرة التي لا تهيب ، يحوُّ منها الحذر الذي لا يتهاون ، والدَّهَاء الذي لا يتورَّط في موارد التلف . وشرع الفتي يطلبُ العلم ويستزيد منه ، ويشتدُّ في الطَلَب مُصمِّماً معتزماً أمراً في نفسه أن يبلغه أو يهلك دونه . ثم انفتحت لعينيه الدنيا برذائلها وفضائلها وحكمتها وتُرَّهاتها ، وجِدَّها وهزلها ، فاضطربت نفسه وطفقت تنلُّسُ الأشياء هنا وتَمُّ ، لتستقر على ما ترضى به وتأنسُ إليه .

وكانت الكوفة ، التي نشأ بها وشبَّ وترعرع وتنفَّح ، لذلك العهد ،

يُلقا من بلاد الإسلام ، قد رمتها القرامطة بيجوشها مرّاتٍ وفعلت بأهلها .  
 الأفاعيل ، وكانت الدولة العربية في شُغلٍ عن السكوفة بانقسامها شيكاً يأكل  
 بعضهم بعضاً ، وظهرت شوكة الأعاجم ، وكانوا أصحاب حيلة ودهاء ، فأوقعوا  
 بين المسلمين وبين عرب البادية ، حتى صارت الدولة العربية المترامية الأطراف .  
 في ثورة دائمة لا تفتت ، ولا تنقطع الحروب في ناحية إلّا انتقدت نيرانها في  
 أخرى . وانقسمت دويلات ، ولم يبق للخليفة إلّا الاسمُ الكريمُ يحمله  
 مُرغمًا وبضعة مُرغمًا لا إرادة له . ولا شك أن إحساس أبي الطيب قد ألمَ  
 بذلك كله وفصله وتقدّه ، وعرف الداء الذي كن في بدن العربيّة واستلَّ  
 قوّتها وقتل روحها ، فازداد إلى ثورته ثورةً وإلى حقه حقداً .

وكانت أخلاق الأمة قد انتضت وقشلت بما تداخلها من أخلاط الأمم  
 الذين لا أصل لهم يرجعون إليه ، ولا خُلُقٌ عندهم يستقيّمون به ، وفسدت  
 العامة من أهل المدن فساداً كبيراً ، واضطربت في أيدي الناس حبالُ الأخلاق ،  
 وصاروا لا يقيسون الناس إلّا بمقياس الظاهر ، ولا يزنونهم إلّا بميزان المال .  
 فبطلت موازين الرجال التي يوزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرجولة .  
 وكرم المنصر . فكان نظر الفتى إلى هذا ، مما ألقى الحطب على النار التي في  
 صدره ، فتبعضت إليه سفسافُ الأخلاق وتعلّق بماليها ، وزين في قلبه أن  
 يكون هو الثائر الذي يردّه هؤلاء الأهمال والمعج إلى مردٍ ، ويأوى بهم إلى  
 مأوى ، ويقوم عليهم قيام الراعي حتى يخلصوا من الشرّ ، ويستمسكوا بالعروة  
 الوثقى ، ويفيثوا إلى الخلق الكريم الذي لا يبغض الناس حقّهم ، ولا يظلمهم .  
 ولا يدّتهم ، بل يعمل بينهم بالقسط ويرفهم عن الدنية ، ويحملهم قوة  
 مستحكة تردّ عدوان العادي وبنى الباغي ، ليصلوا بذلك إلى الحجد والسلطان .

اصطدم هذا الخيال الذي أراد أن يحقته بحقيقة ما هو فيه من الفقر والخفاء ،  
والبعد عن مساعي المجد ، وامتناع نفسه عن إعطاء الطاعة للأخلاق التي كان  
يصلُ بها أهلُ ذلك العصر إلى ما يريدون من المكر السيئ والدسيس  
وما إليهما من حيل الخبيثين . وقد روى الرواة أن أبا الطيب قال :

« أذكر وقد وردت في صباى من الكوفة إلى بغداد ، فأخذت بجانب  
مندیلى خمسة دراهم ، وخرجت أمشي في أسواق بغداد ، فررت بصاحب دكان  
يبيع الفاكهة ، فاستحسنها ، ونويت أن أشتريها بالدرهم الذى معى ، فتقدمت  
إليه وقلت :

— بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟

فقال بغير اكتراث : أذهب فليس هذا من أكلك ، ..

فتماسكت معه وقلت :

يا هذا ، دع ما يفيض ، واقصد الثمن .

فقال : ثمنها عشرة دراهم .

فلشدته ما جهتي به ، ما استطعت أن أخاطبه في المساومة . فوقفت  
حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ... وإذا بشيخ من التجار قد خرج  
من الخان ذاهباً إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ، ودعا  
له وقال :

— يا مولاي ! هذا بطيخ باكور ، بإجازتك أحله إلى البيت ؟

فقال الشيخ : ويحك ! بكم هذا ؟

قال : بخمسة دراهم ..

قال : بل بدرهمين ..

فباعه الخمسة بدرهمين وحلها إلى داره ، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل .

فقلت له : يا هذا ! ما رأيت أعجب من جهلك ؟ أَسْتَفْتِ عَلَى فِي هَذَا  
الْبَطِيخِ ، وَفَعَلْتَ فَمَلَّتْكَ الَّتِي فَعَلْتَ ، وَكَذْتُ قَدْ أَعْطَيْتَكَ فِي ثَمَنِهِ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ ،  
فَبِعْتَهُ بِدَرْهَمَيْنِ مَحْوَلًا ۱۱

فقال : اسكت . هذا يملك مئة ألف دينار !

قال المتنبي : فَعَلْتُ أَنَّ النَّاسَ لَا يَكْرَهُونَ أَحَدًا إِلَّا كَرَاهِمَهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُونَ  
أَنَّهُ يَمْلِكُ مِثْلَ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَأَنَا لَا أَزَالُ عَلَى مَا تَرَاهُ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاسَ يَقُولُونَ :  
لِنْ أَبِي الطَّيِّبِ قَدْ مَلَكَ مِثْلَ أَلْفِ دِينَارٍ » .

فبِمِثْلِهَا وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْحَيَاةِ لَتَمُوتَ الْمُهْدِ اسْطَدَمَ قَلْبُ الْفَتَى ، فَاسْتَقَرَّ  
عَلَى أَنْ يَجِدَ لَهَا يَرِيدَهُ مَخْرَجًا ، غَيْرَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالنَّصِيحَةِ وَالْأَخْذِ بِاللَّيْنِ  
وَالْمَلَاظِفَةِ ، وَازْدَادَ بِذَلِكَ لِلنَّاسِ احْتِقَارًا ، وَلَأَعْمَالَهُمْ بَفَضًا ، وَحَقَّرَ الْعُظَمَاءُ الَّذِينَ  
لَا يَنْظُرُونَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ إِلَّا بِالْمَالِ ، وَجَعَلَ يَذِيرُ الرَّأْيَ حَتَّى خَلَصَ إِلَى  
الْقَرْمِ : أَنْ يَطْلُبَ الْمَالُ ، لَا لِيَجْمَعَهُ وَيَقْرَحَ بِهِ ، وَلَسْكَنَ لِيُنَالَ بِهِ مَا يَرِيدُ مِمَّا  
يَنْطَوِي عَلَيْهِ قَلْبُهُ مِنْ حَقْدٍ عَلَى قَوْمٍ ، وَمَا يَدُورُ فِيهِ مِنْ مَعَانِي الْإِصْلَاحِ ،  
وَمَا يَبْنِي مِنْ إِحْيَاظِ الْهَمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْإِسْتِيلَاءِ عَلَى السُّلْطَانِ الْبُصْتِيعِ ، وَالْمُجْدِ الْفَقُودِ -

ومع هذا ... ، كان الذكاء ، والثروة ، والنظر ، والتجربة ، والاختلاط  
بالناس واختبار أخلاقهم ، وتعجبه من فساد أقيستهم وطلان مذاهبهم ، ثم  
اعتماده في نفسه على الثقة بها ، واعتداده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من  
رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو السلطان أو القضاء إلا بالسوء  
والقبيح ، ثم طبيعته الشاعرة المرهنة التي ( تلتقط صور ) الأشياء ثم تنتزع منها  
الأخيلة الشعرية ، والحكم البليغة . . كل ذلك أسرع بالتي إلى ضرب من  
القول الساخر الذي لم تر العربية مثله في شعر شاعر ، إلا أن سخريته التي  
انفرد بها لم تكن بعد في كبره إلا ضرباً من الحكمة والمبرة التي لا يفتن إليها  
إلا أفاذ العقول ، ثم يدئون عليها بالإيجاز العجيب ، فلا يبالفون في  
تصويرها ، بل يضعونها اللفظ الذي يخرجها مخرج الحكمة ، ويدهاروعة  
في السخر ، وسنعرض لتفصيل ذلك بعد . وقد حفظ لنا المتنبي ضرباً من  
سخريته في صفه نل على ما استحكم في شعره بعد ، وصار في شاعريته طبيعة  
متأصلة مستحكة .

مر المتنبي رجلين قد قتلا جرناً ، وأبرزاه يمجبان الناس من كبره ، فقال :

لقد أصبح الجرذ المسقيف أسير الناي صريع المطب  
رماء الكناني والعامري ، وتلاه الوجه قتل العرب  
كلا الرجلين أتلى قتله ، ... فأبشكا غل جر السب  
وأبشكا كان من خلفه ؟ فإن به عضة في الذنب

قتل الرجلان ، الكناني والعامري ، هذا الفارس الكبير ، فأخرجاه ليمجبا  
الناس من كبره ، وهذا سخر منهما ، إذ شغلا نفسيهما بعتش لامي لئله

عند المتنبي الذي يريد في نفسه قتل الملوك ، فمن هنا قال : « الْجُرْدُ الْمُسْتَفِير » ،  
الذي قد أغار عليهما كما تغير الجيوش . ثم لما فرغ من جمعه كذلك ، ذكر  
أن هذا الفأر قد وقع في (أمر للنايا) كما يقع العدو في الأسر حين رماه الكنافي  
والعامري بالسهم كما يرمى العدو ، وبذلك يسخر من رجلين يجمعان قلوبهما  
على قتل ، ثم لا يكون المقتول إلا فأراً ! ثم لا يكتفى صاحبنا بهذا ، بل يقول  
إنهما أخذاً بصارعاته كما يصارع العربي خصمه مستعيناً عليه بالقوة حتى يكبّه  
على وجهه مقتولاً ، وذلك قوله : « تَلَّاهُ لِلْوَجْهِ فَعَلَ الْعَرَبُ » ، ثم يقول بعد :  
كَلَّا كَمَا تَوَلَّى قَتْلَهُ ، وذلك لِكِبَرِ الفأر وشدته ، ولكن من منكما الذي سرق  
خزائيه وجيد سلاحه ، كما يسرق السارق في الحرب من أسلاب القتلى ويخفيها  
عن أصحابه من المقاتلة ثم يعود فيقول : إنكما كنتما تصارعانه بعد أن رميتهما  
بسهميكما ، وكان أحدهما من خلفه ، فمن منكما الذي كان من ورائه ليحتال على  
صرعه ، وقد عرفت حيلته في صرع هذا الفأر العظيم ، فإنه عضه في ذنبه ،  
وهذه المصنعة بيّنة ثم !

وأنت إذا عُدتَ فقرأت الأبيات على ما تكلفنا شرحه ، رأيت بلاغة  
الرجل في السخرية ودقته في اختيار اللفظ وإيجاز الصورة التي يريد أن يتفكك  
لك بها . وهذا الضرب من الكلام من أكثر ضروب الكلام دورانا في  
شعر المتنبي ، حتى بلغ من دقته في وضعه ، ونفوذِهِ في معرفته وإتقانه ، أنه  
كان يقول القول في اللدح وهو أبلغُ المعجاء ، كما فعل بكثير من ممدوحيه ،  
حاشا سيف الدولة ، وفي أولهم كافور الأسود الخصى .

وكانت هذه السخرية هي المنفذ لآلام أبي الطيب ، وما يضيق به صدره  
من الأحقاد والآراء ، ولعله كان في أصل طبيعته قريب الليل إلى المرح

والتَّوَّابُ فِي وَقَارٍ، وَلَوْلَا مَا كَلَّفَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّقَّةِ لِلسِّيَادَةِ وَالْمَجْدِ، لَكَانَ مِنْ أَرْبَعِ النَّاسِ نَكْتَةً بَلِيغَةً، وَأَكْثَرُهُمْ نَادِرَةٌ عَالِيَةً. يَدُلُّكَ عَلَى هَذَا أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ كَانَ قَدْ نَادِمَ فِي حَيَاتِهِ كَثِيرًا مِنَ الْأُمَرَاءِ، وَكَانُوا يُحِبُّونَهُ، وَلَا يَصْلَحُ لِلْمَنَادِمَةِ رَجُلٌ مَتَزَمَّتْ بَارِدُ الطَّمِيْعِ ثِقِيلُ الظِّلِّ، طَوِيلُ الصَّمْتِ جَهْمُ الْوَجْهِ، مُنْقَطَبٌ. وَمَا قُلَهُ «مُمَاذِ اللَّادِقِ» لِأَبِي الطَّيِّبِ سَنَةَ ٣٢١: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَشَابٌ خَطِيرٌ، تَصْلَحُ لِلْمَنَادِمَةِ مَلَكٌ كَبِيرٌ»، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ كَانَ ظَرِيفًا خَفِيفَ الرُّوحِ، مُحِبًّا إِلَى النَّفْسِ، مَعَ وَقَارٍ وَتَوَدُّةٍ. وَمَنْ تَدَبَّرَ سَجَرَتَهُ فِي شَهْرِهِ كُلِّهِ، وَجَدَ فِيهَا هَذَا الْمَعْنَى، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْزِلُ هَزْلَ السَّخْفَاءِ.



كَانَ هَذَا الْفَتَى يَمْشِي فِي نَوَاحِي الْكُوفَةِ بِأَلَامِهِ وَأَحْتَادِهِ وَفَقْرِهِ، وَيَنْتَقِلُ فِي حَوَانِيتِ الْوَرَاqِينَ يَقْرَأُ مَا يَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَيَخْتَلِفُ إِلَى مَحَالِسِ الْأُمَمَةِ يُسْتَمَعُ الْعَرَبِيَّةَ وَالْفَرَسِيَّةَ وَالْجُدْلَ، وَيَنْظُرُ مُتَعَجِّبًا إِلَى الْحَوَادِثِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِ، وَيَسْمَعُ مَا تَرُدُّ بِهِ الْأَنْبَاءُ مِنْ أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ لِلتَّرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ، يُضْحِكُهُ مَا يَقَعُ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمَجِيْبَةِ الَّتِي تَرْفَعُ وَتَضَعُ مَا بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا، وَيَكُونُ فِيمَا يَرْتَفِعُ إِلَى الذَّرْوَةِ أَقْوَامٌ، مِنْ الْعَجَبِ أَنْ يَصِلُوا إِلَى كَسْبِ الرِّزْقِ، ثُمَّ يَرْتَفِعُونَ فِيمَا يَرْتَفِعُ بِهِمْ إِلَى إِمْرَةِ الْأُمَرَاءِ، وَمَشِيخَةِ الْكُتَابَةِ، وَسِيَاسَةِ الدَّوْلَةِ، وَالْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ. فَلَا تَعْجَبْ بِمَدُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْفَتَى التَّائِرَ الَّذِي يَشْهَدُ آثَارَ الْأَحْدَاثِ فِي أُمْتِهِ، كَثِيرَ التَّعَجُّبِ مِمَّا يَرَى وَمَا يَسْمَعُ، قَلِيلَ الْخُفْلِ بِهَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَرْفَعُهَا الْحَوَادِثُ وَتَضَعُهَا، عَظِيمَ الْمُجْتَبِ بِنَفْسِهِ وَمَا أَوْقَى مِنْ فُطْنَةٍ وَذِكَاةٍ وَعِلْمٍ وَلِسَانٍ قَوَّالٍ، لَمْ يَنْبَلْ بِهَا إِلَّا الْفَقْرُ وَالْمَسْكَنَةُ وَالْحِرْمَانُ:

لَمْ يَلِيَّالِي الَّتِي أَخْتَتِ عَلَى جِدَّتِي      بِرَقَّةَ الْخَلَالِ ، وَأَعْذِرَنِي وَلَا تَلُمِ  
أَرَى أَنَا سَا ، وَتَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ ،      وَذِكْرُ جُودٍ ، وَمَحْصُولِي عَلَى الْكَلِمِ

وقد بقي في الكوفة على ذلك - فيما نرى - إلى أطراف سنة ٣١٧  
ثم خرج إلى البادية القريبة ، بادية الجزيرة للفضية إلى نجد ، وفيها قبائل من  
كلب ، فالتقى بهم وأخذ ينقل بينهم ، لسمع ما بقي من العربية المبرأة على  
أسنة هؤلاء القوم الذين قُلت بينهم الأعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل إلا  
مأمراً عليه من مشقة السفر ، واكتساب الصديق ، واختبار الخلق . ثم  
عاد إلى جدته بالكوفة يشاركها آلامها وشقاءها ، ينال من فضل بعض أصحابه  
متعففاً ، كمحمد بن عبيد الله العلوي للشطب الذي مرّ آنفاً (ص : ٢٧) . ولعل  
العلويين الذين نكبوا جدته كانوا يفضلون عليها ليقنوا بذلك شر أحداها  
لو حدّتها نفسها بشيء . وبقي للتنبّي هناك بالكوفة منقطعاً عن مدح أحد  
من العلويين أو غيرهم من رجال الكوفة وعظماؤها ، وقد جاء في حديث  
التنبّي الذي ذكرناه آنفاً أنه انحدر مرّة من الكوفة إلى بغداد ، وما نشك  
أن مخرجه هذا إلى بغداد كان فيما بين سنة ٣١٩ إلى أوائل سنة ٣٢٠ . ودخل  
صاحبنا بغداد يرى العجب العاجب من الأحداث التي كانت تقع بها ، وشغب  
الجند على الخلفاء ، وظهور اللوالب من المعجم والديلم والترك على موالهم من  
الأمراء والخلفاء ، وقضائهم في شؤون الدولة ، وتصريفهم سياسة الأمة على  
الشهوات المتنازعة والأهواء المتصارعة ، لا يرتدعون ولا يرجعون . فعم  
كذلك عن مدح أحد من هؤلاء الأمراء والخلفاء ، وأنف أن يتكسب بشعره  
من هؤلاء المحقرين لديه ، ورَضِيَ بالفقر واستمسك به ، وبدأت تندفع الدوافع  
في صدره للبلو أحقاداً مؤرمة ، وتراتٍ لم ترَ بعدُ من الدم ، ففج صدره



بالنار المضطربة التي لا تهدأ ، تُورثها أفكاره ونظراته التي لا تفتأ ولا تكل .  
 ففي سنة ٣٣٠ اعترى الخروج من الكوفة ، وإن أبت جدته عليه ذلك ، لما  
 كانت تخشى من تدفعه إلى موارد التلف بما يحمل في صدره ، وعقد قلبه  
 على إحداث حدثٍ لعله أن يصيب من ورائه ما يبتنى وما يؤمل ، ويدرك به  
 في قوم ثاراً ، ويشقى به صدر جدته وصدره . ولعل هذه الأبيات التي نرويها  
 لك كانت آخر ما قاله بالكوفة مما وصل إلينا وما لم يصل من شعره ، ولعله  
 عني بالخطاب فيها جدته ، قال .

مُحِبِّي قِيَامِي مَا لِذَلِكَ النَّصْلِ      بَرِيئًا مِنَ الْجُرْحَى سَلِيمًا مِنَ الْقَتْلِ  
 أَرَى مِنْ فِرْنَدَى قِطْعَةً مِنْ فِرْنَدِهِ      وَجُودَةً ضَرْبِ الْهَامِ فِي جُودَةِ الصَّقْلِ  
 وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِي الْخُضْرَةِ الَّتِي      أَرَنْكَ أَحْمَرَارَ لَوْتُ فِي مَدْرَجِ النَّصْلِ  
 أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِى بِمَا وَكَانَهُ      ( فَمَا أَحَدٌ قَوْفِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي )  
 وَذَرْنِي وَلِبَابَهُ وَطَرَفِي وَذَائِلِي ،      تَكُنْ وَاحِدًا يَلْقَى الْوَرَى وَانْظُرْ نَفْلِي

وقوله : « محبي قيامي » ، يعنى ثورته وظهوره وخروجه ، وما نطن أحداً  
 كان يحب ذلك منه غير جدته ، مع خوفها عليه وخشيته أن يصيبه مكروه من  
 يتربص به من العلويين ، فيما ذهبنا إليه . وفي الأبيات أثرٌ بين من ثورة  
 الصبا وغروره ، ولكنها تدلُّ دلالةً بيّنة على عزيمة هذا الفتى الأبي الذي يريد  
 أن يدرك ثاراً ، ويُحدث أمراً .

ولم يمض إلا قليلٌ بعد ذلك حتى خرج الفتى من الكوفة واتخذ طريقه ،  
 على ما وقع عندنا من الرأى ، من الكوفة إلى بغداد ، ثم خرج لوقتِه متخذاً

طريقه في ديار ربيعة بين النهرين إلى نصيبين ورأس عين وحران ومنبج ،  
وطبق ينقل بين القبائل في جوف البوادي حتى انقضى به المسير إلى الشام في  
سنة ٣٢١ ، فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها ، ( أعني بعلبك ، وطرابلس  
وحمص ) ، ثم كره الأرض التي نزلها ، ثم صعد سلتة إلى منبج وحلب  
واللاذقية وأنطاكية ، ومدح بها من مدح ، ثم اعتقل بمصر ، لما قالوا به  
من ادعائه العلوية ثم النبوة ثم العلوية ، ثم استنصب وأشهد عليه بالكذب  
فما ادعى ، ثم تاب وأطلق . هذا موجز رحلته الأولى بالشام ، وتفصيلها غير  
ميسر بعد لغموضها وقصها . ولهذا الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعد .

سَيَصْحَبُ النَّصْلَ مِنِّي مِثْلُ مَضْرِبِهِ  
وَيَنْجِلِي خَيْرِي عَنْ حِمَّةِ الصَّمَمِ  
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَأَتَ مُصْطَبِرٌ  
فَالآنَ أَفْحَمُ حَتَّى لَأَتَ مُنْتَحِمٌ  
مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ غَدَاً  
وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْبَحَمِ  
فَإِنْ أَجَابُوا، فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمْ،  
وَإِنْ تَوَلَّوْا، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمْ.

النبوة في حياة المتنبي هي أبرز الحوادث التي عُرِفَ بها الرجل، ثم نُزِـرَ بها بعدُ. وقد اختلف الناس في أمرها اختلافاً كبيراً، فقلينا هنا أن نذكر لك أول ذِي بَدْوِ رِوَايَةِ الرُّوَاةِ في أمر نبوته، تامة كما رَوَوْهَا، ثم نعتبها برأينا الذي ارتضيناه، وقصصنا به. وقد جاءت الرواية بها عن التَّنُوخِيِّ الذي مرَّ ذكره في أول كلامنا عن نسب المتنبي، وجاءت أخرى عن أبي عبد الله مُعَاذِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ اللَّاذِقِيِّ الذي قال: إِنَّهُ لَقِيَ لِلْمُتَنَبِّيِّ بِاللَّاذِقِيَّةِ، وبابعه بالنبوة، وأخذ يبعثه لأهله أيضاً ١١ كما ستري.

رَوَى التَّنُوخِيُّ (عَلِيَّ بْنَ الْحَسَنِ)، عن أبيه الحسن التَّنُوخِيِّ، عن القاضي أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي، قال:

١ - « وقد كَانَ الْمُتَنَبِّيُّ لما خرج إلى كلبٍ وأقام فيهم ادَّعى أَنه عَلَوِيٌّ حَسَنِيٌّ ، ثم ادَّعى بعد ذلك النبوَّة ، ثم عادَ يدَّعي أَنه علويٌّ ، إلى أَن أُشْهِد عليه بالشَّام بالكذب في الدعويين ، وحُبِسَ دهرًا طويلًا ، وأشرف على القتل ، ثم استنَّيب ، وأُشْهِد عليه بالتوبة وأُطْلِقَ » .

٢ - وحدثَ التَّنَوُّخِيُّ أيضًا عن أبيهِ المحسن قال : حدثني أبو علي بن أبي حامد قال :

« سمعتُ خلقًا يَحْكَبُ يَحْكَبُونَ ، وأبو الطَّيِّبِ المتنبِّيُّ بها إِذ ذاك ، أَنه تنبأ ببيادية السماوة ونواحيها إلى أَن خرج إليه لَوْثُوْ أَمِيرُ حصص من قَبْلِ الإخشيديَّة فقاتله وأَفْرَقَه ، وَشَرَّدَ من كان اجتمعَ إِلَيْهِ من كلبٍ وكلابٍ وغيرهما من قبائل العرب ، وَحَبَسَه في السَّجْنِ حبسًا طويلًا ، فاعتَلَّ وكاد أَن يبتَلَف ، حتَّى سُلِّ في أمره فاستنابَه ، وَكَتَبَ عليه وثيقةً أَشْهَد عليه فيها ببطلان ما ادَّعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وَأَنه تائب منه ولا يعاود مثله ، وَأُطْلِقَهُ » (١) .. ..

\* \* \*

ثم هذا حديث مُعَاذِ اللَّاذِقِيَّ نَقَلَهُ على طوله :

٣ - « قدم أبو الطَّيِّبِ اللَّاذِقِيَّة في سنة ثَيْفٍ وعشرين وثلاثمئة : وهو لَمَّا عِذَّارَ له ، وله وَفْرَةٌ إلى شَحْمَتِي أَذْنِيهِ ، فَأَكْرَمْتُهُ وعظَّمْتُهُ لما رأيت من خِصَاصَتِهِ وحسن سَمَتِهِ . فلما تَمَكَّنَ الأُنْسُ بيني وبينه وَخَلَوْتُ معه في المنزل اغْتِنَامًا لمشاهدته ، واقتباسًا من أدبه قلت :

---

(١) لهذا الحديث قصة فيها ذكر قرآن أبي الطَّيِّبِ وغير ذلك نسعرض له فيما بعد .

والله إنك لشابٌ خطيرٌ ، تصلحُ لنادمة ملكٍ كبير .

فقال : ويحك ! ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبيٌ مرسل !

فظننتُ أنه يهزلُ ، ثم تذكرتُ أني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ

عرفته .

فقلت له : ما تقول ؟ — فقال : أنا نبي مرسلٌ — فقلت : إلى من

مرسلٌ ؟ — فقال : إلى هذه الأمة الضالة المضلّة — قلت : تفعلُ ماذا ؟ —

قال : أملاً الدنيا عدلاً كما مُلئتُ جوراً — قلت : بماذا ؟ قال : بإحراز

الأرزاق ، والثوابِ العاجلِ لمن أطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصا وأبى .

فقلت له : إن هذا أمرٌ عظيمٌ أخاف عليك منه ! وعدليته على ذلك ،

فقال بديهة :

أبا عبدِ الله ، معاذُ ، إنني خفيُّ عنك في الميِّجاتِ مقامِي

ذكرتُ جسيمَ مُطلبي ، وأتني أخاطرُ فيه بالهَجِ الحِتامِ

أبتلى تأخذُ النكباتِ منه ، ويجزع من مُلاقاةِ الحِتامِ ؟

وتؤبّر الزمانُ إلى شخصاً لخصبِ شعرٍ متفرِّقه حُسامِي

وما بلغتُ مشيئتها أليالي ولا سارتُ وفي يدها زِمَامِي

إذا امتلأتْ عيونُ الخليلِ مِنِّي فويلُ في التيقُّظِ والنَّمامِ

فقلت : ذكرتُ أنك نبي مرسلٌ إلى هذه الأمة ، أفبوجي إليك ؟ —

قال : نعم ! — قلت : فَأَتْلُ على شيئاً مما أوحى إليك ! — فأتاني بكلام

مَا مَرَّ بِمَسْمَعِي أَحْسَنُ مِنْهُ — قُلْتُ : وَكَمْ أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ هَذَا ؟ — فَقَالَ :  
 مِثْلَ عِبْرَةٍ وَأَرْبَعِ عَشْرَةِ عِبْرَةٍ — قُلْتُ : وَكَمْ الْعِبْرَةُ ؟ فَأَتَانِي بِمَقْدَارِ أَكْبَرٍ مِنَ  
 الْآلَى فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى — قُلْتُ : فِي كَمْ مَدَّةٍ أَوْحَى إِلَيْكَ ؟ — قَالَ : بِجُمْلَةٍ  
 وَاحِدَةٍ — قُلْتُ : أَسْمِعْ فِي هَذِهِ الْعِبْرَاتِ أَنْ لَكَ طَاعَةٌ فِي السَّمَاءِ ، فَمَا هِيَ ؟  
 — قَالَ : أَحْبَسَ لِلدَّرَارِ ، لِقَطْعِ أَرْزَاقِ الْمُصَاةِ وَالْفُجَّارِ — قُلْتُ : أَتَحْبِسُ  
 فِي السَّمَاءِ مَطَرَهَا ؟ — قَالَ : إِي وَالَّذِي فَطَرَهَا ! أَمَا هِيَ مُعْجِزَةٌ ؟ — قُلْتُ :  
 بَلَى وَاللَّهِ — قَالَ : فَإِنْ حَبَسْتَ الْمَطَرَ عَنْ مَكَانٍ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَلَا تَشْكُ فِيهِ ،  
 هَلْ تُؤْمِنُ بِي ، وَتَصْدُقُنِي عَلَى مَا أُوتِيتُ مِنْ رَبِّي ؟ — قُلْتُ : إِي وَاللَّهِ —  
 قَالَ : سَأَفْعَلُ ، وَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بِمَسْأَلَتِهَا ، حَتَّى آتِيكَ بِهَذِهِ الْمُعْجِزَةِ ،  
 وَلَا تَظْهَرُ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى يَظْهَرَ ، وَاتَّظَرُ مَا وَعَدْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْأَلَهُ  
 = ثُمَّ قَالَ لِي ، بَعْدَ أَيَّامٍ : أَتَحْبِبُّ أَنْ تَنْظُرَ الْمُعْجِزَةَ الَّتِي جَرَى ذِكْرُهَا ؟ — قُلْتُ :  
 إِي وَاللَّهِ — فَقَالَ لِي : إِذَا أُرْسِلَتْ إِلَيْكَ هَذِهِ الْعَبْدُ فَارْكَبْ مَعَهُ إِلَى وَلَا تَتَأَخَّرْ  
 وَلَا تُخْرِجْ مَعَكَ أَحَدًا — قُلْتُ : نَعَمْ .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ تَغَيَّمَتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ ، وَإِذَا عَبْدُهُ  
 قَدْ أَقْبَلَ فَقَالَ : يَقُولُ لَكَ مَوْلَايَ : أَرْكَبِ لِلْمَوْعِدِ . فَبَادَرْتُ إِلَى الرُّكُوبِ  
 مَعَهُ ، وَقُلْتُ : أَيْنَ رَكِبَ مَوْلَاكَ ؟ — قَالَ : إِلَى الصَّحْرَاءِ . وَاشْتَدَّ وَقْعُ  
 الْمَطَرِ فَقَالَ : بَادِرْ بِنَا حَتَّى نَسْتَرِ مِنْ هَذَا الْمَطَرِ مَعَ مَوْلَايَ ، فَإِنَّهُ يَنْتَظِرُنَا  
 بِأَعْلَى تَلٍّ . لَا يَصِيبُهُ فِيهِ مَطَرٌ . قُلْتُ : وَكَيْفَ عَمَلٌ ؟ قَالَ : أَقْبِلْ إِلَى السَّمَاءِ  
 أَوَّلَ مَا يَبْدُو السَّحَابَ الْأَسْوَدَ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا أَفْهَمُ ، ثُمَّ أَخْذِ السُّوْطَ  
 فَدَارِبِهِ فِي مَوْضِعٍ سَتَنْظُرُ إِلَيْهِ ... وَإِذَا هُوَ عَلَى تَلٍّ بَعِيدٍ عَنِ الْبَلَدِ نَصِيفِ  
 فَرْسَخٍ ، فَأَتَيْتُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى التَّلِّ لَمْ يَصِبْهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَطَرِ شَيْءٌ ، وَقَدْ

خُصَّتْ في الماء إلى رُكْبَةِ الفرس ، والطر في أشد ما يكون . ونظرتُ إلى نحو  
مِثْقَى ذِرَاعٍ في مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر . فسَلَّتُ عليه ، فردَّ عليَّ  
السلام . فقلت : ابسط يدك . . أشهد أنك رسول الله . فبسط يده فبايعته  
بِئِمَّةِ الإقرار بنبوته ، ثم قال :

أَيُّ مَحَلٍّ أَرْتَقَى أَيُّ عَظِيمٍ أَتَقَى  
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ  
مُحْتَقَرٌّ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

« وأخذتُ بِيَعْتَهُ لأهلي ، ثم صحَّ بعد ذلك أن البيعة سَعَتَتْ كُلَّ مَدِينَةٍ  
بِالشَّامِ ، وذلك بأصغر حيلةٍ تعلَّمها من بعض العرب ، وهي « صدحة المطر »  
يصرفه بها عن أي مكانٍ أحبَّ ، بعد أن يحوي بعضاً وَيَنْفُثَ في الصَّدْحَةِ  
التي لهم .

« قال أبو عبد الله : وقد رأيت كثيراً منهم بالسَّكُونِ وخَضِرَ مَوْتِ  
وَالسَّكَاسِكِ مِنَ الْبَيْنِ يفعلون هذا ولا يتعاضدونه ، حتى إنَّ أَحَدَهُمْ يَصْدَحُ  
عن غنمه وإبله وعن القرية فلا يصيدها شيء من المطر ، وهو ضَرْبٌ مِنَ السَّخَرِ .  
وسألتُ المتنبي بعد ذلك : هل دَخَلَتِ السَّكُونُ ؟ قال : نعم ! أَمَا سَمِعْتَ  
قولي :

مِثْلُ الْقَطَرِ أُعْطِشَهَا رُبُوعَا وَإِلَّا فَاسْقِمَهَا السِّمُّ النَّعِيمَا  
أُمْنِسِي السَّكُونُ وَخَضِرَ مَوْتَا وَوَالِدِي وَكِندَةَ وَالسَّبِيحَا

« فقلت : مِنْ نَمِّ اسْتِفَادَ مَا جَوَّزَهُ عَلَى طِفَامِ أَهْلِ الشَّامِ . . . ( وأنت  
منهم يا أبا عبد الله ! ) !!

ثم قال أبو عبد الله هذا : « وما كان يُمخرق به في البادية ، أنه كان مشاءً قوياً على السير ، يسير سيراً لا غاية بعده ، وكان عارفاً بالقنوات ومواقع المياه ومحالّ العرب بها . وكان يسير من حِلَّةٍ إلى حِلَّةٍ بالبادية ، وبينهما مسيرة أربعة أيام ، فيأتي ماءً فيفسل وجهه ويديه ورجليه ، ثم يأتي أهل هذه الحِلَّة فيخبرهم ما حدث في تلك الحِلَّة التي فارقها ، ويومهم أن الأرض تطوى له . وسئل في تلك الأيام عن النبي صلى الله عليه وسلم : فقال : أخبر بنبوتي حيث قال : « لا نبى بعدى » ، وأنا آسمى في السماء « لا » .

« ولما اشتهر أمره ، وشاع ذكره ، وخرج بأرض ( سَلَمِيَّة ) من عمل حمص في بني عديّ ، ( وظهر منه ما خيف عاقبته ) ، <sup>(١)</sup> قَبِضَ عليه ابنُ حلي الهاشمي في قرية يقال لها ( كَوْتَكِين ) ، وأمر النجار أن يعمل في رجله وعنته قرمتين من خشب الصفصاف ، فقال المتنبي :

زَعَمَ الْمُقِيمُ بِكَوْتَكِينِ بَأَنَّهُ      مِنْ آلِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ  
فَأَجَبَتْهُ : مُذْ صِرْتَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ      صَارَتْ قِيُودُهُمْ مِنَ الصَّفْصَافِ

انتهى حديث معاذ بن إسماعيل اللاذقي ( أبي عبد الله الصديق !! ) الذي الذي كان أول من صدّق نبوة أبي الطيب وآمن به وأخذ بيعته لأهله !!

\*\*\*

ومادنا قد أطلنا بذكر هذا الحديث فلا بأس عليك ، إن شاء الله ، لو نقلنا لك ما رواه أبو العلاء المعري أيضاً قال :

(١) في بعض الكتب هذه الزيادة .



٤ — « وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه ، أنه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا ، وقد تدينوا دعواه : ها هنا ناقة صبية ، فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل ، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل ، فتجئ حتى وثب على ظهرها ، ففترت ساعة وتنكَّرت بُرْهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسحجة ، وأنه وزد بها الحيلة وهو راكب عليها ، فمجبوا له كلَّ العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم .

« وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية ، وأنَّ بعضَ الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فخرحته جرحاً مُنْطِطاً ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشدَّ عليها غير منتظر لوقته . وقال المجروح : لا تحلها في يومك ! وعدَّ له أياماً وليالي ، وأن ذلك الكاتب قبل منه ، فبرَّء الجرح ، فصاروا يعتدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ويقولون : « هو كحجي الأموات » .

وحدث رجلٌ كان أبو الطيب قد استغنى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل : أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع ، ففرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولتئهما كلبٌ ألحَّ عليهما في النباح ، ثم انصرف . فقال أبو الطيب لتلك الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات . فلما عاد الرجل ألقى الأمر على ما ذكر . . ولا يمنع أن يكون أعدَّ له شيئاً من اللطاعم مسموماً ، وألقاه ، وهو يخنى عن صاحبه ما فعل . . . والتخربق همُّ الكلاب » .

هذا حديث نبوته ونبوءاته ومعجزاته عند أكثر الرواة ، أما قرآنه فقد  
أجمعوا أنه لم يبق إلا ما نرويه لك . قال أبو علي بن أبي حماد ، الذي  
مر آتفاً :

٥ - وكان ( يعني أبا الطيب ) قد تلا على البوادي كلاماً ذكر أنه  
قرآن أنزل عليه ، وكانوا يحكون له سوراً كثيرة ، نسخت منها سورة .  
ضاعت ، وبقي أولها في حفظي وهي :

« وَالنَّجْمِ السَّيَّارِ ، وَالْفَلَكَ الدَّوَّارِ ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، لِمَنْ الْكَافِرِ لَفِي .  
أَخْطَارِ ، أَمْضِ عَلَى سَنِّكَ ، وَأَقْفُ أَثْرَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الرِّسَالِ ، فَإِنَّ  
اللَّهَ قَامِعُ زَيْغٍ مِنَ الْخَلْدِ فِي دِينِهِ ( الدين ) وَضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ( السبيل ) » . قال :  
وهي طويلة ، لم يبق منها في حفظي غير هذا .

\* \* \*

وأنا لا أحب أن أتجاوز هذه النصوص إلى ماسواها ، إلا وقد نظرت  
فيها وبصرت القارىء بالتوائها وضعفها وهنّها ، ويأتيه ما استنبطناه وقد  
وقر في نفسه ردّ هذه المقالة التي تُنزيها أبو الطيب ، وبذلك يقوم ردّها مقام  
البينة على ما أردناه ، أصبنا أو أخطأنا .

لن نعود تارة أخرى إلى ما قدّمنا من ذكر التنوخي ، ثم روايته عن  
أبي الحسن العلوي وابن أم شيبان الهاشمي ، ففي أول كلامنا تجد بعض الأدلة  
على وهن رواية التنوخي ، واستسقاطنا إياها ، ولا غنى لك عن المؤدّة إلى  
تذكره عند هذا الحديث عن نبوة المتنبّي .

بَيِّنَّا لَكَ فِيمَا مَرَّ مَابِن أَبِي الطَّيِّبِ وَبَيْنَ الْعَلَوِيِّينَ ، وَأَنَّ صَاحِبَنَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ ثَأْرٌ قَدِيمٌ هُوَ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَدْرِكَ فِيهِمْ ، وَيُنَالِ « حَقَّهُ » مِنْهُمْ ، وَرَجَّحَ عِنْدَنَا الْاِسْتِبْطَاطَ أَنَّ يَكُونَ أَبُو الطَّيِّبِ « عَلَوِيًّا » مِنْكُوبًا فِي نَسَبِهِ وَشُرْفِهِ وَجَاهِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ نَسَبُهُ إِلَى الْعَلَوِيِّينَ ، وَلَكِنْ عَارَضَتْهُ دُونَ مَا أَرَادَ أَهْوَالٌ وَأَحْدَاثٌ ، فَإِذَا جَعَتِ هَذَا الرَّأْيَ هُنَا وَنَظَرَتْ فِي النَّصِّ الَّذِي وَقَعَ إِلَيْنَا مِنَ التَّنُوخِيِّ عَنْ ابْنِ أُمِّ شَيْبَانَ الْهَاشِمِيِّ ، وَهُوَ عَلَوِيٌّ كَبِيرٌ ، مَلَكَ الشُّكَّ وَغَلَبَ عَلَيْكَ فِيَا رَوَى ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْسَ أَنْ يَذْكُرَ لَنَا فِيَا قَالَ .. لَوْ صَدَّقَ التَّنُوخِيُّ فِي رَوَايَتِهِ عَنْهُ .. أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ ادَّعَى الْعَلَوِيَّةَ مَرَّتَيْنِ .

أَمَّا حَدِيثُ مَعَاذِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ اللَّادِقِيِّ فَتَقْدِ سَنَدُهُ لَا يَتَيَسَّرُ لَنَا ، لِأَنَّ صَاحِبَنَا هَذَا اللَّادِقِيَّ مَجْهُولٌ لَمْ تَقَعْ لَهُ عَلَى ذِكْرٍ ، وَلَكِنْ مِمَّا لَاشْكَ فِيهِ أَنَّ اللَّادِقِيَّةَ الَّتِي نَسَبَ إِلَيْهَا كَانَتْ لَوْ قَدْ أَبِي الطَّيِّبِ مُوْطِنًا لَفَتَّةً مِنَ الْعَلَوِيِّينَ ، وَمَحْطًا لِكَثِيرٍ مِنْ كِبَارِ الدُّعَاةِ الْعَلَوِيِّينَ الَّذِينَ أَحْدَثُوا أَحْدَاثًا عَظِيمَةً فِي التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ . فَلَا بَأْسَ مِنْ أَنْ تَجْعَلَ هَذَا ذِكْرًا مَذْكُورًا وَأَنْتَ تَتَبَصَّرُ فِي أَصْلِ الرِّوَايَةِ ، عَلَى وَهْنِهَا وَتَضَارِبِهَا وَتَهَالِكِ مَعَانِيهَا الَّتِي يُفْسِدُ بِمَعْضَاهَا بَعْضًا ، كَمَا سَتَرَى بَعْدَ .

فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ ، وَهُوَ حَدِيثُ ابْنِ أُمِّ شَيْبَانَ الْهَاشِمِيِّ ، عَجِيبٌ لَا يَفْرَغُ الْعَجَبَ مِنْ اخْتِصَارِهِ وَتَدَاخُلِهِ . فَهُوَ رَتَّبَ أَمْرَ ظُهُورِ الْمُتَنَبِّئَةِ عَلَى دَرَجَاتٍ ثَلَاثٍ : الْأَوَّلَى ادِّعَاؤُهُ الْعَلَوِيَّةَ ، وَالثَّانِيَّةُ ادِّعَاؤُهُ النَّبَوِيَّةَ ، وَالثَّالِثَةُ ادِّعَاؤُهُ الْعَلَوِيَّةَ مَرَّةً أُخْرَى . فَأَمَّا أَنْ يَدَّعِيَ الْعَلَوِيَّةَ ، ثُمَّ يَعُودَ فَيَدَّعِيَ النَّبَوِيَّةَ ، فَهُوَ قَوْلٌ لَا بَأْسَ بِهِ ، وَلَكِنَّ الْعَجَبَ أَنَّهُ بَعْدَ هَذَا عَقَّبَ عَلَى « النَّبَوِيَّةِ » بِلَفْظِ التَّعْقِيبِ (ثُمَّ) ، فَقَالَ « ثُمَّ عَادَ يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَوِيٌّ » . فَالَّذِي يَدَّعِي النَّبَوِيَّةَ وَيُبَاطِحُ بِهَا ، كَمَا يَقُولُ

اللاذقي الصدّيق !! ، لا يُعقَّب على هذه الدعوى بالعلوية . فادعاء الرجل النبوة ثم انحطاطه منها إلى العلوية إكذاب لنفسه ، وإقرار منه بالخرقه على الناس والعبث بهم ، ولا يكون ادعى النبوة ثم ينحطُّ منها إلّا بعد قتال يُرغم فيه على التسليم ، ولا شكّ أنه لو كان فعل بصاحبنا ذلك ، لحبس لوقته قبل أن يتمكن من القيام بالدعوة إلى نفسه مرّة أخرى بين بني كلب فيدعى العلوية . ثم لو أنه كان مُطلقاً ، ورجع عن النبوة إلى ادعاء العلوية ، لكان ذلك كافياً في تكذيبه وتحقيره عند من سلّموا له بما ادعى من علويّته بدءاً ، ونُبُوّته بعد . فهذا وجه في إبطال هذا النص .

أمّا حديث أبي علي بن أبي حامد ، ولم نعرف الرجل ، فهو حديث محكم لا يقع فيه هذا الاعتراض الذي قدمناه ، إذ اقتصر صاحبه على ذكر النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين إلّا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكام في شأن من يدعون النبوة ، فيقول أبو علي : إن لؤلؤاً أمير حصص : « استتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاء ورجوعه إلى الإسلام .. » أمّا أن يستتبه ويُشهد عليه أنه تائب ، فهذا لا بأس به ، وهو الحكم مع المتنبئين = وأما أن يكتب وثيقة عليه ببطلان نُبوّته ، فهذا أمرٌ لاعمى له ، لأن الوثيقة إنما تُكتب فيما يُخاف من قبله معاودة الدعوى ، فتكون إقراراً مكتوباً مشهوداً عليه بالبطلان من اللدّعي نفسه ، كدعوى الملكية في العروض ، ودعوى العلوية « مثلاً » في النسب ، فتكون الوثيقة حُجّة عليه إذا عاد ليحتاج الناس فيها ادّعاءه ، بعد الإقرار على نفسه بالكذب في الدعوى الأولى . أمّا النبوة ، فالأمر فيها على غير ذلك ، فإن الرجل إذا ادعى النبوة ثم

استُتِيبَ وأُشْهِدَ على نفسه بالكذب فيما ادَّعى ، ثم رجع بعد ذلك يدَّعيها مرة أخرى ، لم يكن يُنْظَرُ حتى يحاجَّ الناس فيما يدَّعى ، ويقول لهم : إنكم لم تأخذوا على وثيقة مكتوبة مشهوداً على فيها بالكذب ، وإنما يكون جزاؤه القتل من غير إِنْظَار ولا استتابة .

فهذه الوثيقة التي ذكرها أبو علي ، إذا صح أمرها ، إنما تكون قد أخذت عليه في دعوى العلوية لا دعوى النبوة . فأنْتَ ترى أن نصَّ ابن أم شيبان فيه ذكر العلوية مرتين ، وأن ذكر النبوة يكاد يكون مقحماً فيه ، وترى أن نصَّ أبي علي بن أبي حامد يرجح دعوى العلوية لا دعوى النبوة ، فإذا قرَّنتَ هذا إلى ما تمادينا في ذكره عن نسب للتنبى ، وما أتينا به من الحجة في ترجيح نسبته إلى العلويين ، لم تَبْهَمْ عن الحكم بأن هذه الروايات إنما يراد بها دعوى العلوية لا دعوى النبوة .

أما ثالث الأحاديث ، وهو حديث أبي عبد الله الصديق ١١ معاذ بن إسماعيل اللاذقي ، فموجبٌ بطلانه بين للتدبر أدنى التدبر ، ولولا أن كثيراً ممن كتب عن التنبى مرَّ به ولم يفرض له تركناك تحكم بوضعه من سياقه ومدرجه ، دون أن نأخذ أنفسنا بنقده . وأنت إذا تدبرت الحوار الذي زعمه أبو عبد الله هذا بينه وبين أبي الطيب ، لم تشك ساعة في أن الرجل كان يَضَعُ هذا الكلام وضماً ولا يرويه رواية . والعجب له ١١ قداتهم نفسه في مواضع من كلامه بقلَّة العقل وعمى البصيرة ، وسُرعة التهور في التسليم .

فهذا السعى معاذاً كان . ولا شك رجلاً مسلماً مدركاً يملك من العقل مقداراً يكفي ، على الأقل ، في الإنصات له إذا حدَّث ، وإلا بطل حديثه هذا

من غير محاولة منا في إبطاله ... فإن كان كذلك ، أو أقل من ذلك قليلاً ، فما نظنه كان يصبر على الرُّجُل حين أدعى النبوة كل هذا الصبر ، فيتأدى في الحوار معه ، ثم يصف كلامَ فتى في السابعة عشر أنه « ما مرَّ بسمعه أحسنُ منه ». فهذه إمّا أن تكون كلمة جاهلٍ ، وإمّا كلمة وضاع يريد أن ينتقص من الرجل ، فهو يهين ، لا تقاصيه بامتداحه وتمظيمه . ثم كيف يُفَقِّل أن رجلاً مسلماً كان في عصر المتنبي ، ثم في مدينة كاللاذقية ، ويدل كلامه على بعض العلم ، يُصدّق دعوى حبس المطر ويُعدّها معجزة ، فضلاً عن تصديقه النبوة بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم ! وأعجب من ذلك في الوضع الثَّابِت أن يدعى هذا النسخة معاذاً أنه أقَرَّ بنبوة المتنبي ، ثم بايعه لما رأى معجزة حبس المطر ، وأنه أخذ البيعة لأهله أيضاً على الإيمان به ، فأى رجلٍ مسلم غير جاهلٍ ولا مقتون في ذلك العصر ، يتهوّر في الكفر بغير معجزة ولا بينة ؟ ومن عجيب سخو هذا اللادق في الوضع أنه قال بعد ذلك تنوّه : « يريد معجزة حبس المطر » ، « وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب » . فلو أنه كان قد أتقن وضعه ، لزعم أنه بقي على بيعة المتنبي والإقرار له بالرسالة ، إلى أن رأى ، بعد زمان ، أو سمع واستيقن ، أن الذي فعله المتنبي وزعمه معجزة له ، أمر مشهور عند بعض العرب يتعاطونه إذا كَرِهَهُمُ المطرُ ، ثم يصف كما وصف أنه « صدحة المطر ، بصرفونه بها عن أى مكان يحبون ، بعد أن يحوموا بعضاً وينفثوا في الصدحة التي لهم ... الخ » ، فكفر بنبوة المتنبي لذلك ، وتاب ورجع إلى الإسلام . ثم من ضعف وضع هذا اللادق أنه زعم أنه كان قد رأى كثيراً من أهل السَّكُون وحَضَرَ موت يفعلون صدحة المطر ولا يتعاطمونها ، فسأل المتنبي : هل دخلت السَّكُون ؟ قال : نعم ! وما دام

اللاذقي هذا كان قد عَرَفَ هذه الصدحة ، فكيف آمن بنبوة صاحبه ، ولا دليل له على نبوته غيرها ، وهي مشهورة في اليمن معروفة معمول بها ، كما يقول .

وأعجب من هذا أنه يدعى أن دعوة المتنبي قد دعت كل مدينة بالشام وبويع له بها : كيف يكون هذا ؟ والشام إذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم ، وكان أكثر أهلها لا يتخلفون عن صلاة ، ولا يزال بين ظهرائهم عالم يقرأ في مجلسه ، أو واعظ يعظ في حلقاته ، أو خطيب يخطب من منبره ، ثم يؤمنون بدعوى رجل لا تؤيده معجزة بيانية ، ولا خارقة كونية . وإن زعمنا أن اللاذقي قد آمن بالمتنبي لصدحة اللطر ، أفتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الضلالة ، أو هذه الأكاذوبة التي لا تعقل ؟ ليكن اللاذقي رجلاً لا عقل له ، أفيكون أهل الشام كلهم هذا الرجل ؟ !

ويقول اللاذقي للمتنبي يخوفه مما يقول به من النبوة : « إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه » ، فيجيبه المتنبي بشعر لا ذكر للنبوة فيه ، وإنما هو شعر رجل مقاتل يريد الحرب ، لا مقاتل نبي يريد أن يؤمن الناس به . ثم إن الذي قاله في الشعر يدل على غير ذلك ، فإنه قال :

ذَكَرْتَ جَسِيمَ مُطَلَّبِي ، وَأَنَّى أَخَاطِرُ فِيهِ بِالْمُهْجِ الْجِسَامِ

وليست النبوة مطلباً يطلب ومخاطر فيه بالنفس والنفس ، وإنما النبوة أمر من الله لمن أوحى إليه أن يصدع بما يؤمر به ، فيكون عمله هداية الناس بالبين أو بالشدة كما يشاء الله ، فلا يكون ذلك مطلباً للنبي يريد أن يناله ، بل

يكون أمراً يجب أن يطعمه ويعمل به ، وكذلك الأبيات التي أنشدها :

أَيَّ مَحَلٍّ أُرْتَقَى أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقَى

فالقول فيها قريب من هذا . أما البيتان الأخيران ، فهما الدليل على تلفيق الرجل ، فالبيت الأول هذا : « مُثِثَ الْقَطَارُ » ، أول قصيدة للمتنبي ، والبيت الثاني في آخر القصيدة ، ولا رابط بين البيتين حتى ينشدهما المتنبي معاً في الاستدلال على دخول السكون أو حضرة موت ، وكان يكفيه البيت الثاني في الاستدلال لما أراد . ثم إنَّ المتنبي ، بغير شك ، لم يدخل اليمين في حياته كلها من يوم وُلِدَ إلى يوم مَاتَ . أما الذي ذكر في الأبيات فهو ، كما قدمنا لك ، أسماء خطط لأهل اليمين بالكوفة التي ولد بها أبو الطيب ( انظر ص : ١٧ ) .

وأيضاً ، فإنَّ هذه القصيدة التي منها هذان البيتان ، في مدح علي بن إبراهيم التنوخي ، وكان مدحه سنة ٣٢٣ بعد خروجه من السجن ، أو بعد رجوعه عن الكوفة إلى الشام سنة ٣٢٦ ، على ما حققناه <sup>(١)</sup> . وهذا الذي ذكره اللاذقي في حديثه كان سنة ٣٢١ ، قبل أن يقبض عليه . فهذه كلها أدلة بينة على وضع القصة وتلفيقها ، وأنها وضعت على الأرجح بعد وفاة المتنبي بزمان .

ومن أكاذيب هذه الرواية أيضاً ، دعواهم أن المتنبي كان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ، ومحالَّ العرب بها ، فذلك لا يتيسر إلا لمن وُلِدَ بهذه البلاد

(١) الرأي هو هذا الأخير كما سترى بعد في موضعه ، ولا يصح عندنا غيره .



ونشأ بها ، والمتنبى دخل البلاد في السنة التي يَرَوَى فيها اللانقي هذا الحديث «  
وحُبس في السنة نفسها ، فما كان له أن يعرف تجاھل البادية ومواقع مياهها  
ومحال أهلها ، كما زعم ، في قلة من الوقت . فانظر الآن ما تقول في هؤلاء  
الوضاعين ؟

\*\*\*

أما معجزات المتنبى ، فلا نتكلم فيها لأن بطلانها بين وفسادها  
مكشوف ، ولقد علمت بهذه الأحاديث التي رويناها لك ، أنهم كانوا  
يريدون أن يتهموا الرجل بما هو منه برأ ، فأولى أن تكون المعجزات التي  
رواها أبو العلاء ضرباً من الكيد له ، وتأيداً لاتهمهم الرجل بدعوى النبوة .

أما قرآنه ، فهو كما ترى ليس بقرآن ، وإنما هو « ضرب من الهذيان » ،  
والمعجب أن يبايع له اللادقي ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول :-  
« ما مرّ بمسمى أحسن منه » ! ثم الأعجب أن تعم بيعته كل مدينة بالشام  
كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلا هذه الحفاقة الصغيرة التي رووها ، يزعم أبو علي .  
ابن أبي حامد أنها بقيت في حفظه !!

ولا ندري لماذا أصيب المتنبى بهذا العجب !! في مسألة نسبه ، كانت  
نسبته إلى جُفَيِّ بن سعد العشيرة ، التي كان يخفيها خوفاً ، لا يعرفها إلا  
التنوخى وابن أم شيبان ، وأبو الحسن العلوى = وقرآنه لا يحفظه إلا أبو علي .  
ابن أبي حامد واللاذقي ، ثم لا يحفظان معاً منه إلا قطعة بمئيتها ، مع أن اللادقي  
قد ذكر تعدادها مئة عبرة وأربع عشرة عبرة ، واتفقا معاً على حفظ هذه  
القطعة ونسيان ما بقي من هذا العدد !!

\*\*\*

وبعدُ ، فإنَّ أحدًا لا يشك في أن الرجل ( أبا الطيب ) كان قد سجن  
 لأمر ما ، ولكن حرص هؤلاء الذين رَوينا أقوالهم على أن يجعلوا حبسه  
 من أجل النبوة ، يجعلنا نرى أنهم جعلوا مسألة « النبوة » غطاءً يسترون به  
 حقيقة ما قام من أجله أبو الطيب قبض عليه . وبينَّ على مذهبنَا في نسب  
 المتنبي أن الرجل حُبس من أجل « دعوى العلوية » التي ذكرها الرجل الطيب  
 ابن أم شيبان ، وأقحم عليها « النبوة » ، ليَجعلَ دعواه في علويته كذباً ،  
 فإن الذي يدعى النبوة لا يتورع عن ادعاء العلوية . ثم إن هذا الرأي من  
 ابن أم شيبان ، لو صحَّ عنه ، يزيدنا يقيناً بأن الرجل كان يعرف من أمر  
 نسب المتنبي شيئاً ، ويريد أن يخفيه ، وأن لا يُظهرَ عليه أحدًا من الناس .

ومسألة القبض على المتنبي وحَبْسِه لما عندنا سياقٌ تاريخيٌّ آخر استنبطناه ،  
 ولكن يحسن بك أن تهَيَّء في نفسك مرة أخرى ما قلنا به من نسبة المتنبي  
 إلى العلويين ، وما أفضنا فيه من القول في عدة مواضع ، ليسهل عليك أن  
 تمينا على تحقيق ترجمة الرجل ، هذا ، ونحن والقارىء في هذا الموضوع سواء ،  
 نحن تبين له وجهه أو توجَّه له رأى ، فليكتب لنا به مشكوراً .

دَعَاكَ لَمَّا بَرَّانِي الْبَلَاءُ  
وَأَوْهَنَ رَجُلِي نَقْلُ الْحَدِيدِ  
وَقَدْ كَانَ مَشِيئًا فِي النَّعَالِ  
فَقَدْ صَارَ مَشِيئًا فِي الْقُمُودِ  
وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي تَحْفِيلٍ  
فَهَا أَنَا فِي تَحْفِيلٍ مِنْ قُرُودٍ  
فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ  
وَلَا تَقْبَلَنَّ (يَعِجِلُ الْيَهُودِ)  
وَكُنْ قَارِقًا بَيْنَ دَعَايَ (أَرَدْتُ)  
وَدَعَايَ (قَعَلْتُ) بِشَأْوٍ يَبْعِدُ

قلنا إن اللتني في أواخر سنة ٣٢٠ ، اعتزم الخروج من الكوفة ، وأنه عقد قلبه على إحداث حدث لعله أن يصيب من وراثته ما يبتغي وما يؤمل ، ويدرك به ثأراً في قوم ، ليشفى به صدر جدته وصدره ، ثم أبغذعزمه في الرحلة عن الكوفة إلى بغداد ، ومن ثم اتخذ طريقه مُضِعِداً إلى ديار ربيعة بين النهرين ، إلى اللوصل ونصيبين ورأس العين ، وانحدر بعدُ إلى الشام ، فقبض عليه هناك .

وكان مرور للتني برأس عين في أوائل سنة ٣٢١ على الأرجح ، وفي تلك السنة حدث جادث كان من جبرائه أن قُتِلَ أَبُو الْأَغْرَبِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَمْدَانَ .

(ابن عم سيف الدولة) . وذلك أن بني ثعلبة اجتمعوا إلى بني أسد القاصدين إلى أرض الموصل ومن معهم من طيء ، فصاروا يداً واحدة على بني مالك ومن معهم من تغلب ( وهم قوم بني حمدان ) ، وقرب بعضهم من بعض للحرب . فركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ، ( أخو سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان ) ، في أهله ورجاله ومعه أبو الأغر بن سعيد ابن حمدان للصلح بينهم ، فتسكلم أبو الأغر فطعنه رجل من حزب بني ثعلبة فقتله ، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه فانهزموا ، وقتل منهم ، ومثلت بيوتهم ، وأخذوا حريمهم وأموالهم ، ونجوا على ظهور خيلهم ، وتبعهم ناصر الدولة إلى الحديثة ( قرب الموصل ) . فلما وصلوا إليها ، لقيهم يأنس غلام مؤنس ، وقد ولي الموصل وهو مُضْعِد إليها ، فانضم إليه بنو ثعلبة وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة . وانقطع عندها التاريخ الذي بين أيدينا في كتب التاريخ ، ولكن بعض رواة ديوان المتنبي أو شراحه يقولون : إن المتنبي مرّ برأس عين في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وقد أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس من بني أسد ، وبني ضبة وبني رياح من بني تميم ، فخذله بqvصيدته التي أولها :

ذِكْرُ الصَّبَا وَمَرَاتِعِ الْأَرَامِ      جَلَبَتْ حَامِي قَبْلَ يَوْمِ حَامِي

وذكر ما كان من أمر سيف الدولة مع هؤلاء الذين ذكرناهم من قبائل العرب النازلين في أرض الموصل وما جاورها . فبيّن أن لقاء سيف الدولة لهؤلاء الخارجين من بني أسد وبني ضبة وبني رياح ، كان على إثر قتلهم ابن عمه ( أبا الأغر بن سعيد بن حمدان ) = وأن مدح المتنبي سيف الدولة قد أحفظ

عليه بنى أسدٍ وبني ضبة حتى كان أمرهم بعدُ معه ما كان — على ما نذهب إليه — من أنهم قتلوه بالعراق ، كما سيأتي بعد .

ويقول رواة الديوان : إن أبا الطيّب لم ينشد سيف الدولة هذه القصيدة ، ولا تظنُّ أن ذلك يكون دليلاً على أنه لم يلق سيف الدولة في سنته تلك ، بل الأرجح عندنا أنه لقيه وحدثه ، واتصل بينهما الودُّ قليلاً قليلاً ، وفي القصيدة أبيات تدل على أن سيف الدولة ( وكان صغيراً في مثل سن المتنبي ) أفضل عليه بعض الإفضال وأكرمه وأحبه . والمعجب أن تكون هذه القصيدة ، وهي من أول قصائده في حياته ، <sup>(١)</sup> تدل على حبٍّ بليغ لسيف الدولة ، يقرب من حبه له بعدُ ، والذي تدل عليه مدائح التي استناضت بعد اتصاله به في سنة ٣٣٧ ، كقوله مثلاً :

وتعذرُ الأحرارَ صبرَ ظهريها	إلا إليك علىَّ ظهري حرام <sup>(٢)</sup>
( أنت القريبة ) في زمانٍ أهلهُ	ولدتَ مكارمهم لفيرتِهم
أكثرُ من بذل النوال ، ولم تنزل	علماً على الإفضال والإتمام
صنعت كلَّ كبيرة ، وكبرت عن	لكأنه ، وعددت من غلام
ورفقت في حلل الشناء ، وإنما	عسدمُ الشناء نهاية الإعدام
عيبُ عليك ترى بسيف في الوغى ،	ما يصنع الضمَّامُ بالضمَّام ؟
إن كان مثلك كان أو هو كائن	فيرتُ حينئذٍ من الإسلام

وهذا غلوٌ عجيبٌ ... وأنت إذا رجعت إلى مدائح المتنبي إلى أن اتصل

(٢) « ظهرها » ، يعني ظهر ناخته .

(١) كانت سن المتنبي إذ ذاك ١٨ سنة .

بسیف الدولة فی سنة ٣٣٧ ، لم تجد ذلالة الحب والتعظیم باديةً فی مثل هذه المعانی ، و غيرها مما لم نذكره من القصيدة . ولعل المتنبي كان قد رأى من سيف الدولة فی ذلك العهد مثلاً من أمثلة المروءة والفتوة التي كان یفتنّها فی رجال عصره . وأنت ترى أن المتنبي فی صغره ، كما ینتالک أول کلامنا ، كان یرى الرجولة والفتوة المثل الأعلى الذی یعلّق به طرفة ، وذلك لما انطوى علیه قلبه من حب المجد وطلب الثار ، ولما فی نفسه من الثورة علی زمنه وأهله ، وعلی من ظلموه وأرادوا به شراً وذللاً ومهانة .

وعجیبٌ أيضاً أن لا یمدح المتنبي واحداً من الخلفاء وأبنائهم وهم بالعراق ، ولا أحداً من كبار العراقيين من الأمراء ، ثم یعمد إلى مدح بنی حمدان وحدهم ، ولم تكن شوکتهم بعد قد بلغت مبلغ غیرهم من الأمراء ، فذلك دلیل علی أنه لم یمدحهم للعطاء وحده ، بل مدحهم لأمر آخر لا نکاد نبین إلا أطرافاً منه . ولعل بنی حمدان كانوا یعرفون من أمر المتنبي شيئاً ، وكانوا یصلون جدته فی حال نکبتها ، فذلك ذکر المتنبي أبوی سيف الدولة فی القصيدة وطلب لتبريها السقيا ، وقد كان له مندوحة عن ذکرهما ، وذلك قوله :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَيْكَ غَيْر مُودِّعٍ      وَسَقَى ثَرَى أَبْوَيْكَ صَوْبَ غَمَامٍ

وفی مدحه لبني حمدان أو سيف الدولة وإخوته وأبويه علی التحقيق ما يرجح ذلك :

قَوْمٌ تَقَرَّسَتْ الْمَنَابَا فِيكُمْ      قَرَأْتُ لَكُمْ فِي الْحَرْبِ صَبْرَ كِرَامٍ  
تَأَلَّهَ مَا عَلِمَ أَمْرُؤُ لَا كُمْ      كَيْفَ السَّخَاةِ، وَكَيْفَ ضَرْبِ الْهَامِ

وعندنا أن هذه القصيدة قد أنبتت في صدر سيف الدولة محبة هذا الفتي العربي الطموح النائر الذي لا يستتر<sup>(١)</sup>، وكأن تواقفهما في السن والفتوة قد جمع بين قلبيهما. ولولا ما كان في صدر للتنبي من الأمانى التي لا تهدأ ولا تنفد، لبقى معه، ولولا ما كان فيه سيف الدولة من مثل ذلك، ومن أهبتة إلى حرب بنى أسد وبنى ضبة، لعزم على صاحبه في الرقة في الحِلِّ والترحال، ولكن أراد الله شيئاً فكان ...



وخرج التنبي من أرض بنى حمدان، ومن جوار سيف الدولة خاصة، إلى عزمته بالشام. وبدأت الحوادث تأخذه أخذاً حتى رمت به في سجنه، ولم يكن للتنبي لذلك العهد مغوراً مجهولاً، كما يذهب إليه أكثر الكتاب، بل كانت قصائده قبل مدخله إلى الشام قد أثبتت عليه عيون الدولة العباسية وجواسيسها، وأطراف العلويين الذين هضموه وظلموه، ونظرات العلويين الفاطميين أيضاً، وكانت دعوة الفاطمية قد نفذت في بلدان المريّة في نكمتها واستتارها، مع قوتها وحصافة القاميين بالدعوة إليها، وما كان لهم من المذاهب في التدخل في شؤون السياسة تدخلاً حكيماً خفياً مكتوماً، يترقبون له ليصلوا إلى ضرب الخلافة العباسية والقضاء عليها، وإقامة الخلافة العلوية الفاطمية.

وكان الذي أمسك العميون على المتنبي، فيما نذهب إليه، أنه قبل أن يلتقي سيف الدولة في المرة الأولى سنة ٣٣٩، وكان في طريقه بأرض العراق،

(١) ولد المتنبي سنة ٣٠٣، وولد سيف الدولة في تلك السنة.

قال من الشعر ما وقع إلى هؤلاء ، فلفّتهم إليه . فمن ذلك ما رُوِيَ من أن  
أبا سعيد المجبّر عثله على تركه لقاءً للملك وامتداحهم ، فقال له :

أَبَا سَمِيدٍ جَنَّبَ الْعِتَابَا      فَرُبَّ رَأْيٍ أَخْطَأَ الصَّوَابَا  
فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الْحِجَابَا      وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدَّنَا الْبَوَابَا  
وَلَمَّا حَدَّ الصَّارِمِ الْقِرْضَابَا      وَالذَّابِلَاتِ الشُّمْرَ وَالْعِرَابَا  
تَرَفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الْحِجَابَا

فمثل هذا القول لا يذهب باطلاً عند أصحاب الأمر في الدولة ، ومن  
يضعون عيونهم على سياسة العصر ودسائسه ، وقد كان عصراً مملوهاً بكل  
عجيب من الدعوات الخفية ، والثورات السرية التي لا يخطئها مطلع على تاريخ  
تلك الفترة من العصر العباسي . ويُنَبِّئُ من شعر المتنبي الذي وقع في ترتبنا  
لديوانه في هذه الفترة ، أنه حين دخل العراق آتياً بمعضة الكيد على أثر  
ما عُرف عنه من الثورة القائمة في صدره ، ودليل ذلك قوله :

رَمَانِي خِسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ اسْتِه      وَآخِرُ قُطْنٍ مِنْ يَدَيْهِ الْجُنَادِلُ  
وَمِنْ جَاهِلٍ بِي ، وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلُهُ ،      وَيَجْهَلُ عَلَيَّ أَنَّهُ بِي جَاهِلُ  
وَيَجْهَلُ أَنِّي ، مَالِكُ الْأَرْضِ ، مُعِيرُ      وَأَنِّي ، عَلَى ظَهْرِ الْمَمَّاكِينِ ، رَاجِلُ

ولم يكف صاحبنا بذلك ، بل خرج إلى ذكر نفسه وصفتها ، وعرض  
بما يضم من الخروج ابتغاءاً لما يؤمل من الثأر أولاً ، وما سماه « المجد والعلی »  
ثانياً ، فقال :

تُحَمَّرُ عِنْدِي هَبَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ      وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي لَمَدَى الْمُتَطَاوِلِ



وَمَا زِلْتُ حَلُودًا لَا تَزُولُ مِنَّا كَيْبِ إِلَى أَنْ بَدَتْ (لِلضَّيْمِ) فِي زَلَا زِلْ

يُحْيِلُ لِي أَنْ الْبِلَادَ مَسَامِي وَأَنْ فِيهَا مَا تَقُولُ الْعَوَاضِلُ  
وَمَنْ يَنْفَعُ مَا أَبْنَى مِنَ الْجَدِّ وَالْأَبْنَى تَسَاوَى لِلْحَيَاةِ عِنْدَهُ وَالْقَاتِلُ  
(الْأَلَيْسَ الْحَاجَاتُ إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الشُّيُوفُ وَمَسَائِلُ)  
(غَثَاثَةُ عَيْشِي أَنْ تَقْتُ كَرَامَتِي وَلَيْسَ بَعَثَ أَنْ تَقْتُ الْمَلَائِكُ)

ولا يلفتنك ما نحن فيه عن أن تعود إلى ما ذهبنا إليه في أمر نسيه  
ونسبته الأولى وهو صغير، لتعلم سر القول في قوله: «إلى أن بدت للضيم  
في زلازل»، فهو ردك إلى ذكر المشكلة القائمة في نفسه، والتي وصفناها  
لك على ما وقفنا إليه، إذ أنه بهذا الشطر قد ضمن لك معنى ما نريد من أنه  
كان مغلوباً على أمره، محكوماً عليه بأمر كله ظلم وضيم. فلما بلغ مبلغاً،  
زلزله هذا الضيم وقد حاول من صدره مخرجاً، على أنه كان - كما وصف  
نفسه - رابط الجأش، ثابت النفس، ثبوت الجبل على ما يعمل تحته من العوامل  
البركانية التي تبتغي مخرجاً بانفجار.

\*\*\*

دع ذا - ونعود إلى شعره في الفترة التي نحن فيها من تاريخه، فكان  
- مما قاله في العراق أيضاً قصيدته التي أولها: «ضيف ألم برأسى غير محتشم»،  
سؤنقل إليك طرفاً منها لتتدبره على ما رسمنا، يقول:

لَيْسَ التَّمَلُّ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِي وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِفْلَالِ مِنْ شَيْبِي  
يَا أَهْلُنَّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتَرَكُنِي بَحْتِي تَسُدُّ عَلَيْهَا طُرُقَهَا هِمِي

سَيَحْبِبُ النُّصْلَ فِي مِثْلِ مَضْرِبِهِ  
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَأَتَ مُصْطَلِحِي ،  
لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَلِيلِ سَاهِيَةً ،  
بِكُلِّ مُنْصِلَةٍ مَا زَالَ مُنْتَظَرِي  
تَنْسِي الْبِلَادَ بَرْوَقَ الْجَوِّ بَارِقِي ،  
رِدِي حَيَاضَ الرَّدَى بِأَنْفُسٍ وَأَتْرِكِي  
(لَمْ أَدْرِكْ عَلَى الْأَرْمَاحِ سَائِلَةً  
(أَيْلَكَ الْمَلِكُ — وَالْأَسْيَافُ ظَامِئَةً  
مَنْ لَوْ رَأَى مَاءَ مَاتَ مِنْ ظَمًا  
مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّقَرَتَيْنِ غَدًا  
فَإِنْ أَجَابُوا ، فَمَا قَضَيْ بِهَا لَهْمُ ،

وَيَنْجَلِي خَبْرِي عَنْ صِيَةِ الصَّمِ  
(فَالآنَ أَفْجَمَ حَتَّى لَأَتَ مُقْتَحِمِ)  
وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقِي عَلَى قَدَمِ  
(حَتَّى أَدَلَّتْ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الْخَدَمِ)  
وَتَسْكُنِي بِاللَّهِ الْجَارِي عَنْ الدَّيْمِ  
حَيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ  
فَلَا دُعِيْتُ أَبْنَى أُمِّ الْجِدِّ وَالْكَرَمِ  
وَالطَّيْرِ جَائِعَةً — لَنَحْمٍ عَلَى وَصْمِ<sup>(١)</sup>  
وَلَوْ عَرَضْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنْهَمِ  
(وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالصَّحَمِ)  
وَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا سِرْمِ

\* \* \*

فهذا الذي أثبتنا لك من شعره في القصيدتين ، وما صرَّح به فيما عن  
آماله وآرايه ، وعن رأيه في الدولة العباسية التي ملك زمامها العجم والديلم  
والترك من خدام الخلفاء ، وعن رأيه في الخليفة الضعيف الذي لا يملك من  
أمر نفسه شيئاً ، ثم يُعَدُّ في نظر شعبه ملكاً مملوكاً تعطى له القادة ، وتصرف  
إليه الطاعة بالإذعان والتسليم = وما يتجلى في كلماته من إرادة التغلب والثورة  
على الدولة عَرَبِيَّهَا وَعَجَمِيَّهَا = كُلُّ ذَلِكَ وَلَا شَكَّ ، جَلَبَ عَلَى صَاحِبَتَا ، عَلَى

(١) (لحم على وض) جملة يعني بها عن الضعيف الذي لا ناصر له ، كالمرأة التي لا حام لها ، وهذه السكناية فاعل قوله (أَيْلَكَ الْمَلِكُ) ، والبيت الثاني بدل من قوله : «لحم على وض» .

صِغَرُهُ ، اِهْتِمَامَ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْوَلَاةِ وَالْدُّعَاةِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْمَعْجَمِ وَالتُّرْكِ وَالْإِسْلَامِ ، وَاهْتِمَامَ أَصْحَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلَوِيَّةِ وَالدَّعْوَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ، عَلَى التَّخْصِصِ .

فَلَمَّا كَانَ اتِّصَالُهُ بِبَنِي حُدَانَ فِي سَنَةِ ٣٤١ مَدَحُهُ لَهُمْ ، دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ أَمْثَالِهِمْ ، وَلِلْمُنَافِسِينَ لَهُمْ وَالْحَاقِدِينَ عَلَيْهِمْ ، وَالْمُرِيدِينَ الْإِيقَاعَ بِهِمْ لَمَّا عَرَفُوا بِهِ مِنَ الصَّرَاحَةِ فِي الْحُكْمِ ، وَالْدَّهَاءِ فِي السِّيَاسَةِ ، وَالْعَصَبِيَّةِ لِلْعَرَبِيَّةِ الْمَرْيُوحَةِ ، وَبُغْضِهِمْ لِحُكَامِ الْأَعْجَمِ الَّذِينَ كَانُوا لَهُمْ أَصْحَابَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي الدَّوْلَةِ كُلِّهَا = أَزْدَادُ اِهْتِمَامٍ هَؤُلَاءِ بِالْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ (الْمُنْتَهَى) ، وَرَدُّوا أَنْظَارَهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ هَذَا النَّائِثُ الشَّاعِرَ الْبَلِيغَ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ أَيْ شَأْنٌ ، لَوْ تَرَكَ غَيْرَ مُرَاقِبٍ وَلَا مَأْخُوذٍ عَلَيْهِ السَّبِيلُ الَّتِي يَبْنِي ، وَالْأَمْرُ الَّذِي يَهْدُدُّ بِهِ ، فَأَجْمَعُوا عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ حَتَّى لَا يَسْتَفْجِلَ أَمْرُهُ ، وَيَتَسَّعَ عَلَيْهِمُ الْخَرْقُ مِنْ قَبْلِهِ ، فَلَا يَمْلِكُ لَهُ الرَّاقِعُ مَرَقَةً .

وَرَحَلَ صَاحِبُنَا مِنْ (رَأْسِ عَيْنَ) حَيْثُ مَدَحَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ ، مَتَّخِذًا طَرِيقَهُ إِلَى الشَّامِ مَارًّا بِمَحَرَّانَ ثُمَّ مَنبِجَ ، ثُمَّ أَنْطَاكِيَّةَ وَاللَّادِقِيَّةَ وَحِمَاةَ وَحَمَصَ وَبَعْلَبَكَّ ، وَتَرَدَّدَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَدَنِ حَتَّى قُبِضَ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ نَفْسُهَا مَنَازِلَ مِنْ مَنَازِلِ الدُّعَاةِ الْعُلَوِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ سِيَاسَةٍ وَدَهَاءٍ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى قَلْبِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَإِقَامَةِ الْخِلَافَةِ الْعُلَوِيَّةِ الْخَالِصَةِ ، وَكَانَتْ الْأَعْجَامُ فِي الشَّرْقِ ، وَالْمَوَالِي الَّذِينَ بَلَّغُوا غَايَةَ السُّلْطَانِ فِي خِدْمَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، يَدُكُ مَعَ الْعُلَوِيِّينَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ أَيْضًا حِجَالًا لِلدُّعَاةِ الْفَاطِمِيِّينَ أَصْحَابِ الْجِيُوشِ وَالسُّلْطَانِ بِالْمَغْرِبِ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ بِسَمَوْنِ جَهْدِ السَّعْيِ لَصَمِّ الْعُلَوِيِّينَ إِلَيْهِمْ ، وَاسْتِمَالَةِ الْوَلَاةِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ

إلى مناصرتهم ، ليمَّ لهم دخول الشام دون معارضة بعد فتح مصر —  
وكانوا يعدُّون له العدة — ثم يقفوا وجهاً لوجه حيال الدولة العباسية  
بالعراق ، وكان قد تمَّ لهم أمرٌ عظيم في ما وراء دجلة والفرات ، وبذلك  
تسقط الدولة العباسية ، وتقوم على أنقاضها الدولة العلوية الفاطمية .

وكانى بالتنبى في طريقه يُظهر في القبائل والمدن أمر نسيه ، ويذيع بينهم  
أنه علويُّ الأصل شريف النسب ، محملاً لذلك بالدعاء ، مجتهداً في اتخاذ  
المصداً قبل أن يعلن أمره إعلاناً صريحاً ، لئلا يواقعه العلويون وينزلوا به  
كيدهم الذى يكيدون له . دار دورته في البلاد التى ذكرناها وأمره إلى علويٍّ  
لما عُرِف من فصاحته وبلاغته ، وحُسن سَمته ، وبجمال هديه ، وتوقد كانه  
وما يمتاز به من حُسن المعاشرة ولطيف المنادمة ، مع سعة العلم ، ودقة النهم  
له . وكان في القبائل البادية أظهر أمراً ، وأشدَّ عضداً ، حتى كان آخر  
أمره بنى عديّ وبني كلب ، ففشا ذكره بينهم ، وبابيعه على العون له ، في  
الدعوة إلى ردِّ الحُكومة إلى العرب دون الأعاجم . وكان ظهوره في بنى عديّ  
هو الذى جلب عليه السَّجن والشقاء .

ذلك أن بنى عديّ هم قوم بنى حمدان ،<sup>(١)</sup> فكان ظهوره هناك ، ولقاؤه  
قبل ذلك سيف الدولة ، ومدحه بنى حمدان عامة = سبباً في تيقُّظ ولاة  
(مُحمَّد بن طُفَّج الإخشيد) ، وكان على دمشق ، ولم يكن ظهر أمره بمصر  
بعد . وكانت بين بنى حمدان والإخشيديين الأتراك المتعصبين للدولة العباسية

(١) هم بنو عدي بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن قنبل بن  
ويتهى إلى « عدي » هنا ، نسب بنى حمدان .

عداوةً جلبتها المنافسة ، وكان سيف الدولة مخصوصاً بهذه العداوة وحده .  
دون بنى حمدان ، لما ظهر من قوته ، على صغر سنه ، وحبه في توسيع سلطان  
بنى حمدان حتى يَصُمّ الشام وما يتبعها إلى ولايته وولاية إخوته . فلا بدّ إذن  
للإخشيديين من مراقبة هذا الذي مدح بنى حمدان ، وأحدث حدثاً في القبائل  
التي كانت لهم موالية ، خشية أن يكون موفداً من قبل سيف الدولة للقضاء  
على مطامع الإخشيديين في الاستيلاء على الشام ومصر .

وأيضاً ، فإن دعاة الفاطميين الذين كانوا بالشام نظروا إلى ذلك ،  
وخافوا أن يكون موفداً من قبل سيف الدولة وبنى حمدان ، وكان بنو  
حمدان قد استمعوا على الدعوة الفاطمية ، مع أنهم كانوا من شيعة العلويين .  
وامتناع بنى حمدان على الدعوة الفاطمية ، كان هو السبب في مناصرتهم للخليفة  
العباسي وتحققهم بخدمته ، لما يعرفون من أن دعوة الفاطميين كانت قد ضمت  
إليها أكثر ولايات الأعاجم الذين كانوا يحكمون بلاد الخلافة ما وراء الفرات  
وفي العراق نفسه . وكان هذا هو السبب أيضاً في العداوة المتّقدة بين بنى بويه  
وبنى حمدان فيما بعد ، وبينهم وبين سيف الدولة خاصة ، فإن بنى بويه كانوا  
علويين فاطميين .

فاجتمعت على المتنبى عيون الفاطميين ، وعيون العلويين ، وعيون الدولة  
القائمة في الشام . فلما ظهر في بنى عديّ أرسلوا في القبض عليه ، فطاردوه  
من بلد إلى بلد ، وكان يستخفي منهم ، حتى وقع أخيراً في يد (أبن علي الهاشمي  
العلوي) ، في قرية يُقال لها كوتكين ،<sup>(١)</sup> فقبض عليه وأمر التجار بأن

(١) لها كانت قرية من (سليية) وهي قرية من أعمال حمص .

يُجْعَلُ فِي رَجُلِيهِ وَعُنُقِهِ قُرْمَتَيْنِ مِنْ خَشَبِ الصَّنِصَافِ ، فَقَالَ لَهُ الْمُتَنَبِّيُ يَتَيْنِ قَدْ ذَكَرْنَاهُمَا آتَاءً ، <sup>(١)</sup> وَبَقِيَ الْمُتَنَبِّيُ فِي السِّجْنِ مِنْ أَوَاخِرِ سَنَةِ ٣٢١ أَوْ أَوَائِلِ سَنَةِ ٣٢٢ إِلَى سَنَةِ ٣٢٣ ، ثُمَّ أُطْلِقَ .

\* \* \*

وَكَانَ الْمُتَنَبِّيُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ مُسْتَخَفًّا بِالسِّجْنِ ، لَمَّا يَأْمَلُ مِنْ بُلُوغِ خَبَرِهِ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، فَإِنَّ بَنِي عَدَى قَوْمَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ — كَمَا يَتَوَهَّمُ — لَنْ يَبْرَكُوهُ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ ، إِلَّا أَنْ يَحْمَلُوا خَبَرَهُ إِلَى بَنِي حُدَانَ ، فَيُخَفِّفَ بَنُو حُدَانَ إِلَيْهِ ، لِنَيْتِهِمْ فِي دُخُولِ الشَّامِ ، وَلَكِنْ ثَبَّةُ بَنِي حُدَانَ تَأَخَّرَتْ طَوِيلًا ، فَإِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ لَمْ يَهْدُدْ أَطْرَافَ الشَّامِ بِعَسَاكِرِهِ إِلَّا بَعْدَ ذَلِكَ بَزْمَنِ طَوِيلٍ .

وَمِمَّا يَذْكُرُ عَلَى اسْتِخْفَافِهِ بِالسِّجْنِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ ، مَارَوْا مِنْ أَنْ أَبَا دُؤْلَفَ بْنِ كُنْدَاجٍ ، سَجَّانَ الْمُتَنَبِّيِّ ، أَهْدَى إِلَيْهِ هَدِيَّةً وَهُوَ مَعْتَقِلٌ بِحِمَصَ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ نَمَّ عَنْهُ عِنْدَ الْوَالِي الَّذِي اعْتَقَلَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَهْوَنُ بِطُولِ النَّوَاءِ وَالْتَلَفِ وَالسِّجْنِ وَالْقَيْدِ يَا أَبَا دُؤْلَفِ  
(غَيْرُ آخِتَارٍ قَبِلْتُ بِرِّكَ بِي) وَالْجُوعِ يُرْضَى الْأَسْوَدَ بِالْحَيْفِ  
كُنْ أَيْهَا السِّجْنُ كَيْفَ سَيِّئْتُ ، فَقَدْ وَطَّئْتُ لِلْمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفٍ <sup>(٢)</sup>  
فَوْكَانَ سُكْنَايَ فَيْكَ مَنَقَصَةً لَمْ يَكُنِ الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدْفِ

(١) س : ٣٢ ، ٨٢ ، قوله : « زعم المقيم يكو تكين بأنه » ، إلى آخر البيت

(٢) « معترف » ، صابر لا يجزع .

وفي هذه الأبيات تقف كبرياؤه كما هي ، لم يأخذ منها عذابُ السجن  
وشقاؤه شيئا ، حتى إنه ليقول للذي يَبْرُهُ في سجنه : « غَيْرَ أختيَارٍ قَبْلُ  
بِرَّكَ » ، ولولا ما أنا فيه من العذاب لرددت عليك هديتك غير حافل بك  
ولا بها . ثم ينتزعُ للثل على عادته : « والجوعُ يُرْضَى الأَسْوَدَ بِالْجَيْفِ » ،  
وهي سخرية حديدة مؤلمة .

فلما طال عليه الأمد في السجن ، لجأ إلى الحيلة في الخروج منه ، فكتب  
إلى ابن طنج يستمطفه ، ويفتد مارُي به من إرادة الخروج على السلطان ،  
فكان مما كتب :

بِيَدِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيبُ لَا لِيْشِي إِلَّا لِأَتَى غَرِيبُ  
أَوْ لَأَمَّ لَهَا ، إِذَا ذَكَرْتَنِي ، دَمُ قَلْبِي يَدْمَعُ عَيْنِي يَذُوبُ<sup>(١)</sup>  
(إِنْ أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رَأَيْتُكَ أَخْطَأُ تُ ، فَإِنِّي عَلَى بَدَيْكَ أَتُوبُ  
عَائِبُ عَائِبِي لَدَيْكَ ، وَمِنْهُ خُلِقْتُ فِي دَوَى الْعُيُوبِ الْعُيُوبُ)

إلا أن سعى الفاطميين والعلويين في إبقائه في السجن ، وما أشرنا إليه  
من خوف وإلى الشام من الحدث الذي أحدثه أن يكون من قبل بني حمدان =  
لم يُصْغَرِ إليه سَمْعَ الْأَمِيرِ ، فبقي في سجنه إلى سنة ٣٢٣ .

وقد رُوِيَ له القصيدة التي كانت السبب في إطلاقه ، وفيها إشارة إلى  
كل هذا الذي ذكرنا لك . ويحسُنُ هنا أن نلَمَّ ببعضها ، لتنبئ ما أَرخنا  
لك من التاريخ .

(١) لم يكتب هذه الأبيات ، إلا بدرسالة وصلته من جدته ، انظر ص : ١١٠ فيما يلي .

يقول المتن يصف الأمير :

وَلَوْ لَمْ أَخَفْ غَيْرَ أَعْدَائِهِ      عَلَيْهِ لَبَشَّرْتُهُ بِالْخُلُودِ  
رَمَى (حَلْبًا) بنواصي الخيول ،      وَسَمِيرٌ يُرْقِنَ دَمًا فِي الصَّعِيدِ  
وَبَيْضِ مُسَافِرَةٍ مَا يُقِنَنَّ      لَا فِي الرَّقَابِ وَلَا فِي النُّمُودِ  
يُقَدِّنُ الْقَنَاءَ غَدَاةَ اللَّقَاءِ      إِلَى كُلِّ حَيْشٍ كَثِيرِ الْعَدِيدِ  
فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ (الْخُرَشَنِيَّ) ،      كَشَاءَ أَحْسَنَ بَزَارِ الْأُسُودِ  
فَمَنْ كَالْأَمِيرِينَ بِنْتَ الْأَمِيرِ      أَوْ مِنْ كَابَائِهِ فِي الْجُدُودِ

والذى تنبهنا له هنا أنه ذكر في هذه القصيدة (حلبًا) و (الخرشني) ، وقد عينا بالبحث عن الحادثة التاريخية التى نستطيع بها أن نعين السنة التى قيلت فيها ، ثم وقفنا الله إلى تفسير ذلك بالاستنباط . فى جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ ، سار اللثمستق « قرقاش » فى خمسين ألفاً من الروم فنازل مَلَطِيَّةَ ،<sup>(١)</sup> وحصرها مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ، ثم فتحها وهدم سورها وقصورها ، وضرب خيمتين على إحداها صليب ، وقال : « من أراد النصرانية انماز إلى خيمة الصليب لَنَرُدَّ عليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انماز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه ، وَنُبَلِّغْهُ مَأْمَتَهُ » ! فانماز أكثر المسلمين إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعاً فى أهلهم وأموالهم ، وسير مع الباقين بطريقاً يبلنهم مَأْمَتَهُمْ ، وفتحها بالأمان . ثم ملكوا « سُمَيْسَاطَ » وخرَّبوا الأعمال ، وأكثروا القتل ، وفعلوا الأفاعيل الشنيعة ، ( وصار

(١) بلدة مذكورة مشهورة فى ديار ربيعة على حدود بلاد الروم فى ذلك العهد .



أكثر البلاد في أيديهم ) ، وسكت المؤرخون . . . . . وظاهر أن وإلى الشام ، وهو إذ ذاك مُحَمَّد بن طُفَّج الإخشيد ، لم يكن ليصبر على ذلك ، فلما امتدَّ الدمستق بجيوشه وقصد حلب ، خرج إليه هو ، أو بعض من أنفذه لقتاله ، فردَّه عن التوغُّل ، وانقلب الدمستق هارباً ولم يدخلها . وقد جعلنا هذه الحادثة تاريخ الصيد ، لأنها توافق ما أثبتنا من تاريخ المتنبى ، ثم لما ذكر من أمر حلب ، ثم لذكر هذا « الخرشني » = و « الخرشني » ، هو ملك الروم ، لأنهم ينسبون ملوك الروم إلى جبل بيلادهم يقال له ( خَرَشَنَة ) = وتكون هذه القصيدة لذلك مما كتبه أبو الطيب إلى محمد بن طُفَّج الإخشيد التركي ، في أواخر سنة ٣٧٢ أو أوائل ٣٧٣ سنة .

وأما قول المتنبى في هذه القصيدة يخاطب ابن طُفَّج :

وَقِيلَ : عَدَوْتُ عَلَى الْعَالَمِينَ      بَيْنَ وَلَادِي وَبَيْنَ الْقُعُودِ  
فَمَا لَكَ تَقَبَّلُ زُورَ الْكَلَامِ      وَقَدَرُ الشَّهَادَةِ قَدَرُ الشُّهُودِ  
فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ ،      وَلَا تَقْبَأَنَّ ( بِمِجْلِ الْيَهُودِ )  
وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعَايَ ( أَرَدَتْ )      وَدَعَايَ ( فَعَلَتْ ) بِشَأْوٍ يَبْعِيدُ

قد ذكر في البيت الأول أنه وهو رضيع لم تتم له القوة على الاستمساك في قاعدته ، كان قد آتاهم بالخروج على السلطان !! وهذا لم يحدث ولا شك ، وإنما هو إشارة لما كتبنا عنه في نسبه من النكبة التي حلت به وبجذته من نفى النسب العلوي الشريف عنه ، ومراقبة العلويين لجذته ، خوف أن يبدرونها مالا يهبون ، فجعل صاحبنا تلك المراقبة لنفسه ، إذ لم يفعلوا بها ذلك

إلا من أجل نسبته هو إلى العلويين . والبيت الثاني استنارة لابن طنج ، إذ كان من أعداء العلويين في غير علانية ، وكان من أنصار العباسية ، فهو يقول له : « مَالِي أَرَاكَ تَقْبَلُ فِي قَوْلِ أَعْدَائِكَ وَأَعْدَاءِ مَوَالِيكَ الْعَبَّاسِيِّينَ ، وَكَانَ أَوَّلِي بِكَ أَنْ تَزِنَ أَقْوَالَهُمْ بِمَا تَزْنَهُمْ بِهِ ( فَقَدَرُ الشَّهَادَةِ قَدْرَ الشُّهُودِ ) ، فَلَا تَسْمَعْ لَهْوَ الَّذِينَ يُضْمِرُونَ الْعَدَاوَةَ ( الْكَاشِحِينَ ) . ثُمَّ وَصَلَ كَلَامَهُ عَنِ الْعَلَوِيِّينَ بِذِكْرِ الْعَلَوِيِّينَ الْفَاطِمِيِّينَ فَقَالَ : ( وَلَا تَعْبَأَنَّ بِعَجَلِ الْيَهُودِ ) ، <sup>(١)</sup> وَ« عَجَلِ الْيَهُودِ » ، كَنَابَةٌ عَنْ أَحَدِ دُعَاةِ الْفَاطِمِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا هُنَاكَ بِالشَّامِ . وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَبَّاسِيِّينَ ، وَكَثِيرًا غَيْرَهُمْ حَتَّى مِنَ الْعَلَوِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ ( كَبْنِي حَمْدَانَ ) ، كَانُوا لَا يَمْتَرِفُونَ بِنِسْبَةِ الْفَاطِمِيِّينَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ جَدَّهُمْ كَانَ يَهُودِيًّا ، وَأَسْلَمَ لِيَدْخُلَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَاسَدَ الْعَقَائِدُ نِكَايَةً . وَأَسَدَّمْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الدَّعْوَةَ الْفَاطِمِيَّةَ كَانَتْ دَعْوَةً مِزَّجَةً لَهَا أَصُولٌ خَاصَّةٌ ، وَدَرَجَاتٌ مُرْتَبَةٌ ، مِنْ دَرَجَةِ التَّلَذُّذِ إِلَى دَرَجَةِ دَامِي الدُّعَاءِ ، وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ تَعْلِيمٌ خَاصٌّ ، وَمُرْتَبَةٌ مَعْرُوفَةٌ مُقَيَّدَةٌ . فَقَوْلُ الْمُنْتَبِي : « عَجَلِ الْيَهُودِ » إِمَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ .

وَلَا أُنْسَى هُنَا أَنَّ أَعْوَدَ بِالْقَارِيءِ إِلَى بَيْتٍ مِنْ أَيْيَاتٍ مَضَتْ فِي ذِكْرِ التَّنُوخِيِّ ( ص : ٢٥ ) ، وَهُوَ قَوْلُ الْمُنْتَبِي يَذْكُرُ التَّنُوخِيِّينَ :

أَلَيْسَ عَجَبِيًّا أَنْ يَبِينَنَّ أَبِي لِنَجْلِ يَهُودِيٍّ تَدْبِ الْعَقَارِبُ

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا بَعْدَ الْبَحْثِ فِي تَوَارِيخِ الْعَلَوِيِّينَ أَنَّ بَعْضَ الدُّعَاةِ الْفَاطِمِيِّينَ كَانَ قَدْ دَخَلَ اللَّادِقِيَّةَ ( وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ تَنُوخِ ) ، وَأَدْخَلَ قَسَمًا مِنَ التَّنُوخِيِّينَ

(١) قَدْ حَارَ الشَّرَاحُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ « عَجَلِ الْيَهُودِ » ، وَفَلِهَ بِهَا عَلَى وَجْهِ كَثِيرَةٍ لَا تَنْصَحُ ، وَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ عِنْدَنَا وَهُوَ الصَّوَابُ لِإِنْ شَاءَ اللَّهُ .

في الدعوة الفاطمية ، وبذلك اختلف التنوخيون فرقتين : فرقة العلويين أو الشيعة ، وفرقة الفاطميين ، وهذه الأخيرة هي التي خرج منها الدُرُوز وهم تنوخيون . وفريق الدُرُوز يُسمُّون من قديم بعبادة (المجل) ، وقد نفى ذلك كثير من الباحثين ، والله أعلم بحقيقة أمرهم . ولعل هذا هو السر في قول أبي الطيب « عجل اليهود » ، يشير بذلك إلى الفاطميين ، وفي قوله : « نجل يهودى » ، يريد داعي الفاطميين الذي قسم التنوخيين ، وضرب بعضهم ببعض . وأما قوله :

وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى (أَرَدْتَ) وَدَعْوَى (فَعَلْتَ) بِشَأْوِ بَعِيدٍ

فهو عندنا من الأدلة في أن الأمر الذي قبض على اللتني من أجله لم يكن « النبوة » ، وإنما هو الخروج على السلطان ، وأنت إذا قلبت الدعويين : « دعوى (أردت) » ، ودعوى (فعلت) » على معنى « النبوة » ، لم يتم لك تساؤلي للمعانى على ذلك ، وتم لك في معنى الخروج على السلطان هذا التساؤلي ، إذ أن إرادة الخروج شيء ، والفعل الذي يُسمى به الرجل (خارجاً) شيء آخر..

والظاهر عندنا أن السبب في إطلاق اللتني من السجن لم يكن هذه القصيدة وحدها ، بل السبب البليغ في هذا الرضى عنه ، فيما نرجح ، أن بعض التنوخيين العلويين (غير الفاطميين) ، كانوا قد سموا عند ابن طنج لإطلاق اللتني ، وذلك لصلتهم ببني حمدان ، واتفاقهم معهم في المذهب (العلوية) ، وأظهروا لابن طنج مؤلاتهم ، فرضى منهم بهذا وأكرمهم بإطلاقه ،<sup>(١)</sup>

(١) ولا بأس أيضاً أن نذكر أن (بني على) ، وهم قوم سيف الدولة ، التازلين بأرض الشام ، كان لهم شأن في ذلك ، وأرضهم ابن طنج لما يخشى من انتقامهم عليه إذا لم يبتذل لهم الرضى في رجل قبض عليه عامله في أرضهم ، وكان في جوارهم .

ولكن العلويين الكوفيين سَعَوْا من ناحية أخرى لدى الوالى أنْ لا يُطلقه، فأرضاهم بأن يأخذ عليه وثيقة تُذَيِّت بطلان دَعَوَاهِ في النسبة إلى الشجرة العلوية الشريفة للكرمة . وَالَّذِي حَمَلْنَا عَلَى أَنْ نَنْظُرَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ التَّنَوُّخِيِّينَ ، أَنْ الْمُتَنَبِّئِ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السِّجْنِ مَدَّحَ التَّنَوُّخِيِّينَ ، وَأَخْلَصَ لَهُمْ ، وَنَزَلَ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْكَوْفَةِ وَبَقِيَ بِهَا مَدَّةً ، فَلَمَّا عَادَ فِي سَنَةِ ٣٢٦ ، رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَبَقِيَ عِنْدَهُمْ وَمَدَّحَهُمْ أَيْضًا ، وَأَجَادَ فِي مَدْحِهِ لَهُمْ إِجَادَةً يَبِينَةُ ظَاهِرَةٍ . وَقَدْ كَانَ هَذَا الْفَتَى وَفِيًّا أَلُوفًا كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، وَكَانَ يَأْسِرُهُ الْإِحْسَانُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى أَمْرِهِ كَثِيرًا ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا الْخُلُقُ فِي رُوْعَةِ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ يَوْمًا مَا فِيهَا بَعْدُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا » .

\* \* \*

وقد أكَثَرَ الْكِتَابُ مِنَ الْاسْتِشْهَادِ بِحَادِثِ حَبْسِ الْمُتَنَبِّئِ وَمَا كَانَ مِنْهُ خَبْرُهُ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْبَرًا أَحَقَّ الرَّأْيِ ضَعِيفَ الْإِرَادَةِ ، فَدَعَتْهُ كِبَرِيَاؤُهُ أَوَّلَ أَوَّلٍ إِلَى الْاسْتِخْفَافِ بِالسِّجْنِ ، ثُمَّ رَجَعَ قَدْ لَاقَاذَ وَاسْتِخْذَى فِي تَقْصِيدِهِ الْآخِرَةِ . وَلَيْسَ هَذَا لَنَا بِرَأْيٍ ، فَإِنَّ الْآيَاتِ الْبَائِيَةَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا لَا تُدَلُّ عَلَى ضَعْفٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْمُتَنَبِّئُ ، كَمَا رَوَيْنَا لَكَ ، مَرْهَفَ الْحَسِّ ، شَاعِرَ النَّفْسِ ، فَلَمَّا بَلَغَ جَدَّتَهُ خَبْرُ حَبْسِهِ كَتَبَتْ إِلَيْهِ ، وَذَكَرَتْهُ بِمَا فَعَلَ وَهُوَ بِدَارِ غُرْبَةٍ ، وَعَذَلَتْهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ وَشَكَتْ إِلَيْهِ أَلَمَهَا ، وَكَشَفَتْ لَهُ عَنْ ذِي قَلْبِهَا ، فَرَفَّقَ وَبَكَى ، وَكَتَبَ الْآيَاتِ الْأَرْبَعَةَ عَلَى إِثَرِ ذَلِكَ ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا قَلْبَهُ وَحَنَانَهُ وَرُفْقَتَهُ ، لَا ضَعْفَهُ وَاسْتِخْذَاءَهُ . وَيَكْفِي فِي الدَّلَالَةِ عَلَى بَطْلَانِ رَأْيِهِمْ ، أَنَّهُ جَعَلَ الْبَيْتَ الرَّابِعَ مَهَاجَةً لِجَمِيعٍ مِنْ ادَّعَى عَلَيْهِ وَأَزَادَ خَبْسَهُ ، وَهَجَاءَ بَاطِلًا لَهُمْ ،

وليس هذا من الحكمة ، إن كان الرجل ممن يستخذي ويضعف ، وذلك  
حيث يقول : ( انظر ما سلف ص : ١٠٥ )

عَائِبٌ عَابَنِي لَدَيْكَ ، وَمِنْهُ خُلِقْتُ فِي ذَوِي الْيُيُوبِ الْيُيُوبُ

ثم لما كتب قصيدته الأخرى الدالية ، ذكر أبياتاً يزعمون أنها تدلُّ على  
مذهبهم في تلَبُّ الرجل ، وهي قوله :

أَمَّا لَكَ رِيٌّ وَمَنْ شَأْنُهُ هَيَاتُ اللَّجَيْنِ وَعِثْقُ التَّيْمِيدِ  
دَعْوَتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ ، وَلَلْوَتُ مِنِّي كَعَجَلِ الْوَرِيدِ  
دَعْوَتُكَ لَمَّا بَرَّأَنِ الْبَلَاءِ ، وَأَوْهَنَ رِجْلِي نَقْلُ الْحَدِيدِ  
وَقَدْ كَانَ مَشْيُهُمَا فِي النَّعَالِ ، فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فِي الْقِيُودِ

ونحن لا نرى في هذه الأبيات شيئاً ، لأنه إنما أراد ، كما قلنا ، أن يترفع  
لفرضه بالحيلة ، حتى يخلص من السجن ، إذ وَجَدَ أن لا جدوى عليه من  
الصبر على السجن الذي يُضِيع الأملَ في تحقيق ما يريد من الانتقام من هؤلاء  
الذين فعلوا به ما فعلوا . والذي يَذِلُّ لا يَنْقُصُ في الصفات هذه القسوة التي  
أبرزها المتنبي في أبياته بعدُ ، إذ وَصَفَ مَنْ كانوا معه في السجن متمكِّماً  
ساخرًا على عادته ، فقال :

وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي تَحْفِيلٍ فَهِيَ أَنَا فِي تَحْفِيلٍ مِنْ قُرُودٍ

ثم يخاطب ابنَ طنج مخاطبة التَّد ، فيسأله على وجه التتريع واللوم ، فيقول :  
« فَا لَكَ تَقْبِلُ زُورَ الْكَلَامِ ؟ » ، ثم ينهيه ناصحاً ومخذراً فيقول : « فَلَا  
تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ » ، ثم يأمره على وجه التعليم والتنبية بقوله : « وَكُنْ

فَارِقًا » ، فهذا مذهب تعامى في الأمر ، يتطوى على تبصير الأمير ، الذي يزعمون أن المتنبي يدلُّ له ، بوجه الصواب من الرأى في التفريق بين الدعويين ، وتذكير له بأنه أخطأ خطأ كبيراً بتركه التحقق من أصل الدعوى التي أقيمت عليه وتطبيقها على ما كان منه حقيقةً ، ولو كان الأميرُ فعل ذلك ، لتبطل عنده ما يدَّعون عليه ، وهذا كما ترى فيه معنى التجهيل للأمير . ولا نُنْظَرُ ابنَ طنج كان يخطئ إدراك هذا البيان البين في شعر المتنبي ، ومع ذلك فقد أعفاه من هفوة اللسان ، وأطلقه إكراماً للتنوخيين فيما ذهبنا إليه ، وما كان من مدحه له في القصيدة مدحاً لم يظفر بمثله من شاعرٍ مثل المتنبي الشاعر البليغ العربي الشريف .

فهذا كما ترى سياق تاريخي لا بأس به ، إن رأيتَ ذلك ، في أمر القبض على أبي الطيب ولا ذكر فيه للنبوة ، ولا يمكن أن يكون قبض عليه لهذا الهراء الذي يزعمون . وستعلم بعد أن الخليل حدثنا عن أبي الحسين الناشئ الشاعر أنه قال : « كُنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ ، وأنا أُملى شعري في المسجد الجامع بها ، والناس يكتبونه عني ، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعد لم يعرف ولم يلقَ بالمتنبي . . . » ، فهذا دليل على أن القبض عليه في سنة ٣٢١ لم يكن للنبوة ، إذ لو كان ذلك كذلك ، لتعامله الناس بالكوفة التي نشأ بها ، ولأشار إلى ذلك الناشئ ، وكلام الناشئ يدل على أن ذلك لقبٌ بُنِيَ به الرجل ، ولم يكن بسبب هذه النسبة التي أصيب بها في سنة ٣٢١ ، أو الحدث الذي أحدثه في تلك السنة .

وهناك سياق آخر للتدليل على بطلان هذا الافتراء الذي رُمي به الرجل ، نستنبطه من الأسلوب الشعري أولاً ، ومن الحالات النفسية القائمة في شعره

نائباً ، ومن الأصول التاريخية في أمر اللعنيتين في ذلك العهد أخيراً ، ورأينا أن نُصير ذلك ولا نطيل به ، حتى نظهره في كتابنا ، إن شاء الله ، عن اللعني ، بالله التوفيق .<sup>(١)</sup>

أمّا هذا النبز الذي نُزِيه أبو الطيب وعرف به إلى اليوم ، فليس مرجعه إلى هذا الخروج الذي كان منه في بني عديّ ، فقبض عليه ، وألقي في السجن من جرائه ، بل له عندنا مساق آخر هو أقرب إلى الصدق وأولى بالاعتبار .

\* \* \*

كان أبو الطيب من أوّل أمره متورّعاً في خلقه ، لا يخرج من حدود الوفاق ، مترمّماً لا يلين للشهوات ولا يلقى إليها مقاده ، مترفعاً عن سفاسف الأخلاق ، متمسكاً بمآلها ، آخذاً نفسه بالجد الذي لا يفتر ، وكان لا يقرب التهم ولا بدانيها ، « فأكذب ولا زنا ولا لاط » ، ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه أو يُزَنُّ به ، واستمرّ على ذلك حياته كلّها ، وخالف الأدباء والشعراء من أهل عصره ، فاشرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطرابه فيما نرى لما حضر مجلسها ، وكان منصرفاً إلى العلم قارئاً له ، محققاً لدقائقه ، طويل النظر والتدبّر فيما يمرّ به من أحداث الزمان ، كثير الاهتمام بأمر الأمة التي هو منها ، لا يفوته ممّن ينتقده أو خلق يستسقطه . وكان أهل العصر

---

(١) اعلم أننا تركنا أيضاً في هذا الحديث عن رحلته وحبه ما قال من شعر في مدح رجال نفهم في طريقه بالبلاد التي تزورها ، إذ ليس يضرّ هنا إغفال ذلك حتى حين ، ولو قلنا لم يكن هذا العدد من التخطّط يتسع لما نريد وما نقول من استيفاء ترجمة الرجل على الوجه الذي نرضيه وقر عيناً به .

على خلافٍ له في ذلك ، وخاصةً من انتسب إلى الأدب ، واعتزى إلى الشعر .  
فكان الأدياء والشعراء أهل شرابٍ ومُعاقرٍ ولهو وهزل وباطل ، لا يُفرغون  
إلى الجِدِّ إلّا بمقدار ، ولا يتورعون عن دَيِّئةٍ إلّا مُكرهين على الرِّع .  
فلا عجب إذا عدّه أهل صناعته من الأدياء والشعراء غريباً بينهم .

وكان المتنبي في أوّل شعره يُكثر من ذكر « الأنبياء » ، ويردّد أسماءهم  
في شعره ، ويشبّه نفسه بهم ، ويقس أخلاق مدوحيه إلى أخلاقهم ، فن ذلك  
قوله في نفسه :

ما مُقَامِي بَارِض نَخْلَةٍ إِلَّا (كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ)

وقوله في التصيدة نفسها :

إِنْ أَكُنْ مُتَجَبِّحًا فَمُتَجَبِّعٌ عَجِيبٌ (لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ)  
أَنَا تَرْبُ النَّدَى ، وَرَبُّ الْقَوَافِ وَسَامُ الْمَدَى ، وَغَيْظُ الْحُسُودِ  
أَنَا فِي أُمَّةٍ ، تَدَارَكَهَا اللَّهُ ، (غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي نَمُودِ) <sup>(١)</sup>

وقوله :

« أَنَا الَّذِي بَيْنَ الْإِلَهِ بِهِ أَلْ أَقْدَارَ وَلِلَّهِ حَيْثُمَا جَعَلَهُ »

فشبّه نفسه بالأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله ليُكونوا شهداء على الناس .

وقوله في رثاء التنوخي « محمد بن إسحق » :

وَكَاثِمًا (عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ) ذِكْرُهُ وَكَأَنَّ (عَازِرَةَ) شَخْصُهُ الْقُبُورُ

(١) يروى ابن جني أن المتنبي قال : « لقيت بالمتنبي بهذا البيت » .



وكان أيضاً كثير الإنذار للملوك والأمراء بعذاب سيئاتهم من قبله ، كقوله :

«يَمَادُ كُلُّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ غَدًا وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الثَّرَبِ وَالتَّجَمَّ  
فَإِنْ أَجَابُوا ، فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمْ .  
فهذه أمثلة مما تنثر في شعره من هذه المعاني ، وأنت إذا نفّضت ديوانه  
وجدت في معانيه المعاني التي تنفي بالغيث ، كقوله في بدر بن عمار :

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مُتَسَمًّا فِي النَّاسِ ، مَا بَعَثَ الْإِلَهُ رَسُولًا  
لَوْ كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ ، مَا أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ .  
ولا نظيل بذكر الشواهد في ذلك ، فهذا أمر متعالم مشهور .

وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٢٢٦ ، واتصل سبيه بيدر  
ابن عمار ولزمه ،<sup>(١)</sup> وعلا عنده ، وأصاب كرامة لم يُصِبْ مثُلها من قبل ،  
تناوشه الشعراء إذ خافوه على أرزاقهم ، وطَفَقُوا ينتقصون الرجل ويطلبون له  
العيوب ، وأغرامهم بذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس الهوم ، وانصرافه  
عن الهزل الذي يكونون فيه ، وظنوا به الكثير ، فأخذوا يذكرون شعره  
ويتنادرون به . فلما وقموا على كثرة دوران أسماء الأنبياء في هذا الشعر ،  
وتشبيهه نفسه بهم ، وما هو فيه من التعمُّف والتورُّع ، أرادوا له لقباً  
يُنْزِلُونه به ، فلقَّبوه (اللتني) ، يريدون للتشبيـة بالأنبياء ، وأخذوا يذكرونه  
بهذا الاسم ، ويتداولونه بينهم . ثم استفاضت شهرته به لما اتصل بأبي العشائر  
سنة ٢٣٦ ، وصار لا يذكُرُ إلاَّ به ، بل لعله سرَّه هذا اللقب فلم يُنْكِرْه .

(١) انظر ما سيأتي في آخر الباب التاسع (٩) .

وقد رأيت قبل أن القبض عليه كان سنة ٣٢٢ ، وأن الناشئ قال : إن أبا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥ بالكوفة ، « وهو بعد لم يُعزَّب » ، ولم يلقَّب بالمتنبي ، فتلقَّيه بالمتنبي كان بعد سنة ٣٢٥ ولا شك كما رأيت ، وبذلك يفتنى أن يكون قد حُبس من أجل دعوى النبوة . فلما علا أمر المتنبي وظهر ، وخشي من خشي من العلويين ومن إليهم ، أحدثوا من هذا التَّبَرُّز ( للتنبي ) = الذي قُصِدَ به التشبُّه بالأنبياء في الخلق ، والوعيد والإنذار ، وتشبيه نفسه بهم في شعره = أحدثوا قصةً مخترعةً عن نبوة زعموا أن الرجل ادَّعاهَا ، وأعانهم على صوغها ما كان من أمر حبسه حين أراد إظهار نسبته إلى الشجرة العلوية المكرمة . فكانت هذه القصص التي تقضناها وأظهرنا بطلانها ، والحمد لله .

أَتَنِي أَيْبِنَا ، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ  
أَبْدًا غُرَابُ التَّيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ  
تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا ، وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ  
يَجْمَعُهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا  
وَلَلرَّهْ يَأْمُلُ ، وَالْحَيَاءُ شَيْبَةٌ ،  
وَالشَّيْبُ أَقْرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ  
وَلَقَدْ بَكَيتُ عَلَى الشَّبَابِ ، وَلَقِ  
مُسَوَّدَةٌ ، وَلِمَاءُ وَجْهِ رَوْنَقُ

خرج أبو الطيب رحمه الله من سجنه وشقائه وعذابه مُسْتَعِيرَ النفس ،  
مُكْتَمِلَ القلب ، فقد جَرَّبَ أحداثَ الزمان ، وما ابتلى به من التكبكات  
التي عرَفَتْهُ في سجنه ، وما كِيدَ به من أعدائه ، فأنطوى على ما به غيرَ جازع  
ولا شاك ولا مستسلم ، وابتسم للدنيا وهو يضمّر القميط عليها ، « ولكنه  
غَضِظُ الأَسِيرِ عَلَى الْقِدِّ » ، <sup>(١)</sup> وكان يعمل في نفسه بما قال بَعْدُ :

هَوْنٌ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ      فَإِنَّمَا يَقْطَعُ التَّيْنَ كَالْخَلْمِ  
وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ قَنَاشَتَهُ      شَكْوَى الْجُرْحِ إِلَى الْغُرْبَانِ وَالرَّخَمِ  
وَكَأَنَّ عَلَى حَدَرٍ لِلنَّاسِ تَسْرَهُ      وَلَا يَفْرَكُ مِنْهُمْ قَمَرٌ مُبْتَسِمِ

(١) هو للتنبئ وأوله « وغِظَ على الأيام كالنار في الحفا » . والقد : القيد من الجلد .

فإن صحَّ ما رأيناه في ترتيب شعره ، وما قلنا به من أن التَّنُوخِيَّينَ كانوا قد سَمَوْا لدى ابن طُفَّحٍ في إطلاقه من سجنه ، فقد خَرَجَ صاحبنا من السجن ولحق بالتَّنُوخِيَّينَ بِاللَّادِقِيَّةِ وأقام عندهم وفي جوارهم . وكانت صِلَتُهُ وثيقةً بأبناء إِسْحَقِ التَّنُوخِيَّ (محمد والحسين) ، فلما مات محمد رثاه ، وقد قدَّمنا طرفاً من ذكر ما ورد في رثائه لهذا الرجل .<sup>(١)</sup> ويُنَّ في شعره الذي رثاه به ما كان يضره له من الحب ، وما بقي له به من حُسنِ صنيعة عنده . وأخلص بعد موت (محمد) الوفاء والمودة لأخيه (الحسين بن إِسْحَقِ) ، ولكن صاحبنا لم يسلم هناك من الأعداء ، أعدائه من العلويين والفاطميين والعباسيين ، فقد قصَّدَ بعضُ شعرائهم قصيدةً في هجاء الحسين بن إِسْحَقِ وتعلَّمَهَا أبا الطيب ، فكتب الحسين إلى أبي الطيب يُعاتبه ، فردَّ جواب كتابه بأبيات يقول فيها ، يعاتبه على تصديقه ما بلغه :

تُطِيعُ الْحَاسِدِينَ وَأَنْتَ مَرَّةً      جُمِلْتُ فِدَاءَهُ ، وَهُمْ فِدَائِي  
وَهَاجِيَ نَفْسِيهِ مِنْ لَا يُعَيِّرُ      كَلَامِي مِنْ كَلَامِهِمُ الْهَرَاءِ  
وَأَنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي ،      فَيَعْمَلُ بِي أَقْلٌ مِنَ الْهَبَاءِ  
وَتُسَكِّرُ مَوْتَهُمْ ، وَأَنَا سُهَيْلٌ      طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزَّهَّاءِ

ونحن نرى أن المتنبي أقام قليلاً في جوار الحسين ، ثم وافاه كتاب من جدَّته = وقد كان بلغها خبرُ انطلاقه من السجن = تَبَّثُهُ شَوْقَهَا ، وتشكو له بِشَأْنِهَا وحُزْنَهَا ، وتعزم عليه في الرحلة إليها ، وتذكرُ له ما كان من أمرها مع العلويين بالكوفة ، وأنها أرضُهم ، وأخذت على نفسها العهد أن يُفْلِحَ

وندا عاتهور فيه من إرادته إظهار نفسه ، وبينت له منية ما ينوي من ذلك ،  
ووعظته بما أصابه من قبل في سجنه ، وأخرجته في الحضور إليها ، فلم يجد  
قلب أبي الطيب بداً من الطاعة ، وكنم عزمه عن الحسين بن إسحق  
التنوخى ، ولكن عزمه لم يخف على صاحبه ، فأراده على المكث ، فأبدى  
أبو الطيب رأيه بالمواقة ، وأضر الخلاف والرحلة عن اللاذقية إلى الكوفة .  
وقد أشار إلى ذلك في مدحه إذ يقول ، مريضاً بعزيمة البقاء ، ليصرف التنوخى  
عن أن يموقه :

لَكَ الخِيرُ، غَيْرِي رَأَمَ مِنْ غَيْرِكَ الْغَى ، وَغَيْرِي يَغَيِّرُ (الْلاذِقِيَّةُ) لَاحِقُ  
هِيَ الْغَرَضُ الْأَقْصَى ، وَرُؤْيُكَ لَلْنَفَى ، وَمَنْزِلُكَ الدُّنْيَا ، وَأَنْتَ الْخَلَائِقُ

واتخذ صاحبنا الليل جلاً ، كما قالوا ، وانحدر إلى الكوفة ، وقد امتلأت  
نفسه بأحقاده وآلامه وآماله ، وسار من يادية إلى مدينة ، ومن مدينة إلى  
بادية ، ينتظر إلى الفتن التي مزقت أمته وأبلت جدتها ، وما دخلها من  
الانحلال والتفكك ، وما أصاب أخلاقها من السقوط والتسفل ، وما قطعت  
الدعوات السرية في نقض مجدها ، وتفريق كلمتها ، حتى فشوا وذهبتم ربحهم .

وكانت هذه الفترة من حياة الرجل ، فترة نظَر وَبَصَرٍ وَتَجَرِبَةٍ ، وَأَوَانَ  
تَرْدُدٍ لَا يَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ وَلَا مَا اللَّهُ فَاعِلٌ بِهِ . فقد رمى بنفسه إلى الكوفة  
على غرر ، مرضاةً لجدته ، لأرغبة منه في دخولها ، وأخذته الوسواس فيما  
يراد به هناك بعد الذي كان منه بالشام من إرادته إظهار نسبه العلوية . وكان  
التأثر يغالبه على ترك النية والعودة إلى الشام ، لولا ما يخاف على جدته من سوء  
فعله . فدخل الكوفة بهمته وأحقاده وآلامه سنة ٣٢٣ ، أو في أواخرها على

للأرجح ، فلما استقرَّ بها ، رأى ورأت جدَّته أن ثورته ليست مما يجدى عليه شيئاً ثم ، فانصرف إلى مجالس الكوفة ومساجدها ، يشغل بطلب العلم بنفسه عما يساورها ويهزُّ منها ، وكان لانصرافه هذا وإقباله على شيوخ الأدب والدين والفلسفة وغيرها من علوم العصر أثر كبير في تهذيب نهجه الشعري ، واستجَمَّ بهدأة العلم واستجدَّ بها قوة أخرى على الثورة والتقليل ، بدت في شعره بعد مخرجه من الكوفة رائحة مدوية ، كأنما انفجرت في لسانه انفجار البركان في زلازل الأرض .

\* \* \*

وكان المتنبي لسفته تلك ، سنة ٣٢٣ ، عزباً لا يأوى إل سكنٍ من النساء ، ولعلَّ جدَّته رأَتْ أن تهديَّ منه قليلاً بالزواج ، فزوجته على غير رغبةٍ منه قريباً من سنة ٣٢٥ قبل خروجه من الكوفة ، وذلك لأن المتنبي بعد مرجعه إلى الشام سنة ٣٢٦ ، ذكر لأول مرة في شعره « الأبوّة » . فمَّا عرفناه من خلق أبي الطيب أنه كان إذا نزل به أمرٌ أوجدَّ في حياته جديد ، فسرعان ما يبلِّغ ذلك في صدره ولا يستقرُّ حتى يشير إليه في شعره ، لكثرة ما تلدُّ الحوادث في شاعرية هذا الرجل من اللماحي والآراء ... قال أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران قريباً من سنة ٣٣٢ ، بذكر المرأة :

وترى للرؤى والفتوة والأبوة      في كلِّ مَلِيحَةٍ ضَرَاتِهَا  
هُنَّ الثلاثُ السَّامِيَاتِ لَدُنِّي      في خَلْقِي لَا انْطَوَى مِنْ تَبَعَاتِهَا  
ولعلَّ ولده هذا الذي ذكره في قوله : « الأبوّة » هو « محمَّد » الذي

ورد ذكره في خبر مرويٍّ وهو بواسط سنة ٣٥٤ ، وفيه أنه أجاز شعراً  
أنشد ، وورد ذكره أيضاً في مقتل المتنبي وأنه قتل معه . فلو فرضنا أنه قُتل  
وهو في الثلاثين من عمره أو أقل ، لكان هذا التاريخ الذي حدّدناه لزواج  
المتنبي ، هو أقرب إلى الصواب إن شاء الله .

\* \* \*

وقد كان قرب المتنبي من جدّته الحازمة في الكوفة ، وزوّده من العلم  
هناك ، مما ملأه حكمة جديدة بدأت تستعلن في شعره الذي قاله بعدُ . هذا على  
أنه ، مقامه بالكوفة ، لم يلدح أحداً ولم يقرض بشعره لمعروف ولا لمنكر ،  
على كثرة الأحداث التي كانت في تلك السنوات ، وعلى شدة ما لقي من العنت  
وهو بين أظهر أعدائه أو أصحاب ثأره ، ولكنه كان متمللاً من مقامه ،  
مضطرباً في عيشه . وكان أثرُ هذا التملل والاضطراب في نفسه المستحصدة  
القادرة على السكمان والاتزان في بعض الأحيان ، أن طَفِقَ يُؤلِّد هذا الشاعر  
مَتَمَنِّيَ نفسه ، ويختار لها ألفاظها ، وينتقي عباراتها ، مدققاً محصاً مفتشاً عن  
الكلام الموجز الذي يستطيع أن يضمر فيه ما يحيش في صدره ، ويعتلج في  
نفسه ، حتى استوى على طريقةٍ ممتدّة من الأصول الشعرية التي بينها في أول  
كلامنا ، إلى الناية التي كان يرمى إليها ، ولذلك اختلف نهجُه في الشعر الذي  
قاله بعدُ مخرجه من الكوفة في سنة ٣٢٦ ، اختلف عن نهجه الأول اختلافاً  
بيناً ، ولكنه لم ينقطع من الاستمداد من الأصل الأول الذي هو الطبيعة  
القائمة في النفس ، والتي لا تتغير في أصلها ، وإن تغيّرت في الصورة والصّوغ  
ومذهب البلاغة والإنصاح .

هذا ، وما من شكٍّ في أن الرواية عن هذه الفترة من حياة الرجل ،

لم تأتنا بحديث يُعَلِّمُ به من أمر أبي الطيب كثير ولا قليل ، إلا ما حدَّثناك به من أنه كان يحضر مجلس الناشئ بالسجد الجامع بالكوفة سنة ٣٢٥ ، لسمع منه شعره ويكتبه مع الكاتبيين ، وكان لم يعرف بعد ولم يلق بالمتنبي ، <sup>(١)</sup> إلا أن صاحبنا في رثاء جدته سنة ٣٣٥ ، قد أفصح عن السبب في فراقه الكوفة في هذه المرة بعض الإفصاح ، وعرض بأشياء كانت وقعت له هناك . يقول : <sup>(٢)</sup>

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ      لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا  
لَئِنْ لَدَى يَوْمِ الشَّامِتِينَ بَيَوتِهَا      لَقَدْ وَلَدْتُ مِنِّي لَا نَفْهَمَ رَغْمًا  
( تَقَرَّبَ لَا مُسْتَقْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ      وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالَاتِهِ حُكْمًا )  
( وَلَا سَالِكًا إِلَّا فَوَادَ عَجَاجَةٍ      وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمًا )  
( يَقُولُونَ لِي : مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ !!      وَمَا تَبْتَغِي ؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسَمَّى )  
كَانَ بَيْنَهُمْ عَالِيُونَ بَانَتْ      جُلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيَتَامَا <sup>(٣)</sup>  
وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي      بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا  
( وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ      وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْفَسْمَا )  
( وَجَاعِلُهُ يَوْمَ الْقَاءِ تَحِيَّتِي      وَإِلَّا فَلَنْتُ السَّيِّدَ الْبَاطِلَ الْقَرْمَا )  
إِذَا قُلَّ عَزَمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بَعْدَهُ ،      فَأَبْعُدْ شَيْءَ مُمَكِّنٍ لَمْ يَحِدْ عَزَمًا

(١) انظر ما سلف من : ١١٢ ، ١١٦ .

(٢) قد آثرنا أن ننقل لك الأبيات جميعها في نظمها لتقرأها متدبراً ، فإن في نفس الشاعر وشعره ، التي استنبطنا منه ما أردناه هنا ، وفي نسيب هناك ، ما يتخذ دليلاً على صحة ما نقول به .  
(٣) قوله : « كان بينهم » ، دليل على أنه أراد قرماً بأعيانهم ؛ ولولا ذلك لقال : « كان بينها » ، يرجع الضمير إلى الدنيا ، يعني الناس جميعاً كما قال بعد : « كذا أنا يا دنيا » . وهذا أسلوب من أساليب أبي الطيب في الإشارة إلى أغراضه التي في نفسه ، والتي لا يريد التصريح بها ، ولأنما يجعلها إشارة لمن يريد لفهامهم غرضه .



(وإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ كَانُوا نَفْسَهُمْ بِهَا أَتَفُ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ  
(كَذَا أَنَا يَادِنَا، إِذَا شِئْتَ فَأَذْهِبْهُ، وَيَانْقُصُ زَيْدِي فِي كِرَائِيهَا قُدُمًا)  
(فَلَا عَبْرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تَعْرِضِي وَلَا صَحْبَتِي مُنْجَةً تَقْبَلُ الظُّلُمَا)

قد بينا لك أولاً أن أبا الطيب بقوله لجدته في القصيدة: «هيبني أخذت  
النَّارَ فَبِكَ مِنَ الْعَدَى» وقوله: «لَنْ لَدَى يَوْمِ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا» — إنما أراد  
«بالعدى» و«الشامتين» جماعة العلويين الذين أخفوا عنه نسبه، فيما ذهبنا  
إليه، ومنعوه الانتهاء للدوحة العلوية المباركة (س: ٤٤، ٤٩)، فإذا تقرر عندك  
هذا وارتضيت به، وجدت أن قوله بمد ذلك:

تَقَرَّبَ لَمْسْتَعِظْماً غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلاً إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

يدلُّ على أن هؤلاء العدى والشامتين بجدته، والذين منعوه من دخول  
الكوفة حين قصدوها قبل وفاة جدته سنة ٣٣٥ = كانوا في تلك السنة التي فارق  
فيها الكوفة (٣٣٥)، أو أوائل سنة ٣٣٦، قد أرادوه على خُطَّةٍ خَسَفَ،  
فأبى أبو الطيب أن يركبها، وتمنَّح بنفسه أن يذلَّ لأحدٍ من الناس، أو يقبل  
له حكمًا يريد أن يُجْزِيه عليه وفيه المذلة والموان وإهدار الكرامة، وإسقاط  
الفتوة والمروءة، وآثر أن يخرج عن الكوفة مراغمًا لهم، مفضلًا آلام الغربة  
على الموان في الوطن.

وبَيَّنَّ من الشعر أنهم كانوا يستضعفونه، ويسفِّهون رأيه في ركوب  
الفلوات، وتنقله بين البلدان بقولهم: «ما أنت في كل بلدة؟» وقولهم:  
«ما تبغى؟» بما تريد من فراق الكوفة، تذرَّع الأرض من بلد إلى بلد؟  
فكان جوابه أن ما يبتغيه أجلُّ من أن يُسمَّيه لهم. ثم استدرك على ذلك

فزعهم أنهم إنما يسألونه ويلجئون عليه في استخراج ذات نفسه ومُضْطَرِّها  
 لخوفهم منه ، وأنهم يملكون أنه سيأتينهم بالذبح الذي يترك صفارهم أيتاماً  
 ونساءهم تكالً . وقد أبلغ في إنذاره لهم بعد كما ترى في الآيات ، ورهبهم  
 بما يكون منه ، وذكروهم بقومه ومُحْتَدِّمِهِمْ وَحَرِّبِهِمْ وقلة مبالاتهم بالمهلك ،  
 طبيعة قاعة فيهم ، حتى إن نفوسهم لتكاد تَكْرَهُ البقاء في أبدانهم ، لما  
 فيهم من الحرِّية والشرف .

ثم أفصح المتنبي عن الذي أرادوه به في قوله :

فَلَا عَزَّتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعْزِي وَلَا صَحِبتِي مُنْجَةٌ تَقْبِلُ الظُّلْمَا

فكان الذي كان منهم كان وضعاً من عزة نفسه ومهانة لها ، وأنهم  
 كانوا يريدون أن يُنْزِلُوا به ظلاماً بيناً لا يَقْرَأُ عليه حرٌّ . وعندنا أنهم أرادوا  
 أن يَرْضَوْه بِرَضِيخَةٍ مِنَ الْمَالِ تكون عليهم كالجزية له ، يأخذها منهم كلما  
 حال الحول ، على أن يبقى بالكوفة ، ويرضى بما يريدون منه ، غير مخالف لهم ،  
 ولا مظهر لهم عداوة ، وإن شاء أن يمدحهم بشعره ففعل ، وله عليهم أن يعطوه  
 في مديحه لهم مثل الذي يُحِبُّ به من غيرهم إذا مدحه ، وكبر على أبي الطيب  
 أن يُرْتَضَى بِالْمَالِ حتى يسكت عنهم ، وَيَقْرَأُ على ظلمهم له وَضَمِيمِهِمْ إِيَّاهُ ، وفي  
 الأرض شعة ومراد لمن شاء أن يكون عزيزاً مكرماً .

وخرج صاحبنا من الكوفة قاصداً الشام مرة أخرى ، ونزل على « علي  
 ابن إبراهيم التَّنُوخِي » .



وَأَحْتِمَالُ الْأَدَى - وَرُؤْيَا جَانِيهِ  
 - عِذَاءُ تَصَوَّى بِهِ الْأَجْسَامُ  
 ذَلَّ مَنْ يَفْطِطُ الدَّلِيلَ بِعَيْشٍ  
 رَبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الْجِمَامُ  
 مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ  
 مَا لِيُجْسِرَنِي بِمَيْتٍ لِمَيْلَامُ  
 أَقْرَارًا أَلَّهُ فَوْقَ شَرَارٍ ؟ !  
 وَمَرَامًا أُنْغِي وَظِلِّي يُرَامُ !



كان شعر أبى الطيب فى أول أمره ، كما حدّثناك ، قد اختلط بالفاظ لا تَسْقِطُ فى الشعر ، و قَعَت إليه من ألفاظ المتكلمين و المتفلسفة و أصحاب المنطق و أهل الجدل فى الملل و النحل و غير ذلك ، و كان أسلوبه يَجْرَى على طريقة هؤلاء فى التّوجيه و التقسيم ، ثم فى توليد المعانى الشعرية على طريقة أهل البصر فى توليد معانى الجدل و البجاج لإرادة الفلج فى الخصومة لا لتقرير الحق فى القضاء و الحكومة ، و أتاه ذلك من قُوَّة حافظته و كثرة دَوْران هذه العلوم فى فكره ، و اشتغاله بالنظر فيها نظر الحقِّ الفكر ، إلّا أن تفكيره لم يكن محضاً لهذه العلوم ، بل كان فى عقله الذى يفكر به ، فِكْرُ الشاعر الذى يتّسع بالعلوم و يمتدُّ بينها و بين طبيعته الشعرية أسباباً من اتّكial . ولما عاد إلى السكوة سنة ٣٢٣ ، و هو مفرّك كثير من أئمة العلم و الأدب و الشعر ، و لزم مجالسهم سَلَتَيْنِ أو أَشْفَ قليلاً ، عَمِلَتْ هذه المجالس فى تهذيب علمه الذى وقع عليه فى

الصَّغَرُ ، وَعَمِلَتْ طَبِيعَتُهُ الشَّعْرِيَّةُ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ عَمَلَهَا ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْفِرَاقِ مَا يَكْفِيهِ لِلتَّفَكُّيرِ وَالِاتِّسَاعِ فِي النَّظَرِ ، وَلِلتَّرْجِيحِ وَالتَّعْدِيلِ بَيْنَ عِلْمِهِ وَبَيْنَ طَبِيعَتِهِ . ثُمَّ كَانَ لَهُ مِنْ تَوْقُودِ ذَهْنِهِ ، وَاشْتِعَالِ قُوَّيْهِ نَفْسِهِ الْمُنْتَهَبَةِ بِأَحْقَادِهِ وَأَلَامِهَا ، مَا يَحْمِلُهُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ رَوَائِعِ الْمَعَانِي الَّتِي تَوَافَقَ مَعَهَا وَأَلَمُهُ ، وَعَلَى تَوَلِيدِ الْآيَاتِ الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي تَتَصَلُّ بِمَا فِي قَلْبِهِ وَفِكَرِهِ ، وَعَلَى اجْتِبَاءِ الْعِبَارَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي إِيجَازِهَا بِمَنْزِلَةِ الرَّمْزِ لَمَّا يَدُورُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْمَعَانِي الْمَطْوُولَةِ .

وَالآنَ ، وَقَدْ رَجَعَ صَاحِبُنَا إِلَى الشَّامِ فِي جَوَارِ عَلَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّنُوخِيِّ سَنَةَ ٣٣٦ هـ ، كَانَ أَوَّلُ مَا قَالَ ، هَذَا الشَّعْرَ الَّذِي أَوْجَزْنَا لَكَ فِي صِفَتِهِ ، دَلَالًا عَلَى مَذْهَبِ الْجَدِيدِ ، وَعَلَى تَدْرِجِ حَالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ تَدْرِجًا مُتَوَالِيًا مُتَفَاسِحًا . . . يَقُولُ :

أَفْكَرُ فِي مُعَاقَرَةِ الْمُنَايَا      وَقَوْدِ اتَّخِيلِ مُشْرِفَةِ الْهَوَادِي  
( زَعِيمُ لَقْنَا الْخَطِيئَةَ عَزَمِي      بَسْفِكَ دَمِ الْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي )  
( إِلَى كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ وَالتَّوَانِي      وَكَمْ هَذَا التَّأْدِي فِي التَّمَادِي !! )  
وَشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي      يَبْيَعُ الشَّعْرَ فِي سُوقِ الْكَسَادِ !!  
وَمَا مَاضِي الشَّبَابِ بِمُسْتَرَدٍّ      وَلَا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَمَادٍ  
مَتَى لَحِظْتَ بَيَاضَ الشَّيْبِ عَيْنِي ،      فَقَدْ وَجَدْتَهُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ  
مَتَى مَا أُرْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التَّنَاهِي ،      فَقَدْ وَقَعَ اتِّقَاصِي فِي إِزْدِيَادِي

ثُمَّ يَقُولُ . . . بَعْدُ :

( وَمَا الْغَضَبُ الطَّارِفُ وَإِنْ تَقَوَّى      بِمُنْتَصِفِ مِنَ الْكَرَمِ الْفَلَادِ )  
( فَلَا تَمُرُّ رُكَّ السِّنَةِ مَوَالٍ      تَقْلِبُنَّ أَفْسِدَةَ أَعَادِي )

(وَكُنْ كَالْمُوتِ لَا يَزِيْنِي لِباسُكَ ) فَإِنَّ الْجُرْحَ يَنْقَرُّ بَعْدَ حِينٍ ، وَإِنَّ الْمَاءَ يَجْرِي مِنَ الْجَدَائِدِ (أَشْرَفَ أَبَا الْحُسَيْنِ بِمَدْحِ قَوْمٍ وَظَنُّونِي مَدْحَهُمْ قَدِيمًا وَأَنَا عِنْدَكَ بَعْدَ غَدٍ كَلْفَادٍ نَحْبُوكَ حَتَّى مَا تُنْجِمَتْ رِكَابِي ، بَكَى مِنْهُ ، وَيَزَوِّى وَهُوَ صَادِي ) إِذَا كَانَتْ الْبِنَاءُ عَلَى قَسَادٍ (١) وَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زَادٍ نَزَلَتْ بِهِمْ فَسِرَتْ بِغَيْرِ زَادٍ ( وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتَهُمْ مُرَادِي وَفَلَبِي عَنْ فَنَانِكَ غَيْرُ غَادٍ ) وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْبِلَادِ

وكان شعر صاحبه في هذا الباب من القول = إلى ما قبل هذه القصيدة = شعراً قريباً لم تستخرجه فكرةً عليمةً مستوعبة لأحداث الزمن ، ولا نظرةً بجزئية نافذة في ضمير أخلاق الناس ، ولم يكن يزيد على الدلالة على ما في نفس الفتى من السمو ، وما في قلبه من كرم المنصر ، وما تبدى طبيعته الفتية من أصول الرجولة للمستحكمة في طبعه وجزئته ، وما يملأ صدره من أسباب الحقد . وطلب الثأر ، وما يكشف عن رثيته في إحداث حدثٍ عظيمٍ يُجْلِبُ فيه على أعدائه بجهلٍ وسؤوفه حتى يُدِيلَ لما من « دَوْلَةُ الْخَلْدِمِ » الذين ملكوا على الناس أمرهم ، وصرّفهم في أهوائهم . فانظر الآن فرقاً ما بين الشعرين ، فهذا تَبَدُّ من قوله في صباه: (٢)

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ سَيْنَ طَعْنِ الْقَمَا وَخَقِّ الْبُنُودِ

(١) تتر الجرح بالزين (كفتح ) ، إذا أهقر وسال منه الدم . ويقال : جرح نثار ، على اللبالة . وفي رواية ( ينفر ) بالفاء يراد بها يتورم . والذي أثبتناه أجود معنى .  
(٢) قصدنا بجمع هذا الشعر هنا أن نظهر فيه بما يفتينا عن الإطالة في تحصيل القرون بين شعر صباه ، وبين شعره الذي قاله بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٢٦ .

( فَرُّوْهُ الرُّمَاحُ أَذْهَبُ لِلْغَيْظِ ، وَأَشَقَّى لِفُلٍّ صَدْرُ الْخَلُودِ  
فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي أَعْلَى ، وَدَعِ الذِّلَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ  
يُقْتَلُ الْعَاجِزُ الْجَبَانُ وَقَدْ يَمُجِزُ عَنْ قَطْعِ بُخْتِ الْوُلُودِ  
وَيُوقَى الْفَتَى الْمِخْشُ وَقَدْ خَوَّضَ فِي مَاءِ لَبَةِ الصَّنْدِيدِ )

وقوله :

وَمَنْ يَبْنِغْ مَا أَبْنَى مِنَ الْجِدِّ وَالْعَلَى      تَسَاوِ الْمَحَايَ عِنْدَهُ وَلِلْقَاتِلِ  
أَلَا لَيْسَتْ الْحَاجَاتُ إِلَّا نَفُوسُكُمْ      وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الشُّيُوفُ وَسَائِلُ  
فَمَا وَرَدَتْ رُوحَ أَمْرِي - رُوحُهُ -      وَلَا صَدَرْتُ عَنْ بَاطِلٍ وَهُوَ بَاطِلُ  
غَشَاةُ عَيْشِي أَنْ تَغْتَا كَرَامَتِي      وَلَيْسَ بِقَتْلٍ أَنْ تَغْتَا الْمَا كُلُّ

وقوله :

لَيْسَ التَّعَلُّ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِي      وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شَيْبِي  
وَلَا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِي      حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طَرَفَهَا هَمِي  
لَمْ أَلِيَّ إِلَّايَ أَخْنَتُ عَلَى جَدِّي      بِرِقَّةِ الْحَالِ ، وَأَعَذِّنِي وَلَا تَلُمِ  
أَرَى أَنَا سَا ، وَتَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ ،      وَذِكْرُ جُودِي ، وَتَحْصُولِي عَلَى الْكَلَمِ  
وَرُبَّ مَالٍ فَقِيرٍ مِنْ مُرُوءَةٍ      لَمْ يُثْرِمْنَاهَا كَمَا أَثْرَى مِنَ الْقَدَمِ (١)

إلى آخر القصيدة . وقد منضت منها أبيات ، (س : ٩٩ ، ١٠٠) .

فتدبر التهجين في هذا الشعر فضل تدبر ، تجد ما رسمنا لك وانحنا بيننا ،  
وتر أثر هذه الرحلة إلى الكوفة ، على ما بيننا لك أنفاً ، مستعلناً غير خاف .

(١) يقال : « رجل مال » ، كثير المال ، كأنه صار هو نفسه مالا ١١ .

فقد بدأ أصحابنا يفكر بما اكتسب من تجربة ، وما أفاد من علم ، ويدرس ما ألم به من الأحداث في شعره متزجاً للثل ، وضارباً ببلاغته في مفصل الحكمة ، وناظراً بالتأمله في مضمير أخلاق الناس حتى يكشف لك عنها الغطاء . فأنظر أين قوله أولاً : « أرى أناساً ومحصولي على غم . . » ، من قوله بمد :

فَلَا تَعْرِزُكَ أَلْسِنَةُ مَوَالٍ تَقْلِبُنْ أَفْئِدَةَ أَعَادِي

فإنَّ للموضع الذي أخذ منه المعنيين واحد ، ولكنه كان في الأول غسيلة محصوراً غير شامل ، وكان في الآخر منهما حكماً شاملاً متراًمياً نافذاً إلى أصل طبيعة الكذب في هؤلاء الناس ، ممتدة من ضائرم إلى ألسنتهم ، والسر كل السر في نسبة تحريك اللسان الذي يظهر للودة والولاء ، إلى النفوذ الذي يضمّر البغي والمدوان والكذب والنفاق . (١)

\* \* \*

هذا ، وقد بدأ أيضاً يصف في شعره ما وصلت إليه الأمة العربية ، إذ ملكتها للوالى من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا أول أمرهم بمنزلة العبيد ، وذلك بما استفاد في رحلته إلى الكوفة ، وما رآه في بلاد العربية . ولم يخل هذا مما يدور في نفسه ، وما وقع له من اللصائب والمكاييد والحسد . . . يقول وهو يمدح علي بن إبراهيم التنوخى أيضاً حين نزل به سنة ٣٢٦ ، أو كان ذلك في أول سنة ٣٢٧ :

---

(١) سيكون تفسير هذه الأسرار اليبانية واستخلاص حاله النفسية منها في كتابنا عن النبي إن شاء الله ووفق .  
( مكنا قلت منذ أربعين سنة ، ولم أف بما قلت حتى اليوم ، وأرجو أن أفي بما وعدت إن شاء الله )

( وَإِنَّمَا النَّاسُ بِلَوْلَاكَ وَمَا  
( بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئَتْهَا أَمَّ  
يَسْتَحْشِنُ الْخُرَّ حِينَ يَلْسُهُ  
إِنِّي وَإِنْ لُتُّ حَاسِدِي ، فَا  
وَكَيْفَ لَا يُحْسَدُ أَمْرُو عِلْمٍ  
يَهَابُهُ أَيْسَا الرِّجَالِ بِهِ ،  
( كَفَانِي الدَّمَّ أَتَى رَجُلٌ  
يَحْجِي الْغَنَى لِلثَّامِ ، لَوْ عَقَلُوا ،  
( هُمْ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَسَنَ لَهُمْ ،  
تُفْلِحُ عُزْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ )  
تُرْعَى بَعِيدٍ كَانَتْهَا غَنَمٌ )  
وَكَانَ يُبْرِى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ  
أَنْكِرُ أَنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمْ  
لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمٌ  
وَتَتَّقِي حَدَّ سَيْفِهِ الْيَهُمُ  
أَكْرَمُ مَالٍ مَلَكَتْهُ الْكَرَمُ )  
مَا لَيْسَ يَحْجِي عَلَيْهِمُ الْقُدَمُ  
وَالْعَارَ يَتَّقِي ، وَالْجُرْحُ يَلْتَمُ )

ثم قوله في سنة ٣٢٧ في مدح الغيث بن علي بن بشر العجلي :

أَذْأَقَنِي زَمَنِي بَلَوَى شَرَفْتُ بِهَا لَوْ ذَا أَقْبَالَ بَسْكَى ، مَا عَاشَ ، وَأَنْتَ جَبَا

الآبيات ( انظر ص : ٥٥ ) ، وقوله له أيضاً :

فُوَادُ مَا تُسَلِّيهِ لِلدَّامِ ( وَعُمَرُ مِثْلُ مَا تَهَبُ الثَّامُ )  
( وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِفَارُ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّتُ ضِيخَامُ )  
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ  
( أَرَانِبُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مُلُوكُ ، مُفْتَحَةٌ عِيُونُهُمْ ، زِيَامُ )  
( بِأَجْسَامِهِ يَحْمَرُّ الْقَتْلُ فِيهَا ، وَمَا أَقْرَانُهَا إِلَّا الطَّعَامُ )

وآياتاً أخرى .....



وكانت حكمة المتنبي وبلاغته في هذه الفترة آتية من قبل نظرَه في أمر نفسه وِدْخِلَتِهَا وَخَاصَّتْهَا ، وما يُحِيطُ بِهَا وما يؤثر فيها ، ويُثير من كوامنها وعواطفها ، وَتَبَيَّنَتْ فَكْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ . وطفق يقلب الأمور والأحداث في الدنيا كلها على امتداد نفسه واتساع قلبه وحمته ، فأنفجر بين جنبه يُنبوع الكلام المتدفق ، وفيه من قوته ورُجولته ، ومن بيانه وفصاحته ، ومن ثأره وعداوته ، ومن تهكمه وسُخْرِيَتِهِ . وَخَرَجَ مَدِيحُهُ أَيْضاً عَنْ نَهْجِهِ الْأَوَّلِ ، فَصَارَ أَدَقُّ وَأَبْلَغُ فِي آدَاءِ الْمَعَانِي ، وفي تصوير الفكرة باللفظ المقارب ، وانقلب من مديح معروف مثلاً ضعيف ، إلى مديح لا يُرَادُ بِهِ الممدوح خاصة ، وإنما يريد به المتنبي أفكاره هو فيمن يحق له أن يمدحهم ، فوقع في كلامه المبالغة . والمبالغة في شعر أبي الطيب ليست كالمبالغة في شعر غيره من الشعراء ، فهو إذا ذكر الممدوح وبالغ في صفته ، فإنما يعطى الشعر حقَّ نفسه من أفكاره في عظمة الرجال الذين عدمهم في زمنه ، وكان يودُّ أن يمدحهم بهذا الشعر ، ويحفظ لهم فيه صورةً حيَّةً باللفظ الناطق البليغ .

فأنت ترى أنَّ نبوغ المتنبي إنما بدأ بتجلى ويتكشف حين أرغته هاهِمُ نفسه على استيعاب ما يحسُّ به من العواطف المتباعدة والمتقاربة ، فكانت دراسة قلبه ، ومعرفة دقِّ ثِق ما يحزُّ فيه من الآلام ، ثم المعاني التي تتولد من هذه الآلام ، أصلاً من الأصول العظيمة في نبوغه ، ثم في طبع شعره بطابع لا ينفق على ناظرٍ أو مُنْأَمِلٍ ، ثم في هَذِيهِ إِلَى أَنَّ الشعر لا يكون شعراً إلا حين يَرَوَى من معاني القلب ويستقي منها . ولهذا كانت إجادة المتنبي بالغة أَوْسَى غَايَاتِهَا في شعره الذي قاله في تصوير رجال الحرب ، أَوْ في رسم صُورِ الحرب ، أو فيما كشف به عن ضميره الذي كان كحومة الوغى بفبارها ودماها

وقتلها ، وقمعة سلاحها ، وتداوى أصواتها ، والتاع أسنتها وحرايها .  
 واستمر نبوغه أو أكثره على هذا الباب حتى كان اتصاله بسيف الدولة ،  
 فبدأت هناك في قلبه معانٍ أخرى ،<sup>(١)</sup> تفاسحت بها نفسه ورجبت ، فامتدت  
 بلاغته وانبسط نبوغه على الحياة كلها ، فأخذ منها ، ثم أعطى حكمةً باقيةً وبيانا  
 خالداً . . . على أن هذه الحكمة وهذا البيان لم ينقطع استمدادهما من نفسه .  
 وما رُزى به في حياته ، وما أصابه من أحداثٍ وأحوال . ولو تدبرت  
 لوجدت لكل حكمةٍ في شعره أصلاً تاريخياً في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن  
 قلبه ينسى شيئاً أو يُفلقه . وكأني به ، وهو يقول البيت السائر والمثل الشُّرود ،  
 كانت تراءى تحت عينيه ، ويدوئ في مسمعيه كلٌّ مما مرَّ به مما أثر فيه .  
 فيقول البيت وفي كل لفظة منه سببٌ ممدود إلى ذكرى يذكرها أو فكرة  
 يتخيلها . . . . . ولنضرب مثلاً قريباً نوجزه ، عليك بسطه ، في الأبيات التي  
 وضعناها على رأس هذه الكلمة يقول . . .

« وَاحْتِمَالُ الْأَذَى — وَرُؤْيُ جَانِيهِ — غِذَاءُ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ »

فأين نجد الأصل التاريخي في هذا البيت ؟ أصل المعنى الذي أراداه الشاعر  
 هو في قوله : « وَاحْتِمَالُ الْأَذَى غِذَاءُ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ » ، ولو كان غير  
 المتنبى ، لوقف عند هذا ، فهو تمامٌ وكفاية ، ولكن المتنبى = الذي ( لم يكن  
 قلبه ينسى شيئاً أو يفلقه ) ، والذي ( كانت تراءى تحت عينيه ، ويدوئ في  
 مسمعه كل ما مرَّ به مما أثر فيه ) ، والذي كان قد احتمل أذىً كثيراً من  
 وطنه بالكوفة كما مرَّ بك ، والذي كان رجع إلى الكوفة ، وحل نفسه على .

معاشرة من آذوه وهَضَمُوهُ حقه ، وأقام بينهم مرغماً يراهم في كل خطرة بعينه .  
 وبخيله = زاد في المعنى وتممه ، وأثبت فيه قلبه وعواطفه بقوله : « وروية  
 جانيد » ، فهذه الجملة المطبوعة المعترضة هي توقيع المتنبي على البيت .<sup>(١)</sup> وهناك  
 مرة أخرى في تسميته « أحبال الأذى » غذاء ، ليس هذا موضع تفصيله ،<sup>(٢)</sup> وعلى  
 هذا فقص بقية شعره وحكمته .

\* \* \*

وبعد . فقد شغلنا هذا عن تحرير القول في رحلته ومدخله الشام . . . . . وقد  
 دبرنا لك في أول هذا الباب أن المتنبي نزل الشام على علي بن إبراهيم التنوخي ،  
 وأشدناك أبياتاً من قصيدته التي مدحه بها وفيها يقول :<sup>(٣)</sup>

أشرت أبا الحسين بمدح قوم      نزلت بهم فسرْتُ بغير زادٍ

وقد اختلفوا في قوله : « أشرت » ، أهي من الإشارة عليه بمدحهم فتكون  
 « أشرت » بفتح الشين — أو من الأشر وهو الفرح والطرب فتكون  
 « أشرت » بكسر الشين ، ويسناد الفرح إلى نفسه . والرواية الأولى عندنا  
 أرجح . والظاهر أن المتنبي لما قدم على علي هذا باللاذقية ، أشار عليه بأن  
 ينحدر إلى ( طبرية ) ليمدح رجلاً — لعله من العلويين أو أشياعهم — فدحه

(١) انظر ما سيأتى ص : ١٣٦

(٢) إذا قرأت المتنبي على هذا الأصل ، لم تجد الشاعر الذي يذكره الناس ملء الأفواه ،  
 بل تجد شاعراً فذاً لم يرق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . وسنفرد في كتابنا  
 جاباً كبيراً لبيان هذا الأصل في شعر المتنبي ، وتفسير أكثر شعره على هذا النمب .

(٣) انظر ص : ١٢٦ ، ١٢٧ .

مُرغماً ولم يظفر منه بطائل، فناد إلى عليّ من فوره وأنشد هذه القصيدة ، ثم قصيدة أخرى صرّح فيها بذكر بحيرة طَبْرِية ، ومالتي هناك من الأدياء . ( وهم الذين يدعون النسب إلى عليّ رضوان الله عليه ) ... فيقول لعليّ ... والبحيرة التي يذكرها هي بحيرة طبرية المشهورة ) :

لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرُكِ الْبُحَيْرَةَ ، وَالْمَوْرُدُ فِيَّ ، وَمَاؤُهَا شَبِيبُ  
وَاللَّوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مَزْبَدٌ .....

فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مُطَوَّقَةٌ جَرَّدَ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمُ  
يَشِيدُهَا جَزِيرُهَا عَلَى بَلَدٍ تَشِينُهُ (الْأَدْعِيَاءُ) وَالْقَزَمُ  
أَبَا الْحُسَيْنِ اسْتَمِعْ ، فَدَحْكُكُمْ بِالْفَقْلِ ، قَبْلَ الْكَلَامِ ، مُنْتَظِمٌ

ووصف البحيرة وصفاً رائعاً لم يدع لها عيباً إلا عيبها أنها تجري على أرضٍ تَطْلُوها أقدام هؤلاء الأدعياء من العلويين والثنائ من ذكرهم في قوله « الْقَزَمُ » . ولو رجعت قليلاً إلى ما كنا حدثناك من إحصاء العلويين له بكفر عاقب (وهي بقرب طبرية) في سنة ٣٣٦ بعد ذلك ،<sup>(١)</sup> وجدت أن الذين قدسهم بقوله : « أشرتْ أبا الحسين بمدح قوم » ، هم من العلويين أيضاً ، ولعلمهم هم الذين انتهوا الفرصة حين نزل عندهم ليقبلوه ، فقاتهم برحلته إلى الرملة في جوار أبي محمد بن طنج .

وهذا الكيد الذي لقيه ببخيرة طبرية في سنة ٣٣٦ ، وما قاساه من مدح

الذين أشار عليه بمدحهم على بن إبراهيم ، زلزل نفس الشاعر وهزه هزة رامية قذفت بجممه الشعرية البركانية التي رويها لك أولاً ، وتجذ فيه أثر ذلك بينا كقوله :

إِنِّي وَإِنْ لُتُّ حَاسِدِيَّ فَمَا أَنْكِرُ أَتَى عُقُوبَةُ لِمُمْ  
وَكَيْفَ لَا يُحْسَدُ أَمْرُو عِلْمَ (لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمٌ)

وبين أن على بن إبراهيم لم يكن ليقبل من شاعر أن يمدحه ويقول في مدحه له بصف نفسه بأن له « على كل هامة قدم » ، إلا أن يعلم مادفع الشاعر إلى إخراج هذا القول . وقد تحمل هذا على لأبي الطيب ، إذ كان هو الذي أشار عليه بمدح عدو من أعدائه ، وزرّن له الرحلة إليه . وهو يعلم ما في نفس أبي الطيب لقوم هذا المدح أو هؤلاء المدوحين . وبقي أبو الطيب قليلاً في جوار على التنوخي ومدحه ، ثم قال له في مدحه يودعه ، ويذكر نيته في الفراق :

وَإِنِّي عَنْكَ (بَعْدَ غَدٍ لَفَاكِ) وَقَلْبِي عَنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِي  
مُحِبُّكَ حِينَمَا اتَّجَهْتُ رِكَابِي وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ (مِنْ الْبِلَادِ)

\*\*\*

وخرج المتنبي من انلاذقية قاصداً حلب ، ولكنه لم يبق بها طويلاً ، بل قصد قسند أنطاكية حين نزلها المغيث بن على بن بشر العجلي ، فمدحه ، وذلك حيث يقول له :

لَمَّا أَقْسَمْتَ (بَأَنْطَاكِيَّةٍ) أَخْلَفْتَنِي بِالْخَبَرِ الرَّهْشَبَانِ فِي حَبْلِي

فَسِيرْتُ نَحْوَكَ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ      أَحْتُ رَاحِلَتِي : الْفَقْرُ وَالْأَدْبَا  
أَذْأَنِي زَمَنِي بَلَوَى شَرِقتُ بِهَا      لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ، مَا عَاشَ ، وَانْتَحَبَا

وكان مالتيه أبو الطيب بطبرية لا يزال يهد منه ، ويعتلج في قلبه  
وصدره ، فكان شعره في هذه الفترة شعر التأثير المفكر التأمل ، وقد كشف  
عن ذلك في قوله مثلاً :

فَالْمَوْتُ أَعْدَرُنِي ، وَالصَّبْرُ أَجَلُنِي ،      وَالْتَبُّ أَوْسَعُ ، وَالْدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

وفي قوله « والتبُّ أوسع لي » ، سرُّ ثقَلته بين بلاد كثيرة في فترة وجيزة ،  
فإنه كان يريد أن ينال نيلاً عظيماً بكثرة التجوال ، حتى إذا ما جمع ما يريد  
استطاع أن يفعل ما قال وما أنذر بقوله : « والدنيا لمن غلبا » .

وكانت قصيدته الثانية في مدح المغيث بن بشر أروع من الأولى ، وأكثر  
إفصاحاً عن نفسية الشاعر في تلك الفترة ، فإنه كان قد هدأ واستجم من وعناء  
السفر ، ووجد الوقت كافياً ، والقول ذا سعة ، فقال كاشفاً عن ضميره ،  
ومصرحاً بآرائه في الأبيات التي ذكرناها ، وأولها : ( م : ١٣٠ )

فُوَادٌ مَا سَلَّيْهِ اللُّدَامُ      (وَعُمُرٌ مِثْلُ مَا يَهَبُ اللُّثَامُ)

وفي هذه القصيدة ( غير الأبيات التي مرّت آنفاً ) ، إشارات عجيبة إلى  
ما في نفسه ، كقوله في المغيث :

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ ، وَهِيَ تُؤْذِي      وَمَنْ يَعْشَقُ يَلْذُّ لَهُ الْغَرَامُ

قوله : « وهي تؤذي » ، هو توقيع النبي على البيت كما ذكرنا ،<sup>(١)</sup>

إذ كان الرجل لا يرى في عصره مروءةً إلا وقد احتوشتها اللئام بالسوء من القول والفعل ، ويخصُّ نفسه بذلك ، إذ كان هو صاحب المروءة التي لقي بها وبفعلها أذى كثيراً من أعدائه والحاسدين والناظرين إليه ، وكقوله أيضاً :

وَقَبِضُ نَوَالِهِ شَرَفٌ وَعِزٌّ      (وَقَبِضُ نَوَالٍ بَعْضُ الْقَوْمِ ذَامٌ)

فهو يُفِرُّ بهذا الشطر الأخير من أرادوا أن ينيلوه نيلاً ففء وأبى ، وآثر الفقر على أن يقبل من نواهم شيئاً ، كما مرَّ بك فيما فرضناه في مسألة دخوله السكوفة في الباب السابق (ص : ١٢٣ ، ١٢٤) .

\*\*\*

ثم رَحَلَ المنيث عن أنطاكية من قوّره ، فإنه لم يكن من أهلها ، كما قال المتنبي :

وَلَيْسَتْ مِنْ مِوَاطِنِهِ ، وَلَكِنْ      يَمُرُّ بِهَا كَمَا مَرَّ النَّعَامُ

فالتفت أبو الطيب فلم يجد من يمدحه إلا القاضي أبا الفرج أحمد بن الحسين نلالكي ، ثم عليّ بن منصور الحاجب ، وعمر بن سليمان الشرايبي ، وهو يومئذ يتولّى الفداء بين الروم والعرب ، وليس في مدحه هؤلاء الثلاثة شيء يذكر ، فدلّ ذلك على أن الرجل كان قد ملّ ، فهو يقول ليكتسب ما يقوته ويقوت أهله ، ثم ضاق بهم ذرعاً ، وضاق ذرعاً بما يكاد به ، فعزم على الرحلة إلى حمص ولبنان ، فمرّ في طريقه بالقراديس من أرض قنيسرين ، وهي آتت فيها (حمص) فسمع زئير الأسد فقال :

( أَجَارَكِ يَا أَسَدَ الْقَرَادِيسِ ، مُكْرَمٌ ؟      فَتَسْكُنُ نَفْسِي ، أَمْ مَهَانٌ فَمُسْتَلَمٌ )  
( وَرَأَيْتِي وَقَدْ آمَى عُدَاةٌ كَثِيرَةٌ      أَحَازِرُ مِنْ لَيْسٍ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْهُمْ )

( قَهْلَ لَكَ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أُرِيدُهُ      فَإِنِّي بِأَسْبَابِ لَلْعِيشَةِ أَعْلَمُ )  
 ( إِذَا لَأَنَاكَ الرِّزْقُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ      وَأَنْزَيْتَ يَمًّا تَفْنَيْنَ وَأَغْنَمُ )

وفي خطاب أبي الطيب للأسدي في هذه الأبيات ، يتجلى كل ضميره وما فيه من آثار العداوة ، وما فيه من المطالب والأمانى ، وهي تدل دلالة بينة على أن الرجل كان قد ملّ من مدحهم ، وأراد أن يجد منفذاً يُنفذُ منه إلى تحقيق آماله وآراؤه في إدراك ثأره من عدائه ، وإصلاح ما أفسد الحكم القائم في البلاد العربية ، وكان يودُّ أن يلقى الرجل الذي يُعِينه ويستعين به على أغراضه ، ويكشف له عن ضمير نفسه . فكان مدحه هو المقدمة للاتصال والاختبار : أن يجد عند أحدٍ ما يؤمِّل ، فمدح في طريقه « الأنطاكي عبدالرحمن بن المبارك » ، ولكنه لم يجد لديه شيئاً ، فقصد إلى لبنان في جوار الكاتب « أبي علي هرون بن عبد العزيز الأوراجي » ، وبقي عنده ومدحه مدحاً عظيماً ، ولكن الرجل لم يكن عند ظن أبي الطيب ، فأقام عنده يستجم من مشقة السفر في ربى لبنان ، بصطاد ويطرد ويمتدح من ينبوع الجمال الذي أنبئه الله في تلك البلاد .



وَمَهْمَهُ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي  
تَعَجَّرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدُّلُ  
بِصَارِي مُرْتَدٍ ، بِمَخْبَرِي  
بُحْزِي ، بِالظَّلَامِ مُشْتَمِلُ  
إِذَا صَدِيقٌ نَكِرْتُ جَارِبَهُ  
لَمْ تُعْنِي فِي فِرَاقِهِ الْحِيلُ  
فِي سَعَةِ الْخَافِقِينَ مُضْطَرَبُ  
وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلُ

كَانَ لهذا الاضطراب والملل الذي استشره أبو الطيب في رحلاته في البلاد التي أوجزنا لك رَسْمَهَا ، أثر كبير في قلبه اللُّوجَعُ للتأمل . وكانت أيام الهدوء والراحة التي آهت لها من غفلة الزمن قد جددت معاني قلبه ، ودمت في فؤاده بالخطب الذي يُوقد به ناره . فلما ملّ الأوراجي ولم يجد منه شيئاً ولا عزماً ، عزم على فراقه ، وجعل يتلفت فرأى أبا الحسين بَذَر بن عمار بن إسماعيل الأسدي قد صعد إلى طبرية من قِبَل أبي بكر محمد بن رائق ليتولى حربها ، أي قيادة جيشها وحمايتها في سنة ٣٢٨ . كان أبو الحسين ، فيما نظن ، عربياً ماضياً كالسيف ، حُلُو الشبائل سَمْحاً ، قريب المذهب من أبي الطيب في بفضاء المعجم ، لما أنزلوه بالدولة من التفرقة والتمزيق ، وعرف أبو الطيب بعض أخباره ، فقصده فَرِحاً كأنما وجد فيه ما أراد من الفكرة والسلطة

والسلطان والقوة، والرجولة الفذة التي أبدع أبو الطيب في صفتها بمدح حين أعجب بها وقتن . وكانت أول قصيدة مدحه بها تدل على ما أدرك أبا الطيب من الفرح والنشوة، وانتظار الفرج على يديه :

أحُلِّمَ نَرَى ، أَمْ زَمَانًا جَدِيدًا    أَمْ الْخَلْقَ فِي شَخْصٍ حَيٍّ أُعِيدَ ١٩  
تَجَلَّى لَنَا فَأَضَاءَنَا بِهِ    كَأَنَّا نَجُومٌ لَقَيْنَ سُمُودًا

تقد جمع أبو الطيب في هذين البيتين كل عاطفة ينبض بها قلبه ، وكل ما هزها واستارها من الفرح بهذا العربي الذي :

تَعْرِفُ فِي عَيْنِهِ حَقَائِقَهُ    كَأَنَّهُ بِالذِّكَاةِ مُكْتَحِلُ  
(أَشْفَقُ، عِنْدَ اتِّقَادِ فِكْرِهِ ، عَلَيْهِ مِنْهَا ، أَخَافُ يَشْتَعِلُ)

وبقى المتنبي في جوار بدر وفي مجالسه (وفي عريته) من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا على التحقيق،<sup>(١)</sup> أطال اللقائم في جواره ، وكأنه كان قد أحب الرجل حباً عظيماً لما يرى من مروءته وفتوته ورجولته . والظاهر أن بدرًا قد وجد في نفسه لأبي الطيب مثل ما وجد له ، فأعان ذلك الشاعر على أن يفتتح ويوجد ويدع ، فإن مدائحهم لبدر تكاد تكون في الطبقة الثانية من جيد شعره ، وفيها أبيات في الطبقة الأولى من الشعر العربي كله . وقد بدأ نهجه أيضاً بتغير وتميز بألوان وآيات . ولا عجب ، فقد مارس الرجل الحياة بشاعريته ، وتلف من الدنيا غيرها وحكمها ، وسمع منها وحفظ عنها ، وأعمل فيها ذهنه المتوقد ، وأرسلها إلى قلبه ليقتنمها بناره ، ويصوغها في بيانه الذي وصفناه أولاً ، ثم زين بها كلامه .

(١) في المقدمة حديث عن هذا التاريخ ، لأننا نعيش في زمن الأعاجيب !!

ولم يكن أبو الطيب ، طوال هذه السنين ، يدع استيعاب الكتب والآراء ونقدَها ، والتبصُّرَ في أعقابها وأطرافها . وأيضاً فإنه كان قد بدأ يستحكم بفعل طبيعة الحياة البشرية فقد شارف الثلاثين ، وامتلأ شبابه بقوته وفتوته ورجولته ، وعَبَّ قلبه بالآلام وأحقاد وآماله التي كان يجاهد فيها ويسعى لها ليحققها . وأيضاً فإن الأملَ في إدراك الطلب ، وبلوغ الأمانة والظفر بها ، وقُرْبِ تحقق الفأج على الخصوم ، مما يشعل القلب ويزيد النفس مضاً وفذاً . وقد كان له ذلك كُلُّه في جوار صاحبه وحيبيه بدر بن عمار الأسديّ العربيّ الذكيّ الفؤاد ، فاتخذ أبو الطيب سبيله في الشعر عجباً ، واستقام على طريقته ، وصَبَّى على غُلُوّاته ، ورعى الدنيا بعَيْنِ عُقابٍ كاسرٍ يتلو فريسته أن تفرّ منه ، وزاده علواً ما وجد من حماية بدر له في طيريه موطن أعدائه كما حدثناك ، وأَوْزَى زِنَادَه ما لقي من عداوة بعض الشعراء له ، وما سعى به الوشاة المفسدون لدى بدر بن عمار ليقبّلوا عليه قلبه . ومثلُ أبي الطيب إذا أريد به الشرُّ انتفض انتفاضة الأسد إذا رامه عدوّ ، وفي انتفاضته تتقدّف قوته كلّها على لسانه البليغ المبين ، وذلك لقوة أعصابه ، وشدة توتُّرها ، وسرعة تأثرها مع ذلك .

\* \* \*

وفي جوار بدر بن عمار الأسديّ بدأت عصبيّة أبي الطيب للعرب والعربية تُسْفِر عن وجه ، وتجلو عن نفس الشاعر ظلمات قد ضربت عليها حجابها ، وهيأت شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العدويّ العربيّ هازم الروم ، وقامع الدساس الفاطمية بالشام وبعض العراق . وبذلك كلّه كانت هذه

الفترة ، من ترتيب الزمن في تكوين الشاعر الأكبر ، طريقاً وتمهيداً للنموغ  
الفد الذي استودعه الله في قلب هذا الشاعر وفكره وأدبه وقوته وحقده وتأثره  
والعصر الذي عاش بين أهله مبتلى بمعاشرتهم ... أو كما قال في آخر عمره  
يعنى نفسه :

وَقَتٌ بَصِيحٌ ، وَعُمُرٌ ... لَيْتَ مَدَّتَهُ      فِي غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الْأُمَمِ !!  
أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبَابِهِ      فَسَرُّهُمْ ... وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ !!  
وقوله يعنى أهل عصره :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ      وَلَكِنْ مَقْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامِ  
وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِنْفَارٌ      وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثْثٌ ضِعْخَامِ

\* \* \*

أحب أبو الطيب بدر بن عمار ، وأحبه بدر وأكرمه ورفعته إليه وعزّره  
ونصره على أعدائه من العلويين أو أشياعهم بطبرية وما جاورها ، ووجد  
كلامها في صاحبه ملجأ يأوى إليه . فقد كان أبو الطيب مهضوماً مطاردًا :  
وكان قلبه ممتلئاً من آثار الظلم التي أوقمها جبايرة العصر بالعرب ، وكان  
فكره متنبهاً لدناء دهاة السياسة الذين كانوا يعملون على قلب الدولة أو  
تمزيق شملها بالشعبوية العجمية البغيضة المبيضة إليه ، وكان يرمى ببصره فلا  
يجد العربي الذي يأوى إليه ، فإن وجده فيبئنه ويئنه أهوال . فلما وجد بدرًا  
ووجد في قلبه وفكره مثل الذي الذي في قلبه وفكره ، توقّد الرجل الشاعر  
توقّد النار المستمرة قد وجدت طعامها من الخطب .

وبدأ يصف بدرًا العربي الشجاع المحارب ، ويصف الحرب ، ويصف

كل قوة أو مثلاً من قوة ، ويُبْدِع في ذلك كله مستمداً من قلبه الجريء ،  
 وخياله المتساعى إلى أشراف السلطان والعلية ، حتى خرجت مدائحها في بدر آية  
 في دقة التصوير ، ومموء اللحن ، وشرف النايه . . . يقول في صفة بدر :

( هَانَ عَلَى قَلْبِهِ الزَّمَانُ ، فَمَا	يَبِينُ فِيهِ غَمٌّ وَلَا جَدَلُ )
يَكَادُ مِنْ طَاعَةِ الْحِمَامِ لَهُ	يَقْتُلُ مَنْ مَادَنَا لَهُ الْأَجَلُ
يَكَادُ مِنْ صِحَّةِ الْعَزِيمَةِ ، مَا	يَقُولُ قَبْلَ الْفَصَالِ يَنْفَعِلُ
( تَعْرِفُ فِي عَيْنِهِ حَقَائِقَهُ	كَأَنَّهُ بِالذَّكَاءِ مُكْتَحِلُ )
( أَشْفِقُ - عِنْدَانَقَادِ فِكْرَتِهِ -	عَلَيْهِ مِنْهَا ، أَخَافُ يَشْتَعِلُ )
( أَغْرَ ... أَعْدَاؤُهُ إِذَا سَلِمُوا	بِالْهَرَبِ ، اسْتَكْبَرُوا الَّذِي قَعَلُوا )
يُقْبِلُهُمْ وَجْهَهُ كُلِّ سَابِغَةٍ	أَرْبَعَهَا ، قَبْلَ طَرَفِهَا ، تَصِلُ

.....

وَالطَّنُّ شَرُّهُ ، وَالْأَرْضُ وَاجِفَةٌ	كَأَنَّمَا فِي فُؤَادِهَا وَهْلُ
قَدْ صَبِغَتْ خَدَّهَا الدَّمَاءُ كَمَا	يَصْبِغُ خَدَّ الْخَرِيدَةِ الْخَجَلُ

.....

( يَا بَدْرُ ، يَا بَحْرُ ، يَا غَمَةُ ، يَا	لَيْتَ الشَّرِّ ، يَا حِمَامُ ، يَا جُلُ )
( إِنْ الْبَنَانَ الَّذِي تَقْلِبُهُ	عِنْدَكَ ، فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مَثَلُ )
( إِنْكَ مِنْ مَقْشَرٍ إِذَا وَهِنُوا	مَادُونِ أَعْمَارِهِمْ ، فَقَدْ بَطَلُوا )
( قُدْرَتُهُمْ فِي مَضَاءِ مَا امْتَشَقُوا ،	قَامَتُهُمْ فِي تِلْكَ مَا اعْتَقَلُوا )
( مِثْلَكَ يَا بَدْرُ لَا يَكُونُ وَلَا	تَصْلَحُ ، إِلَّا لِمِثْلِكَ الدُّوَلُ )

ومن تدبر هذا النهج في المديح ، ورجع إلى مدائحه الأولى ، ولم يُغَيِّرْ فكره مما ذكرناه في أوّل هذا الباب ، وجد في هذا الشعر عاطفة الشاعر التي عطفته على بدر ، وعَرَفَ أن هذا الشعر ليس مديحاً كالذي تلوكه الألسنة ، وينقذه نقاد عصرنا هذا ، بل هو تصور الرجولة وإبرازها في ألفاظها الحية ، وتفصيل مميزاتا عند الشاعر ، ووجد أيضاً صِدْقاً في ذلك كله ليس لِشِعْرِ ، ولا لِشعر أبي الطيب نفسه فيما سبق من مدائحه . وهذا موضع للتدبر والتأمل ، فتدبره وتأمله ، <sup>(١)</sup> . . . وتأمل قوله : « يا بدر ، يا بحر . . . » ، فقد ناداه باسمه ، ثم بصفة صفة من بعض صفاته ، فلما امتدّ في الصفات إلى كلّ غاية ، ووجد أنها مما لا يُفَرِّغُ منه ، ضَمَّنَ كلّ المعاني التي في نفسه من صفة بدر في لفظ واحد هو قوله : « يا رجل » ، فقد كانت الصفة الجامعة لكلّ صفات صاحبه هي « الرجولة » ، تحتها كل كريمة من معاني النفس : من مروءة وهمة وشجاعة وسماحة وشفاء .

\* \* \*

وكان المتنبي ، في عشرته لابن عمار ، قد بدأ يفسح في شعره مجالاً لإحساسه القويّ بالجمال القويّ للشبوب ، معبراً عنه بالمباراة المُرسلة من قلبه القويّ للشبوب ، فكانت قصيدته في وصف الأسد ، وللقابلة بينه وبين بدر وأسدبته وقوته ، رائعة قليلة للثلث ، مُفردة من بين الشعر العالي ، اجتمعت له فيها الحكمة

(١) ليس فيما بقي لدينا من (القطب) سعة حتى نشرح هذا . فنسأل القاريء أن يمينه بذلكه وفطنته وأدبه ، فإن غمض عليه شيء ، فليراسلنا بمنواتنا ، ليتسنى لنا أن نروي أبا الطيب حقه في كتابنا إن شاء الله . .

السَّهْلَة ، والبيانُ الشرقيُّ النديُّ ، والخيالُ الجامعُ المقدَّرُ البدعُ ، والاختيارُ الصافيُّ للصفاتِ المميَّزة التي تجعلك تقرأ صفةً ما يصف ، وكأنك تراه ماثلاً بين عينيك . ولا بأس من أن نورد لك بعض ذلك على سبيل المثال هنا ، إذ كانت هذه الطريقة الشعرية قد بدأت عند الرجل ثم استحكت فيه حتى بلغت أقصى غاياتها من شعره الذي قاله في سيف الدولة بعدُ .

قالوا : ... ( خرج بدر بن عمار إلى أسدٍ فهرب الأسد منه ، وكان قد خرج قبله إلى أسدٍ آخرَ كان يقطع طريقَ السابلة ، ويُلحق بهم أذى كثيراً - فهاجبه عن بقرة افترسها بعد أن شبع وتقل ، فوثب إلى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه ، فبادره بالسوط يضربه حتى مرَّغه في التراب ... ) ، فقال :

أَمْعَرُ اللَّيْلِ الْمَزَبِرُ بِسَوَطِهِ ! لِمَنِ آذَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصُوقِلَا ؟  
وَقَعْتَ عَلَى الْأَرْدُنِّ مِنْهُ بِلَيْتِهِ ، نَصِدْتَ بِهَا هَامُ الرِّقَاقِ تُولَا  
وَرَدَّ ، إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةُ شَارِبًا ، وَرَدَ الْقَوَاتِ زَيْبُهُ وَالنَّيْلَا  
( مُتَخَضِّبَ يَدَمِ الْقَوَارِسِ لَا بَسَ ) فِي غِيْلِهِ مِنْ لَيْدَتِيهِ غِيْلًا  
( مَا قُوْبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا غُلَّتَا ، تَحْتَ الدُّخَى ، نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولًا )  
( فِي وَحْدَةِ الرَّهْبَانِ ، إِلَّا أَنَّهُ ) لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا  
( يَطْلَأُ النَّوْىَ مُتَرَفِّقًا ، مِنْ تَيْبِهِ ، فَكَأَنَّهُ آسُ يَمْسُ عَلِيْلًا )  
( وَبَرْدُ غَفْرَتِهِ إِلَى يَأْفُوخِيهِ ) حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ الْكِلِيلَا  
( وَيَتَفَنُّهُ مِمَّا يَزْنَجُرُ ، نَفْسُهُ ) عَنْهَا ، لَشِدَّةِ غَيْظِهِ ، مَشْغُولَا  
( قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخَطِيَّ ، فَكَأَنَّمَا ) رَكِبَ الْكَيْثُ جَوَادَهُ مُشْكُولَا  
( أَلْقَى فَرَسَتَهُ ، وَبَرَبَرَدُ وَهْمَا ، وَقُرْبَتْ قُرْبًا خَالَهُ تَطْفِيلًا )

فَتَشَابَهَ الْخُلُقَانِ فِي إِقْدَامِهِ ، وَمَخَالَفَا فِي بَذْلِكَ لِلْأَكُولَا  
(أَسَدٌ يَرَى عُضْوِيهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا : مَتْنًا أَرْزَلَّ ، وَسَاعِدًا مَقْتُولًا )

• • • • •

( مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرَضَ مِنْهُ الطُّولَا )  
( وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحِجَارَ ، كَأَنَّهُ يَبْغِي إِلَى مَا فِي الْحَضِيضِ سَبِيلًا )  
( وَكَأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ ، فَأَدَّتِي لَا يُبْعِرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلًا )  
( أَنَفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّيْتِ ، تَارِكٌ فِي عَيْنِهِ الْقَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلًا )  
( وَالْعَارُ مَضَاضٌ ، وَلَيْسَ بِخَائِفٍ مِنْ حَقْفِهِ ، مَنْ خَافَ بِمَا قِيلَا )  
( سَبَقَ النِّقَاطُ بَوْتِيَّةَ هَاجِمٍ لَوْ لَمْ تُصَادِمَهُ بِلَازِكٍ مِيلَا )  
( خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحَتْهُ ، فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيدَا )  
( قَبِضَتْ مِيتَتَهُ يَدَيْهِ وَعُنْفُهُ فَكَأَنَّمَا صَادَفَتْهُ مَفْلُولَا )  
( سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ فَنَجَا يَهْرُولُ أَمْسٍ مِنْكَ مَهُولَا )  
( وَأَمْرٌ بِمَا فَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ ، وَكَفَتْ لَهُ أَنْ لَا يَمُوتَ قَتِيلَا )  
( تَلَفُ الَّذِي اتَّخَذَ الْجِرَاءَةَ خُلَّةً ، وَعَظُ الَّذِي اتَّخَذَ الْفِرَارَ جَلِيلَا )

فهذا شعر لو ذهب آيينه وأفضله وأجلوه ، لما أعانفتي هذه الورقات .  
ولا وسعتني ، وفيما رسمته في طريق كلامي عن شاعرية الرجل كفايةً لو تدبرت .  
وقد أثبتنا لك كثيراً من القصيدة اللامية السالفة ، ثم من هذه في وصف الأسد ،  
لأن هاتين القصيدتين هما ( نقطة الاقتراب ) ، كما يقولون ، في شاعرية أبي الطيب  
من النهج الأول إلى النهج الثاني الذي لزمه وسار في دربه ، وتميز به . ففي  
هاتين تجد أبا الطيب فتى وكهلاً وشيخاً . ولو قسّمتهما إلى ما يأتي بعد من



شعره . لوجدت أن الرجل قد بدأ يستمرّ مَرِيرُهُ بدءاً من هذه السنوات التي أنعمها عند بدر بن عمار منذ سنة ٣٢٨ ، وفيها أيضاً الأصول النفسية والشعرية والبيانية التي مددنا لك أطرافاً منها في ثنّيات القول .

\* \* \*

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى موضعٍ يكثر مَوْرَدُهُ في شعر أبي الطيّب : ذلك أن الرجل = لاستحكام أصل الرجولة والروءة والقوّة في نفسه غير مدّعٍ ولا متملّ = كان إذا رأى ما يخالف الرجولة ويحطّ منها ، اهتزّت نفسه واشتأزّ ، وأبدى ازدراءه واحتقاره ، فهو يحبّ من عدوه أن يستمسك بعروءة الرجولة في اللقاء والهزيمة والنصر ، كما يجب ذلك من نفسه . . . فحين فرّ الأسد الثاني الذي ذكره من بدر بن عمار بعد هزيمة ( ابن عمته ) ، استدعى ذلك احتقار أبي الطيّب له ، فنارت رجولته كلّها لهذا الفرار التبيح من أسدٍ هو الأسدُ ، فضمّن شعره هذا للغي من الازدراء والسخرية به حيث يقول :

« سَمِعَ ( أَبْنُ عَمَّتِهِ ) بِهِ وَبَحَالَهُ ، فَتَجَاهَرُوا أَمْسَ مِنْكَ مَهُولاً »  
« وَأَمْرُهُ بِمَا فَرَّ مِنْهُ فَرَارُهُ ، وَكَقَتْلِهِ أَنْ لَا يَمُوتَ قَتِيلًا »

فن ألوان السخرية والتهكم والازدراء لهذه الأسد الجبان ، أنه حين وصف فراره جملة ( هَرْوَلَةً ) ، والهرولة حالة بين المشى والعدو ، فهو من خوفه واضطرابه ترك المشى وأراد العدو ، ولكن منعه الملح أن يمدو ، فاضطكّ ، فصار عدوه للفرار بنفسه لا هو من العدو ولا هو من المشى . ثم أبدى في البيت الثاني كلّ احتقاره له بقوله : « وَكَقَتْلِهِ أَنْ لَا يَمُوتَ قَتِيلًا » ،

فما يحسن بأسدٍ أن يفرّ، وإنما ما خُطَّتَان: إما صبرٌ وظفرٌ، وإما إقدامٌ وحُفَّتُهُ  
فبذلك يُثبت الأسد أنه أسدٌ لا خروفاً ولا نعاماً .

ولنضرب لك مثلاً آخر في ذلك . ففي سنة ٣٤٣ أوقع سيفُ الدولة بالروم  
في موقعة (بُطْنِ هَنْرِيْطَ) ، وكان الدُّمُسْتُقُ وولدهُ بِحَارِبَان ، ففُجِرَح الدُّمُسْتُقُ ،  
وأصيب ولده في مقتل أشقى به على الموت ، وفرَّ الدُّمُسْتُقُ تاركاً ولده في يد  
الموت ، فلم يَفْتِ أبا الطيب حين ذكر هذه للموقعة أن يشير إلى هذه الحادثة ،  
وأن يدلّ على ازدرائه واحتقاره لهذا الدُمُسْتُقِ الدليل الجلبان الذي خلف  
مهجته وولده للموت ، فكان مما قال :

أَعْلَكَ يَوْمًا يَادُمُسْتُقُ عَائِدٌ فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْهِ يُوُولُ  
(نَجَوْتُ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً ، وَخَلَفْتُ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ) ،  
(أَنْسَلِمُ لَلْخَطِيئَةِ أَبْنَكَ هَارِبًا ١٩ وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا لِمَالِكَ خَلِيلُ) ،  
(يَوْجِيهِكَ مَا أَنْسَاكَهُ مِنْ مُرِشَّةٍ نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ) <sup>(١)</sup>

وهذه الأبيات غاية في الدلالة على استحكام الرجولة في طبع أبي الطيب ،  
وأنه كان يؤذيه ويُثيره أن لا يجد في الرجل صفة الرجولة : من إقدام وصبر  
ومروءة وشهامة ، وما إلى ذلك من كريم الصفات ، ولو كان أولئك الرجال  
من أعدائه . وأعد قراءة البيت الثالث ، فكأنك بأبي الطيب ينشده متعجباً  
مزدرجاً ، ثم يصبق على صورة هذا الجلبان الدُمُسْتُقِ .

\* \* \*

(١) « المرشة » طعنة رمح تفجر الدم فترشه رشاً .

ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ : وَجَدَ أَبُو الطَّيِّبِ فِي بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ (الرَّجُلَ) ،  
 فَاسْتَمَرَّ وَهَذَا حِينًا ، وَمَلَأَ نَفْسَهُ مِنْ خِلَالِ الْقُوَّةِ وَالْفَتْوَى وَالْمُرُوءَةِ الَّتِي تَحَقَّقُ  
 بِهَا بَدْرٌ . وَلَكِنْ وَقَعَ فِي هُدُونِهِ وَاسْتَقْرَارِهِ وَاقَعَ هَزْهُ وَنَفْضُهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ  
 وَهُوَ بِطَبْرِيَّةَ ، الَّتِي كَانَ بِهَا الْعُلَيُّونَ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَالَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِيمَا قَدَمْنَاهُ  
 ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ فِي صِفَةِ الْبَحِيرَةِ ، بِحِيرَةِ طَبْرِيَّةَ : (١)

« يَشِيْهَهَا جَرِيْهًا حَلَّى بَلَدٍ تَشِيْنُهُ (الْأَذْيَاءُ) وَالْقَرْمُ »

لَمْ يَفْتَأْ يَجِدُ مِنْ عِدَاوَتِهِمْ لَهُ كَيْدًا كَثِيرًا ، حَتَّى سَمِعُوا بِهِ لَدَى بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ ،  
 وَأَغْرَوْا بِهِ الشُّعْرَاءَ لِيَفْظِلُوهُ بِالسُّتْهِمْ ، وَكَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ مُمْتَعٌ يَأْخُذُ عَيْنِيهِ  
 (أَعُورٌ) ، يُدْعَى ابْنَ كَرْوَسٍ ، وَكَانَ قَدْ اتَّصَلَ بِبَدْرِ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ أَعْدَائِهِ  
 عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ قَصَدَهُ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِهِمْ . وَنَحْنُ وَإِنْ لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ  
 هَذَا (الْمُمْتَعِ) ابْنَ كَرْوَسٍ ، إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ صَنَائِعِ الْعُلَيُّونِ  
 أَوِ الْفَاطِمِيِّينَ ، (٢) صَحَّبَ بَدْرًا كَالْمَيْنِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ لِيَجْمَلَهُ يَنْحَازُ إِلَيْهِمْ إِنْ اسْتَطَاعَ  
 إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، عَلَى عَادَتِهِمْ مَعَ الْأُمَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ ، تَهْيِئًا لِقَلْبِ الْخِلَافَةِ مِنْ  
 الْعَبَّاسِيَّةِ إِلَى الْعُلَوِيَّةِ أَوِ الْفَاطِمِيَّةِ .

فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ ، دَخَلَ عَلَى فَرَحِ أَبِي الطَّيِّبِ مَا رَدَّهُ إِلَى قَلْبِهِ وَأَضْطَرَّ بِهِ  
 وَغُضُوبِهِ وَهَمُومِهِ ، فَمَادَ بِذِكْرِ أَحْزَانِهِ ، وَتَغَلَّبَ الرَّأْيُ فِي الْفِرَاقِ ، إِذْ لَمْ يَجِدْ  
 عِنْدَ بَدْرِ عَصْدًا يَنْصُرُهُ نُصْرَةَ الْحَبِّ لِحَبِيْبِهِ ، فَيَقُولُ :

كَأَنَّ الْحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي فَسَاعَةَ هَجَرَهَا يَحِدُ الْوِصَالَ

(١) انظر من ١٣٤ .

(٢) انظر ماضي أول الفصل العاشر من : ١٥٠ .

كذا الدنيا على من كان قبلي ،  
 (أشدُّ الغمِّ عِنْدِي في سُروُرِ )  
 (أَلَيْتُ تُرْحَلِي ، وَجَعَلْتُ أَرْضِي )  
 (فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مُّقَامًا ، )  
 (عَلَى قَلْبِي ، كَانَ الرِّيحَ بَحَقِي )  
 صُرُوفٌ لَمْ يُدْمَنْ عَلَيْهِ حَالًا  
 تَبَيَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالًا )  
 قُتُودِي وَالْفَرِيرِيُّ الْجَلَالُ (١)  
 وَلَا أَرْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالًا )  
 أَوْجَهْمَا جَنُوبًا أَوْ شَمَالًا )

ثم يقول لبدر ، بعد أبيات يذكر ما لقي من أعدائه من الشعراء :

فَيَا أَبْنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ لَذْنٍ  
 وَيَا أَبْنَ الضَّارِّينَ بِكُلِّ عَضْبٍ  
 أَرَسَى لِلنُّشَاعِرِينَ غُرُورًا بِذَمِّي ،  
 وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ  
 وَقَالُوا : هَلْ يُبَالِغُكَ الثُّرَيَّا ؟  
 مِنْ الْمُتَرَبِّ ، الْأَسَافِلِ وَالْقِلَالِ  
 وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْمُضَالَا ؟  
 يَحْمَدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا  
 قَعَلْتُ : نَعَمْ ، إِذَا شِئْتُ أُسْتَفَالَا

فهو بهذه الأبيات يعرض على بدر ما يلاقى من الكيد ، ويستعده به بالبيت الأخير على نصرته على أعدائه . ولا ندري ما الذي كان يكادُ به أبو الطيب ، ولكن نظن أنهم كانوا يتغامزون به وبشعره وما فيه من الغلو والطموح ، وما يردُّ في أثنائه من الوعيد للطفاة والملوك والأعداء ، والإنذار لهم أن يصيبهم من قبله كلُّ مكروه . والحقيقة أن هذه الممانى في شعر أبي الطيب مما يستجلب التنبُّه لها ، والوقوف عندها ، فليس في العربية كلُّها شاعرٌ قد كثرُ ذلك في شعره كما كثر في شعر أبي الطيب ، بل أنت تقلِّب دواوين

(١) القنود ، خُشب الرجل الذي يوضع على الجير ، « الفريرى الجلال » غل كريم من الإبل عظيم النيان .

الشعراء جميعاً فلا تكاد تجد فيها هذه المعاني في الإنذار والوعيد والترثُّص ،  
وخاصّة في المديح الذي يُراد به عطف القلوب لاستخراج مكنونها ، وإلانة  
الأيدي لقبض نوالها . وهذه المعاني مما يَنفَكس على الشعراء مُرادهم إن راموه  
وتعاطوه في أشعارهم . أمّا أبو الطيب فقد جعلها عمود شعره غير مُبالٍ  
ولا حافلٍ . فن هذه الظاهرة في شعره = أَعْنَى اعتماده في كثير منه على الإنذار  
والوعيد = بدأ أعداؤه في جوار بدرٍ يُسمُّونه « المُنْتَهَى » وبغضونه بذلك ،  
ويعنون أنه يتشبه بالأنبياء ، إذ كان عمود نبوتهم الإنذارُ والوعيدُ أيضاً ،  
وهو قد جعل ببيان شعره على هذين . ولعلّ هذا هو المراد بقوله : « أرى  
المتشاعرين غرّوا ( بدّهي ) » . فهذا ذمّه عندهم كما ترى .<sup>(١)</sup>

واشتدّ هذا السكيدُ على أبي الطيب حتّى حمله على فراقِ بدرٍ ، إذ  
( نَسِكَرَ جَانِبُهُ ) حين لم يجد عنده كلَّ ما أراد ، ووجدّه يسمع للوشاة  
ويُصِفُهم أذنه . وكان آخر ما لقي أبو الطيب من ذلك : حين سار بدرٌ إلى  
الساحل = ساحل طَبْرِيةَ = حين أُضِيفَ عمله إلى عمله بطبريةَ ، وكان  
أبو الطيب قد تخلف عن المسيرِ معه ، فانتَهز ذلك الأعور ابنُ كروّس ،  
فكتب إلى بدرٍ يقول له : « إن أبا الطيب إنما تخلف عنك رغبةً بنفسه  
عن المسيرِ معك » . وبلغ ذلك أبا الطيب ، فثارت نفسه وعزم الرحيل  
والفراق ، ولكنه أجّل ذلك حتى يعودَ بدرٌ ليعرف ما عنده ، والظاهر أن

(١) انظر ما سلف في آخر الباب السادس ، ص : ١١٥ ، ١١٦

بدرًا كان قد حمل في نفسه شيئًا من آثار هذه السعيات ، فلما عاد إلى طبرية  
وانتبه أبو الطيب ، فطن لما يدور في نفس بدر ، وخاف أن يخذله ، فاعتمد  
الرحلة وطى الأرض ، ولذلك كانت آخر قصيدة مقصودة مدح بها بدرًا بينة  
الدلالة على اضطراب نفسه وقلقه وعزمه هذا ، فهو يقول فيها :

( انكزت طارقة الحوادث مرة ، ثم اعترفت لها فصارت ديدنا )  
وقطعت في الدنيا الغلا ، وركابي فيها ، ووقتي الصبحي والموهبي

وظهر فيها أيضاً خوفه أن يسلمه بدر إلى أعدائه ، فيزيدوا له ويفتكوا  
به على غرة ، فصرح لبدر بذلك حيث يقول ، يذكر أمر تخلفه عنه ، ثم  
تخاوه ، ثم يندره :

فطن الفؤاد لما أتيت إلى النوى ، ولما تركت تخافة أن تنفطنا  
أضحى فراقك لي عليك عقوبة ، ليس الذي قاسيت منه هيئنا  
فاغفر فدي لك ، وأحبي من بعدها ، لخصني بقطعة منها ( أنا )  
( وأنه المشير عليك في بضلة ، فالحر ممحق بأولاد الزنا )  
( وإذا النقي طرح الكلام معرضاً ، في مجلس أخذ الكلام اللذعي )  
( وتكأيد السفهاء واقعة بهم ، وعداوة الشعراء بشن اللقني )  
لعت مقارنة اللئيم ، فإنها ضيف يجبر من اللامة ضيقنا  
( غصب الحسود ، إذا قيمتك راضياً ، رزء أخف على من أن يؤزنا )

ثم بقي مع بدر وهو يضر في نفسه فراقه ، فكان يتتبع مرضاته في كثير

فما لا يرضى به ، حتى شرب الخمر في منادمته ، ليصرف بذكراً عما كان في نفسه قليلاً ، حتى تعرض له الساعة للمواتية للفراق . فلما أتت الساعة ، بادَرَ واحتمل أهله ونفسه وخرج إلى دمشق ، وقصد عملاً من أعمالها يقال له : **(حَمَى جَرَش)** ، كان به أبو الحسين على بن أحمد المَرِّيُّ الخُراسانيُّ ، وكانت بينهما مودة وهما بطبرية ، فلجأ إليه ، واحتفى بحماه ، وذلك في سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا التحقيق .





لا أَفْتَرِي بِلَدًا إِلَّا عَلَى غَرَرٍ  
وَلَا أَمُرُّ بِمَخْلُقٍ غَيْرِ مُضْطَّعِنٍ  
وَلَا أَعَاشِرُ مِنْ أَمْلَاكِهِمْ مِلَكًا  
إِلَّا أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثَنِ  
مَدَحْتُ قَوْمًا... وَإِنْ عَشْنَا نَقَامَتْ لَهُمْ  
قَصَائِدُ أَمِنْ إِبْنَاتِ الْخَلِيلِ وَالْخَصَنِ  
فَلَا أَحَارِبُ مَدْفُوعًا إِلَى جُدُرٍ،  
وَلَا أَصَالِحُ مَفْرُورًا عَلَى دَخَنِ

انتصر « ابن كروّس » الأعرور على أبي الطيب ، وأفسد عليه بدر بن  
عمار . ويَبَيِّنُ أَنَّ دَهَاءَ أَبِي الطَّيِّبِ وَحِيلَتَهُ أَعَانَتْهُ عَلَى اجْتِنَابِ الْخَطَرِ الَّذِي كَانَ  
لَهُ رَصْدًا فِي طَبْرِيقَةِ ، وَالَّذِي كَادَ يُدْرِكُهُ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ فِي سَنَةِ ٣٣٦ ، حِينَ أَرَادَ  
لَهُ الْعَلَوِيُّونَ لِيَقْتُلُوهُ فَقَاتَهُمْ إِلَى الرَّمْلَةِ ، وَهَذَا مِمَّا يَرْجَحُ عِنْدَنَا أَنَّ « ابْنَ كَرْوَسَ »  
كَانَ مِنْ شَيْعَةِ الْعَلَوِيِّينَ أَوْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَوْ مِنْ دَعَاةِ الْفَاعِطِيَةِ .<sup>(١)</sup>

وكان أبو الطيب ، كما قدمنا لك ، وهو عند بدر قد بدأ يطمئن ثم هاجه ،  
هذا الأعور ابن كروّس ، فانطلق إلى غايته في نفسه من الحقد والثورة والافتحام ،  
ولكنه كتم ذلك . فلما نزل بعليّ بن أحمد المرّي كانت قصيدته إعلاناً

للحرب مرة أخرى ، وزلزلة وقعت في قلبه فأخرجت قديمه من الأحقاد  
والترات والآمال والآراء ، واستمر ينتفض ويقذف بركانه بحممه ، إلى أن كان  
انصاله بأبي العشائر في أواخر سنة ٣٣٦هـ<sup>(١)</sup> وكان شعره في هذه الأغراض ،  
ثم في هذه الفترة ، نظراتٍ مقطورة كالشرر تحت ظلام الليل ، وهي مع ذلك  
حكيمه تقع في المفصل ولا تخطئ ، إذ كان الرجل قد تحنك واستحكم واستمر  
في الشعر على طريقته ، مما وجد من الهدأة في جوار بدر ، ثم ما وجد من  
الكيد بعدد . ولم يتصل بعد بدر بأمر يُنادمه ، بل كان ينتقل من مكان إلى  
مكان ثائراً مُغضباً مُوعداً مُنذراً مُرعداً ، يُريد ويُبني ، ويُؤمل وينتظر ،  
وَيَمْلُ وَيَسَام ، ويَحْنَقُ ثم ينفجر .

فانظر الآن إلى هذا الشعر الذي تلقى به عليّ بن أحمد المرسي ، بعد أن  
تردّ النظر مرة أخرى إلى ما كتبناه في الفصل الثامن . . . . يقول :

( لَا أَفْتَحَارُ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ      مُدْرِكُ أَوْ مُحَارِبٌ لَا يَنَامُ )  
( لَيْسَ عَزَمًا مَرَضُ الْمَرِيضِ      لَيْسَ هُمَا عَاقٍ عَنْهُ الظَّلَامُ )  
وَاحْتِمَالُ الْأَذَى ، وَرُؤْيَا جَانِيهِ ، غِذَاءُ تَصَوَّى بِهِ الْأَجْسَامُ<sup>(٢)</sup>  
ذَلِكَ مَنْ يَنْفِطُ الدَّلِيلَ بَقِيْشٍ      رَبٌّ عَيْشٍ أَخَفَّ مِنْهُ الْجَمَامُ  
كُلُّ حِلْمٍ أُنَى بَقِيْرِ اقْتِدَارٍ      حُجَّةٌ لَأَحْيَى إِلَيْهَا النَّثَامُ  
مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ،      مَا لِيُجْزَحَ بِمَيِّتٍ إِبْلَامُ

(١) انظر ما سيأتي في أول الباب الحادي عشر .

(٢) انظر ما قلناه في هذا البيت من : ١٣٢ ، و « توقيع المتنبي » ، ص : ١٣٣ ، ١٣٦ .

( ضَاقَ ذَرْعًا بِأَنْ أَضِيقَ بِهِ ذَرْعٌ )  
 ( وَاقِفًا تَحْتَ أَخْصَى قَدَرٍ نَفْسِي )  
 ( أَقْرَارًا أَلَدُّ فَوْقَ شَرَارٍ !! )  
 ( دُونَ أَنْ يَشْرَقَ الْحِجَارُ وَتَجْدُ )  
 عَا زَمَانِي، وَأَسْتَكْرَمَتْنِي السَّكْرَامُ  
 وَاقِفًا تَحْتَ أَخْصَى الْأَنَامُ  
 وَمَرَامًا أَبْغَى وَظَلَمِي يُرَامُ !!  
 وَالْعِرَاقَانُ ، بِالْقَنَا ، وَالشَّامُ !

فهذه أبيات قد اجتمعت فيها نفس المتنبي كلها ، بحكمتها وتجربتها وعلومها وقوتها ورُجولتها وقوتها وانتقاضها وزلازلها ، وبأمالها وأحقادها ووعيدها وإنذارها ، وبصدقها وعواطفها المتسمة التي يأكل بعضها بعضاً ، وفيها ( توقيع المتنبي ) على كل بيت .<sup>(١)</sup> فلا تحسبن شاعراً يستطيع أن يأتي بتثلها أو يسرق معانيها ، إلا أن يستطيع أن يسرق نفس أبي الطيب وقلبه جملة من بين جنبيه ، أو إلا أن يكون قد مُهد له في نفسه وفي صدقه وفي آلامه وغير ذلك ما تيسر لأبي الطيب .

وألقى أبو الطيب هذه ( القنايل ) الحكيمة في « حَي جَرَش » ، ثم أدرسته مكابد الأعور ابن كرويس ، أو العلويين إن شئت ، ففعل بالرحيل غير مختار له ، فقال يودّع صاحبه المرئي ويمتذر له ، وقد أبان في الأبيات كل الإبانة ، فهو راحل « في عجل » ، وهو راحل عنه غير مختار :

( لَا تُنْكَرَنَّ رَحِيلِي عَنْكَ فِي عَجَلٍ )  
 ( وَرَبِّمَا فَارِقَ الْإِنْسَانُ مُنْجَتَهُ )  
 ( وَقَدْ مُنِيتُ بِحُسَادٍ أَحَارٍ بِهِمْ ، )  
 فَأَجْعَلْ نَدَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ أَنْصَارِي<sup>(٢)</sup>  
 فَإِنِّي لِرَحِيلِي غَيْرُ مُخْشَارٍ )  
 يَوْمَ الْوَعَى - غَيْرَ قَالَ - خَشْيَةَ الْعَارِ

\* \* \*

(١) انظر ما قلته في هذا البيت ص : ١٣٢ ، و « توقيع المتنبي » ، ص : ١٣٣ ، ١٣٦ .

(٢) أي : فأجعل نداءك نداء بعض أنصاري عليهم .

ثم أنطلق أبو الطيب من «حى جرش». يتقعم البواى عجلا يفور  
 فوران القدر على نارها المتضرمة ، وتسمرت الدنيا في عينيه ، وتلدعت  
 الأفكار النارية بين جنبيه ، فخرج شعره كمعممة الحريق وتفيضه وزفيره  
 وفرقته ، كما سترى . ومن شدة ما لقي أبو الطيب من كيد هذا الأعور ابن  
 كروىس ، كان - على عادته - يتخيله كلما تلفت في مسيره واقتحامه ظلمات  
 البادية . وقد حفظ لنا أبو الطيب في شعره - على عادته أيضا - صورة ناطقة  
 من إحساسه وعواطفه وهو يطوى البادية طيا عجلا فقال :<sup>(١)</sup>

رَكِبْتُ مُشَمَّرًا قَدَمِي إِلَيْهَا ، وَكُلَّ عَذَافِرِ قَلْبِي الضُّفُورِ  
 (أَوَانَا فِي بُيُوتِ الْبَدْوِ رَحَلِي وَأَوْنَةً عَلَى قَتَدِ الْبَعِيرِ )  
 (أَعْرَضْتُ لِلرَّاحِ الْعُصْمِ تَحْرِي ، وَأَنْصَبُ حُرَّ وَجْهِي لِلْهَجِيرِ  
 (وَأُسْرِي فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَخَدِي ، كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُنِيرِ )

وهذان البيتان الأخيران فيهما من رجولة أبي الطيب وتحمسه ومضائه  
 وتدفعه واستهانته بالشقاء في سبيل آرايه وآماله ما فيهما ، ففسرها لنفسك ،  
 وأعلم أن هذا الرجل شاعر مبین ، قلبه في لسانه ، وعواطفه في بيانه :

( فَقُلْ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا ، عَلَى شَقَى بِهَا ، شَرَوْى تَقِيرِ  
 (وَنَفْسِي لَا تُجِيبُ إِلَى خَسِيرِ وَعَيْنٌ لَا تُدَارُ عَلَى نَفِيرِ )  
 (وَكَفَّ لَا تُنَازِعْ مَنْ أَنَانِي يُنَازِعُنِي ، سَوَى شَرَفِي وَخِيرِ )

(١) لقد أكثرنا من نقل شعر أبي الطيب ، إذ كان المباح الآن يقتضى ذلك ، ولئلا نقطع  
 القارىء بالرجوع إلى الديوان ، ثم لنختصر القول من ناحية أخرى ، فقل القارىء أن يستنبط  
 ويستخرج المعاني على الأصول التى درجنا عليها فى كتابنا هذا . والتدبر والتأمل هما الأصول فى  
 العلم والاستنباط . . . .

( وَقَلَّةَ نَاصِرٍ ... جُوزِيتَ عَنِّي  
 ( عَدَوِي كُلُّ شَيْءٍ فَيْكَ حَتَّى  
 ( فَلَوْ أَنِّي حُسِدْتُ عَلَى نَفِيسٍ  
 ( وَلَكِنِّي حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتِي ،  
 فَيَا ابْنَ كَرُوسٍ ، يَا نِصْفَ أَعْمَى ،  
 ( تَعَادِينَا لِأَنَّا غَيْرُ لُكْنٍ ،  
 فَلَوْ كُنْتَ أَمْرًا يُهَيِّجُ هَجَوْنَا ،  
 وَلَكِنْ ... ضَاقَ فَرْزٌ عَنْ مَسِيرِ  
 بَشَرٍ مِنْكَ ، يَا شَرَّ الدُّهُورِ ! )  
 لَخِلْتُ الْأَكْثَمُ مَوْغَرَةَ الصُّدُورِ )  
 لَجِدْتُ بِهِ لِيذِي الْجِدِّ الْعَثُورِ )  
 وَمَا خَيْرُ الْحَيَاةِ إِلَّا مُرُورُ ؟ )  
 وَإِنْ تَفْخَرُ فَيَا نِصْفَ الْبَصِيرِ  
 وَتُبْقِضُنَا لِأَنَّا غَيْرُ عُورِ )  
 وَلَكِنْ ... ضَاقَ فَرْزٌ عَنْ مَسِيرِ

ولمّا تدبرت الأبيات ، فستجِدَنَّ أن نفسه الكريمة الأبية الأنوفة  
 المستنكفة ، قد أريد بها الشرُّ والأذى فاهتزت ، وتدافعت هزاتها في أعصابه  
 كلها ، فأثبتها على لسانه المبين في هذه الألفاظ المتقنة بأصواتها ومعانيها وألوانها  
 البيانية ، في التدفع والالتفات والانتقال ، ثم في البفض للدنيا وازدراؤها ، ثم  
 في السخرية والتهمك والاحتقار لهذا الأعور الذي هاجه عن عُشِّه في جِوار  
 ابن عمار .

\* \* \*

وأراد الله خيراً يشاعرية هذا اللسان القَوَال العربيَّ المبين ، لاذَ رَمَاهُ بِأَبْنِ  
 كَرُوسٍ بد هداةً واستجمام . فلَمَّا طَوَى البادية ، على ما وصفنا ، يقصِدُ قَصْدًا  
 أنطاكية ، دخلها سنة ٣٣٤ ، وكان بها « أبو عبد الله » محمد بن عبد الله بن  
 محمد الخَلِصِيُّ ، وكان يُنُوب عن أبيه في مجلس القضاء بأنطاكية . وكان  
 أبو عبد الله الخَلِصِيُّ داهيةً من دهاة عصره ، فَيَا نَرَى ، فقمده أبو الطيب

يمدحه ، وجعل أول القصيدة بديء على ما وصفنا لك من تسعر الدنيا في عينيه ،  
وبين جنبه ، وكانت معاني مدحه من هذا الباب أيضاً . وقد تضمنت الأبيات  
التي سننقلها لك آراءه في الجيل الذي كان يتقلب بين رجاله ، وأزدرائه للرجال  
الذين قصدهم فلم يلب عندهم خيراً يعينه على حاجته التي قال فيها فيما مضى  
من الأبيات : ( قُلْ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا . . . ) ، ثم وصف رحلته بين  
أهل البادية ، وما كان يحذرُه في أرضهم خوفاً الطلَب أن يهتدى إليه  
فيدركه فيفتك به ، ثم يثور ويتمزج في أعنة نفسه فيندُر ويوعِد . . .  
وبذلك تعرف أن نفسه كانت على غاية متوترة مستوفزة نائرة . ثم  
يأتيه كتاب جدته فيقصد العراق ، فيمنعه أعداؤه من العلويين الذين أرادوا  
به السوء من دخول الكوفة التي بها جدته ، فيجلب ذلك عليه الهم والألم ،  
فتموت جدته ، فيبجج ويتلذع ويثني ويبكي ، ثم تدركه رجولته فتدّ عليه  
قوة مضاعفة ، فيبدع ويتفرد بقصيدة من أجزل الشعر وأرضنه ،<sup>(١)</sup> ومن  
أكثر شعره خاصة دلالة على ما في نفسه ، وعلى ما أصابه في حياته من مولده  
إلى يومه هذا سنة ٣٣٥ .

يقول أبو الطيب للخصيبي :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضُ لِدَا الزَّمَنِ      (يَخْلَوِينَ إِلَهُمُ أَخْلَافَهُمِ مِنَ الْفِطَنِ)  
(وَلَا نَمَّا نَحْنُ فِي جِبِلِّ سَوَاسِيَةٍ      شَرٌّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ شَقْمٍ عَلَى بَدَنِ)  
(حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلَقُ)      تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي آسَفَتِهَا بَعْنُ؟

(١) قد استشهدنا بأبيات كثيرة من قصيدته في رثاء جدته فيما مضى في لسه وغيره ، وذلك  
تري من أنها كانت تحمل نفس أبي الطيب كلها : صريحها ورغوتها .

وهذا بيتٌ يهجو بالفاظه قبل أن يهجو بمعانيه ، ويدلُّ على ما في نفس الرجل من الآلام ، وما لقي من أهل عصره من الكيد والمكر ، وما كانوا عليه من الخسة واللؤم ، والشطر الثاني من البيت الثاني صفة صادقة لعصره كما تجدها في التاريخ ، وقد أشرنا إلى صفة هذا العصر فيما مر بك :

( لَا أَقْدَرِي بَلَدًا إِلَّا عَلَى غَرَرٍ ، وَلَا أَمُرُّ بِخَلْقٍ غَيْرِ مُضْطَلِّينِ )  
 ( وَلَا أَعْشِرُهُمْ مِنْ أَمْلَأَ كَيْهَمٍ مَلِكًا إِلَّا أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثْنِ )  
 إِنِّي لَأَعْذِرُهُمْ بِمَا أُعْتَفُّهُمْ ، حَتَّى أَعْتَفَ نَفْسِي فِيهِمْ ، وَإِنِّي  
 ( فَفَرُّ الْجَهْلُولِ بِلَا عَقْلِ إِلَى أَدَبٍ ، فَفَرُّ الْحَارِّ بِلَا رَأْسٍ إِلَى رَسَنِ )  
 ( وَمَذْقَعِينَ بِسُبُرُوتٍ صَحْبُهُمْ عَارِينَ مِنْ حُلَلٍ ، كَاسِينَ مِنْ دَرَنِ )  
 خُرَابٍ بَادِيَةٍ غَرَّتْنِي بَطُونُهُمْ ، مَكَّنَ الصُّبَابُ لَهُمْ زَادُ بِلَائِنٍ <sup>(١)</sup>  
 ( يَسْتَنْخَبُونَ فَلَا أُعْطِيهِمْ خَيْرِي وَمَا بَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الطَّيْنِ ) <sup>(٢)</sup>  
 وَخَلَّةٍ فِي جَلِيسِ التَّقِيهِ بِهَا كَيْمَا يَرَى أَنْفَا مِثْلَانِ فِي الْوَهَنِ

وهذا البيت مما يدلُّ على ذهاب أبي الطيب وسعة حيلته ، ودقته في الحذر إذا أحيط به ، وخاف أن يظفر به عدوه :

وَكَلِمَةٍ فِي طَرِيقِي خِفْتُ أُعْرِبُهَا فَيُهْتَدَى لِي ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اللَّحَنِ  
 ( قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَارِلَةٍ وَلَكِنَّ الْعَزْمُ حَدَّ لَلرَّكَبِ الْخَشِينِ )

(١) « الحراب » ، الصور الذين يسرقون الإبل . « مكن الصباب » ، يضيها ، والبداة يأكلون ييض الصب .

(٢) من هذا البيت وما بعده ، أخذ التنوخي وأشياهم من أعداء أبي الطيب ، مازعموه من أنهم سألوه عن نسيه ، فكان يقول : « إلى رجل أطوى البوادي وحدي ، وأخط القتائل . ومتى أصبحت لم آمن أن يأخذني ييض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي أتسب إليها » . انظر : ١٥ ، ٣١ ، ٣٢ .

(كَمْ مَحْلَصٍ وَعَلَى فِي خَوْضٍ مَهْلَكَةٍ ، وَقَتْلَةٍ قُرْنَتْ بِالذَّمِّ فِي الْبُيْنِ )  
 (لَا يُعْجِبُنِي مَضِيًّا حُسْنُ بَزْتِهِ ، وَهَلْ تَرَوْقُ دَفِينًا جَوْدَةً السَّكَنِ )  
 (لِلَّهِ حَالٌ أَرْجِيهَا وَتُخْلِفُنِي ، وَأَقْتَضَى كَوْنَهَا دَهْرِي وَيَمُطِّلُنِي )

ولا يفوتك هنا أن أبا الطيب في هذه الفترة قد أشار إلى مطلب له بهذا البيت في هذه القصيدة ، ومن قبل ما أشار إليه في القصيدة التي قبلها بقوله : « قُلْتُ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا . . . » . ونحن نَفِقُك عند هذا البيت لتجمله منك على ذكرٍ حتى يأتي تأويله فيما يستقبل .

(مَدَحْتُ قَوْمًا ، وَإِنْ عَشْنَا نَفَلْتُمْ لَهُمْ قَصَائِدًا مِنْ إِنْثِ الْخَلِيلِ وَالْحُسْنِ )  
 (تَحْتَ الْقَجَاجِ ، قَوَافِيهَا مُضْمَرَةٌ ، إِذَا تُنْشِدُنْ لَمْ يَدْخُلْنَ فِي أَذُنِ )  
 (فَلَا أَكَارِبُ مَدْفُوعًا إِلَى جُذُرِ ، وَلَا أَصَالِحُ مَغْرُورًا عَلَى دَخَنِ )  
 (لُحَيْمٌ الْجَنَعِ بِالْبَيْدَاءِ ، يَصْهَرُهُ حَرُّ الْهَوَاجِرِ فِي صَمٍّ مِنَ الْفَتَنِ )

وبين من نفس أبي الطيب في هذا الشعر أنه قد تطلق وأستن في عدوه إلى غاية ماضياً لا يلوى على شيء ، وأن لسانه قد اندلق بمعاي قلبه ، فهو مبين في شعره وإشارته ، غير حافل بما سوف يلقاه من الكيد فيما بعد . ولولا أن الرجل كان بركاني الطبع = يخدم ثم يفور ، ويترثم ثم يتفلق = لما كان من أثر كيد ابن كروسله ، ما ترى في كلامه من التدفق والتدافع الذي تراه فيما رويانا لك من الشعر . ويحسن بك وأنت تقرأ هذا أن تتبع ما رسمنا لك في التيقظ لإشارة الرجل ، وأن يكون منك على ذكر أن الرجل كان حين يفور ويقول ، تراعى لعينيه ، وبدوى في مسمعيه ، كل ما سمعه أو مر به ، فهو يوجز لك ما في نفسه ضميراً في أبياته وكلماته .



وقد استمر أبو الطيب على حالته التي نصفُ، حتى اتصل بأبي العشائر،<sup>(١)</sup> فكل شعره في هذه الفترة آراء ونظرات كلها مستنبط من يتابع نفسه، وذلك لما قلنا به من أن الأصل في نبوغ المتنبي هو (استيما به ما يحس به من المواطن، ودراسة قلبه ومعرفة ما يحز فيه فن الآلام، وللماني التي تتولد من هذه الآلام، ثم اهتداؤه إلى أن الشعر لا يكون شعراً إلا حين يروى من معاني القلب ويستقي منها).<sup>(٢)</sup>

وبينا الرجل كذلك، إذا جاءه كتاب جدته تسأله المسير إليها وتُسكو شوقها إليه، وطول غيبته عنها، فلما قصَد الكوفة التي هي بها وشارفها، حيل بينه وبين دخولها، ورؤية جدته للمسكينة، على ما مضى في تأويل هذه الواقعة.<sup>(٣)</sup> فلما ماتت رحماً الله ثارت نفسه، وقذف بكل مكنونها من الآلام التي لقيها، والحوادث التي فعلت فيه فعلها، وكاد يصرح بما لقي من كيد العلويين له في مسألة نسبه على ما فسرناه، وما قصِد به من الحسد والوشاية. ويكني أن نشير هنا إلى بيت واحد من قصيدته في رثاء جدته لتعلم أين بلغ الألم من قلب أبي الطيب حتى مزقه، والبيت لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل، وفي تدبره أو تأمل لفظه غنى، إذ كان حسرةً تحبوسةً في ألفاظ، وكداً مكثوفاً وراء كلمات، يقول :

(عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَعَمَتْ بِنَا      فَلَمَّا دَهَنَتْ لَمْ تَرِدْنِي بِهَا عِلْمًا)

(١) انظر ما سلف من : ١٥٦ .

(٢) انظر ما سلف من : ١٣١ .

(٣) انظر ما سلف من : ٤٧-٥١ .

مَنَافِعُهَا : مَا ضَرَّ فِي نَفْعِ غَيْرِهَا ، تَغْذِي وَتَرْوِي : أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَأَ

\* \* \*

واجتمع على أبي الطيب ما في قلبه من الألم ، وما فجعاه من موت جدته ،  
فتنزّلت نفسه بقوتها حيناً ، واستسلمت بحكمتها وفلسفتها أحياناً ، وهو فيهما  
جميعاً حكيم بليغ ، فهو بعد أن ثار ما ثار بمنزل قوله في رثاء جدته :

كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا ، إِذَا شِئْتَ فَأَذْهَبِي ، وَيَا نَفْسُ زَيْدِي فِي كَرَاهِيهَا قَدْ مَاتَا  
فَلَا عِبْرَتَ بِي سَاعَةً لَا تُعْزِي وَلَا صَحِيحَتِي مُهِجَةً تَقْبِلُ الظَّلَامَا

وَأَنطَلِقُ مِنْ بِنْدَادٍ = حيث كان حين ماتت جدته = فاصداً أنطاكية  
بالشام ، يقول في القاضى « أبى الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي » :

أَنْتُمْ وَلَدٌ فَلَا تُمُورُ أَوَّخِرُهُ أَبَدًا ، إِذَا كَانَتْ لَهْنٌ أَوَّائِلُ  
مَا دُمْتَ مِنْ أَرْبِ الْحِسَانِ ، فَإِنَّمَا رَوْقُ الشَّبَابِ عَلَيْكَ ظِلٌّ زَائِلُ  
لِلْهَوِ أَوْنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا قُبْلُ يَزْوَدُهَا حَبِيبٌ رَاحِلُ  
جَمْعُ الزَّمَانِ ، فَلَا لِلْيَدِّ خَالِصٌ مِمَّا يَشُوبُ ، وَلَا سُرُورٌ كَامِلُ

ومثل هذا الرأى قليل عند أبي الطيب ، بل هو ليس من عادته ، ولا  
مما يواتيه طبعه على معاطاته والعمل به ، وإنما أتاه من أنه كان قد اشتدَّ في  
فورته إلى الغاية حتى بلغ أقصى ما تختمله نفسه من القنّت والمشقة ، ثم أصابته  
فترة تعقب ذلك لا بد منها ، فاستخرجت حكمتها هذا المعنى ، وهو يحمل من  
اليأس والتعب والتصب ما ترى في مثل قوله : « رَوْقُ الشَّبَابِ عَلَيْكَ ظِلٌّ زَائِلٌ »  
وقوله : « جَمْعُ الزَّمَانِ ... » ، فهذا كلام اليأس المستسلم ، إذا قاله

هـنَ كَانَ مِثْلَ ابْنِ الطَّيِّبِ فِي تَدْفِئِهِ وَتَقَحُّمِهِ وَثَوْرَتِهِ ، فَهُوَ أَشْبَهُ بِالِاسْتِجَامِ  
 مِنَ التَّعَبِ وَالشَّقْوَةِ وَالنَّصَبِ . هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَالَةَ الَّتِي كَانَتْ مُتَبَسِّئَةً بِهِ ، لَمْ  
 تَتَفَارَقْ كُلَّ الْفَارَقَةِ ، بَلْ كَانَتْ فِيهِ أَعْقَابُهَا ، فَلَمَّا قَصَدَ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَصَدَّاهَا  
 عَلَى طَبْعِهِ وَغَيْرِئِهِ ، وَالَّتِي تَكُونُ بِالْقَاظِهَا كَالْقَبْلَةِ فِي حَدِيدِهَا ، خَرَجَتْ مِنْهُ  
 الْإِلْفُ تَعْبِيرًا . وَأَقْلَ تَفَجَّرَ مِنْهَا فِي غَيْرِهَا .. فَيَقُولُ لِهَذَا الْقَاضِي :

لَا تَجْسُرُ الْفُصْحَاءُ تُنْشِدُ هَهُنَا      يَتَا ، وَلَيْكُنِّي الْمِزْبَرُ الْبَاسِلُ  
 مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ      شَعْرَى وَلَا سَمِعَتْ بِسَعْرَى بَابِلُ  
 ( وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَذْمُومِي مِنْ نَاقِصٍ      فِيهِ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ )  
 مَنْ لِي بِفَقْهِمْ أَهْلِيلَ عَصْرِ يَدْعَى      أَلَنْ يَحْسَبَ الْهِنْدِيُّ - فِيهِمْ بِأَقْلُ

... وكذلك ، ولكنه أقوى قليلاً ، مَا أَتَى بِهِ بَعْدُ فِي قَصِيدَتِهِ لِأَخِي هَذَا  
 « الْقَاضِي » ، وَهُوَ « أَبُو سَهْلٍ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْأَنْطَاكِيُّ » ، إِذْ  
 يَقُولُ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ :

إِذَا قَدِمْتُ عَلَى الْأَهْوَالِ شَيْعَنِي      قَلْبٌ ، إِذَا شِئْتُ أَنْ أَسْلَا كُمْ خَانَا  
 ( أُنْذُو فَيَسْجُدُ مِنْ بَالِشَوْءٍ يَذْكُرُنِي ،      فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْعًا وَإِهْوَانَا )  
 ( وَمَهْكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِ وَفِي وَطَنِي      إِنْ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَتِيمًا كَانَا )  
 ( مُحْسَدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي      أَلَّتِي الْكَيْسَى ، وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا )  
 ( لَا أَشْرَيْتُ إِلَى مَا لَمْ يُفْتِ طَمَعًا ،      وَلَا أَبَيْتُ عَلَى مَا فَاتَ حَسْرَانَا )  
 وَلَا أَشْرَيْتُ بِمَا غَيْرِي الْحَمِيدُ بِهِ ،      وَلَوْ تَحَلَّتْ إِلَى الدَّهْرِ مَلَانَا

وَفِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ يُلْتَفَتُ ، عَلَى عَادَتِهِ ، إِلَى الْأَيَّامِ الَّتِي مَضَتْ لَهُ بِالْكُوفَةِ  
 وَطَنِهِ ، وَمَا لَقِيَ هُنَاكَ فِي خَبَرِ مَوْتِ جَدِّهِ ، فَيَذْكُرُهَا فَيُثَبِّتُهَا فِي شِعْرِهِ ،

والالتفات في شعر المتنبي من معنى إلى معنى ، هو الذي تستطيع أن تستخرج به أسرار الرجل كلها ، إذ كان على ما وصفنا لك يستوعب ما يدور بقلبه من انخواط والإحساس والآلام ويستخرج منها معاني شعره . فالتفاتة هنا بعد رجوعه من وطنه الكوفة ، دليل على ما كان قد لقي هناك من الكيد ، وهذه الصفات التي وصف بها نفسه هي أيضاً من أثر ما لقي هناك .

\* \* \*

ولم يلبث صاحبنا أن ثابت إليه قوته ، فنفضت عن نفسه أسباب اليأس والنشوع ، وألجأته إلى طريقته الشعرية التي تميز بها وانفرد ، وهي طريقة طبيعته النائرة المستوفزة للباهية للقتال والتضال . ولكنه حين بدأ يعود إلى المذهب الذي جرى عليه ، كما رأيت فيما مضى ، كان لا يزال متثائباً كالمستيقظ من سبات عميق قد فتره . . . فذلك قوله بعد ذلك وهو بأنطاكية أيضاً حين مدح « أبا أيوب أحمد بن عمران » :

وَمَطَالِبٍ فِيهَا الْمَلَاكُ ، أَتَيْتُهَا      ثَبِتَ الْجَنَانُ كَأَنِّي لَمْ آتِهَا  
وَمَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غَادَرْتُهَا      أَقْوَاتَ وَخَشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِهَا<sup>(١)</sup>  
أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الْجِيَادِ ، كَأَنَّمَا      أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا

فذكره الماضي وما كان فيه من الغامرة والتفخم والقتال والكفاح ، أشبه بقصة من يقص عليك حُلماً كان رآه في نومه ، فهو لا ينظر إلى

(١) « المقانيب » ، طائفة من الخيل يركبها أصحابها للنارة .

المستقبل كعادته ، ولا يُنذِر ولا يُوعِد ، ولا يَصِف ما سيكون منه بعدُ ، كما رأيت في شعره الذى سبق هذه الفترة التى أصابته . ويؤيِّد هذا أنَّ حكيمته كانت تجرى هذا الجرى من كلام الأحلام = وكذلك كان مدحه = فهو يقول في حكيمته في هذه القصيدة :

فِى النَّاسِ أَمْثَلَةٌ تَدُورُ ، حَيَاتُهَا كَمَاتُهَا وَمَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا  
فَالْمُنْبِى لَوْ كَانَ فِى غَيْرِ حَالَتِهِ تِلْكَ ، لَأَخَذَ هَذَا الْمُنَى وَرَمَاهُ إِلَيْكَ مُتَجَجِرًا  
مَدُونِيًّا ، وَلَوْ جَدْتَ كُلَّ كَلِمَةٍ مِنْهُ مَلَأَى بِمَا فِى نَفْسِهِ مِنَ الْإِزْدِرَاءِ لِلنَّاسِ ،  
وَالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ ، وَلَأَبْدَعَ فِى السَّخَرِيَّةِ وَالتَّهَكُّمِ عَلَى عَادَتِهِ حِينَ يَتَنَاوَلُ أَمْثَالَ  
هَذِهِ الْمَعَانِي ، كَقَوْلِهِ فِيمَا مَرَّ بِكَ :

حَوَّلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ (خَلَقَ) تُخْطِئِي إِذَا جِئْتِ فِى اسْتِفْهَامِهَا ، بِنِّ ؟

\* \* \*

وكانت أيامه تلك هى آخره الفتور الذى حدث من طُمَاحِهِ وَجَاحِهِ ، ثم نبرى كأشد ما كان ، وقد اجتمعت نفسه وتَصَامَّتْ شَتَاتُهَا ، وعادت إليه أفكاره كُلُّهَا ، فهو ينقل منها فى شعره نَقْلًا بَيِّنًا ، ولا يُضْمِرُ إِلَّا مَا كَانَ لَابِدَتْ لَهُ مِنْ إِضْمَارِهِ ، وهو الآنَ منطلقٌ فى الحديث عن نفسه وعَمَّا يَجُولُ فِى صدره ، فلما قدم على « على بن أحمد الأنطاكي » يمدحه ، قذف فى وجهه بهذه الأبيات :

أَطَاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرِ وَحِيدًا ، وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَيِّ الصَّبْرِ ؟

فهذه صورة مما كانت عليه نفسه قبل ما ذكرناه ثم انتقله بعد إلى طبيعته القوية كما سترى . فهو حين ذكر أنه يقاتل « الدهر » ، ذكر أنه يقاتله وحيدًا

لا ناصر له ولا عَصُد. فلما جرى ذلك في ضميره ، أبت عليه كبرياؤه أن  
يضعف في القتال لتوحده وانفراده وقلة ناصره ، فاستدرك على هذا المعنى  
الذي خطر له ، فلام نفسه أن يخطر لها هذا الخاطر ، وهو نذير الضعف  
والاستسلام والخضوع ، قال : « وما قولى هذا القول المستضعف الدليل ،  
ومعنى أقوى ناصر ، وأشد عَصُد ، وهو هذا الصبر الذى أقاتل به ، وهو  
عندى مُفْنٍ عن الأنصار والأشياء » ، ثم تفجر بعد ذلك :

وأشجعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلَامَتِي ، وما كَبَّهَتْ إِلَّا وَفَى نَفْسُهَا أَمْرُ  
تَمَرَّسْتُ بِالْأَفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا تَقُولُ : أَمَاتَ اللَّوْتُ ، أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟  
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآثِي ، كَانَ لِي سَوَى مَهْجِي ، أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتَرٌ (١)  
ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَسَمْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ، ففترق جاران دَارُهَا الْعُرُ

وهذا كله تعليق على الشطر الأول من البيت الأول ، وجدال قائم بين  
الفترة التى كانت قد أصابته وما علق به من آثارها ، وما أنبطت في نفسه من  
المعانى والآراء = وَبَيْنَ الطبيعة التى تقوم عليها شخصيته وتتميز بها نفسه ،  
وهى طبيعة القوة والتعظم ، وما تفجر هذه الطبيعة في نفسه من معانى الإقدام ،  
وما تولد له من الآراء والأحكام . فلذلك كانت الأبيات التى تليها هى انتصار  
طبيعته القوية المشبوبة الفتية ، وكانت الآراء التى تضمنتها هى الآراء التى  
كثُر ورودها في شعره ، اجتمعت فيها آراؤه في المجد الذى يصبو إليه ، وفيما  
يجب أن يأخذ نفسه به لإدراكه ، وأحكامه على أهل عصره ، وفي استسقاطه  
لهم ، وخاصة ملوكهم وأمراءهم الذين قاربهم فلم يجد فيهم خيراً ، بل وجدهم

خِذْلَانَا لِمَنِ اسْتَنْصَرِم ، وَخِيَا وَخِذَاعًا لِمَنِ اسْتَنْصَحِم ، قَالَ فِي أَعْتَابِ  
الْأَيَّاتِ الَّتِي رَوَيْنَاهَا :

وَلَا تَحْسَبَنَّ الْجَدَّ زِقًا وَقَيْنَةً ، فَالْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ  
( وَتَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْمُلُوكِ ، وَأَنْ تُرَى لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعُسُكْرُ الْبَجْرُ )  
( وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا ، كَأَنَّمَا تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْسَلُهُ الْعُسْرُ )  
( إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعَكَ عَنْ شُكْرٍ نَاقِصٍ عَلَى هِيَةٍ ، فَالْفَضْلُ يَمِينُ لَهُ الشُّكْرُ )  
( وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي تَجَمُّعِ مَالِهِ تَخَافُهُ فَقِيرٌ ، فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ )  
( عَلَى لِأَهْلِ الْجَوْرِ كُلِّ طِمْرَةٍ عَلَيْهَا غُلَامٌ مِلْهُ حَبِيزُومُهُ غِمْرُ )  
( يُدِيرُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمْ كُؤُوسُ الْمَنَآيَا حَيْثُ لَا تُشْتَهَى الْخَمْرُ )  
( وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَنَّي الْجِبَالُ ، وَبَحْرٍ شَاهِدُ أَنَّي الْبَحْرُ )

( وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْتَهَا وَمَا يَقْتَضِي مِنْ جَمَاجِمِ الْمُسْرِ )  
( وَأَنَّى رَأَيْتُ الضَّرَّ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَأَهْوَنَ مِنْ مَرَأَى صَغِيرٍ بِهِ كِبَرٌ )<sup>(١)</sup>

\* \* \*

وأخذ المتنبي بعد ذلك يشتد في نفسه ويقوى على أثر ما أصابه من الفتور ،  
وأخذ يستعرض حياته كلها ويستخرج ما فيها ، ويسيطر آراءه ويختار منها ،

(١) أظن أن القاري ليس في حاجة يهد إلى الوقوف به عند كل مفصل القول ، ففي ما قدمناه من المنهج كفاية له ، وحسب أن يلمس عند كل بيت المثلثان المستغرق في التدبر ، فتفجر في نفسه المعاني ، وبذلك يرى حقيقة الرجل بمثابة مجسة في ألفاظه وأبياته . ولن نعرف المتنبي إلا أن نعمل ما نرىك من الرأي .

وبصوغها في شعره ، وكل ذلك مما بينه على ما مرّ به من أحداث الزمن =  
 فإنه حين رحل عن أنطاكية قاصداً دمشق نزل في طريقه على « علي بن محمد  
 ابن سيار بن مكرم التميمي » ، فكان مما ورد في شعره له قوله :

وما سكنى سوى قتل الأعادى ، قتل من ذورة تشفي القلوباً  
 تظل الطير منها في حديث تردّد به الصراصر والتعيباً<sup>(١)</sup>

ثم يستذكر ما لقي من الحساد ، كأبن كروس وغيره ممن آذوه وهو  
 مطربة وأنطاكية وغيرها ، فيقول حين ذكر الليل :

أقلبُ فيه أجفاني كأي أعدّ به على الدهر الذنوباً  
 ( وما ليلٌ بأطول من نهارٍ يظلّ بلحظٍ حسّادى مشوباً )  
 ( وما موتٌ بأقض من حياة أرى لهم معي فيها نصيباً )  
 ( عرفت نوائب الخلدان حتى لو أنسبت لكنت لها نقيباً )

ثم يزيد على ذلك إذ يذكر آراؤه في الحياة وما كان منه في مسعاه للمجد  
 وطلبه ، وما كان خرج في إدراكه من الثأر والمطالبة ( بحقه ) المهضوم في  
 انتسابه للعوية كما مرّ بك ، ثم ما مرّ به من الأحداث ، ومن لقي من الناس  
 الذين استندعوا احتقاره لهم وازدراءه إياهم ، وهو مع ذلك مضطرب إلى مماناة  
 عشرتهم ومصادقتهم ، ثم يذكر موت جدّته بالكوفة ، وأثر ذلك في نفسه ،  
 وهي التي يحبها حبّ الوفاء والإخلاص والبنوة ، وذلك إذ يقول :

(١) « الطير » هنا هي النور تقع على جيف القتلى . و « الصرصر » ، صوت البازي  
 و « التعيب » صوت التراب .



أَقْلُ قَمَالِي ، بَلَّةُ أَكْثَرُهُ ، جَدُّ وَذَا الْجِدِّ فِيهِ ، نِلْتُ أَوَّلَ أُنْثَى ، جَدَّةٌ (١)  
( سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَاجِرِ كَانَهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمَسُّوا مُرْدُ )

( أَذْنُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلُهُ ، فَأَعْلَمُهُمْ قَدَمٌ ، وَأَخْزَمُهُمْ وَغْدُ )  
( وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمٍ ، وَأَسْهَدُهُمْ فَهْدٌ ، وَأَشْجَعُهُمْ قَرْدُ )  
وَمِنْ تَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ ، أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ ، مَأْمِنَ صِدَاقَتِهِ بُدُّ  
بِقَلْبِي ، وَإِنْ لَمْ أَرَوْهَا مِنْهَا ، مَلَالَةٌ ، وَبِئْسَ غَوَانِيهَا ، وَإِنْ وَصَلَتْ ، صَدُّ

فهذه كما ترى كلمات كلها منتزعة مما كان في حياته لذلك العهد ، وما أصابه من الرزايا ، وما أدركه من الإخفاق في المطلب ، وما أوزرته ذلك من الحسرة والمرارة وألم الحرمان . ولما كان ذلك كله مما أصابه إنما أصابه ، على ما ذهبنا إليه أولاً ، في طريقه وهو يسعى لإدراك ثأره عند العلويين الذين ظلموه وظلموا جدته وأتزلوها بشر منزلته ، وكانت جدته قد ماتت قبيل ذلك الوقت بقليل ، وكان أثر موتها لا يزال يحز في نفسه = التفت قلبه إلى تلك الحبيبة التي فارقت ، وانتقل من هذه المعاني التي تراها في الأبيات السابقة إلى ذكرى جدته ، فقال :

خَلِيلَايَ دُونَ النَّاسِ حُزْنٌ وَعَبْرَةٌ عَلَى فَقْدٍ مِنْ أَحَبِّتُ ، مَا لَهَا فَقْدُ  
تَلَجَّ دُمُوعِي بِالْجُفُونِ ، كَأَنَّمَا جُفُونِي ، لَيَقْنِي كُلُّ بَاكِئَةٍ ، خَدُّ

(١) « الجد » ، الأولى بكسر الجيم ، الاجتهاد . و « الجد » الثانية بفتح الجيم ، وهو الحفظ والنصيب .

ثم تلبث صاحبنا بعد هذين البيتين وهو يكتبهما ، وتأمل أحزانه وآلامه ،  
ورأى أن البكاء والتخيب مما لا يحل به . وكيف يبكي ويقول وهو من  
هو في الصبر والجلد وتحمل النكبات غير جازع ولا متعلل ؟ وقد لقي بصبره ،  
في سبيل جدته وفي سبيل نفسه ، كل نائبة ، وطوى الأرض موكلاً بذرعها  
غير حافل ، وقامى من الحسد ما قامى ، وأصابه من عداوة الناس له ما أصابه ،  
فاغتابوه وآذوه ، فاستدرك صاحبنا على بكاء جدته بقوله بعدُ يصف نفسه  
وما كان منه وما كان من أعدائه :

وَأَصْبِرُ عَنْهُ مِثْلَمَا تَصْبِرُ الرَّبْدُ<sup>(١)</sup>      وَلَمَّا لَتُعْنِي مِنَ الْمَاءِ نُفْبَةٌ  
وَأَطْوَى كَمَا يَمْضِي السَّنَانُ لِعَلِّي<sup>(٢)</sup>      وَأَمْضَى كَمَا تَطْوَى الْمَجْلَحَةُ الْعَقْدُ<sup>(٣)</sup>  
وَأَكْبِرُ نَفْسِي عَنْ جَزَاءِ يَفِيبَةٍ ،      وَكُلُّ اغْتِيَابٍ جُهْدٌ مِنْ لَالِهٍ جُهْدُ  
وَأَرْحَمُ أَهْوَاءًا مِنَ الْعِيِّ وَالْعَبَى      وَأَعْذِرُ فِي بُغْضِي لَأَنَّهُمْ ضِدُّ

\* \* \*

وعلى ما وصفنا لك من حالته ، ومما يلج في صدره ويعتلج في نفسه ،  
انحدر إلى دمشق ولم يقم بها إلا قليلاً ، وقصد طبرية ، وذلك في سنة ٣٣٦ ،  
ولعل ابن كروّس كان قد غادرها إذ ذاك . والظاهر أن أبا الطيب إنما  
دخلها في جوار بعض أصحابه ، ومن كانوا يكرمونه من أهل الفضل والنبيل ،  
وأطمأن قليلاً بها ، ثم هاجت العلوية عليه مرة أخرى ، وأثبتوا عليه عداوتهم ،

(١) « الربد » جمع « ربداء » ، وهي النعام ، وهي أصبر شيء عن الماء .

(٢) « أطوى » ، أى أجوع . و « المجلحة العقد » ، الزناب الجريئة ، في أذنانها التواء  
كأنه عقدة .

وأرادوا أن يكيدوا له كيّداً ليخلصوا منه ومن أفعاله ، ونحسب أن أبا الطيب كانت له في البلاد التي دخلها شِيعَةٌ تُشاركه الرأى وتنعصب لمذهبه في السياسة ، وتزِيد في تعصُّبها لشعره وأدبه ، فكان ذلك سبباً في إثارة الفتن في كثير من البلاد التي دخلها ...

وأنتَ ، فلا تظنَّ أن مثل أبي الطيب كان إذا دخل بلداً دخله صامتاً تحيِّطُ الشفتين ، لا يفتحهما إلّا حين ينشد قصيدته في « اللديح » في مجلس من مدحه ، ثم ينصرف إلى داره منزوياً في ركن من أركانها ، حتى يأذن له شيطان شعره بقصيدة أخرى وهكذا وهم جرّاء . كلاً ، فإننا لانشك في أن أبا الطيب = ذلك الظريف المجلس ، الحاضر البديهة ، الحلو النادرة ، الأديب النفس ، صاحب الرأى في السياسة ، وطالب الحكمة أنى كانت ، والناثر على حكام عصره ، والمزدرى لأهل زمانه = والذي تنبّئ في شعره مواضع التجربة الطويلة ، والخطبة النافذة ، والتمرس بالأخلاق عاليها وسفاسفها ، والذي كان شعره قطعة من إحساسه وطبيعته ، ومما يسها بما يدور حولها أو يدانيها من إحساس الناس وطبائعهم = والذي كان شعره يتم على تلك الطبيعة البركانية المتفجرة التي لا تهدأ إلّا ربّما ترتد إليها قوتها القاصفة العاصفة النافسة = والذي لم تكن هذه الظاهرة في شعره دعوى أو باطلاً أو ظاهراً لا باطن له ، إذ لو كان ذلك كذلك ، لوقع فيها التخالف على تطاول السنين ، ولنقصت وضعفت بضعف الأسياح الجالبة لها = والذي كان ذا لسان وبيان ، وكان جدلاً طلق اللسان أبى النفس ، لا يهاب أن يصارع وأن يكشف عن ضميره على شدة ما لقي من الكيد والمكر والترصص والرصد ، ثم كان ( الرّجل ) الشاعر الفرد من أهل عصره الذي كشف عن

سَيِّئَاتِ الْعَصْرِ ، وَصَوْرَ رَدِّ أَثَلِهِ كُلِّهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ شَعْرِهِ = وَالَّذِي كَانَ قَرِيبًا  
مِنْ الْأَمْرَاءِ ، أَثِيرًا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ لَقِيهِمْ = أَقُولُ : أَنَا لَا أَشُكُّ ، وَلَا تَشْكُنُّ  
أَنْتَ ، فِي أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ ، قَدْ أَثَارَ كَثِيرًا مِنَ الْجَدَلِ فِي الْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ ، وَتَمَرَّسَ  
بِالنَّاسِ وَتَمَرَّسُوا بِهِ ، وَأَخَذَ وَأَعْطَى ، وَنَاقَشَ وَجَاحَلَ ، وَذَهَبَ مَذْهَبًا فِي  
تَنَاوُلِ الْأَرَاءِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَبَيَّنَّ  
رَأْيَهُ فِيهَا فِي مَجَالِسِ أَصْحَابِهِ ، وَتَنَاقَلَتْ الْأَلْسُنَةُ مَا كَانَ يَقُولُ ، وَوَجَدَ حَسَادَهُ  
مِنْ تَكْشُفِهِ وَصَرَاحَتِهِ مَطْعَنًا وَمَقْتَلًا يَطْمَعُونَهُ فِيهِ ، وَظَفَرَ الْوِشَاةَ بِفِذَاءِ  
قُلُوبِهِمْ وَزَادَ أَلْسِنَتُهُمْ مِمَّا كَانَ الرَّجُلُ يَكْشِفُ بِهِ مِنَ الرَّأْيِ ، وَمَا يَبْدِيهِ مِنَ  
النُّظَرَاتِ وَالْأَفْكَارِ ، فَسَعَوْا بِهِ إِلَى أَعْدَائِهِ ، وَإِلَى الَّذِينَ كَانُوا يَضْمُرُونَ لَهُ  
السُّوءَ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ ، أَوْ مَنْ كَانُوا يَعَادُونَ أَبَا الطَّيِّبِ لِأَسْبَابِ  
خَفِيَّتِهِ عَنِ السُّعَاةِ وَالْوِشَاةِ ، وَإِنْ لَمْ يَخَفْ عَنْهُمْ أَنْ هَؤُلَاءِ كَانُوا مِنْ لَا يَمِيلُونَ  
إِلَى بَقَائِهِ بَيْنَهُمْ ، أَوْ مَنْ يَتَرَبَّصُونَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَهُمْ بِحَذَرِهِ  
وَدَهَائِهِ .

\* \* \*

فَبَيَّنَّ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ دَخَلَ « طَبْرِيَّةَ » ، عَلَى حَالَتِهِ تِلْكَ الَّتِي نَصِفَ ،  
مُرَافِعًا لِلْعُلُوِّينَ ، ثُمَّ لَمَّا كَانُوا يَكِيدُونَ لَهُ قَبْلَ عَهْدِ بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ ، وَالَّذِي  
كَانَ يَتَوَلَّى كِبَرًا مَا يَأْتُونَ بِهِ هُوَ الْأَعْمُورُ بْنُ كُرُوسَ كَأَمْرٍ بَكَ . وَكَانَ  
أَبُو الطَّيِّبِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي بَقِيَهَا بِطَبْرِيَّةَ حَذِرًا مُتَوَجِّسًا بِتَرْقُبٍ ، وَكَانَ  
بِالرَّمْلَةِ إِذْ ذَٰكَ (سَنَةِ ٣٣٦) الْأَمِيرُ « أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ طُغْجَرٍ » ،  
فَلَمَّا أَتَاهُ الْخَبِيرُ بِأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ نَازَلَ بِطَبْرِيَّةَ ، طَمِعَ فِي مَدِيحِ أَبِي الطَّيِّبِ ، وَوَدَّ

لنزل عليه وأقام عنده مكرماً ، فلم يزل يرأسه أن يتحمل إليه وينزل عنده ،  
فأضمر أبو الطيب الرحلة إليه ، وكان الخبر قد بلغ العلويين أن « أبا محمد  
ابن طنج » راسله وعزم عليه في الرحلة إليه ، فألقوها شهرةً معتزة أن يفتكروا  
به ، وتوهموا الطريق التي سركبها أبو الطيب ولا بد ، في رحلته ، فأرصدوا  
له جماعة من عبيدهم السودان بقرية بالقرب من طبرية يقال لها « كفر عاقب » ،  
وأمرهم أن لا يفلتوا الرجل إلا جثة دامية . والظاهر أن أبا الطيب كان  
قد جرى في خاطره أنهم فاعلوا مثل ذلك ، تخالف الطريق التي درج السابلة  
على ركوبها ما بين طبرية والرملة ، فلما فات الرصد ، وبلغه ما كانوا قد  
عزموا عليه ، وما كانوا قد أرصدوا له ربت نفسه ، وزفر زفرته من هذا  
الكيد اللاحق بكل طريق ، وثار في صدره الزوطة التي كانت تنور  
فيه كلما ابتلى بلاء من العداوة ، أو أصيب بمصيبة من الكيد والمكر السيئ .  
فلما دخل الرملة ليمدح الأمير أبا محمد ابن طنج ، كان يفور و يغلي ويتقلقل  
ويتفجّر ، فلم يأخذ نفسه بأدب المديح والزيارة البتة ، ورمى في وجه مدوحه  
بقنابله قبل أن يمدح إلى مديحه فقال :

فأبى ولدتنيا ، طلابي نجومها ، ومسماى منها في شذوق الأرقام  
من الحليم أن تستعمل الجهل دونه ، إذا اتسعت في الحلم طرقي الظالم  
وأن ترد الماء الذي شطره دم فتسقى ، إذا لم يسق من لم ير أرحم  
ومن عرق الأيام ، معرفتي بها وبالفاس ، روى رمتي غير راحم  
فليس يمزحوم إذا ظفروا به ، ولا في الردى الجارى عليهم بائم

ثم التفت إلى نفسه ( يمدحها ) ، قبل أن يمدح ابن طنج ، فقال :

إِذَا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالًا لِفَاتِكَ ، وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالًا لِمَالِمٍ .

وقد قدمنا لك في أثناء القول أن أبا الطيب كان إذا نزل به نازل مما يكرُّه من الذمِّ والمهمِّ ، اشتدَّ به ذلك وأخذ عليه نفسه ، فينصرف فكره كله إلى التدبر فيما مضى عليه من الرزايا ، وما أجب عليه من العُدَّة وعداواتهم . ولا يزال يحدِّق ببصره في هذه الحالة ، مُستوعباً كلَّ إحساس في نفسه ، وكلَّ ما مرَّ به وأصاب منه ، حتى تنفجر في قلبه ونفسه ينابيع البيان ، فينتزع الحكمة من قلبه ولها أصولٌ تاريخية ضاربة فيه . فإذا تدبرت الأبيات السالفة وجدت فيها تاريخ قلبه وتاريخ مصائبه كلّها ، على ما سُئِنَا في حديثنا .

ثم إن أبا الطيب لما كَرَّبه أمرُ العلويين الذين أرسدوا له بكفر عاقبٍ ، ارتدَّ إلى الحالة التي وصفنا ، فلم يزل يدورُ ذلك في فكره بين قلبه ولسانه ، فلم يقدر أن يمتنع عن ذكره في شعره الذي قاله في مديح أبي محمد خاصة ، ثم في شعره الذي قاله بعدُ لطاهر المالوي كما سترى . فما قال لأبي محمد يذْكُرُ هذا الكيدَ الذي كيد به في طبرية :

كَرِيمٌ لَفَطْتُ النَّاسَ لِمَا بَلَفَتُهُ      كَانَهُمْ مَاجِفٌ مِنْ رَادٍ قَادِمٍ  
وَكَادَ سُورِي لَأَبْقَى بِنْدَامَتِي      عَلَى تَرْكِهِ فِي عُجْرِي لِلتَّقَادِمِ  
(وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَتُرْبَةً      بِهَا (عَلَوِيٌّ) جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمٍ)

والظاهر أنه كانت بين الأمير ابن طُغْج وهذا المالوي الذي كاد هو وشيعته لأبي الطيب في مخرجه من طبرية ، عداوة قائمة ، وأنَّ هذا الكيد

كان لسبيين : الأول ، ما كان بين العلويين وبين أبي الطيب كما قدمنا ،  
والآخر ، هذه العداوة بين رأس العلويين بطبرية وهذا الأمير الذي خرج  
أبو الطيب من طبرية قاصداً له مادحاً إليه ، فلذلك قال أبو الطيب فيما على  
ما أنشدناه :

بَلَا اللَّهُ (حُسَادَ) الْأَمِيرِ بِحِلِّهِ ، وَأَجْلَسَهُ مِنْهُمْ مَكَانَ الْعَتَائِمِ  
فَإِنَّ لَهُمْ فِي مُرْعَةِ الْمَوْتِ رَاحَةً ، وَلَنْ لَهُمْ فِي الْعَيْشِ حَزَّ الْفَلَاحِمِ (١)

\* \* \*

هذا ، وقد بقي أبو الطيب في جوار الأمير أبي محمد بالرملة مكرماً ،  
يصحبه الأمير في رحلاته ، ويحضره مجلسه ، ويرافقه في زياراته ، ويُفضل عليه  
كل الإنصال ، حتى أرضى ذلك القلب الذي كان يُعجزُ الأعاجم فيه طبيعة  
ثانية قائمة لَا تَقْفَرُ . وكان من أصحاب هذا الأمير رجل من شيوخ العلويين  
بالرملة ، وأبناء شيوخهم ، وكانت له ولأهله أياد كثيرة . عند بني طُفَّج ، فلم  
يقت الأمير أبا محمد ما في مدح أبي الطيب له ، وقد ترك أن يمدح رجلاً جليلاً  
كصاحبه هذا « أبي القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوي » ، فرغب إلى  
أبي الطيب أن يمدحه ، وكان من أبي الطيب ما كان في امتناعه على ما مرَّ  
بك ، (٢) فلما أجاب أبو الطيب الأمير إلى مدحه مُرغماً ، حاملاً على نفسه =  
إذ كان قلبه لا يرضى أبداً عن هؤلاء العلويين الذين آذوه ، والذين لقي من  
كيدهم بالأمس القريب مالتى ، من إرصادهم لقتله قال قصيدته يمدح أبا القاسم

(١) « حز الفلاحم » ، قطع الأعناق . و « الفلصة » لحة نائمة عند رأس المقوم .

(٢) انظر ص : ٢٨ - ٣٢

طاهر بن الحسن بن طاهر ، ولكنه قدّم قبل مديحه هذه الأبيات ، وفيها ما فيها من لَمَزٍ قوم من (العلويين) ، لعلهم أن تكون بينهم وبين طاهر قرابة دانية ؟ ، وانحطاب في الأبيات لا مرأة ذكرها في تشييب القصيدة :

تُخَوِّفُنِي دُونَ الَّذِي أَمَرْتَ بِهِ      وَلَمْ تَدْرِي أَنَّ التَّارَ شَرُّ التَّوَاقِبِ  
(وَلَا بَدْءَ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَى مُحَبِّلِ)      يَطُولُ اسْتِمَاعِي بَعْدَهُ لِلتَّوَادِبِ  
يَهُونُ عَلَى مِثْلِي إِذَا رَأَى حَاجَةً      وَفُوقَ الْقَوَالِي دُونَهَا وَالْقَوَاضِيبِ  
كَثِيرُ حَيَاةِ الْمَرْءِ مِثْلُ قَلِيلِهَا      يَزُولُ ، وَبَاقِي عَيْشِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ  
إِلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَنْ إِذَا اتَّقَى      عِضَاضُ الْأَفَاعِي نَامَ قَوْقُ التَّعَارِبِ  
(أَتَانِي وَعَيْدُ الْأَذْيَاءِ وَأَنْتُمْ)      أَعَدُّوْا إِلَى السُّودَانِ فِي كَفْرِ عَاقِبِ  
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذَرْتُهُمْ      فَهَلْ فِي وَحْدِي قُوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ ؟

ثم التفت إلى نفسه (يمدحها) قبل مدح الشريف العلوي ، كما مرّ بك في قصيدة الأمير ابن طُفَّج ، <sup>(١)</sup> فقال فيما يلي ذلك :

إِلَى الْقَمَرِي ، قَصْدُ كُلِّ عَجِيبَةٍ      كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عُيُونِ الْمُجَانِبِ  
بَأْيُ بِلَادٍ لَمْ أَجْزْ ذَوَابِتِي ١٩      وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَّأْهُ رِكَائِي ٢٠ ؟

وقد مضى ذكر هذه القصيدة وذكر أبيات أخرى منها ، فاكثفنا بما مضى منها عن الإعادة . <sup>(٢)</sup> على أن هناك أشياء أخرى ، كان أولى بنا التوسع في تفصيلها ، ولكننا أجلناها إلى موضعها من كتابنا وبالله التوفيق .

\*\*\*

(١) انظر ما سلف من : ١٧٥

(٢) انظر ما سلف من : ٣٠ - ٣١



ثم عزم أبو الطيب الرحلة من الرملة إلى حِوَار « أبي العشار الحسن بن  
علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي » ، فخرج من الرملة في سنة ٣٣٦  
يريد أنطاكية ، ولم يحدث له حادث إلا ما كان من أمر إسحق بن كَيْفَلَنْج  
في طلبه منه أن يمدحه ، فجهاه بقصيدته المشهورة التي أولها :

لَهْوَى النُّفُوسِ سِرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ عَرَصًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنَّي أَنَسَمُ

فلما بلغت ابن كَيْفَلَنْج ، أراد قتل أبي الطيب ، وكان إذ ذاك بطرابلس ،  
فخرج منها ، فأتبعه ابن كَيْفَلَنْج خيلاً ورجلاً فأعجزهم صاحبنا بالهرب إلى بعلبك ،  
ثم إلى دمشق ، ثم خرج من هناك إلى أنطاكية ، فلقى أبا العشار . وكان  
يما قال لهذا الأعور ابن كَيْفَلَنْج :

أَرْسَلْتَ نَسَائِي لِلدَّيْحِ سَفَاهَةً !! صَفَرَاهُ أَضْيَقُ مِنْكَ ، مَاذَا أَرْعَمُ ؟  
وَأَرْعَمْتَ مَا لِأَبِي الْعَشَّائِرِ خَالِصًا ، إِنَّ الثَّنَاءَ لِمَنْ يُرَارُ فَيُنْعِمُ  
وَلِمَنْ أَقَمْتَ عَلَى الْهَوَانِ بِيَابَهُ تَذَنُّوْا فَيُوجَأُ أَخْذَعَاكَ وَتُنْهَمُ

ثم طفق يمدح أبا العشار إلى أن قال :

وَالْوَجْهَ أَزْهَرُ ، وَالْفُؤَادَ مُشَبِّعُ ، وَالزُّمَحَ أَسْمَرُ ، وَالْخَسَامَ مُصَمَّمُ  
(أَفْعَالُ مَنْ تَلِدُ الْكِرَامُ كَرِيمَةً ، وَفَعَالُ مَنْ تَلِدُ الْأَعَاجِمُ أَعْجَمُ)

فكان أبا الطيب ، كان قد ملّ الأعاجم واستنقصهم ، وفيهم الأمير  
أبو محمد بن طنج الذي كان قد نزل عنده بالرملة ومدحه ، ونال من فواضله .



أَصِيرُ عَنْكَ ، لَمْ تَبْخَلْ بِشَيْءٍ ؟  
وَلَمْ تَقْبَلْ عَلَيَّ كَلَامَ وَاشٍ ؟  
وَمَا وَجِدَ أَشْتِيَاكَ كَأَشْتِيَايَ ،  
وَلَا عَرِفَ أَنْكَاشَ كَأَنْكَاشِي  
فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَالِي ،  
وَسَارَ سِرَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ

أردنا في الباب السَّالِف أن نُدلِّك على نَفْس أبي الطَّيِّب ، وما تميَّزَتْ به  
من شعراء العربية جميعاً ، وما أنطوت عليه من القوَّة والرُّجولة ، وما كان  
يزلزلها من الثورة التي لا تزال تهزُّه من قرارة قلبه ، فتنطلق زلازلها من  
قلبه إلى لسانه ، فيثبَّت لسانه في شعره عددَ هزَّات الزَّلْزلة وقوتها ، فلذلك  
نقلنا إليك طائفةً من شعره على التوالي في ترتيبها الزماني حتى هذا العهد الذي  
بدأ حين اتصل بأبي العشائر ، فدخل مدخلاً غيرَ الأوَّل ، وذهب في الشعر  
مذهباً عجيباً ، وتمحلت معاني نفسه من غرضٍ بعينه ، إلى غرضٍ آخر غير  
مفارقٍ للأوَّل ، بل منه استمدَّ ، وعليه بنى .<sup>(١)</sup>

\* \* \*

خرج أبو الطيب من الرملة بقلبه وبأرائه قاصداً أنطاكية التي كانت في يد بني حمدان العرب التغلبيين ، وكان يلى أمرها ، من قبل سيف الدولة ، أبو المشائر الحمداني الشاعر للبدع ، والحارب الباسل ، والعرفي الخالص الحب للعرب والعريية ، الشديد العداوة للروم والترك والدليم الذين توالى غاراتهم على الدولة العربية بالجيش تارة ، وبالدسائس والمكاييد والتمزيق تارة أخرى . وكان للتنبى قد عرف بني حمدان من قبل ، وعرف منهم خاصة سيف الدولة ، <sup>(١)</sup> الذي صار الآن سنة ٣٣٦ صاحب الشام ، والستولى على أمرها ، وللتنزعه من يد بني طُفَّج الإخشيديين الأتراك .

دَخَلَ أبو الطيب أنطاكية ليلقى العرب والعريية في مجلس بني حمدان ، وقد رمى دَبْرَ أذنه وتحت قدمه ، الأعاجم وما مدحهم به . وأراد أن ينقل شعره من تكلف المدح إلى التطلُّق والاسترسال في مدح من هم من رأيه ، ومن يجد فيهم مَرَضَةً نفسه وآماله ، ولئن كان قَبْلُ قد مدح القَوْمَ الملوَّجَ ليستخرج منهم بعض أموالهم التي غلبوا الأمة العربية عليها ، وليكون على مقربة من مكرهم ودَسَمهم ، وعلى علم بما يضمرون لأمتهم من الشرِّ الغالب على قلوبهم وعقولهم = فهو الآن قد وجد قُوَّتَهُ وأهله وعشيرته ، فليأتهم بكل غريبة من القول ، ولِيَجِدَ ذِكْرَهُم في شعره ، وليهدأ قليلاً بما كان فيه من الثورة ، ليستطيع أن يحزم رأيه وتدييره مع هؤلاء القوم ، طَلَى أن يعيدوا مجد العربية ، ( ويُدِيلُوا من دولة الخلد ) الذين غلبوا على سياسة الأمة ، ورموا

(١) قد مضى ذلك في سنة ٣٢١ ، وقد تكلمنا هناك بما فيه الكفاية إن شاء الله -  
انظر من ص ٩٣ إلى ٩٧ .

بها في موارد الهلاك والفشل ، فهذا سرُّ قوله لأبى العشائر في قصيدة مدحه  
بها ، والتي نقلنا أبياتاً منها في رأس هذا الباب :

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي (طَلَبِ الْعَالِي)      وَسَارَ سَوَايَ فِي (طَلَبِ الْعَاشِرِ)

فهو إنما قدِّم على بنى حِذان لما ذكرنا لك ، لا للتكسُّب بالشعر ،  
وأكل الخبز من قوافيه ومعانيه .

\* \* \*

رأيت قبلُ أن المتنبى كان إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجدها وعظمها ،  
ثم يبدى آراءه في الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه ، ثم يُنذِر  
ويوعد ويهدِّد . فلما بدأ اتصاله بينى حِذان ، ترك هذا النهج ، وآذخر قوته  
كلها لأمرٍ غير هذا الأمر ، وأسنع على بنى حِذان ما كان يسنع من قبل على  
نفسه من ثياب المجد ، فهو يَصِفُهم كما كان يصف نفسه ، ويعلو بهم إلى غاية  
السموِّ في القوة والسلطان والساحة والمروءة وعِظَم المطلب . ولم يذكر نفسه  
إلا حين يُخرجه الوشاة والساعون بالشرِّ بينه وبينهم .

فلما اتصل أبو الطيب بأبى العشائر ، ونال منه مكانه ، وأدرك عنده  
طليباته ، بدأت وشاة الوشاة بأنطاكية تفعل أفاعيلها مرَّةً أخرى ، ومدت  
الفتن أعناقها من قبَل شيعة الملوِّيين والفاطميين والإخشيديين والعباسيين ،  
على ما نذهب إليه ، وشعر أبو الطيب بما هنالك ، فدلَّ أبى العشائر عليه  
بلطف القول غير مُصرِّح فقال :

فَيَا بَحْرَ الْبُحُورِ ، وَلَا أَوْزَى ،      وَيَا مَلِكَ الْمُلُوكِ ، وَلَا أَحَاشَى

كَأَنَّكَ نَاطِرٌ فِي كُلِّ قَلْبٍ      فَمَا يَخْفَى عَلَيْكَ تَحُلُّ غَاشٍ ؟  
 أَأَصْبِرُ عَنْكَ ؟ لَمْ تَبْخَلْ بِشَيْءٍ ،      وَلَمْ تَقْبَلْ عَلَى كَلَامٍ وَاشٍ ؟

فَمَا خَاشِيكَ لِلتَّكْذِيبِ رَاجٍ ،      وَلَا رَاجِيكَ لِلتَّخْصِيبِ خَاشٍ  
 أَرَى النَّاسَ الظَّلَامَ ، وَأَنْتَ نُورٌ ،      وَإِنِّي مِنْهُمْ لِأَلَيْكَ عَاشٍ  
 (يَلَيْتُ بِهِمْ بِلَاءُ الْوَرْدِ يَلْقَى      أَنْوَقًا ، هُنَّ أَوَّلَى بِالْحِشَاشِ)

والظاهر أن أبا العشائر كان قد أصمَّ أذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحساد ، وما كانوا يريدون من تغليب قلبه عليه ، كما فعلوا بقلب بدر بن حمار من قبل ، فلما لم يأذن لهم أبو العشائر **أَوَّلَ أَوَّلٍ** ، زادوا في التشهير بالرجل ، وفي اجتلاب الأكاذيب في ذمه ونقيصته ، وفي التعريض به وبأدبه ، وجعلوا يذكرن ما كان في شعره من الثورة والإنذار والوعيد وذم الناس ، ويعتدون مواضع فخره على من مدحه ، ويدلون على سوء أدبه في مديحه إذ يقدم مدح نفسه ، ثم يزيد فيمدحها بما لم يمدح بمدوحه بمثله أو بما يقاربه ، ووقع إليهم ما كان يبرز به لدى بدر بن حمار من تسميته بالمتنبي .<sup>(١)</sup> فزادوا عليه ، ووضعوا من عند أنفسهم القصص في تطويل الحكاية ، وتعميم أمرها . وبدأ العلويون أيضاً يعرضون بمسألة نسبه ليخرجوه أن يصرح بنسبته العلوية ، فعندئذ لا يحدون حرجاً من أن يأخذوه كما أخذوه **أَوَّلَ** مرة ، ثم يلقوا به في غيابة السجين بضغ سنين . فلما بلغوا هذا المبلغ وضاق بهم

(١) قد مضى رأينا في هذه التسمية ، وأنها كانت لما كثر في شعره من الإنذار والوعيد ، انظر ما سلف من ١١٣ - ١١٦

أبو الطيب، لم يجد بداً من العودة إلى طريقته الأولى حين يُصرِّح ، فكان  
 مما قال في ذلك كله قبل أن يُلجَّح إلى مديح أبي العشائر :

(أَنَا ابْنُ مَنْ يَفُوقُ أَبَا الْبَاسِحِ ، وَالتَّجَلُّ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ )  
 ( وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ تَفَرَّوْهُ ، وَأَنْفَدُوا حِيلَهُ )  
 فَخَرًّا لِمَعْصِبِ أَرْوَحٍ مُسْتَمِيلَةٍ وَسَمَّيَرِي أَرْوَحٍ مُعْتَمِلَةٍ  
 وَلَيْفَ خَيْرُ الْفَخْرِ إِذْ غَدَوْتُ بِهِ مُرْتَدِيًا خَيْرَهُ وَمُنْتَمِلَةٍ  
 أَنَا الَّذِي بَيْنَ الْإِلَهِ بِهِ الْإِنْ أَقْدَارَ ، وَلَلَّزَّهُ حَيْنًا جَعَلَهُ  
 جَوْهَرَةً تَفْرَحُ الشَّرَافُ بِهَا ، وَغُصَّةً لَا تُسَيِّفُهَا السُّفُلَةُ  
 (إِنَّ الْكَذَّابَ الَّذِي أَكَادُ بِهِ أَهْوَنُ عِنْدِي مِنَ الَّذِي نَقَلَهُ )  
 فَلَا مَبَالَ ، وَلَا مُدَاجِجَ ، وَلَا وَاقِي ن ، وَلَا عَاجِزَ ، وَلَا تُكَلِّفُهُ  
 وَدَارِعَ سِفْتَهُ فَخَرٌ لَقِيَ فِي اللَّتَقَى وَالْمُتَجَاجِرِ وَالْمُتَجَلِّهِ  
 وَسَامِعَ رُغْمَهُ بَقَائِفِيهِ يَحَارُ فِيهَا الْمُتَفَحُّ الْقَوْلَةَ  
 (وَرُبَّمَا أَشْهَدُ الطَّامَامَ مَعِيَ مِنْ لَا يُسَاوِي الْخَبَرَ الَّذِي أَكَلَهُ )  
 (وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ لِي وَأَعْرِفُهُ ، وَالْذُّرْدُورُ بَرَّغَمَ مَنْ جَبَلَهُ )

ومن صدق الرجل في محبته لأبي العشائر خاصة ، وبني حمدان كافة ،  
 ففعل ما لم يفعله من قبل ، فاستدرك كل ما ذكر به من نفسه من التنظيم  
 والتبجيل فقال :

مُسْتَحْيِيًّا مِنْ أَبِي الْعَشَائِرِ أَنْ أَسْحَبَ فِي غَيْرِ أَرْضِهِ إِحْلَهُ

وقد أشار أبو الطيب في هذه القصيدة إلى أنهم زادوا على ما ذكرنا  
 من الكيد ، أنهم كانوا قد أكثروا القول لدى أبي العشائر ، وزعموا أنه

إنما كان يمدحهُ للتكسب والنيل من فواضِلِ ماله ، وتكذَّبوا عليه بكل  
نقيصة تُفسد عليه قلب أبي العشائر ... فقال :

مَالِي لَا أَمْدَحُ الْحَسِينَ ، وَلَا أَبْذُلُ مِثْلَ الْوُدِّ الَّذِي بَذَلَهُ ؟  
أَأَخْفَتِ الْعَيْنُ عِنْدَهُ أَرَأَى ! أَمْ بَلَغَ السَّكِينُ بَانَ مَا أَمَلَهُ ؟

ولكن أبا العشائر كان قد عرف ، فيما نظنُّ سرَّ الكيد الذي يكاد به  
أبو الطيب ، ولعلَّ سيف الدولة أيضاً قد بلغه مقدِّمُ أبي الطيب على أبي  
العشائر ، فكتب إليه أن يحرص على الرجل ، ولا يُسمع فيه لمنتقص ولا ذامر ،  
ولا متكذِّب ، لما يعلم من سرِّ الرجل الذي أنطوى عليه في أمرٍ نسبته العلوية ،  
كما قدَّمنا . فلذلك لم يجد الوُشاة أذناً صاغية ولا سَمِعة ، فانصرفوا برغهم ،  
ونال أبو الطيب الكرامة والعِزة في جوار أبي العشائر ، وهذا واستقرَّ  
قراره ، وأطمأن قلبه ، مُنتظراً مقدِّم سيف الدولة إلى أنطاكية في مسيره في  
نواحي البلاد التي استولى عليها بالشام . وفي هذه الفترة من الطمأنينة  
والسكينة والكرامة لدى أبي العشائر ، استعجمَ الرجل لقوته ، وادَّخر  
لسيف الدولة ذخائر قلبه وكرائم قُوَّاده .





التَّوَلَّيْنِ لِقَلْبِ الْخِلَافَةِ الَّتِي بِالْعِرَاقِ مِنْ عِبَاسِيَّةٍ سُنِّيَّةٍ إِلَى عَلَوِيَّةٍ شِيعِيَّةٍ . وَأَيْضاً  
 مَا كَانَ مِنَ الدَّعْوَةِ السَّرِيَّةِ الْجَارِفَةِ الَّتِي كَانَ يَقُومُ بِهَا دُعَاةُ الْفَاطِمِيِّينَ ،  
 وَكَانَتْ هَذِهِ أَشَدَّ الْبَلَايَا الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا الْعَالَمُ الْعَرَبِيُّ كُلُّهُ ، إِذَا أُدْخِلَتْ فِيهِ  
 مَا لَيْسَ مِنْ طَبِيعَتِهِ ، وَقَذِفَتْ بِهِ فِي ظُلُمَاءِ نَهَارُهَا مِنْ لَيْلِهَا ، وَكَانَ دُعَاؤُهَا قَدْ  
 تَفَرَّقُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ سُلْطَانِ الدَّوْلَةِ الْعِبَاسِيَّةِ ، لِيُوقِعُوا بَيْنَ الْأُمَرَاءِ ،  
 وَلِيَحْزُوا إِلَى دَعْوَتِهِمْ فَتَةً غَالِبَةً تُعِينُهُمْ عَلَى مَا يَرِيدُونَ وَمَا يُؤْمَلُونَ مِنْ إِقَامَةِ  
 الْخِلَافَةِ الْفَاطِمِيَّةِ مُمْتَدَّةً مِنَ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى إِلَى مَاورَاءِ خِرَاسَانَ .

وَكَانَ بَنُو حَمْدَانَ مِنْ شِيعَةِ الْعَلَوِيِّينَ ، وَمِنَ الْمُتَحَقِّقِينَ بِخِدْمَةِ الدَّعْوَةِ  
 الْعَلَوِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا عَرَبِيًّا يَدْعُونَ إِلَى الْعَلَوِيَّةِ لِلْعَرَبِيَّةِ ، لِمَا وَجَدُوا مِنْ غَلْبَةِ  
 الْأَعَاجِمِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعِبَاسِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُمْ حِينَ رَأَوْا مَا دَخَلَ بَيْنَ الْعَلَوِيِّينَ مِنْ  
 فِسَادِ الْأَعَاجِمِ ، وَمِنَ الدَّعْوَةِ الْفَاطِمِيَّةِ الْجَارِفَةِ ، وَكَانُوا لَا يَقْرُونَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ  
 وَلَا يَسْمَعُونَ لِأَحْبَابِهَا بِالنِّسْبَةِ الْفَاطِمِيَّةِ الْمَكْرُمَةِ = رَجَعُوا فَأَنْجَازُوا إِلَى الدَّوْلَةِ  
 الْعِبَاسِيَّةِ يَنْصُرُونَهَا وَيَنْصُرُونَ الْخَلِيفَةَ ( النَّائِمَ ) عَلَى كَرَمِ الْخِلَافَةِ . هَذَا ،  
 مَعَ إِكْرَامِهِمْ لِلْعَلَوِيِّينَ وَتَعْظِيمِهِمْ لَهُمْ . وَقَدْ أَبْدَى بَنُو حَمْدَانَ مِنَ الدَّهَاءِ ،  
 وَسَعَةَ الْحِيلَةِ ، وَحُسْنَ السِّيَاسَةِ وَالتَّنْذِيرِ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ عِقَائِدِهِمُ الْعَلَوِيَّةِ وَسِيَاسَتِهِمُ  
 الْعِبَاسِيَّةِ ، مَا لَا قَبْلَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ فِي الْإِنْيَانِ بِمِثْلِهِ ، أَوْ الْقِيَامِ  
 عَلَى أَقْلٍ مِنْهُ . وَقَدْ أُثْبِتَ بَنُو حَمْدَانَ بِسِيَاسَتِهِمْ تِلْكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ  
 إِمْتَازَ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ مِنَ الْفِتَنِ الْبَاغِيَّةِ الَّتِي فَعَلَتْ أَفَاعِيلُهَا لَهُدْمَهُمْ فِي تَضْيِيعِ  
 السُّلْطَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَاتَّقَالَ الشُّوْكَةَ وَالْمَزَّةَ إِلَى الْحُكْمِ الْعَجَمِيِّ الشُّعْبِيِّ الْفَاسِدِ  
 الطَّوِيَّةِ ، الْبَاغِي بِكَيْدِهِ الْإِيفَاقَ بِالْعَرَبِ وَدِينِهِمْ وَلِسَانِهِمْ .

وَكَانَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ بَنِي حَمْدَانَ أَكْثَرَهُمْ دَهَاءً وَأَوْسَمَهُمْ

حيلة ، وأشدّهم حبّاً للعرب ودينهم ، وأكثرهم سعيّاً في ردّ الحكومة والسلطان إلى العرب ، وأعظمهم همّة في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، وأكثرهم خلقاً أسراً ، وكان من بينهم محبّاً للأدب قائماً على خدمته ، وكان بطبيعته شاعراً حلوّ اللسان خفيف الروح بيانيّ الفكر . وكان مبغضاً للأعاجم ولسانهم الذي أرادوا أن يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بُنُو بُوَيَّة .

والظاهر أن سيف الدولة كان قد عزم في نفسه أن ينال بهيمته غاية الغايات في ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظلّ حكمته ، وكان أوّل ما أنفذ من ذلك أن زاحم بمناكبه الإخشيديين في الشام حتى أزاحهم عن أكثرها وردّهم إلى الرملة ، واستأثر دونهم بأكثر البلاد الشامية ، حتى هلع منه الإخشيد ، فترلّف إليه بأن زوّجه ابنة أخيه ، ولم يُجِدْ ذلك كثيراً ولا قليلاً في إطفاء نار العداوة المستعرة بين الدم العربي والدم الأعجمي الغريب . واستمرّ سيف الدولة في طلب التوسّع والغلبة ، ولولا ما لقي من حروب الروم ، وما أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، لكان تمّ له ما أراد ، فإن حروب الروم ، قد استهلكت كل قوته ، فلم يجد متسعاً لنيته في توطيد حكمه في الشام ، حتى إذا استجمع أذانه واستوفز بقوته ، مال على العراق فردّ أمر الحكم إلى نصابه في يد واحدة لا تضطرب ولا ترتجف . وذلك لما كان يرى من تقسّم الأمر في بلاد الخلافة ، وضّيع السلطان بين الموالى ، وما جرّ ذلك من اللذات المتواليّة في كل مدينة من المدن العظيمة ، ومن الفتن المتتابعة في كل ناحية من النواحي . ونحن نظن أن السبب في كثرة غزوات الروم ، في عهد سيف الدولة ، لبلاد الشام وأطرافها ، أن الذين كانوا يفتنون الناس ببغداد من الأعاجم والروم والترك والديلم لينالوا ما يريدون ، علّوا بأمر سيف الدولة

وما اعتزم من الليل عليهم ميلاً رابية ، فأعزوا إلى ملك الروم أن يقاتله ، وأوقعوا في قلبه أن سيف الدولة إنما يريد أن يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، فتم لهم بذلك ما أرادوا من صَرْف سيف الدولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلال أرضهم ، وانتزاع السلطان من أيديهم . وكان سيف الدولة على علم بما يبيتون له من المكر ، فكان ينازل الروم ويواقمهم ، ويُعَدُّ انتصاره وهزيمة الروم ، انتصاراً لدعوته العربية وهزيمة للأعاجم أصحاب هذا المكر ، وهزيمة لمن وقع في حبالهم من العرب الذين لهم سلطان في سلطنة هؤلاء . ولذلك كان وقع انتصاره في العراق وما وراء دجلة كوقع الصاعقة على رؤوس الفتنة ، وعلى الذين تولَّوا كِبَر هذا المكر السيئ والسكيد الخفي . وأجَدَّت هذه الوقائع — التي انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم — عداوة أصحاب السلطان من الأعاجم لدولة بني حمدان ، فطفقوا يميلون على تفريق شمل من اجتمع إلى سيف الدولة وآزره ونصره ممن كان بالموصل والشام وغيرها ، وبذلوا في مساعيتهم أموالاً و ذخائر . ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكرم والسخاء وبَسْطِ اليَدِ للعافين والمريدين ، طيبة مركبة في أصل خلُقته ، لأعيَّوه ، ولأخرجوا من سلطانه أكثر من دأله ورَضَى به وبِعُكْمه ، ولأعانهم على ذلك ما يرون من الظالم التي ارتكبتها سيف الدولة مُدَّة حكمه وسلطانه .

\* \* \*

هذا ..... ، وقد كان أبو الطيب ، حين دخل أنطاكية قاصداً أبا العشائر في سنة ٣٣٦ ، عليماً بأمر سيف الدولة ، مدركاً للمكايد السياسية التي أحاطت بالرجل ، خبيراً بحقيقة ما اضطلع سيف الدولة بأعبائه من إيقاظ المهمل العربية ،

مستيقناً من أن غَرَضَ سيف الدولة فيما فعل ، إنما هو ضربُ الضربة القاضية على الفتن التي أوهت قوة الدولة العربية وفَتَّتْ في عَضُدِهَا ، وأن الرجل كان قد اتخذ لأمره أحكم سياسة وأبرعها وأحسنها وأدقها وأبلغها في الوصول إلى الغرض المطلوب . وكان أبو الطيب نفسه ، يَرَى بكل نفسه إلى هذا الغرض الذي يسدُّ إليه سَيْف الدولة ، فكان اتفاقهما في الغرض سبباً لاتصالهما وتوافقهما وتفاههما ، ولما تَمَّ بينهما من المودة والحب والكرامة .

وأخرى ، أن أبا الطيب ، كما وصفناه لك أولاً ، كان يرى ببصره إلى ( الرجل ) ، الرجل الذي تجتمع في رجولته صفات الخير كلها ، و صفات الكمال بأسرها ، كما كان يراها قلبه ويحلمُ بها فؤاده وأوهامه . و « الرجل » في أحلام أبي الطيب هو صورةٌ مثلها له ضميره ، من أحقاد وآلامه وثورته . فهو الرجل الضربُ الشجاع المستبسل الذي لا يهاب ولا يفتر ، بل يتقوّم ولا يزداد على البلاء إلّا مضاءً وعزيمة = وهو الرجل النافذ ببصره وبصيرته إلى أعقاب الأمور لا يَنْتَهِ ولا يَفْئَل ولا ينام = وهو الرجل المحارب الذي لا تنمضُ له عينٌ ، ولا يصبر على ضميرٍ ولا يقرُّ على ظلم = وهو الرجل الفتي العربي الذي داخل سياسة عصره فعرف أسرارها ، واتخذ لنفسه فيها مدخلا ومخرجاً ، وأعمل فكره في إقتاد أمته ، وجاهد في سبيل ذلك بقلبه وفكره ولسانه ويده . وكانت هذه الثورة في دم أبي الطيب تدور فيه دوران الدم ، فإذا وَجَدَ ( الرَّجُل ) حنَّ إليه كأشدَّ ما تجد من حنين الدم إلى الدم ، وأخلص له ، وبذل له ذات نفسه وضمير قلبه ، فتراه لا يمجّد نفسه في شعره الذي يمدح له ( الرَّجُل ) ، بل يبذل كل كريمة من الصفات لهذا المدوح مُضَرِّباً عن ذكر ثورته ، تاركاً وعيده وإنذاره وتهديده إلّا أن يُخرج كاحدناك قبل .

وقد رأيت فيما مَضَى أن هذا قد وقع من أبي الطيب حين لقي بدر بن عمار  
الأسديّ ، وهو الفتى العربي (الرَّجُلُ) .

وهذه الظاهرة الغريبة في شعر أبي الطيب تدل على أنه ما كان ينبغي  
بقوله اكتساب المال وادخاره للعيش ومرافق الحياة ، بل كان يريد أن يحقق  
آماله التي يسعى إليها في ردّ السلطان لقومه العرب الأماجد . ولهذا تجدّه لم يقرّ  
سنواتٍ في جِوار أحدٍ ، إلّا في جِوار هذين العربيين : « بدر بن عمار ،  
وسيف الدولة » . وذلك لما كان يرى منهما من الجهاد في سبيل الغرض  
الذي انطوت عليه جوانحه . وكان أبو الطيب سريع الفراق لمن مدح حاشاها ،  
لأنّما لأنه لم يجد عندهم عزّماً إذا كانوا من العرب ، ولأنّما لأنه لم يجد مدح بشعره  
للإجازة والمال الذي هو ملاك كل عمل ، إذا كان ممدوحه من غير العرب .  
فهذا موضع قوله في شعره لأبي العشائر الحمداني :

فَيسِرْتُ إِلَيْكَ فِي (طَلَبِ الْمَعَالِي) وَسَارَ سِوَايَ فِي (طَلَبِ الْمَعَاشِ)

\*\*\*

قالوا .... : « كان أبو العشائر وَائِلِي أنطاكية من قبل سيف الدولة ،  
فلما قدم سيف الدولة إلى أنطاكية ، قدّم المتنبي إليه ، وأثنى عنده عليه ،  
وعرّفه منزله من الشعر والأدب ، وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ،  
فاشتطرت المتنبي على سيف الدولة ، أوّل اتصاله به ، أنه إذا أنشدته مديحه ،  
لا ينشده إلّا وهو قاعدٌ ، وأنه لا يُكَلِّفُ تَقْبِيلَ الأرض بين يديه ، فنُسِبَ  
إلى الجنون . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلّع إلى ما يربو  
منه ، فلما أنشدته قصيدته الأولى التي أولّها : « وفاؤكما كالربع أشجاء طامسه » ،

حَسُنَ موقعه عنده فقَرَبَه ، وأجازَه الجوائز السنية ، ومالت نفسه إليه وأحَبَه ، فسَلَّه إلى الرواض فَتَلَمَّوه الفُروسيَّة والطِّراد والمُثاقفة .

ونحن لا نسلم بكل ماورد في هذا النص ولا نتق به ، إذ كان مروياً عن غير ثقة مأمون معروف ، وإنما هو مما يتداوله الأدباء على علَّاته دون نقد أو ترجيح ، ويحسن بنا أن نحدثك عن نقده قليلاً ، فإن في النقد بركة وخيراً ليست لشيء من الكلام .

فأول ذلك ، أن هذا اللقاء في سنة ٣٣٧ بين سيف الدولة وأبي الطيب لم يكن أول لقاء ، ولم يكن أول تعارفٍ بينهما ، فقد حدثناك قَبْلُ أنه لقي سيف الدولة وأحَبَه ، وأحَبَه سيف الدولة في سنة ٣٢١ حين مدحه للتنبي بعد مخرجه من الكوفة متوجَّهاً إلى الشام ، وكان لقاءهما برأس عينٍ من أرض الموصل الذي كان يدين لبني حمدان بالطاعة إذ ذاك . ولا شك أن سيف الدولة ، وكان إذ ذاك صغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، قد فرِحَ بمدح أبي الطيب له ، وأبقى ذلك أثراً في نفسه يجعله يتتبع شعر هذا الفتى العربي ومصيره . فهو كما ترى كان على معرفة به وبأدبه وشعره ومنزلته من الشعر والأدب ، هذا فضلاً عما استنبطاه هناك من العلاقة بين بني حمدان وأبي الطيب وجدَّته ، وأنهم كانوا يفضلون عليها ويكرمونها ، وأنهم كانوا على علم بما أصابها من نكبتها في ابتها وخفيدها .

وأخرى ، : أن النص يقول إن أبا العنَّاب قدم المتنبي إلى سيف الدولة « وعرفه منزلته من الشعر والأدب » . وهذا عجيب من أمر سيف الدولة الأديب الشاعر السياسي المطلع على كل ما كان في البلاد العربية ، للتتبع لكل ( ١٣ - التنبي )

حَدَّثَ فِي السِّيَاسَةِ وَالْأَدَبِ ، عَجِيبٌ أَنْ لَا يَكُونُ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ طَرَفٌ مِنْ شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ يَعْرِفُ مِنْهُ مَنْزِلَتَهُ فِي الشَّعْرِ وَالْأَدَبِ ، فَيَأْتِي أَبُو الْعِشَائِرِ فَيَمِرُّهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ! !

وثالثة : أَنَّ النَّصَّ يَقُولُ إِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ قَدْ دَخَلَ تَحْتَ شُرُوطِ الْمُنْفَى حِينَ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَنْشُدَهُ إِلَّا وَهُوَ قَاعِدٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَكْلَفُ تَقْبِيلَ الْأَرْضِ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَنَحْنُ لَا نَدْرِي لِمَاذَا يَدْخُلُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ تَحْتَ هَذِهِ الشُّرُوطِ ؟ وَلَا نَعْرِفُ لِمَاذَا اشْتَرَطَ أَبُو الطَّيِّبِ هَذِهِ الشُّرُوطَ ... إِذَا كَانَ قَدْ جَاءَهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ مُتَّصِلَةٍ بَيْنَهُمَا ، وَكَانَ قَدْ جَاءَهُ مُسْتَمِيعًا طَالِبًا رِفْدَهُ وَمَالَهُ وَفَوَاضِلَهُ ؟ وَهَلَّا أَجَّلَ ذَلِكَ إِلَى أَجَلِهِ ، فَيَمْدَحُهُ وَيَنْشُدُهُ ، حَتَّى إِذَا حَسُنَ مَوْقِعُهُ عِنْدَهُ ، اشْتَرَطَ عَلَيْهِ مَا يَرِيدُ ، فَيَتَّقَى بِذَلِكَ سُوءَ الرَّدِّ ، وَيُنَالُ بِالِإِذْنِ لَهُ بِمَا يَشْتَرِطُ رِفْعَةً تَكْبِيتِ حُسْنَادِهِ ، وَتَغْيِظَ عُدَاتِهِ ، وَيَكُونُ قِفْلُهُ هَذَا أَدْلَى عَلَى حُسْنِ سِيَاسَتِهِ ، وَسَعَةِ حِيلَتِهِ ، وَيَكُونُ أَشْبَهَ بِتَقْدِيرِ أَبِي الطَّيِّبِ ، كَامِرُ بَكٍّ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِنَا ! !

والرابعة : أَنَّ فِي النَّصِّ كَلِمَةً يُرَادُ بِهَا الْفَضْلُ مِنْ أَبِي الطَّيِّبِ وَتَحْقِيرُهُ وَنَسْبَتُهُ إِلَى الْجَفَاءِ وَالْفَلْظَةِ وَالْجَلَّافَةِ ، إِذْ زَعَمَ وَأَضْمَحَ أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ سَلَّمَ أبا الطَّيِّبِ « إِلَى الرُّوَاضِ فَعَلَّوْهُ الْفُرُوسِيَّةَ وَالطَّرَادَ وَالْمُتَاقِفَةَ » . فَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ قَبْلَ اتِّصَالِهِ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ فَارِسًا مُحَارِبًا وَلَا شَكَّ ، وَكَانَ قَدْ اتَّصَلَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَحْبَابِ السُّلْطَانِ وَأَحْبَابِ الْفُرُوسِيَّةِ وَالطَّرَادِ وَالْمُتَاقِفَةِ ، وَقَدْ مَرَّ بِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ دَخَلَ لِبْنَانَ وَشَارَكَ فِي الطَّرَادِ وَالصَّيْدِ ، وَكَذَلِكَ حِينَ كَانَ فِي جَوَارِ بَدْرِ بْنِ عَمَّارٍ وَغَيْرِهِ مَعْنَى مَدَحٍ ، وَكَيْفَ نَظَنُّ أَنْ أبا الطَّيِّبِ كَانَ قَدْ طَوَى هَذِهِ السَّنِينَ كُلَّهَا



بالشام ، مع ما كان فيه من العجب بقوته وفروسيته ، وذكر ذلك في شعره ، ثم لم يأخذ نفسه بتعلم ذلك أو المشاركة فيه ، مع أنها كانت من الانتشار والذبوع بمكان لا يحجل ؟

فهذه الرواية ، كما ترى ، لا تصلح أن تكون سياقاً للقاء أبي الطيب سيف الدولة . وأعلم أن أكثر ما يروى في ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التي تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يرادُ بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا كان مما يراد به مَصْنَعُ الكلام في مجالس الأمراء أو في سامر الأدباء . = هذا على أنها ربّما حلت فيها تحمل أشياء لولا ورودها في هذه النصوص ، لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم أمره إلاّ بها ، ولا يستمر إلاّ عليها : فلنل هذا كان لابد لنا من النظر في النصوص وتمييزها ، وردّها بعضها والأخذ ببعض ، حتى لا تنقطع بنا السبل في الترجمة لخلوّ الأعلام . فلا يفوتك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردت أن أنت أن تقرأ أو تكتب .

\*\*\*

والسياق التاريخي عندنا للقاء أبي الطيب سيف الدولة هو ما ترى :

نزّل أبو الطيب ضيفاً على أبي العشائر ، يمدحه ويخبره ويروّز ما عنده من الهمة ، وما في هذه الهمة من اللطال ، وما في مطالبه من الموافقة لما في ضميره من الآراء والأحكام . وكان يريد بذلك أن يكون على كُتُب ومقرّبة من بني سَعدان (الذين منهم أبو العشائر) ، ليحقّق في نفسه ما عرّف عنهم

من خبر ، وليرى رأيه في البقاء معهم أو مفارقتهم ضارباً في الأرض على ما كان عليه من قبل حتى يأذن الله له ، ويأتيه بالمؤاتي للوافق الذي يستطيع أن يهب له قلبه وجهه ، ورأيه وحكمته ، وتجربته وخبرته ، وآراءه في السياسة التي كان جاهداً في معرفة خفياتها ومضمراتها طول حياته . وكان يخص بإرادته هذه سيف الدولة ، وهو علم بنى حمدان إذ ذاك ، والمستولى على الأمد من رجال عصره ، والذي عهد فيه أبو الطيب حين رآه في سنة ٣٢١ رجولة متحفزة للوثبة ، وسجع من أخباره ما يكاد يحقق تومئته في ظفره ، وقلبه على خصومه وخصوم أبي الطيب نفسه .

وبقى أبو الطيب سنة في ظل أبي العشائر ، وكان فتى من فتيان بنى حمدان ، قد جمع أداة الفتوة ولم يستكملها ، وكان أديباً مقتدراً مولعاً بالأدب ، مبيحاً للأدباء عاطفاً عليهم معيناً لهم ، وكان شاعراً تقع له الدرة الجميلة في شعره ، والنادرة البديعة ، غير متعمد ولا جاهد . وأحب أبو الطيب صاحبه أبا العشائر ، وأحبه أبو العشائر وأكرمه وأضفى عليه من كرمه ولينه وحنانه . وقد حفظ له أبو الطيب هذه اليد التي له عنده ، حتى إنه لما غضب عليه بعد لأمر سيأتى ذكره فيما يستقبل من كلامنا — وأرسل إلى أبي الطيب بعض غلمانة ليقوموا به وهو بظاهر حلب ، ورماء أحدم بسهم أخطاه ، وقال له وهو يرميه : « خذه ، وأنا غلام أبي العشائر » — لم يحفظ ذلك أبا الطيب على أبي العشائر ، ولم يستدع هذا العزم على قتله هجاءه أبا العشائر ، بل قال :

وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبْتُهُ      وَلَلْتَنْبِلَ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَقِيفُ  
(فهيح من شوقي ، وما من مدلل)      حَفَنْتُ ، وَلَكِنْ الْكَرِيمُ أَوْفُ

وَكُلُّ وَدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَدَى      دَوَامَ وَدَادِي لِلْحَسَنِ ضَعِيفُ  
(فَإِنْ يَكُنْ النِّقْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا ،      فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي مَرَزَنَ أُلُوفُ)  
وَنَفْسِي لَهُ ، نَفْسِي الْقَدَاءُ لِنَفْسِهِ ،      وَلَكِنْ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ  
(فَإِنْ كَانَ يَبْنِي قَتْلَهَا - يَكُ قَاتِلًا      بِكَفِّيهِ . فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ)

وهذه الحادثة وما كان من أبي الطيب فيها ، وما قال من الأبيات السالفة ، دليل قاطع على أن الرجل كان إذا أحب وأخلص الحب لم يحوله شيء عن حبه = وأن هجاءه الذي كان منه لبعض من مدحهم ، إنما كان منه لأنه لم يكن يضمير لهم حباً ألبته ، بل كثيراً ما كان يخفى بين جنبيه احتقارهم وازدراءهم ، ولولا الضرورة لما مدحهم ولا قصدهم ولا وقف بأبوابهم . وهي أيضاً دليل على ما قطعنا به ، في موضع من كلامنا ، من أن أبا الطيب كان ودوداً ألوفاً ، كريم الخلق ، وفيما لم وفي له وأحبه وباذله الود . وقد صدق صاحبنا ولم يكذب إذ وصف لنا نفسه يوماً ما فقال :

خُلِقْتُ أَلُوفًا ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا      لَفَارَقْتُ شَيْئِي مُوجِعَ الْقَلْبِ يَا كَيَا

وهذا موضع من أخلاق أبي الطيب ونفسيته ينبغي الوقوف عنده وتدبره ، إذ كان كثيراً ما يعترض به المعارضون حين يذكرون أخلاقه ، حتى أنهم من اضطرابهم في فهم أخلاق الرجل ونفسيته ، رموه بالاضطراب والملل في الصداقة والود . وليس الأمر على ما ظنوا ، بل هو كما ترى في كلامنا هذا . ورحم الله أبا الطيب ، فقد سحّل من نكد الدنيا في حياته وبعد موته ما لقي من أرزاء .

هذا . . . . ، وقد لقي أبو الطيب وهو في جوار أبي العشائر ، كما حدثناك في الباب السابق ، كيداً كثيراً ، وتقول عليه المتقولون ما شاءوا ، وأذوه وكرهوا عليه الوشاية والسعاية ، وغرّوا بذمه وثلبه ، وكان مازعنه من تشهيرهم به إذ تبرّزه باللقب الذي عُرف به بعد وهو (الفتني) .<sup>(١)</sup> ولم يكن كل ذلك مما يردُّ أبا الطيب عن غايته التي قصد من أجلها أبا العشائر ، فبقي صائراً حتى كانت سنة ٣٣٧ .

ففي بُجّادى الأولى من هذه السنة قدم سيف الدولة - من حربه مع الروم وظفره بحضن برزّويه - إلى أنطاكية التي كان بها أبو العشائر وأبو الطيب ، فاستقبله أبو العشائر ، وأبلغه ما كان من مقدّم أبي الطيب عليه ، وإكرامه له ، ووصف له ما حسن عنده من خلق أبي الطيب ، وما وجد فيه من الفتوة والمروءة ، وما أعجب به من حسن عشرته ، وجميل أدبه في المناذمة والمسامرة ، وما عليه أبو الطيب من الطيبة الثائرة الجبّارة ، وما انطوى عليه قلبه من محبة العرب وبُغض الأعاجم ، وما سمعه من آرائه في سياسة الأمة ، وما ابتليت به من البلاء الأعجمي والفتن الآكلة رطب الحياة العربية وإابسها ، وذكر له شعره الذي مدحه به . . . . فذكر سيف الدولة ذلك لفتي العربي الصبوح الوجه الحسن السمت صاحب الوفرة المسترسلة التي تسيل إلى سحمتي أذنية = ذكر ذلك الذي أشده مديحه في سنة ٣٣١ وهو يتدفق بفصاحته وبيانه ، ويتلمع بقوته وشده وحماسته وحدة شبابه = ذكر سيف الدولة تلك الشخصية الطاغية بسعرها وجلالها وجلالها ، والتي لاتدع للنسيان في الذّاكرة بدأ ماحية

أو مفسدة... وقد كان أبو الطيب كما وصفوه «رَجُلًا مِلءَ المِين...  
قويًا بدينًا خليفًا شخيصةً، عادى الخلق، قوي الأساطين، وثيق الأركان،  
جيد الفصوص، فيه جفا وخشونة». ذكره سيف الدولة واستيقظت في  
قلبه الحجة القائمة في غوره، وتجمعت له أخباره التي كان قد سمعها عنه من سنة  
٣٢١ إلى هذه السنة، فتقدم إلى أبي العشائر أن يستدعيه لساعته، شاكرًا  
له حسن وفادة الرجل وإكرامه له.

وكذلك لاقى العربيُّ الشاعر الفذُّ، العربيُّ الفاتح الغازيَّ المجاهدَ  
الفذَّ، على شوق وحنين، وحنَّ الدم إلى الدم، وعلفت النفس بالنفس،  
وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر، أخرجت كلال الرجلين عن طوره.  
وكان هذا اللقاء الثاني فاعمةً نجد أبي الطيب، وخلود ذكر سيف الدولة في  
شعره وبَيانه.

وفي هذا اللقاء التاريخي الذي انتفضت فيه القلوب، ورمت بأسرارها  
وأشواقها، ثارت نفسُ الرجلِ البليغ، واجتمعت لها كل حوادثها وما مرَّ  
بها من الأهوال، في مجلس أمير العرب الفاتح المجاهد الظافر، وتقاذفت الممانى  
من قلبه إلى لسانه، ووقفت محبوسة في هذه الأبيات التي ضمَّها الشاعر إلى  
قصيدته بعد في مدح أميره وأمير قومه: (١)

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيتُهُ عَلَى ظَنَرِ عَزَمٍ مُؤَيَّدَاتٍ قَوَائِمُهُ  
مَهْلِكٌ لَمْ تَضْحَبْ بِهَا الدُّبُّ نَفْسُهُ، وَلَا تَحَلَّتْ فِيهَا الْعُرَابُ قَوَادِمُهُ.

(١) أنشد أبو الطيب هذه القصيدة في مجلس آخر غير هذا المجلس الذي وصفناه لك.

(فَأَبْصَرْتُ بَدْرًا لَا يَرَى الْبَدْرُ مِثْلَهُ ، وَخَاطَبْتُ بَحْرًا لَا يَرَى الْعَبْرَ عَائِمُهُ )

ثم قال البيت الذي تنازعت كل عواطف قلبه ، ونوازع فؤاده ، وآراء فكره ، وفصح بيانه :

( غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِلَا وَاصِفٍ ، وَالشُّعْرَ مَهْدِي طَمَاطِمُهُ )

وكان ذلك بدء المجد الخالد الذي بقى للعرب في صفة أمير فذ من أمرائهم ، ردَّ به القدر عادية الروم عن بلد من بلادهم ، لا يزال معلقاً للعرب والعربية إلى يوم الناس هذا . . . ألا وهو الشام الذي يضم فِلْدَةً أ كباد الفاتحين من المهاجرين والأنصار ، ومن سبقهم إليها في الجاهلية من الفرائق الصباح من بني غَسَّان . وكان ذلك أيضاً بدء المجد الخالد للسان العربي ، والفكر العربي الصريح في ديوان شاعر فذ من شعراء العربية ، لم يُرْزَق الشَّعْرُ ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان ... ألا وهو أبو الطيب المتنبي ، واحد الشعراء الذي جاء ( فلأ الدنيا وشغل الناس ) .

\* \* \*

ولا بد لنا من الوقوف قليلاً عند هذا الموضع من الكلام ، ونذع صِفَةً ما نحن فيه من لقاء الأسيدين العربيين الفاتحين . زعمنا لك فيما مضى أن تلك الأبيات الأربعة المذكورة آنفاً ، كانت بمثابة قلب أبي الطيب في هذا المجلس الأول ، قبل أن يحتفل ببيانه لقصيدته الأولى التي أنشدها سيف الدولة في تلك السنة . وهذا موضع تدبر وبصر ، لا نجب أن ندعه قبل أن نسوق إليك من أخباره طرفاً ، حتى تنهج لنفسك نهجاً مقارباً يعينك على استخراج

أسرار أبي الطيب ، واستنباط ما كان يلج في نفسه من العواطف . . . بلى ، وهو عندنا قانون من قوانين شعر أبي الطيب ونفسه تستطيع به أن تعرف خفيات ما في شعره . من ضآله ومبهمات . هذا ، وسنكشف لك عنه فيما يستقبل كشفاً مبيناً إن شاء الله .<sup>(١)</sup>

كان أبو الطيب = على ما وصفنا لك من قوة النفس وحدة الطبيعة = موهباً حسناً ، سريع التأثر ، تنطلق عواطفه كلها في ساعة من ساعات حياته ، فلا تلبث أن تستثير كل قوة فيه ، وتجتمع كل قواه حين ذلك ماضية من قلبه إلى لسانه ، لتثبت عليه عدد هزات الزلزلة التي وقعت في قلبه ونفسه ، ويفزع لسانه إلى بيانها ليبين عنه ما يبني من الإبانة ، فيحتفل ببيان كله في أبيات قليلة تكون هي أول القصيدة عند أبي الطيب ، ثم يدخرها صاحبنا لأجلها وموضعها ، فيثبتها في مكان من شعره . وكثيراً ما تقع هذه الأبيات في موضع لا تتساقط فيه معاني الكلام على قاعدة مطردة من حق المعنى وتتابعه ، فذلك تبقى هذه الأبيات التي تحمل في ألفاظها هزات نفسه واقعة بين كلامين ، ولا تكون هي صلة بينهما ، بل تكون كالفارق الفاصل . وهذا هو ما نسميه في شعر أبي الطيب موضع ( الانتقال ) . ومن مواضع الانتقال هذه تستطيع أن تستنبط الحالة النفسية التي كان عليها الرجل ، فإذا تبصرت فيها ، واستخرجت معانيها ، وفصلت كلامها وألفاظها ، وفترته على الأصول الشعرية والنفسية القائمة في شعر أبي الطيب ونفسه كما قدمناها لك = استطعت أن

(١) انظر لذلك الباب الثالث عشر من حديثنا عن المرأة التي صنعت لأبي الطيب حكته ، وأيدت بيانه ببيتها النسوي البليغ .

تتلمس في ظلام التاريخ الحلقات التي ينبغي أن تصل بعضها ببعض ، فيسري التيار بينها فضيء لك ، فتتكشف للعاني في شعر الرجل ، وتبين المواضع الغامضة المظلمة من حياته ... وهذه هي الطريقة التي اتبعناها فيما كتبنا مما مضى بك ، وقد تحققتنا صدقها ، ووجدنا إسماعدا لنا في المشكلات التي وُفِّقنا إلى تفسيرها أو نقدها أو تمييزها .

ويجمل بنا هنا أن نعود بك إلى الآيات التي ذكرناها ، ونبين ذلك فيها ... ونسألك أن تعذرنا إذا قصرنا ، وأن تسدنا إذا أخطأنا ، وأن تعبر على ما نستطرد فيه من الكلام بصبر لا يفت منه الملل ، فلا حكم لقول ولا مُتَرَّع .

يقول أبو الطيب قبل الآيات التي رويناه لك يصف سيف الدولة :

لَهُ عَسْكَرٌ خَيْلٌ وَطَيْرٌ ، إِذَا رَمَى بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا تَجَاجُهُ  
أَجَلَّتْهَا ، مِنْ كُلِّ طَائِفٍ ، ثِيَابُهُ ، وَمَوَاطِنُهَا ، مِنْ كُلِّ بَلَدٍ ، مَلَأَ غَمُهُ

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَمَتَهَا صَوَارِمُهُ

ثم (ينتقل) أبو الطيب من ذكر الحرب ، ومن صفته جيوش سيف الدولة وما كانت تأتي به من أهوال الحرب ، وما يكون منها في ساحات الوغى ، فيقول غير متخلص إلى غرضه = على ما يريد علماء البلاغة !! من حسن التخلص = فيقول يصف نفسه وما لاقى هو من الأهوال والمهلك :

مَلَكَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيْتَهُ عَلَى ظَهْرِ عَزَمٍ مُؤَيَّدَاتٍ قَوَائِمُهُ



الآيات الأربعة التي آخرها :

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِلاَ وَاصِفٍ ، وَالشُّرَّهْذَى طَمَاطِمُهُ  
 ثم ( ينتقل ) بعد هذا البيت انتقالاً آخر ، فيقول يذكر نفسه ورحلته :  
 وَكُنْتُ إِذَا يَمُمْتُ أَرْضًا بَعِيدَةً سَرَيْتُ ، فَكُنْتُ السَّرَّ وَاللَّيْلُ كَانِيَهُ  
 ثم ( ينتقل ) أيضاً بعده فيذكر سيف الدولة . . . فيقول :

لَقَدْ سَلَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ لِلْجِدِّ مُعَلِّمًا ، فَلَا لَجْدُ تُخْفِيهِ ، وَلَا الضَّرْبُ ثَالِمُهُ  
 فلهذه الانتقالات المتتالية وقفنا عند الآيات الأربعة التي قدمناها ،  
 وتبصرنا فيها وفي معانيها ، وفي دلالات ألفاظها واحدة واحدة ، ورددنا التبصر  
 إلى مَقْدَمِ أَبِي الطَّيِّبِ إِلَى أَنْطَاكِيَةِ فِي جَوَارِ أَبِي الْعِشَاءِ سَنَةِ ٣٣٦ ، ثُمَّ مَقْدَمِ  
 سَيْفِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهَا فِي سَنَةِ ٣٣٧ ، ثُمَّ فِي الْمَقَاءِ الَّذِي رَوَّاهُ خَبْرُهُ عَلَى عِلَاتِهِ ،  
 وَنَقَضْنَا الْآيَاتِ وَمَعَانِيهَا ، وَتَلَسَّسْنَا الْحَلَقَاتِ فِي ظِلَامِ التَّارِيخِ وَالتَّرْجَمَةِ ، فَوَصَفْنَا  
 لَكَ الْمَقَاءَ الَّذِي كَانَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ بَيْنَ أَبِي الطَّيِّبِ وَسَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَنَحْنُ نَنْظُرُ  
 بَعِيْنٌ لَا تَحْصُرُنِي إِلَى مَا قَدَّمْنَا مِنَ التَّارِيخِ فِي صَدْرِ هَذَا الْبَابِ ، وَمَا عَرَفْنَا مِنْ  
 خُلُقِ أَبِي الطَّيِّبِ وَآرَائِهِ وَأَغْرَاضِهِ وَأَمَالِهِ ، وَمَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ مِنْ خُلُقِ سَيْفِ  
 الدَّوْلَةِ وَآرَائِهِ وَأَغْرَاضِهِ وَأَمَالِهِ ، ثُمَّ حَكَمْنَا كَمَا رَأَيْتُمْ أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلَ مَا قَالَ  
 أَبُو الطَّيِّبِ مِنْ قَصِيدَتِهِ تِلْكَ ، وَأَتَمَمْنَا الرَّأْيَ عَلَى ذَلِكَ ، وَاعْتَمَدْنَا ، وَسِرْنَا عَلَى  
 بَرَكَاتِهِ . فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى : (١)

\* \* \*

(١) اعلم أننا لو أردنا أن نتفكك عند لفظ من الآيات ، ونكتب لك الرأي كله مفصلاً ،  
 لطينونا بذلك ورفات من هذا الحديث ، ولكان ذلك قاطعاً لنا عن إتمام هذا العدد من المختطف .  
 فلا بد لك إذن من النظر ، ثم النظر ، ولعلك بالغ بقوتك ما لم يبلغه بضعفنا ، وقفنا الله وإياك .

ثم نعود إلى ما كنا فيه . . . لقي أبو الطيب سيف الدولة ، وخرج من مجلس أمير العرب ، وهو يقول كما قال أولاً في بعض من مدح بأنطاكية :

مُنْدَى بَابِ الرِّجَالِ ، سَمِذَعَا      هُوَ الْكَرْمُ اللَّذِي مَالَهُ جَزْرُ  
وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادَنِي الشَّوْقُ نَحْوَهُ      يُسَايِرُنِي فِي كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ  
وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ      فَلَمَّا التَقَيْنَا ، صَغَرَ الْخَبِيرُ

واحتفلت نفس الشاعرِ النَّائِرِ الْبَلِيغِ لهذا اللقاء ، ونسى نفسه وما كان يذكرها به من القوة والفتوة ، وما كان طولَ عمره يصفها به من صفات الرُّجُولَةِ وَالْكَمَالِ ، ووجد آماله في آمال سيف الدولة ، وآراءه في آرائه ، وعواطفه في عواطفه ، فألقى في مديح (الرَّجُلِ) كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه ، وألقى ذكر نفسه ، ورمى بين يدي سيف الدولة الدُّرَّةَ الْأُولَى في تاج بني حمدان مشرقة متلألئة تَسْطَعُ وَتَتَضَوُّ .

وفي هذه القصيدة الأولى التي أولها : « وَتَأَوَّكَ كَالرَّيْعِ أَشْجَاهُ طَائِسُهُ » ، رَجَعْتُ إِلَى أَبِي الطَّيِّبِ قُوَّةَ التَّصْوِيرِ وَالتَّمَثِيلِ ، فَرَسَمَ صُورَةَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ كَأَحْسَنِ مَا تَأْتِي مِنْ بَنَانٍ مُصَوَّرٍ صَنَعَ لَبِيقٍ حَاقِظٍ مُبْدِعٍ ، وَوَصَفَ الْمَجْلِسَ الَّذِي كَانَ فِيهِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ كَأَنَّهُ تَرَاهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ جَلَسَ فِي فَازَةٍ مِنَ الدِّيَاجِ عَلَيْهَا صُورَةُ مَلِكِ الرُّومِ ،<sup>(١)</sup> وَصُورُ رِيَاضٍ بِدَوَّحِهَا وَطَيْرِهَا وَوَحْشِهَا وَحَيَوَانِهَا . فَكَانَ مِمَّا قَالَ فِي صِفَةِ تِلْكَ الْفَازَةِ ، وَالْأَسَدُ الْمَقْعَى فِي ذَرَاهَا :

(١) الفَازَةُ : المَظَلَّةُ تَقُومُ عَلَى عَمُودٍ فِي وَسْطِهَا . وَهِيَ أَشْبَهُ بِمَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ فِي يَوْمِنَا هَذَا عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحَارِ .

وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيثَةِ كُلِّهِ .  
 عَلَيْهَا رِيَاضٌ لَمْ تَحْسُكْهَا سَحَابَةٌ  
 وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ نَوْبٍ مُوجُهُ  
 تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مَصْطَلِحًا بِهِ  
 إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ ، كَأَنَّهُ  
 فِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي النَّجَاحِ ذَلَّةً  
 تُقْبَلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطِهِ ،  
 قِيَامًا لِمَنْ يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كَثِيرُهُ  
 قَبَائِلُهَا تَحْتَ لِلرَّافِقِ هَيِّبَةٍ ،  
 لِعَسْكَرِهَا خَيْلٌ وَرَجُلٌ ، إِذَا رَمَى  
 أَجْلَتْهَا ، مِنْ كُلِّ طَاغٍ : ثِيَابُهُ ،  
 فَقَدْ مَلَّ ضَوْهَ الصُّبْحِ مِمَّا تُغَيِّرُهُ  
 (وَمَلَّ الْقَنَاقِمَ مِمَّا تَدُقُّ صُدُورُهُ ،  
 لَقَدْ سَلَّ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْحُجْدَ مُعْلَمًا  
 عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ الْأَعْرَضِ نَجَادُهُ  
 تُحَارِبُهُ الْأَعْدَاءُ ، وَهِيَ عَبِيدُهُ

وَحَيَا بَارِقٍ فِي (فَارَظَةٍ) أَنَا شَائِمَةٌ  
 وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تَفْنِ سَحَابَتُهُ  
 مِنَ الدَّرِّ سَمَطٌ لَمْ يُشَقِّبْهُ نَاطِقُهُ (١)  
 يُحَارِبُ ضِدَّ ضِدِّهِ وَيُسَالِمُهُ  
 تَجُولُ مَذَاكِيهِ ، وَتَدَأِي ضَرَاغِمَهُ (٢)  
 لَا بُلَجَ ، لَا تَيْجَانٍ إِلَّا عَمَائِمُهُ  
 وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُفُّهُ وَبِرَاجِمُهُ (٣)  
 وَمَنْ يُبَيِّنُ أَذَى كُلِّ قَرَمٍ مَوَاسِمُهُ  
 وَأَنْقَذَ مِمَّا فِي الْجُفُونِ عَرَائِمُهُ (٤)  
 بِهَا عَسْكَرٌ لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَاجِمُهُ  
 وَمَوَاطِنُهَا ، مِنْ كُلِّ بَاغٍ ، مَلَائِمُهُ  
 وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تَرَاخِمُهُ  
 وَمَلَّ حَدِيدُ الْمِنْدِ مِمَّا تَلَاطِمُهُ (٥)  
 فَلَا لِمَجْدُ تُخَفِّيه ، وَلَا لِمُضْرِبُ نَائِمُهُ  
 وَفِي يَدِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمُهُ  
 وَتَدْخُرُ الْأَمْوَالُ ، وَهِيَ عَنَائِمُهُ

(١) « الوجه » ، ذو الوجهين .

(٢) يصف الخيل (وهي المذاكي) والأسود وهي تختل صيدها من الطباء النافرة .

« دَأَى الصيد » ، خبذه ليصيده .

(٣) البراجم : مفاجيل الأصابع .

(٤) القبايم : ما يكون على قوائم السيوف من الخيل ، يني السيوف الحلاة بالذهب والفضة .

(٥) تأمل تكرار « مل » في البيت الأخيرين ، وتكرار « مما » ، وهي تدل على الكثرة .

وَيَسْتَكْبِرُونَ الدَّهْرَ، وَالْدَّهْرُ دُونَهُ  
وَلِإِنِّ الَّذِي سَعَى عَلَيَّا لَمُنْصِفٌ ،  
وَمَا كُلُّ سَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ حَدَّهُ ،  
وَيَسْتَعْظَمُونَ الْمَوْتَ ، وَالْمَوْتُ خَادِمُهُ  
وَإِنِّ الَّذِي سَمَّاهُ سَيْفًا لَطَّالِيهٌ  
وَتَقْطَعُ لَزَبَاتِ الزَّمَانِ مَكَارِمُهُ <sup>(١)</sup>

فاقرأ ، ثم اقرأ ، ثم تدبر ، ثم عُدْ إلى النهج الذى أشرنا إليه فى الحديث  
عن بدر بن عمار ، ووصفه الأسد هناك ، وقارن بين ماترى هنا وما ترى  
ثم ، تجد التقارب بيننا واضحا ، والنفس الشعرى البليغ العظيم امتداً من  
زمانٍ بدر إلى هذا الزمان غير منقطع . وتدبر هذه الأبيات الأخيرة وما  
وسمها به أبو الطيب من ميسم الذى يتلذع بنار قلبه ، والذى صار علامة  
يئنة فى كل شعره الذى قاله فى سيف الدولة بعد هذا . وفى الذى قد منا ذكره  
وما أشرنا إليه كفاية للبصير المتدبر .

\*\*\*

وبقى سيف الدولة بأنطاكية أشهراً من سنته تلك ، وأبو الطيب إلى  
جواره وفى مجلسه ، وبين أصحابه وفى ركابه . واستصفاه سيف الدولة  
ومنحه بشره ، وقربه ، وامتدَّ الحديث بينهما فى بعض الخلوات عن شؤون  
الدولة وما وقع فيها ، وما أدركها من الضعف والوهن ، وما كان لوقته من  
أسباب ذلك . ورأى سيف الدولة أن محدثه رجلٌ داهيةٌ بصيرٌ مُحَنِّكٌ قد  
تَجَذَّته الحوادث ، وله رأى ومعرفةٌ وأسرارٌ قد استجدَّها بعد اللقاء الأول  
فى سنة ٣٢٩ ، فضلاً عما كان يعرفه ، فيما زعمنا ، من نكبتة الأولى فى نسبه

(١) « الزبات » جمع « لزبة » ، شدائد الدهر التى تحقر الناس .

من قبل العلويين أصحاب الأمير بالكوفة ، فزاده قرباً وكرامةً ومحبةً ، لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، وكان ذلك عجباً في أنطاكية وغيرها ، لما عرف من صرامة سيف الدولة وتحريضه وتشدده حتى على الكثير من أهله . فانظر إذا أردتَ إلى ما كان بين سيف الدولة وأبي فراس الحمداني ، فإنَّ القرابة والزَّحم لم تنفع أبا فراس في القرب من سيف الدولة ، مع أنه كان متصقفاً بخدمة ، ذاهباً في طاعته ومَرْضِيَّتِهِ ، حامياً لحقيقتيه ، مفدياً له في حروبه وغزواته بنفسه ودمه ، مجتهداً له في شعره ، مخلداً ذكْرَ غزواته وحروبه . كلُّ هذا لم يقرب أبا فراس من سيف الدولة قُرْبَ أبي الطيب منه ، مع تقدُّمهما في الشعر والأدب ، ومع أن أبا فراس كان أولى بالتقديم والتكريم من أبي الطيب لحسن بلائه في الحرب ، وقَدَمَ عِشرته لسيف الدولة ، وسبَّقه في تمجيدهِ وتخليد ذكره وذكر حروبه . فلذلك نقول لك إنَّ تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شعرائه المستظليين بظله ، والمبتدئين في طاعته وخدمته ، لم يكن من أجل الشعر وحده وحسب ، بل للذي بلّاه سيف الدولة من آراء أبي الطيب وأفكاره وعواطفه في الأمور السياسية التي كان يسعى في تحقيقها وإتمامها والقيام عليها بسيفه وخيله ورجله ورجاله المحنكين من ذوى الدِّهَاء والخبرة والمعرفة والعلم . وقد قدّمنا مطالب سيف الدولة في أول هذا الباب .<sup>(١)</sup>

\* \* \*

ثم عزم سيف الدولة الرحيلَ عن أنطاكية إلى حلب مقراً حكمه ، ولكن أبا الطيب لم يصحبه في رحيله هذا ، فعزم عليه سيف الدولة أن يلحظه بحلب .

(١) تلبت تجد بقية الحديث بعد قليل في هذا الباب ، فاجعله منك على ذكر .

وعندنا أن الذي عاق أبا الطيب من صُحبة سيف الدولة في هذا الرحيل ، أمرٌ يخصُّه هو ، وليست له فيه إرادة . وقد قلبنا الرأي في شعر المتنبي في تلك الفترة وما بعدها بقليل ، وتدبرنا كلامَ الرجل على الأصول التي قدما لك منها أطرافاً في كلامنا ، وظفرنا بأشياء دلَّتنا على أن هذا الأمر الذي عاقه كان مما يقطع في قلبه ويوجعه في عواطفه ، وتبين لنا أن هذا الأمر هو مرض زوجته ، والظاهر أنها كانت حاملاً ، ثم جاءها الخاض فأعضلت وعمرت ولادتها ثم رمَتْ ذا بطنها وماتت . وكان مرضها ذلك في حملها ، ثم ما تركت له وراء ظهرها = ولدت الوليد مات بعد أشهر قبل أن يستمسك = هو الذي منع أبا الطيب أن يصحب سيف الدولة يوم رحيله من أنطاكية .

وتأويل ذلك : أن أبا الطيب كان ولا شك عازماً على رُقعة سيف الدولة ولولا ما فُتِنه مما لا حيلة له في رده لفعَل ، فإنه حين أزمع سيف الدولة الرحيل عن أنطاكية قال له أبو الطيب :

نَحْنُ مَنْ ضَاقَ الزَّمَانُ لَهُ فِيكَ ، وَخَانَتْهُ قُرْبَكَ الْأَيَّامُ  
وقال أيضاً في يوم رحيل سيف الدولة ، وقد كثُر المطر وكاد يموقه  
عن عزمته :

رُؤْيُكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ تَأَنُّ ، وَعُودُهُ مِمَّا تُغْنِي  
وَجُودَكَ بِالْمَقَامِ وَلَوْ قَلِيلاً ، فَمَا فِيمَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلُ  
لَا كُنْتَ حَاسِداً وَأَرَى عَدُوّاً ، كَأَنَّهُمَا وَدَاعُكَ وَالرَّحِيلُ

فهو في البيت الأول يذكر ما يتغلب به الدهر من العوائق ، وما يضيقه

به من الأرزاء التي تحُول بينه وبين ما يروم من صحبة سيف الدولة والقرب منه ، وقد خَصَّ نفسه بذلك إذ يقول : « نَحْنُ من ضائقَ الزمانُ لهُ فيك » . ولا نَظَنُّ أن قد كان إذ ذاك ما يمنع أبا الطيب من الرفقة ، إلا ما يخرج عن إرادته ، ويقع بينه وبين عزمه . فلما كادَ للطريق يَمُوق سيفَ الدولة ، بان الفرحُ في كلام أبي الطيب مقروناً بالحسرة ، لما يعلم من أن ذلك لن يَقْطَعَ فيما أبرم من عزمه ، فسأله أن يبقى قليلاً بأنطاكية ، وتعلّل له بعلته التي ذكرها : وكان أبو الطيب إذ ذاك متأثراً بالحالة التي عليها امرأته ، فوقع في بيت من قصيدته الأخيرة التي ذكرنا أوّلها ، ما يدلّ على ماني نفس الرجل من آثار ما كان فيه من الكَرْب ، على عاداته التي أسلفنا بيّانها في مواضع . فقال لسيف الدولة :

فلو جازَ الخلودُ خَلَدَتَ قَرْدًا ( وَلَكِنْ لَيْسَ لِلدُّنْيَا خَلِيلٌ )

فهذا الحزنُ الغالب على الشطر الأخير ، والمتمثّل في كلاته ، وفق عبارته عن المعنى الذي أرادَهُ حين استدرك بقوله : « ولكن » بَعْدَ الذي كان من فرجه وطربه وتدفع نفسه بالأمال ، واستبشاره بقاء سيف الدولة ، والذي كشفت عنه قصيدته الأولى : « وفاؤكما كالريح أشجاء طاسمه » ، على ما مضى في كلامنا = كل ذلك يدلّ على أن الرجل كان قد أدركه ما أحرزته وغمّ قلبه ، وردّ عليه فرح نفسه غمّاً وحسرة وتشاؤماً من الدنيا ، وما يكون فيها من بلايا الدَّهر بالفرقِ والوت . وهذا بين كما ترى .

وانتقل أبو الطيب - بعد موت امرأته بقليل - من أنطاكية إلى حلب ، ثم ماتت والدة سيف الدولة فقال له في عزائه قصيدته المشهورة ، وأوّلها من دموع أبي الطيب التي كان يبكي بها ، وقد جاء فيها :

( ١٤ - النبي )

نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ ، نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالٍ  
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ  
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ  
وَهَكَذَا ، فَمَا أَبَالِي بِالرَّزَايَا ( لِأَنِّي مَا أَتَقَفْتُ بِأَنْ أَبَالِي )

( يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَتَمُوتُ أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي )

وهذا الحديث عن نفسه ومصائبها ورزاياها ، وما فيه من الحزن الغالب على عقله وعواطفه ، بعد الذي كان من أفراحه ، دليل على ما قدمنا من أن الرجل كان قد أصيب وابتلى ببلاء آلمه وحز في قلبه ، لا يزال يدفعه إلى القول بالباكي الحزين . ثم يستمر على ذلك في شعره مدّة ، فإنّه في هذه السنة نفسها ( سنة ٣٣٧ ) قال وهو يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب ابن داود بن حذان من أسير الخارجيّ :

تَفُكُ الْعُنَاةَ وَتُغْنِي الْعَفَاةَ ، وَتَغْفِرُ لِلْمُذْنِبِ الْجَاهِلِ  
فَهَنَّاكَ النَّصْرَ مُعْطِيكَهُ وَأَرْضَاهُ سَعْيِكَ فِي الْأَجَلِ

يعني سيف الدولة ، وهذان البيتان في ختام القصيدة ، فكان حق الشعر أن يتف به أبو الطيب عند هذه الدعوة الصالحة بالظفر الذي كان ، والعمل الصالح فيما يستقبل ، ولكن قسم الرجل كانت مضطربة متأثرة ، قد غلبها الحزن ، وغمها الدنيا ( التي ليس لها خليل ) بما جلبت عليها من أرزاء ومصائب ، فانتقل على عادته غير متخلص ولا حافل ( بالنسبة ومتفضي الحال ) ، قال في عَقَبِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، يَتَيْنِ آخَرَيْنِ غَرِيبَيْنِ عَنْ مَعْنَى الدَّعَاءِ وَعَنْ مَعْنَى اللَّدَحِ ،



اجتمعت فيهما مرارة الحياة كلها ، ثم جعلهما ختام القصيدة ، قال :

( فَذِي الدَّارِ أَخُونُ مِنْ مُومِسٍ ، وَأَخْذَعُ مِنْ كَهْفِ الْحَابِلِ )  
تَقَاتَى الرَّجُلُ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَخْصُلُونَ بَعْدَ طَائِلِ

إنهما نفثة مكروب حزين ، قد أدمت قلبه غدرات الدهر ، قال له الدهر :  
« خذ » ، ففرح وابتهج ، ولم يكذ حتى قال له : « هات » ، فطارت البهجة ،  
وأطبق عليه الكرب الخفاق للظلم .

فأنت ترى الآن أن هذه المعاني التي قيدها لك ، أخذ بعضها ببعض ،  
على طراز لا يختلف من الحزن والكرب . هذا ، وقد كان سيف الدولة سأل  
أبا الطيب بعد ذلك أن يسير معه إلى الموصل ، لما أزمع هو المسير إلى نصرة  
أخيه ناصر الدولة ، فاعتذره أبو الطيب عن السير معه بقوله :

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ ، فَمَا تَحُولُ تَنْوُفَةٌ دُونَ اللَّقَاءِ ، وَلَا يَسِطُ مَزَارُ  
( إِنِّ الَّذِي خَلَفْتُ خَلْفِي ضَانِعٌ ، مَا لِي عَلَى قَلْبِي إِلَيْهِ خِيَارُ )  
( وَإِذَا صُحِبْتَ فَكُلُّ مَا مَشْرَبٌ (لَوْلَا الْعِيَالُ) ، وَكُلُّ أَرْضٍ دَارُ )  
إِذْنُ الْأَمِيرِ بَأَنْ أَعُودَ إِلَيْهِمْ صِلَةٌ تَسِيرُ بِذِكْرِهَا الْأَخْبَارُ

فلو أن امرأته كانت إذ ذاك باقية لم تبت ، لما عز على أبي الطيب أن  
يفارق ( عياله ) في رفقته وصحبته . وبين من قوله : « إِنِّ الَّذِي خَلَفْتُ خَلْفِي  
ضَانِعٌ » أنه يعني صغيراً من ولده لا يطمئن قلبه إذا فارقه مُصِيباً ليس له من  
يقوله أو يكأؤُهُ ويرعاه ، وأتم ذلك المعنى بقوله : « مَا لِي عَلَى قَلْبِي إِلَيْهِ  
خِيَارُ » . وفي الأبيات جميعها حنان الأبوة مائل بين لا خفاء فيه . . .  
وحسبك هذا من كلامنا ، فإذا رجعت إلى الديوان فتدبر قصائده بعد ذلك ،

ففيها من مثل هذا كثير . ولا يفوتك أن تذكر ما قدمناه من دقة إحساس هذا الرجل ، وسرعة تأثره ، وظهور هذا التأثير في شعره إذا ذكر به أمر يُعْثمه أو يثيره أو يهيج كبريائه ، وما يكون من جرّاء ذلك في شعره من الانتقال من معنى إلى معنى غير عابئ ( بحسن التخلّص ومقتضى الحال ) .

وقد قال أبو الطيب هذه الأبيات الرائية في آخر سنة ٣٣٧ ، وفي شهر صفر من سنة ٣٣٨ ، مات أبو الميجاء عبد الله بن سيف الدولة بحلب ، فرتاه أبو الطيب ، وختم رثاءه بثلاثة أبيات ، فقرأها متبصراً متدبراً ، قال :

أَنْبَكِي لِمَوْتَانَا ، عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ      كَفُوتُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا مَوْهِبٍ جَزَلٍ  
إِذَا مَا تَأَمَّلْتُ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ ،      تَبَيَّنَتْ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَبٌ مِنَ الْقَتْلِ  
( وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤَمَّلَ عِنْدَهُ      حَيَاةٌ ، وَأَنْ يُشْتَاقَ فِيهِ إِلَى النُّسْلِ )

فقال : « أنبكي لموتانا » ، مقالة رجل قريب عهد بكربة الموت ، يخاطب رجلاً مثله قريب عهد به . ثم ذكر الاشتياق إلى « النسل » ، مع ما في البيت من المראה الظاهرة التي لم يذهب طعمها من قلبه بعد . إنه بيت فاض عن قلب مفجوع يقطر حزناً ، ويقطر ياساً . كل ذلك دليل صريح على أن أبا الطيب كان يخاطب نفسه كما يخاطب سيف الدولة ، لأن بلوإها واحدة .

\* \* \*

اجتمع على أبي الطيب ، كما ترى في أول صحبته لسيف الدولة ، أفرح قلبه بلقاء أمير العرب الذي أحبه وأمل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وأفكاره وسياسته ، وأحزان قلبه بفقد امرأته ثم صغيره الذي جدّ له ما بقلبه من أحداث الزمن ومصائبه من الآلام . فكان تنازع الفرح والحزن في تلك

النفس المرحفة الشاعرة النائرة، سبياً في استخراج كوامنها ومضمّراتها وذخائرها. وأخذ أبو الطيب يروّز ما عنده من العواطف والأفكار، ويتأمل ما تجدد في قلبه من المعاني التي ولّدتها الأفراح والآلام، ويستوعب ما في ضميره من الأحداث القديمة التي تركت وسمتها فيه، ويرى يبصره إلى ما يستقبله في ظل سيف الدولة. وينظر فيما وجد عند الأمير من العطف عليه والإكرام له، ومن تقديمه على القدماء من أصحابه وشعرائه ورجاله، وشغلته الأيام بما يتجدّد فيها ممّا يخصه وممّا لا يخصه، وحوّته المجالس، مجالس العلم والأدب والشعر والسياسة، وأحاطت به الدنيا كلها مهياة كأنما أعدت له، ليأخذ منها ما شاء ويدع ما شاء،... فكان هذا كله ترفّعاً من القدر لصنع هذه الشاعرية الفذة وتربيتها وتغذيتها وتنشئتها على غرار فذٍّ، يكون به أبو الطيب شاعر العرب والعربية الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس).

وكان تنازع الفرح والحزن في تلك النفس المرحفة الشاعرة النائرة حدّاً لها من غلوّاتها، وصرفاً لها عن الفكر في الكبرياء، إلى الكبرياء في الفكر، فأصبح أبو الطيب ينظر في الحياة نظرة التدبّر والتحجّص، يتلبّ الرأى، ويعبّر الفكرة، ويقيس الأشباه والنظائر، ويردّ الأمور إلى أصولها ومنازمها، وينتزع جوهر المعاني من بين أعراضها، لا يأتلى في ذلك جهداً ولا يقصر. فمن هنا تواردت عليه المعاني، واتخذت لها بين قلبه وفكره منزلاً ومقرّاً، فإذا قصّد إلى الشعر واحتفل له بيانه وروافد هذا البيان من الحوافر والدوافع والعواطف، ابتدرت هذه المعاني من منازلها بين قلبه وفكره، إلى منازلها بين أبياته وقصائده. وهذا هو أحد الأسرار العظيمة في بيان هذا الشاعر العظيم.

وتلألاً مجدُ سيف الدولة في شعر أبي الطيب ، قَرَّبَه وزاده عطاء وإقطاعاً  
 وأسبغ عليه نعمة لم يكن أبو الطيب ينتظر مثلها أو يؤمله ، فوق ذلك من  
 نفسه موقع الأمانة التي تحققت من نفس اليأس الذي ضَجِرَ بأمانيه ، وقد  
 استيقنت نفسه أنها لن تتحقق . وكان هذا أيضاً - مع الحزن والفرح اللذين  
 يتنازعان في نفسه - عوناً على صُنْع شاعرية الرجل وصقلها وجلالها ، لتكون  
 المرأة التي تراءى فيها حقائق الحياة وفلسفتها وحكمتها وبيانها وما لها  
 وما عليها .

ولم يكن سيف الدولة يحلُّ ما سيكون من هذا الرجل أوَّلَ مآلتيه ،  
 بل يقيئنا أنه كان قد انكشفت له فسيحة أبي الطيب فأخذها من حيث ينبغى  
 أن تؤخذ ، وعرف أن هذا الذي مدحه بأنطاكية سيكون مخلد ذكره ،  
 وحافظ أخباره وصفاته في شعره ، وليس مثل سيف الدولة يغفل عن ذلك  
 أو يتجاوز به بصره . فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً قد اجتمعت له من أداة  
 الأدب والشعر أداة كاملة متقنة ، وكان بصيراً بنقد الشعر ، نافذاً في إدراك  
 أسرار البيان . وأيضاً . . . ، فقد كان ما عليه سيف الدولة مما ذكرنا ، من  
 أكبر العوامل في شعر أبي الطيب فإنه كان يعرف يقيناً بصَرَ صاحبه سيف  
 الدولة بالأدب والشعر ، فخله ذلك على الإجابة والتبصُّر ، وتقليب المعاني  
 واختيارها ، واصطفاء أثوابها من الألفاظ واجتباؤها ، وكان ذلك من  
 أبي الطيب لما في نفسه من الكبرياء والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لعلَّ عليه في  
 نظر سيف الدولة رجلٌ غيره من الشعراء أو لسواه به ، وصاحبنا هذا لا يرضى  
 بأن يسبقه إلى سيف الدولة غيره من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة ؟ . . .  
 كلاً ، وكذلك فاق أبو الطيب كل من سبقه أو جاء بعده من شعراء العربية

فقد اجتمع له من الدوافع وغيرها ما لم يجتمع لأحد منهم .

وبعد أيضاً ، فقد كان من العوامل في هذا النبوغ القذ الذي استعلن في أبي الطيب ، ما أصاب من الاستقرار والاطمئنان في جوار سيف الدولة ، وما تيسر له من الرزق الذي لم يكلفه همًّا ولا كرباً ، بعد أن كان لا يمتنع لقمة من عيشه إلا ومعهما نكدُها وهمُّها وشقاؤها . وأيضاً .. .. فقد علمت قبل أن هذا الرجل كان من صِفره محبًّا للعلم والأدب ، لا يدع استيعاب ما يقع إليه من الكتب في كل فنٍّ ، وعلم ، ففي جوار سيف الدولة ، تيسر له من ذلك ما لم يكن يتيسر ، فقد كان مليئاً بماله الذي أفاده ، يشتري ما يشاء ويستنسخ ما يرغب فيه ، وما كان سيف الدولة لينعمه أن يستفيد مما اجتمع عنده من نواذر الكتب والمؤلفات قديمها وحديثها ، فأخذ أبو الطيب يقطع أيامه بالتزوّد من كل علم ، والاستزادة في كل فنٍّ ، وقد وهبته الله ذاكرةً واعية ، ونهماً نافذاً ، وقدرة على النقد والتمييز ، ونفساً شاعرةً تأخذ من ذخائرها ما تشاء ، وتنضو عنه ما يعلق به ، وتجلوه جلوةً العروس في ثياب عرسها . وكذلك اتفق لأبي الطيب في هذا المهذكل ما يعينه على النبوغ والسبق .

\* \* \*

قلنا قبل إن سيف الدولة قد قرّب أبا الطيب وزاده كرامةً ومحبةً لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، مع ما عرف عن سيف الدولة من تحرّزه وتشدّده حتى على الكثيرين من أهله ، وضربنا المثل بأبي فراس الحمداني وهو من هو في قربه من سيف الدولة لقرايته ورحمه ، وتحقّقه بخدمته ، والذهاب في طاعته ومريضته ، وتمجيده في شعره ، وتخليد ذكر وقائمه وحروبه ببلاغته وبيانه .

= وأشرنا إلى أن السياسة كانت أيضاً مما قرب أبا الطيب وأدناه من مجلس سيف الدولة وسامره وخلوته . ولعلّ هذا الأمر الأخير = مع ما قدمنا ذكره من أحوال سيف الدولة، وأبي الطيب وما فيه من النبوغ والدهاء = هو الذى جعل لأبى الطيب عند سيف الدولة منزلة لا تدانيها منزلة أحد من أقاربه أو أهله أو شرائه الذين كانوا يبابه ، وقد قالوا إنه لم يجتمع بباب أحد من الأمراء مثل ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراء والأدباء .

وقد تتبعنا ديوان أبى الطيب كله لنظفر بالدليل على أن سيف الدولة كان قد استصنى أبا الطيب واتخذ منه أخاً يمنعه ودّه ويكشف له عن سرّه ، ويحدثه بأماله فى السياسة والحكم ، فوقتنا على أشياء من ذلك لا بأس من ذكرها والتدليل عليها ، على ما درجنا عليه فى كلامنا من استنباط المعانى وردّها بعضها إلى بعض . هذا ، على كثرة ما يتصل بهذا من أحوال أبى الطيب وسيف الدولة ، مما لا نستطيع أن نجمله لك فى فصل واحد ، ولذلك سنكتب ما نكتب ، وعلى القارئ أن لا ينسى ما مضى من القول فيضعه فى موضعه ليزيد ما أمامه قوةً وبياناً ، وأن يستأنى لما يستقبل فيحله محلّه ليرتبط الأول بالآخر ، وينكشف له ما يغمض عليه أو يستهم مما نحن فيه .

\* \* \*

كان أبو الطيب ، كما رأيت أولاً ، رجلاً ثامراً بما فى نفسه غير راضٍ عن الحكم القائم فى البلاد العربية ، وقد ذكر ذلك فى كثير من شعره الذى مضى بك ، وهدّد الأمراء والملوك والسلاطين بما سوف يفعله بهم ، وما يأتهم به من القتل والفتك ، وخصّ بالذكر والحقد والوعيد الأعاجم الذين كانوا

قد استولوا على مقاليد السلطان والحكم، ولم يفتأ يذكر ذلك من أول أمره إلى أن اتصل بيدر بن عمار، وكان، كما قلنا قبل، يؤمل أن يجد في بدر بن عمار (الرجل) الذي يستعين به على أماله وآرايه، ويحقق بعونه له، ما كان يدور في نفسه من المطامع السياسية: من رد الحكومة إلى العرب دون الأعاجم، وكذلك هذا حين اتصاله بيدر ولم يكثر من ذكر وعيده وإنذاره وآرائه، وفسرنا هذا هناك. فلما كان اتصاله بسيف الدولة على ما وصفنا في هذا الفصل، من توافق الرجلين في المذهب السياسي، والرأى الذي يريانه لإيقاد العرب من عادية الأعاجم وغيرهم ممن يكيدون بالفتنة لأمتها، هذا أبو الطيب هدأته تلك، وانصرف بيانه إلى تمجيد صاحبه، كما فعل حين كان في جوار بدر. وقد ألمنا بحالة أبي الطيب النفسية وفسرناها، وبيننا أن ذلك عادة له إذا لاقى العربي المحارب الفاتح الذي يؤمل في وجهه النصر والظفر وتحقيق الآمال التي تسمو بهمته إلى غزو الأمة، وإنقاذها من البلاء الذي حل بها وأوهاها وفرق شملها. وجمعنا إلى ذلك ما كان من تقرب سيف الدولة أبا الطيب إليه، واصطفائه بمودته دون سائر الشعراء، وجميع أهله وقربائه، والمتصلين به من أصحاب الفكر والرأى والدعاء. وقد مضى بك أيضاً أن أبا الطيب كان قد ذكر، حين قدم إلى أنطاكية على أبي العشائر، أنه لم يأت مستمعاً ولا طالب رِفق وعطاء، بل أشار إلى مُرادِه ومبتغاه الذي من أجله قصد أنطاكية فقال:

فَـسِرْتُ إِلَيْكَ فِي (طَلَبِ الْمَالِ) وَسَارَ سِوَايَ فِي (طَلَبِ الْعَاشِ)

= وتبيننا من شعر أبي الطيب في المدة التي سلخها في ظل سيف الدولة

من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ ، أنه كان يقول الشعر في سيف الدولة ممجداً له ورافعاً من ذكره وذكر غزواته وحروبه ، وقد تأزرت عوامل نفسه كلها على منحه التجويد والإبداع في ذلك . وتفسير ذلك عندنا أن هذا الرجل الثائر حين لاقى سيف الدولة الفاتح ، وجه كل ما كان في قلبه من القوة التي دفعته إلى مدح نفسه وذكرها والإفصاح عن آرائها وآمالها ، إلى مدح هذا الرجل ( سيف الدولة ) ، ووصفه ووصف حروبه وغزواته ، فصارت القوة التي كانت كينونة شعره الأول إلى هذا الشعر ، فكان وحده هو أبداع ما أتى به وما أخرجه من البيان . وكان صورة أخرى من شعره الأول ، إلا أنها أقوى وأتم وأمثل في التجويد والتصوير .

ثم فارق أبو الطيب سيف الدولة ، وهو لا يزال ثابتاً على محبته والإخلاص له ، وكان سيف الدولة لا يزال مستقصياً لأخباره في كل بلد ينزله ، متنبهاً لشعره الذي يقوله لكل من مدحه من بعده . وكان أيضاً لا يزال يهتدي إليه من هداياه ، مع أنه فارق مدح غيره . بعد إكرامه له إكراماً لم يلق مثله أبو الطيب قبل اتصاله به . وكان أيضاً يكتبه ويقتلعه منه بعض كتبه = وكل هذا دليل على أن المحبة التي كانت بين الرجلين لم تكن محبة أمير لشاعره وحسب ، بل كانت صداقة لا يقطع فيها حديث من أحداث الزمان ، أو سعى الوشاة والمتقولين .

\* \* \*

هذا ... وقد رَوَوْا أن سيف الدولة أنفذ إلى أبي الطيب ، وهو بالكوفة سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر ، وبعد أن فارق بسبب سنوات ،



هدية مع أحد أقاربه ، فكتب إليه قصيدة أهداها إليه كما أهدى ، فكان  
مما ورد في هذه القصيدة ، يخاطب سيف الدولة :

أَنْتَ طَوْلَ الْحَيَاةِ لِلرُّومِ غَايَ فَمَتَى (الْوَعْدُ) أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ ؟  
وَسَوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ ، فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ ؟  
قَمَدَ النَّاسِ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِيكَ وَقَامَتْ بِهَا الْقَنَا وَالنُّصُولُ  
مَا الَّذِي عِنْدَهُ تَدَارُ لِلنَّيَا ، كَالَّذِي عِنْدَهُ تَدَارُ الشُّمُولُ (١)  
لَسْتُ أَرْضَى أَنْ تَكُونَ جَوَادًا وَزَمَانِي بِأَنْ أَرَاكَ بِخَيْلٍ  
تَنْصَحُ الْبُعْدُ عَنْكَ قُرْبَ التَّطَايَا ، مَرَّتَيْنِ تُخَصِّبُ وَجِشِي هَزِيلُ  
مَا أَبَالِي ، إِذَا انْتَهَكَ اللَّيَالِي ، مَنْ دَهَتْهُ حُبُولُهَا وَأُخْبُولُ  
.. .. .. .. ..

وقد ذكرنا قبل أن سيف الدولة كان قد عزم في نفسه أن ينال بهيمته  
غاية الغايات في ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظلّ حكومته ،  
وكان أوّل ما أتم من ذلك أن زخّم الإخشيديين بمناكبهم حتى أزاحهم عن  
أكثر البلاد الشامية وردّهم إلى الرملة ، وأراد أن يوطّد سياسته وحكمه  
بالشام ، حتى إذا أعدّ المدة ، واستجمع الأداة ، تحفّز بقوته كلها على  
العراق فمال عليه ميّلة رابية ، ليزيل عنه سلطان الموالي الذين استولوا على  
سلطة الخلافة . وكان هؤلاء الموالي ، أو أكثرهم ، ممن استقل بالدويلات ،  
من شيعة العلويين الذين أطلعوا داعية الفاطميين ، وكان سيف الدولة لا يتردد  
بحكم الفاطميين ولا يرضى عنهم ، ولذلك نصر الخلافة العباسية ، مع أنه

(١) « الصومل » هي الخمر .

علوئى المذهب . كانت هذه هى سياسة سيف الدولة ، وكانت هذه هى إرادته ، ليجمع شمل العرب ويردّ الحكم إلى اليد التى لا تضطرب ، وإلى الفكر الذى لا يحلجله من مكانه كيد الكائدين للعربية من أصحاب الفتن والدسائس . . . فجاء أبو الطيب يقول فى هذه الآيات :

أَنْتَ طَوَّلَ الْحَيَاةَ لِلرُّومِ غَايِرَ ، فَنَى (الوعد) أَنْ يَكُونَ الْقَفُولُ ؟  
وَسِوَى الرُّومِ خَلَفَ ظَهْرَكَ رُومٌ ، فَعَلَى أَيْ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ ؟

فى البيت الأول بصرح بأن سيف الدولة كان قد وعده أن يَقْفُلَ من غَزَوِ الرُّومِ الذين يَهْدِدُونَ أطراف الشام ، ويُعِدُّ العُدَّةَ لغزو غيره ، فَإِنَّ قوله (الوعد) معرّفًا ، دليلٌ على تخصيص وَعْدِهِ بعينيه ، ولا يكون كذلك إِلَّا أَنْ يَكُونَ وعدًا وعده سيف الدولة أبا الطيب لتحقيق ما يريدان من ردّ الحكومة إلى العرب ، وذلك بأن يغزو سيف الدولة العراق و (يميل عليه) ، ويزيل عنه سلطان الموالى والأعاجم ، ولذلك سأل أبو الطيب سيف الدولة فى البيت الثانى فقال : (فَعَلَى أَيْ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ ؟) . وقد جعل القائمى بالحكم ، والمستولين على السلطان فى العراق ، «رُومًا» ، لما أشرنا إليه قبل ، من أن هؤلاء لما وقفوا على عزيمة سيف الدولة فى إزالتهم عن العراق ، أوعزوا إلى ملك الروم أن يقاتله ، إذ أوقعوا فى قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أن سيف الدولة الذى كان يعدُّ سلطانه على الشام يومًا بعد يوم ، إنما يريد بذلك أن يُزِيلَ الْمُلُوكَ من بين يديه ويقلبه على بلاده ، وبذلك يتم لهم ما يريدون من صرف سيف الدولة عن حربهم ، وانصرافه إلى حرب الروم ، ويكون ذلك استهلاكًا لقوته ، حتّى إذا

ما أراد أن يميلَ عليهم ، يكون قد قدصفوة الحارين معه في قتال الروم ، فلا يصيب إذ ذاك في حربهم وقتالهم ظفراً ولا نصراً . وهذا التعبير من أبي الطيب دليلٌ على أنه كان يعرف ميرَ هذا الأمر كما يعرفه سيف الدولة ، ثمَّ إنَّ أبا الطيب أخذ يهون على سيف الدولة أمرَ غزو العراق ، ويُغريه بالإقدام على ما وعدّه من الفتح ، إذ وصفه ووصف أهلَ العراق فقال :

مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ النَّيَا ، كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشُّمُولُ

فهو بهذا يغريه بهم ، إذ كانوا قوماً أهل سكرٍ وعريضةً ، لا أهل حرب وقتال كسيف الدولة الذي لم يكن يفرغُ من غزوةٍ ويَقْفُلَ منها حتى يبادر إلى أخرى يصيب فيها النصر والظفر ، أو التجربة في القتال والمران على مكر الحرب وخدعها . وهذا الذي كان من ( الوعد ) بين سيف الدولة وأبي الطيب ، كان هو السبب في أنَّ أبا الطيب حين دخل العراق في تلك السنة لم يعبأ بأحد من السلاطين والحكام وأولى الأمر من الوزراء ، واستكبرَ عن جميعهم ، فلم يرح منهم أحداً ، حتى الخليفة لم يفكر في مدّحه ، بل راعهم جميعاً حتى كان ما كان من أمر الوزير المهلب وغيره ، وعداوتهم له ، وإغراهم الشعراء بالوقوع في عرضه وشرفه ونسبه ، وتحريضهم الأدياء على معاندته ومجادلته للفض منه والإضرار عليه ، كما مرَّ بك في أوائل كلامنا .

وأيضاً ... ، ففى ذى الحجة من سنة ٣٥٣ كتب سيفُ الدولة إلى أبي الطيب كتاباً ( يخطّه ) يسأله السير إليه ، فأجابه أبو الطيب بقصيدة أشدها إليه ، أولها :

فَهَيْتُ السِّكِّتَابَ ، أَبْرَ الْكُتُبِ      فَسَمِعَا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ  
وَطَوَّعَا لَهُ ، وَآبَتْهَا جَا بَه ،      وَإِنْ قَصَّرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجِبَ

فإذا كان هذا الكتاب ، كما وردت الرواية ، قاصراً على رغبة سيف الدولة إلى أبي الطيب في أن يلحق به ، ويكون في جواره ، فيكون قول أبي الطيب ( فهمت الكتاب ) من أسخف القول وأرذله وأحطه وأسقطه ، ويكون سقوطاً قد أصاب عقل هذا النابغة . أيقول أبو الطيب إنه فهم كتاب سيف الدولة ( الذي كتبه له بخطه ) ، يسأله أن يسير إلى الشام ؟ وما في هذا الطالب مما يحتاج إلى « الفهم » ؟ وما فيه مما تقتضي الإجابة عنه أن يخبره بأنه قد فهمه ؟ أيسكون هذا أو يُعقل !! والبيّن أن سيف الدولة كتب إلى أبي الطيب - بعد القصيدة التي مرّ ذكرها ، والتي أغراه فيها بغزو العراق وفتحها - كتاباً يشرح له فيه الأمر ، غير مصرّح بشيء ، ويذكر العوائق التي تعوقه دون غرضهما ، ويبيّن له ماهو فيه من الكرب والضيق ، وأنه لولا ذلك لما تأخر عن عزيمته ، ولو في لأبي الطيب بالذي وعده من فتح العراق . ولهذا لم يأت من سيف الدولة أحداً على هذا الكتاب الذي كتبه إلى أبي الطيب فكتبه إليه ( بخطه ) حيلةً وحذراً أن يشيع ماورد فيه . وقد أراد سيف الدولة في كتابه هذا أن يزيد أبا الطيب بياناً ، ولكنه لم يستطع خشية الأحداث التي لا يملك صرفها ، من وقوع هذا الكتاب في يد عدوّ من أعدائه ، ولذلك طلب من أبي الطيب أن يُقدّم عليه بالشام فيخلّو به ، ويشرح له الأمر في غير كناية ولا تعريض ، ولكن أبا الطيب كان قد فهم ما وراء كنايات سيف الدولة وإشاراته الخفية ، فكتب إليه :

فهمتُ الكتابَ ، أبرَّ الكتبِ فَسَمِعاً لأمرِ أمير العربِ

فهذا الذى أفضنا فيه دليلٌ كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبي الطيب أمرار سياسية تخصُّ أغراضها وآمالها فى إعادة المجد العربى ، وإزالةِ الحكام الطاغين من الموالى ، وقمع الفتن التى قام بها العلويون والفاطيون فى البلاد ، وهم لا يقدِّرون مَعَبَّاتِها وعواقبها ، ولا يَرِنون أمرها ، إذ يتَّخِذُها أعداء العرب والإسلام ذرائع لقضاء مآربهم فى تمزيق الأمة ، وتفريق شملها ، وإضاعة مجدها وسلطانها ، ليقيموا على أنقاضها ما نسَّوْله لهم أحقادهم وضغائنهم من الأوهام والأحلام .



**沙奈奈奈奈奈奈奈奈奈奈奈奈**

ورأيت أن اتصاله بسيف الدولة نقل قلب الرجل من منزلة إلى أخرى ،  
نقله من منزلة الإحساس الشخصي الموحد ، إلى منزلة الإحساس الشخصي

(١) كان حق هذا الباب أن يسبقه في ترتيبنا باب آخر، نذكر فيه ما تميز به شعر أبي الطيب، وقصصه في أسلوبه كله على تدرج لا يفاوت، ولكن منعنا من ذلك ضيق الوقت .  
(١٥ - الثاني)

للتَّوَلُّج في الاجتماع المزاحم في سياسته ، المؤمل في سيف الدولة ردَّ السلطان إلى العرب والعربية ، بعد القلبة والظفر وتحقيق الأمانى . وكان هذا سبباً في انتفاض قلب ( الرَّجُلُ الشاعر ) بالفرح للمستولى عليه ، الغالب على عواطفه . ثم كان أيضاً ما استنبطناه ممَّا سبب في هذا القلب أسباباً للألم والحزن والأنين والبكاء والحسرة ، فصار التنازع في هذا القلب بين الفرحة الغالبة والحسرة المتمكنة سبباً في استخراج مكنوناته ، وتوليد المعاني الجديدة من الصراع الهائل الذي كان فيه . وبذلك خرج أبو الطيب عن طوره الأوَّل المحدود بمحدَّة ، إلى الطور الثاني المتفاسح المتراعى إلى كل غايات الحياة وأسبابها وما يكون فيها وما يكون منها .

وكان هذا الرجل الشاعر إنمَّا يعتمد في توليد معاني شعره على استيعاب ما بنفسه من الأفراح والآلام ، ما تقادم منها وما جدَّ ، ثم الاستغراق في تأمل هذه الذخائر التي في نفسه وردَّ بعضها إلى بعض ، وربط الغائب منها بالشاهد ، وعطف الأول منها على الآخر ، وكأنما كانت تتراءى لعينيهِ حوادث قلبه وحوادث دهره ، وتتردَّد في سمعه أصوات قلبه موصولة بأصوات الناس وكلامهم ما قلَّ منه وما عظم . وكان هذا الاستغراق في تأمل ما بنفسه ، هو أحد الأُمُرات العظيمة في تصوير شاعريته ، وتسويتها وتفتتها وتغذيتها وتنميتها إلى الغاية التي هي عليها في شعره .

وقد يَنبَأ قبلُ أن من أداة هذا الشاعر العظيم ما أودعه الله فيه من الحس للرهف ، وما وهبته من العاطفة الملهبة المتوقدة التي لا يخبئها حُرَام ، ورائة كان ذلك من جدِّته ، أو فِطْرَةِ فطره الله عليها غير موروثة . وكان



هذا الرجل في أوّل أمره مُطالباً بثأرٍ قد نُشئ عليه ، وأُخذ به من صفه . حتّى شغل فكره وعقله ، وتدقّق في بنيانه كله تدقّق الدّم ، وصار أصلاً من الأصول التي قامت عليها كل حالته النفسية = على ما ذكرناه . أولاً ، وتدرجنا في بيانه إلى عهد اتصاله بسيف الدولة = وكان قد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، وهي السنّ التي تستحكم فيها الأصول ، وتستقرّ المذاهب ، ويقف الرجل عندها لا يملك في تبديل أمره خوفاً ولا قوة إلا أن يشاء الله ، وخاصةً من كان حثل المتنبي قد عركته الأيام من صفه ، وتحاملت عليه ورّجت به في تنويرها حتّى استوى على صورة بعينها ، واستمرّ مريرُهُ على ما فيه من القوة المستحصدة والمُلمّة الدائبة الفورة والنزاع ، لا تستقرّ ولا تهدأ ولا تعلمنّ .

هذا ، ... وقد استوقفنا ، ونحن نقتبِع شعرَ الرجل على طريقتنا ومذهبينا ، الفرقُ الكبيرُ الكائن بين شعره الأوّل ، وشعره الذي قاله في حضرة سيف الدولة ، وتدرجنا الأسباب على ما بيّناه قبل ، فلم يَسْتَوِ عندنا أن يكون ذلك من أجل ما ذكرناه قبل وحسب ، فعندنا نجدد الرأى لذلك ، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعاني ، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهدينا إلى السبب الأكبر في هذا التجويد الفذّ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية ، فاسترَوْحنا في شعر الرجل نَفْحَةٌ من نفعات المرأة التي تكون من وراء القلب تصنع للشاعر المبدع بيانه ، وتتخذ من فتها النسويّ مادّةً تهيكّلُ لنفّ صاحبها وعبقريته ونبوغه . فآتمنا الأمر على ذلك ، ورَجَعنا إلى شعر أبي الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه ، وتمثلنا المرأة بينهما وهي دائبة تصنع له بيانه وتهيئه له فته ، فاستوى الأمر على ذلك . وطلبنا الدليلَ ، فدلّنا على المرأة التي

سكنت قلب أبي الطيب = وهو في ظل سيف الدولة = وجماعته حكيم الشعراء  
وشاعر الحكماء .

كان صاحب الحكمة أبو الطيب يضع حكته بالتدبر في معرفة نفسه ،  
واستبطان أسرارها وإدراكها ، فلما جاءت له المرأة ، وأرادت كبرياءه على  
الخنوع لها والتصرف بأمرها ، وقعت نفس هذه المرأة بأسرارها وأحداثها  
بين نظرات أبي الطيب النافذة المتوجّهة إلى ما وراء الواقع والحسّ الملموس .  
وبين نفسه بأحداثها وأسرارها وما انطوت عليه وما تجلّت به . ولما كانت  
نفس المرأة المحبوبة هي تمام نفس الرجل المحب وتكملتها ، كانت دراسة  
الحكيم الحب لنفسه للمسألة التامة بالمرأة المحبوبة ، إنما هي دراسة للكون كله ،  
فإن العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها إلا بمعنى من يعشق ، وهي على ذلك  
الدنيا للترامية ، بعد أن كانت قبل عشقه محصورة في دائرتها من نفسه الناقصة  
غير التامة . والحب القوي النافذ الذي يملك حواس الحب ويقلب عليها ،  
هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس إلى غايات بعيدة لم تكن تصل إليها قبل  
غلبته على القلب والنفس والفكر . فلماذا حين أحب أبو الطيب = الرجل  
الناثر المتكبر الشاعر الحكيم البياني الفكر واللسان = كان امتداد نفسه  
وتزاميها إلى غايات بعيدة من الرجولة والثورة والكبرياء والحكمة والفكر ،  
ولم يستطع أن يكون ، بعد أن غلب الحب قلبه وتفاصح به ، شاعراً غزلاً  
رقيق البيان . وهذا هو السر عندنا في ضعف مادة الغزل عند أبي الطيب .  
وقوة مادة الحكمة وما إليها ، مما هو من طبيعته للتأصلة فيه على ما فصلناه في  
أثناء كلامنا . وليس يصح عندنا أن لا يكون أبو الطيب عاشقاً صلباً متدلماً .

حالم نجد في شعره غزلاً ولا أنيناً وحِيناً وبكاءً .

\*\*\*

والآن ، وبعد هذه المقدمة ، نحاول أن نعين لك المرأة التي أحبها أبو الطيب على ما يتفق لنا ، <sup>(١)</sup> إذ كان ترتيبُ هذا الموضع من الكلام مما يستدعي النظر في أكثر شعر أبي الطيب وتقليبه على المذهب الذي اتخذناه ، فيخرج الأمر من حده ولا تتسع له هذه الورقات .

لما ماتت أختُ سيف الدولة الصُغرى ، وقف أبو الطيب بُعْزِيه وِزْرِيها ، وبسببها بقاء أخته الكبرى ، وذلك في يوم الأربعاء للنصف من شهر رمضان سنة ٣٤٤ ، وبعد سبع سنواتٍ من مقامه في حضرة سيف الدولة ، فأُنشده قصيدته التي أولها :

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرِّبَاةِ فَضْلاً    تَكُنْ الْأَفْضَلُ الْأَعَزُّ الْأَجْلاً

وطبق يمدح سيف الدولة بمناقبه مما يصلح لهذا الموضع من العزاء ، إلى أن قال :

أَيُّنَ ذِي الرِّقَّةِ الَّتِي لَكَ فِي الْحَرْبِ    بِإِذَا أُسْتُكِرَ الْحَدِيدُ وَصَلَا ؟  
أَيُّنَ خَلَقَتْهَا غَدَاةُ لَيْتِ الْوَمِ    وَوَمِ وَالْهَامُ بِالْصُّورَامِ تُفَلَّى  
( فَاسْمُكَ الْمَنُونُ شَخْصَيْنِ جَوْرًا    جَعَلَ الْقِسْمُ نَفْسَهُ فِيهِ عَدْلًا )  
( فَإِذَا قِيسَتَ مَا أَخَذَنَ بِمَا غَا    دَرَنَ ، سَرَى عَنِ الْفَوَادِ وَسَلَى )  
( وَتَيَقَّنْتَ أَنَّ حَظَّكَ أَوْفَى ،    وَتَيَقَّنْتَ أَنَّ جَدَّكَ أَعْلَى )

(١) اعلم أننا كنا نؤمل أن نيسط القول في هذا الباب ، ولكن حالت دون ذلك أحوال .

فأبو الطيب يطلب من سيف الدولة أن يقيس أخته الصغرى التي ماتت ، إلى أخته الكبرى التي بقيت له ، فإذا فعل ذلك كان سؤاى له وتسرية لله . عن قلبه ، ولا ندرى كيف يتفق أن يخطر لشاعر يرى امرأة محببة ماتت ، أن يذكر أخرى = وتكون أختها = ويعزى أخاها بهذا العزاء الغريب ؟ ثم يزيد فيقول له : إنك إذا فعلت ذلك الذى دلتك عليه ، « تيقنت » أن حفظك فى بقاء هذه الكبرى أوفى من حفظ الموت فى أخذ الصغرى ، وكيف ييقن أبو الطيب سيف الدولة من حسن حفظه ببقاء الكبرى ، إلا إذا كان هو على يقين من ذلك ؟ وكيف يكون على يقين من ذلك ، إلا وهو يعرفها معرفة تفضى به إلى هذا اليقين ؟

ثم مضى أبو الطيب فى القصيدة كلها يمدح سيف الدولة ، ولم يتعرض لهذه الفتاة أخته الصغرى إلا فى موضع آخر ، إذ يقول :

خِطْبَةُ الْحِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدٌّ      وَإِنْ كَانَتْ لِلْسَّمَاءِ مُكَلًّا  
وَإِذَا لَمْ تَحْدِ مِنَ النَّاسِ كُفًّا      ذَاتُ خِدْرِ، أَرَادَتْ الْمَوْتَ بَعْلًا

فالعجب أن يكون ذلك عزاء ... ، فإن أبا الطيب قد قدم الكبرى فى المنزل ، فكان أولى إذن أن تموت الكبرى ، إذ هى ولا شك عند أبي الطيب أفضل من هذه الصغرى التى لم تجد من الناس كفتا يكون لها زوجا ، فاختارت الموت بعلها !! وهذا التناقض يدلنا على أن الرجل كانت قد اقترنت فى عينه صورة الكبرى بصورة الصغرى ، فاضطرب قوله ولم يحص على سنان ونهج ، وذلك لاضطراب نفسه الذى أظهر ما فى قلبه وكشف عنه فى تدفقه حين ذكر هذه الكبرى فقال فيها البيتين : « فلذا قست ... الخ » .

فلما ماتت الكبرى هذه التي ذكرها هنا = وهي خولة أخت سيف الدولة ، في سنة ٣٥٢هـ ، أي بعد ذلك بسنوات ثمان ، وكان أبو الطيب بالكوفة ، فورد عليه خبرها ، فكتب إلى سيف الدولة قصيدة فيها (٤٤) بيتاً ، منها واحد وثلاثون في ذكر خولة هذه ، وستة أبيات في ذكر الدنيا ونكدها ، ولم يذكر سيف الدولة إلا في سبعة أبيات منها . هذا مع أن القصيدة التي رثى بها الصغرى ، لم يذكر فيها الصغرى مُفردةً إلا في بيتين هما : « خطبة للحمام ... » ، وذكر الكبرى ومعها الصغرى في ثلاثة أبيات هي « قامتمك المنون ... » ، وجعل بقية القصيدة وعدتها (٤٢) بيتاً في مدح سيف الدولة إلا قليلاً في الحكمة والحياة . أليس هذا عجيباً !

كان الفرق بين القصيدتين بيتاً واحداً لا خفاء فيه ، وكانت الثانية في رثاء خولة عاطفة قد أخذها الحزن وغلها البكاء ... يقول أبو الطيب ، وافتتحها بخطاب خولة :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ ، يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ	كِتَابِيَّ بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
أَجَلٌ قَدْ زَكَّ أَنْ تُسَمَّى مُؤَبَّنَةً	وَمَنْ يَصِفُكَ فَقَدْ سَمَّاكَ لِلْعَرَبِ
(لَا يَمْلِكُ الطَّرِبُ الْحَزُونَ مَنْطِقَهُ	وَدَمَعُهُ ، وَهِيَ فِي قُبُصَةِ الطَّرِبِ )
غَدَرْتُ يَامُوتُ ، كَمْ أَفْنَيْتُ مِنْ عَدَدٍ	بِمَنْ أَصَبْتُ ! وَكَمْ أَسَكْتُ مِنْ لَجَبِ !
وَكَمْ صَحِبتَ أَخَاهَا فِي مُنَازَلَةٍ	وَكَمْ سَأَلْتُ فَلَمْ يَبْتَحِلْ وَلَمْ تَحْبِ ا
( طَلَوِي الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَيْرٌ	فَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ )
( حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا ،	شَرَفْتُ بِالْذَّمِّ حَتَّى كَادَ يَشْرُقُنِي )
تَعَثَّرْتُ بِكَ فِي الْأَفْوَاهِ السُّنْهَا ،	وَالْبُرْدُ فِي الطَّرِيقِ وَالْأَقْلَامُ فِي الْكَتَبِ )

كَانَ؟ خَوْلَةٌ لَمْ تَمْلَأْ مَوَاقِبَهَا  
 ( وَلَمْ تَرُدِّي حَيَاةَ بَعْدِ تَوَلِيهِ )  
 ( أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْنُعِيَتْ )  
 ( يَظُنُّ أَنَّ فَوَادِي غَيْرُ مُلْتَهَبٍ )  
 ( بَلَى ، وَحُرْمَةٌ مَنْ كَانَتْ مُرَاعِيَةً )  
 ( وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَانُهَا ، )  
 ( وَهَمَّهَا فِي الْعُلَى وَالْمَجْدِ نَاشِئَةٌ ، )  
 ( يَبْلُغُنَّ حِينَ تُحْيَا حُسْنَ مَبْسِمِهَا )

( وَإِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَنْتِ فَقَدْ خُلِقْتَ )  
 كَرِيمَةً ، غَيْرَ أَنْتِ الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ

( فَلَيْتَ طَالَمَةَ الشَّمْسَيْنِ غَائِبَةً ، )  
 ( وَلَيْتَ عَيْنَ آلِي أَبِي النَّهَارُ بِهَا )  
 وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبِ

( وَلَا ذَكَرْتَ جِيلًا مِنْ صَنَائِمِهَا )  
 ( قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤْيَيْهَا ، )  
 ( وَلَا رَأَيْتَ عِيُونَ الْإِنْسِ تَذَرِكُهَا ، )  
 ( وَهَلْ سَمِعْتَ سَلَامًا لِي أَلَمْ بِهَا )  
 ( وَكَيْفَ يَبْلُغَ مَوْتَانَا الَّتِي دُفِنَتْ )  
 ( قَدْ أَطْلَتْ ، وَمَا سَلَّمْتُ مِنْ كُشْبِ )  
 ( وَقَدْ يُقَصِّرُ عَنْ أَحْيَانِنَا الْغَيْبِ )

( قَدْ كَانَ قَاسِمَكَ الشَّخْصَيْنِ دَهْرُهَا )  
 وَعَاشَ دُرُّهَا الْمُنْدَى بِالذَّهَبِ

( وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَرْوُكِ تَارِكُهُ ، إِنَّا كُنْفُلُ ، وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ )  
مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقْتًا كَانَ بَيْنَهُمَا ! كَأَنَّهُ الْوَقْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرَبِ

ولست تخفى ، فيما نرى ، ما تضمنته هذه الأبيات من القصيدة من العاطفة  
التي عطفته على هذه التي يرثيها ، وما يتوهج في ألناظها من نيران قلبه .  
ولست تخفى ، أين الرجل وحنينه وبكائه . ولا بد لنا هنا من بعض القول في  
أبيات منها نشرح به أمر أبي الطيب على وجهه .

\* \* \*

قد ذكرنا قبل أن الانتقال من معنى إلى معنى في شعر أبي الطيب ، هو  
الموضع الذي يبنى لنا الوقوف عنده وتميزه والتبصر في أوائله وأواخره ،  
إذ كان الانتقال في شعره هو الذي يُعينك على الكشف عن أسرار قلبه ونفسه  
وحياته . فإذا شئت الآن فانظر إلى انتقاله من قوله في مخاطبة الموت : « وكم  
صَحِبْتُ أَخَاهَا فِي مَنَازِلَةٍ » إلى ذكر ما أفزعته وكربه ، وهزَّ نفسه وحزَّ  
فيها إذ يقول :

« طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ      فَرَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ »  
« حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا      شَرِقْتُ بِالْدمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بَنِي »

والرأى عندنا أن هذين البيتين هما أول ما قال أبو الطيب من القصيدة  
حين بلغه خبر موت خولة وهو بالكوفة ، ففزع قلبه ، واضطرب أمره ،  
وانتشرت عليه عواطفه ، ففي البيتين أثر قلبه الفزع المضطرب ، وعليها ومم  
من لوعته وحرقة .

وقد غلب أبا الطيب بَيَّانُهُ في هذين البيتين فصرح فيهما بكل ما يضمُر

خولة من الحب . انظر كيف جعل الخبر يطوى الجزيرة كلها بقصدّه وحده دون غيره ، وقد حصّص ذلك بقوله « حتى جئني » ، وفي هذا من غلبة الحب على قلب أبي الطيب ما جعله يرى أن هذا الخبر بموتها = الذي سمعه وهو بالعراق ، وكان قد علمه الناس ولا شك = لم يقطع أرض الجزيرة إلا ليلته هو ، والحب دائماً يخص ويضيّق بمثل ذلك ، ولا يرى فيه الشراكة ، ولو تساوى الناس جميعاً في المشاركة فيه أو العلم به . ثم إن أبا الطيب نسب الفزع الذي لحقه إلى آماله ، إذ كانت آماله كلها في الحياة بعد حبه بخولة متعلّقة بها وبحياتها ، فلما جاءه الخبر بموتها فزعت آماله هذه أملاً أملاً إلى الشك في الأمر الواقع ، وإلى طلب الحيلة في ردّه وتكذيبه ، عسى أن تجد لها متعلّقاً تستمسك به ، فلما أخفقت الآمال أملاً أملاً ، وقطعها الخبر الذي سمعه بالصدق واليقين ، سقطت نفس الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوتها ، وغرقت في دمعها حتى شرقت به . وهذه حالة في الحب القوي العنيف الذي يستولى على القلب ، ولا يجعل للحياة بآمالها معنى إذا فقد من يحب ، أو ساءه من أمره ما يسوءه . فهذا من أبي الطيب دليل على أن كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثى أخت صديقه وأميره ، وإنما هو كلام قلب محب منجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد جمّعه المنيّة فيه .

ومثل ذلك في الدلالة على ما أصاب قلب أبي الطيب من الفجعية التي تخصه بموت خولة قوله :

« أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ السَّيْلِ مُذُنِمَتٍ      فَكَيْفَ كَثِيلُ فِتْيَانٍ فِي حَلَبٍ ؟ »  
« يَظُنُّ أَنْ قُوَادِي غَيْرَ مُلْتَمَبٍ ،      وَأَنْ دَمْعَ جُفُونِي غَيْرَ مُنْسَكَبٍ »



فليس يطول الليل على شاعر من أجل أخت أميره ، وإنما يطول عليه من أجل حبيبته التي فاتته بها الموت . ثم زاد أبو الطيب في الدلالة بقوله : إن سيف الدولة يظن أن فؤاده غير ملتهب ، وأن دمه غير منسكب ، وما لسيف الدولة ولهذا ؟ أيحب سيف الدولة أن يلهب قلبه وينسكب دمه من أجل أخته ، أو يسويه إذا لم يكن ذلك كذلك ؟ .

هذا ، ولانك نحن = من قبل ما جمعناه عندنا من الدلائل في هذا الأمر المتعلق بحب أبي الطيب وخولة أخت سيف الدولة = في أن سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من المحبة الغالبة على أمرها ، وأنه كان قد وعد أبا الطيب عِدَّةً لم يف له بها في أن يزوجه أخته هذه ، وكان ذلك سرًّا بينهما ، اتصل بعض خبره بأبي فراس الحمداني ، فكان سبباً في العداوة الباغية بين الرجلين . ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه أن يكتب هذه القصيدة إلى سيف الدولة ، على كثرة الإشارات فيها إلى أمره وأمر خولة والحب الذي بينهما .

ومن الشواهد غير ما ذكرناه مما يدل على الحب الذي بينهما دلالة واضحة لا تخفى على مثل سيف الدولة قوله :

« وَمَنْ مَصَّتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَّيْهَا ، وَإِنْ مَصَّتْ يَدَهَا مَوْرُوثَةَ النَّسَبِ »

الآيات الثلاثة ، فقد ذكر أبو الطيب أخلاق خولة ، ثم ذكر ما كانت عليه من علو النفس والهمة منذ نشأتها ، ثم ذكر ابتسامتها ، وهذه كافية في الدلالة على معرفته خولة معرفةً صحيحة عن خبرة ولقاء . وأيضاً قوله :

« وَلَا ذَكَرْتُ حِيَلًا مِنْ صَنَائِعِهَا إِلَّا بِكَيْتٍ وَلَا وَدٌّ إِلَّا سَبَبٍ »

وهذا دليلٌ على ما كانت تسبغ عليه خولةٌ من صنائعها وفواضلها مما يستجلب له البكاء حين يذكرونها ، وما نفلن أن صنائع خولة عنده كانت مِعْشَارَ صنائع سيف الدولة ، ولكن حب أبي الطيب هو الذى جعل صنائعها من قلبه بهذه المنزلة . ثم تدبر قوله : « وَلَا وَدٌّ إِلَّا سَبَبٍ » ، وفى رواية أخرى « بلا ودٍّ ولا سبب » ، وكأن هذه الرواية الثانية يراد بها نفى أمرٍ بعينه ، كان الوشاة يكثررون القول فيه عند سيف الدولة مع علمه بالأمر الذى بينهما ، من أن صنائع خولة التى كانت تتخذها عند أبي الطيب لم تكن من أجل هذا الودِّ ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب عنصرتها . ويكون المقصود بهذه الرواية غير سيف الدولة من كان يتزيد فى القول ويتكذّب عليه بما هو منه برّاء ، ولينفى التُّهم بذلك عن هذه التى كان يحبها ويعنحها قلبه .

وإذا شئت الزيادة فاقرأ قوله :

فليت طالعة الشمس غائبةً . . . . .

وتدبر البيتين وما فيهما من العاطفة . . . واقرأ

وهل سمعت سلاماً لى ألمٍ بها . . . . .

ثم انظر إلى هذا الالتفات إلى الماضى الذى جعلناه من المذهب فى الكشف عن أسرار أبي الطيب ، إذ ذكر ما كان منه حين رتّى أخت سيف الدولة الصفرى — من ذكر خولة هذه ، وذلك إذ يقول :

« فاسمك للنون شخصين جوراً . . . . . »

فعاد يقول في هذه :

« قَدْ كَانَ قَاسَمُكَ الشَّخْصَيْنِ دَهْرُهُمَا وَعَاشَ دُرُّهُمَا لِلْفَدَىِّ بِاللَّهَبِ »  
 « وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَرْكُوكِ تَارِكُهُ ، إِنَّا لَنَقُفُ ، وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ »  
 وتبدّر الصلّة بين هذا وذاك ، والحسرة المتميزة في قوله : « إِنَّا لَنَقُفُ ... »  
 و « مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقْتًا كَانَ بَيْنَهُمَا » ...

\*\*\*

وندع هذا الآن ، ونتنقل بك في مواضع من الديوان على غير ترتيب ،  
 لَنَرَى أَمْرَ هَذَا الْحَبِّ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ وَفِي حَيَاتِهِ ، وَمَا أَصَابَهُ وَهُوَ فِي ظِلِّ  
 سَيْفِ الدَّوْلَةِ مِنْ جَرَاءِ هَذَا الْحَبِّ . وَكَانَ حَقُّ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذَا الْبَابِ أَنْ  
 نَتَمَتِّعَ لَكَ حَيَاةَ أَبِي الطَّيِّبِ سَنَةً سَنَةً ، وَنَكْشِفَ لَكَ عَنْ تَدْرِجِ هَذَا الْحَبِّ  
 فِي شِعْرِهِ وَقِصَائِلَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْغَايَةِ وَلَكِنْ ... وَقِفْ لِلتَّنْبِيْهِ فِي مَجْلِسِ  
 سَيْفِ الدَّوْلَةِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوَّلُهَا :

وَأَخَّرَ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَيْمٌ وَمَنْ يَجْشِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ  
 وَقَدْ زَعَمُوا أَنْ سَبَبَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ كَانَ عَلَى مَا قَالُوا ... : « جَرَى  
 لَهُ خُطَابٌ مَعَ قَوْمٍ مُتَشَاعِرِينَ ، وَظَنَّ الْخَيْفَ عَلَيْهِ وَالتَّحَامِلَ » ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .  
 وَقَدْ آتَى لِلتَّنْبِيْهِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ بِكُلِّ عَجَبِيَّةٍ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْكِبَرِيَاءِ وَالْحَبْلِ سَيْفِ  
 الدَّوْلَةِ وَالْوَعِيدِ لَهُ ، كَقَوْلِهِ :

سَمِعْتُمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ صَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنْبِيْ خَيْرٌ مِّنْ تَسْمِي بِهِ قَدَمٌ

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عِيَابًا فَيُنْحِزُكُمْ ، وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرْمُ

وقوله في حب سيف الدولة :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ ، وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَ كَمْ عِنْدُ

وقوله في إنذاره :

لَئِنْ تَرَكْنِ ضُمِيرًا عَنْ مَيَّامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لَيْنٌ وَدَعَّ عَنْهُمْ نَدَمٌ  
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ فَالْأَحْلُونَ هُمْ

قالوا: فلما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة وقف له رَجَّالَةٌ في طريقه ليقتالوه ، فلما رآهم أبو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم ، سلَّ سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يُقَدِّمُوا عليه ، ونُصِيَ ذَلِكَ إلى أبي العشار ، فأرسل عشرة من خاصَّته فوقفوا بباب سيف الدولة ، وجاء رسوله إلى أبي الطيب ، فسار إليهم حتى قَرُبَ منهم ، فضرب أحدهم يده إلى غنان فرسه ، فسل أبو الطيب سيفه ، فوثب الرجل أمامه ، وتقدَّمت فرسه الخيل ، وعبرت قنطرة كانت بين يديه ، واجترأهم إلى الصحراء ، فأصاب أحدهم نَحْرَ فرسه بسهم ، فانزع أبو الطيب السهم ورمى به ، واستقلت الفرس ، وتباعد بهم ليقطعهم عن مددٍ كان لهم ، ثم كرَّ عليهم ، بعد أن قَتَلَ الثُّشَابَ ..... فلما يَسُّوا منه قال له أحدهم في آخر الليلة : نحن غلمانُ أبي العشار ، فقال قصيدته التي مضت : « وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبَهُ » ،<sup>(١)</sup> ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة

(١) انظر ما سلف من : ١٩٦ ، ١٩٧

مستخفياً ، فأقام عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل به ذلك أو أمر به ٠٠٠ وكان ذلك في سنة ٣٤٩ ، فلما رضى عنه سيف الدولة قال له قصيدة أولها :

أَجَابَ دَمِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ      دَعَا فَلْيَاهُ قَبْلَ الرِّكْبِ وَالْإِلِيلِ  
ظَلَلْتُ بَيْنَ أَصْبَحَائِي أَكْفِكُهُ      وَظَلَّ يَسْفَحُ بَيْنَ النُّذْرِ وَالْمَذَلِ  
أَشْكُو النَّوَى وَلَهُمْ مِنْ عِزِّي عَجَبٌ ،      كَذَلِكَ كُنْتُ ، وَمَا أَشْكُو سِوَى الْكِلالِ

ثم انتقل من هذا المعنى إلى معنى غيره فقال :

وَمَا صَبَابَةٌ مُشْتَقِيٍّ عَلَى أَمَلٍ      مِنَ الْقَاءِ ، كَشْتَاقٍ بِلاَ أَمَلٍ  
وكانه بهذا الانتقال يهون على سيف الدولة الأمر ، ويذكر له أن هذا الحب الذى بينه وبين « خولة » كائن على غير أمل ، وأنه لا يطمع أن أن يظفر بإدراك أمه من زواجها . ثم يدلل على ذلك بما كان من الحادثة التى كاد يُقتل فيها ، والتى تولى أمرها أبو العشائر ( وهو من قوم خولة ) ، ويذكر لسيف الدولة أن أهل « خولة » لن يدعوه أن يكون بينه وبينها صلة كما بلغه الوشاة ، فانتقل من معنى البيت إلى قوله :

« مَتَى تَرَرُ قَوْمٌ مِنْ نَهْوَى زِيَارَتِهَا      لَا يُتَحَفُّوكَ بِغَيْرِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ »

وهذه صفة ما لقي أبو الطيب فى ذلك اليوم الذى رويناه لك ، فانظر إلى هذا الانتقال الذى يدل دلالة واضحة على ما فى ضمير الرجل ، وما كان من سبب تلك الحادثة التى كادت تُودى بحياته ، ثم انظر الترفق فى قوله : « لَا يُتَحَفُّوكَ بِغَيْرِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ » ، وذلك لما بينه وبين أبى العشائر من

المودة والحب ، فهو يجعل أداة القتل ( تُحْفَة ) ، وقد قال لأبى العشائر فى هذه الحادثة نفسها أبيتانا تدل على حبه له ، وتقرّب إليك بيان هذا المعنى ، وقد مضى ذكرها ، <sup>(١)</sup> ويقول له فى آخرها :

« فَإِنْ كَانَ يَنْبَغِي قَتْلَهَا ، يَكُ قَاتِلًا بِكَفِّيهِ ، فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفٌ »

وفى تلك السنة نفسها ، سنة ٣٤١ ، يقول أبو الطيب ما نقلناه فى رأس هذا الباب :

« لَتَعْيَنِيكَ ، مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَا لَقِيَ وَلِلْحُبِّ ، مَا لَمْ يَنْبَغِ مِنِّي وَمَا بَقِيَ »

فعلى ما نذهب إليه من شدة تأثير الحوادث فى أبى الطيب ونفسه ، واستخراجه معانى شعره من تلك الحوادث ، وتهجيّه دائماً على ذكر الحوادث القريبة ، تجدد فى هذه القصائد ما يشير إلى هذه الواقعة ومالته فيها من السكيد . والظاهر أن هذه الجفوة التى كانت فى سنة ٣٤١ امتدت إلى أوائل سنة ٣٤٢ ، وكان من جرّائها أن انقطع أبو الطيب مُدَّة عن مدح سيف الدولة فاستبطنه وتنسكه له ، فركب سيف الدولة يوماً فى رجاله ، وقدم عليه أبو الطيب راكباً مُنْهَره ، فلما سلم عليه ازورّ عنه وأعرض ، فقال أبو الطيب :

أَرَى ذَلِكَ الْقُرْبَ صَارَ أَزْوَرًا      وصار طَوِيلُ السَّلَامِ اخْتِصَارًا  
تَرَكَتَنِي الْيَوْمَ فِي حَبْلَةٍ ،      أُمُوتَ مِرَارًا وَأَحْيَا مِرَارًا  
أَسَارَقَكَ الْأَحْظَ مُسْتَحْصِيًّا ،      وَأَزْجُرُ فِي الْخَيْلِ مُنْهَرِي مِرَارًا  
وَأَعْلَمُ أَنِّي إِذَا مَا أَعْتَذَرْتُ      إِلَيْكَ ، أَرَادَ اعْتِذَارِي اعْتِذَارًا

كَفَرْتُ مَكَارِمَكَ الْبَاهِرَاتِ، إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنِّي اخْتِيَارًا  
 ثُمَّ يَذْكُرُ لَهُ الْعَلَّةُ فِي ذَلِكَ الْإِنْقِطَاعِ عَنْ مَدْحِهِ فَيَقُولُ : (س : ٢٤٩ : )  
 (وَلَكِنْ سَجَى الشُّعْرُ ، إِلَّا الْقَلِيلَ ، ثُمَّ سَجَى النَّوْمُ إِلَّا غِرَارًا )  
 (وَمَا أَنَا أَسَقَمْتُ جِسْمِي بِهِ ، وَلَا أَنَا أَضَرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا )  
 ( فَلَا تُلْزِمْنِي ذُنُوبَ الزَّمَانِ ، إِلَيَّ أَسَاءَ وَلِبَائِي ضَارًا )

وهذا الهم الذي يسقم الجسم ويضرم نارا في القلب ، ولا يملك له الإنسان  
 ردًا ، لا يكون إلاّ هذا الحب العنيف الذي يتقطع دونه الآمال ، ولا يكون  
 هذا الهم إلاّ ذلك ، فإن أبا الطيب كان متمكنا بكل شيء في ظل سيف الدولة ،  
 فقد كان صاحب إقطاع ومال كثير قد أسبغه عليه سيف الدولة .

\* \* \*

وحسبك هذا من شعره وهو في جوار سيف الدولة ، ثم أنظر إلى أثر  
 هذا الحب في شعره بعد فراق سيف الدولة ، فإنه أدل وأبلغ في الكشف عن  
 سرّ قلبه . ولا بأس في أن نسرّد لك ذلك على ما وقع في ترتيب ديوانه .

فمن آثار هذا الحب في شعر أبي الطيب ، ما وقع في القصيدة الأولى التي  
 أنشدّها كافوراً في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، حين قدم عليه بالنسطاط . وقد  
 رأيت قبل أننا لم نتعرض لعاطفة أبي الطيب في شعره إلى أن اتصل بسيف  
 الدولة ، فإذا أنت عدت إلى شعره في ذلك العهد الأول ، لم تجد فيه إلاّ قسوة  
 وشدةً وعنفاً ليس لشعر ، وقلما لان الرجل أو ترقّق إلاّ متكلّفاً للفرل . وكان  
 قد فارق قبل سيف الدولة رجالاً أحبّهم وصحبهم وبأدّهم مكنون صدره من  
 ( ١٦ - الخليلي )

الودّ ، ولم يظهر في شيء من شعره بعد فراقهم أثر لهذا الفراق إلا قليلاً قليلاً .  
ولكنه حين فارق سيف الدولة ودخل مصر اختلف الأمر اختلافاً بيّناً ،  
وظهرت في شعره رقة لا عهد له بها ، ولا تكون العلة في هذه الرقة التي ظهرت  
فيه بعد أن جاوز الأربعين ، واستحكم واستمرّ مزاجه ، واستوت طبيعته على  
طريقة من القوة والتشدد والاستمساك = لا تكون من أجل فراقه سيف الدولة  
وحسب ، فإن ذلك الفراق بين ( الرجلين ) لا يعمل في تغيير الطبيعة المتأصلة  
كل هذا العمل . وليس لشئ من العمل في تغيير الطباع وتبديلها مثل  
ما للحب في القدرة على ذلك . وكان أبو الطيب حين فارق سيف الدولة ،  
يتلقّ قلبه إلى تلك التي خلّفها من ورائه ، وخلّف عندها قلبه وعواطفه ،  
فأثار ذلك في قلبه ذكرى وآلاماً ، جعلت الدنيا تضيق بها نفسه وتضجّر منها ،  
فكان أوّل ما تلقى كافوراً لقيه بالبيت الذي عدّه الأدياء والثقات من سوء  
أدب المتنبي ومن جفائه وغفلته ، وليس الأمر على ذلك ، فإن الرجل لم يكن  
جافياً ولا غليظاً ولا سيئ الأدب ، ولا ضعيف البيان ، ولكنه كان كما  
حدثناك مرّ هفّ الحسّ ، تغلبه العاطفة على أمره فلا يملك لبيانه تصريفاً ، بل  
تصرّف عاطفته هذا البيان كما شاءت ، والعاطفة لا تعرف أميراً ولا كبيراً ،  
ولا تفرّق بين لقاء اللوك ولقاء الصعاليك ، فلذلك رمى في وجه كافور بهذا :  
كُنْ بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى لَوْتَ شَافِئاً      وَحَسْبُ النَّيَا أَنْ يَكُنَّ أُمَارِيَا  
تَمْنِيَتِهِمْ لَنَا تَمْنِيَتْ أَنْ تَرَى      صَدِيقاً فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيَا  
ثم يمضي أبو الطيب على طريقته حتى يرق رقة ، لو أنت قلبت ديوانه لم  
تجد لها شيئاً ولا مثيلاً ، وذلك قوله في خطاب قلبه ، ذلك القلب الذي حطّم  
فيه فراق خولة ، وهذا بنيان رُجولته وقوّته :



حَبَبْتُكَ قَلْبِي، قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَأَى،<sup>(١)</sup> وَقَدْ كَانَ غَدَّارًا، فَكُنْ أَنْتَ وَافِيًا )  
 ( وَأَعْلَمْ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ ، فَلَسْتَ فَوَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيًا )  
 ( فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ غَارَتْ بِرَبِّهَا إِذَا كُنَّ لِزَرَ الْفَادِرِينَ جَوَارِيًا )  
 إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خِلَاصًا مِنَ الْأَذَى فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلَا الْمَالُ بَاقِيًا )  
 وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقَى ، أَوْ كَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيًا )  
 ( أَقُلْ أَشْنِيَا قَا أَيُّهَا الْقَلْبُ ، رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوُدَّ مِنْ لَيْسَ صَافِيًا )  
 ( خُلِقْتُ أَلُوفًا ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَى لَفَارَقْتُ شَيْئِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بِاِكْيَا )

فاقرأ الأبيات وتدبرها ، وأنظر في خطابه قلبه - على غير عادته - خطاباً رقيقاً متهدداً ذازفرات ، وانظر اضطراب أمره بين قلبه وفكره ، وبين عاطفته ورجولته ، يقول لقلبه : « لست فَوَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيًا » ، ثم يعود فيقول : « خُلِقْتُ أَلُوفًا . . . » ، فليس في الأبيات حبه لسيف الدولة وحسب ، بل فيه نفحات من لوعة الحب الذي يستولى على القلب : حُبُّ المرأة التي يهجرها الرجل وهو يعلم يقيناً أنه لا يهجرها ، وإنما يهاجر قلبه الذي بين جنبيه ويماندبه ويرافقه .

هذا ، وقد ظهر نفسُ هذا الأثر في كثير من شعر المتنبي ، ظهر في حكمته ظهوراً يَبِينًا ، وذلك كقوله :

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ مِثِّي ، يَحِلُّنِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجَرَّبَنِي  
 فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَا نَعَتْ ، قَدْ يُوْجَدُ الْحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشَّيْبِ

وهذا القول ليس من مذهب المتنبي في كلامه الأول إلى فراقه سيف الدولة ،  
ومثل ذلك قوله :

أَوْدٌ مِنْ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ      وَأَشْكُو إِلَيْهَا (يَبْنِنَا) وَهِيَ جُنْدُهُ  
(يُبَاعِدُنَ حَبِيبًا يَحْتَمِعُنَ وَوَصْلُهُ ،      فَكَيْفَ بِحَبِيبٍ يَحْتَمِعُنَ وَصْدُهُ ؟)  
(أَبَى خُلُقُ الثَّانِيَا حَبِيبًا تُدِيمُهُ ،      فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيبًا تَرُدُّهُ )

ثم تلفت المتنبي إلى ما كان من فراقه « خولة » ومهاجرتها مراغماً لقلبه ،  
متكلفاً الصبر والجلد ، فقال في عقب ذلك :

( وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغْيِيراً      تَكْأَفُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ )

وكان أبو الطيب يظن أن في الفراق ما يُنسيه « خولة » ويمحو من قلبه  
آثارها ، وقد فارق ، وعلم أن ذلك لن يكون ، وأن ما كان من اندفاعه  
ومراغمته عند أول الفراق إنما كان أمراً يخالف طبيعة حبه التي وصفها في  
شعره قبلُ وهو عند سيف الدولة بقوله :

إِلَآمَ طَلَاعِيَّةُ الْمَاذِلِ      وَلَا رَأَى فِي الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ  
(يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ،      وَتَأْتِي الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ )

هذا ... وإذا أنت أخذت في دراسة شعره في المدح والحكمة في هذه  
الفترة ، وجدت آثار هذا الحب الذي انقطعت منه آمال اللقاء والنظر  
والابتسامة والتلطُّف ، وما رُمي في قالب أبي الطيب من السكمد والحسرة  
والأسف والحنين ، فأصبح كلامه وبيانه من تلك العواطف اليائسة التي انطوى

عليها قلبه ، واضطرب بها ضميره وفكره ، <sup>(١)</sup> وبذلك تميّز شعره في هذا العهد ، من شعره فيما سبقه وتباين عنه تبايناً عظيماً .

ويقول أبو الطيب يذكر فراقه سيف الدولة ومقدمه على كافور :

فراق... وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُدَّعٍ      وَأُمُّ... وَمَنْ يَمُتُ خَيْرُ مَيِّمٍ  
وَمَا مَنَزَلُ الذَّاتِ عِنْدِي بِمَنَزَلِ      إِذَا لَمْ أَبْجَلْ عِنْدَهُ وَأَكْرَمِ  
سَجِيَّةِ نَفْسٍ لَا تَزَالُ مُلْبِحَةً      مِنَ الصِّمِّ، مَرَمِيًا بِهَا كُلُّ نَحْرَمِ  
(رَحَلْتُ... فَكَمْ بَاكِ بِأَجْنَانِ شَادِنِ      عَلَيَّ!! وَكَمْ بَاكِ بِأَجْنَانِ صَنِيعِ) <sup>(٢)</sup>  
(وَمَا رَبُّهُ الْقُرْطُ لِلْيَلِيحِ مَكَانُهُ ،      بِأَجْزَعٍ مِنْ رَبِّ الْحُسَامِ لِلصِّمِّ)  
(فَلَوْ كَانَ مَائِي مِنْ حَبِيبٍ مُنْتَمِعٍ      عَذَرْتُ، وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعْتَمِعِ)  
(رَمَى، وَأَتَقَى رَمِي، وَبَيْنَ دُونِ مَا أَتَقَى ،      هَوَى كَأَسْرُكُنِي، وَقَوْنِي، وَأُسْهُي)

فهو بالبيت الأول قد عيّن من أراد بهذه القصيدة . فالذي فارقه هو سيف الدولة، والذي قصده ويّمّه هو كافور ، وعلى ذلك اتفق الشراح جميعاً ، فلما أتى البيت الرابع قال : « رحلتُ » ، يعنى رحلته عن حلب ، ثم ذكر بعده ما كان من جرّاء هذا الفراق ، وأبان عن الذى كان سبباً فيه ، وقابل على ذلك بين اثنين : رجل وامرأة . فذكر باكية تبكى على فراقه بمعنى غزال ، وبأكياء يبكى بمعنى أسد ، وجازعة لفراقه زينتها قرطها الذى فى أذنّها ، وجازعاً زينته حسامه ، وقد اتفق الشراح أيضاً = ولا شك فيما قصده

(١) سيكون بيان ذلك تفصيلاً فى بيت يلى وقصيدة قصيدة فى موضعه من كتابنا عن أبى الطيب ، ونختصر عن ذلك هنا ، لا نرى من تشب الموضوع وسخته ، وما يقتضى من الوقت .  
(٢) العائد : ولد الفزال ، يريد به المرأة الفريسة الحسناء ، والصنم : الأسد .

أبو الطيب ... على أنه قصد سيف الدولة بقوله « ضَيْعَم » ، وقوله : « رَبِّ الحسام المصمم » . والمقابلة بين سيف الدولة وهذه المرأة دليل على صلتها بسيف الدولة وبأبي الطيب ، ومعرفة سيف الدولة بهذه الصلة ، ولا نشك بعد ما رأيت أنه عني بالباكية الجازعة لفراقه « خولة » أخت سيف الدولة ، ثم قال بعد : « فلو كان مابى من حبيب مقنع عذرت » وصبرت على ما يصيبني منه لحبي إياه ، والأذى من المرأة المحبوبة ينزل من قلب الحب منزلة الرضا ، فهو لا يحمل على فراق ولا يئن ، ولكن الذي حلني على الفراق كَوْنُ هذا الأذى إنما أصابني « من حبيب مصمم » ، هو سيف الدولة . ثم صرح في البيت الأخير مبيناً عن هواه فقال : إن سيف الدولة رماه بسهم ( يريد الأذى الذي أصابه منه ) ، واتفق بدرعه أن يرميه أبو الطيب بسهم مثله ، وهذا الاتقاء من سيف الدولة عمل لا محل له ، إذ كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لن يرميه جزاء له كما رماه ، لما في قلبه من حُب « خولة » أخته . وهواها الذي يحبس يده ، ويكسر كفه ، ويحطم قوسه ، ويدق سهامه .

هذا ... وقد رووا أن أبا الطيب اتصل به وهو بمصر أن قوماً نموه في مجلس سيف الدولة بحلب ، قال قصيدة يذكر ذلك ولم ينشدها كافوراً ، وكان مما جاء في أولها قوله :

بِمِ الْعُتْلُ...! لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنُ ، وَلَا تَدِيمُ ، وَلَا كَأْسُ ، وَلَا سَكَنُ  
أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبْلَغَنِي  
لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ  
مَا يَدِيمُ سُورُ مَا سُرِرَتْ بِهِ ،  
مَا لَيْسَ يُبْلَغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ 11  
مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ  
وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتُ الْخَزَنُ

(مِمَّا أَضَرَ (بَاهِلِ الْعِشْقِ) أَنَّهُمْ  
تَفَتَّى عُمُيُونُهُمْ دَمْعًا ، وَأَنْفُسُهُمْ  
تَحَمَّلُوا ... حَمَلْتَكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ ،  
(مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهَجَّتِي عَوْضٍ  
يَا مَنْ نُعِمْتُ عَلَى بَعْدٍ بِمَجْلِسِهِ ،  
كَمْ قَدْ قَنَيْتُ ، وَكَمْ قَدِمْتُ عِنْدَكُمْ !!  
هُوَ وَامَاعَرَفُوا الدُّنْيَا ، وَمَا قَطَّنُوا)  
فِي لِمَا فَرَّ كُلُّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنُ )  
فَكُلُّ تَيْنٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمِنُ  
إِنْ مِتُّ شَوْقًا ، وَلَا فِيهَا لِمَسَائِنُ)  
كُلُّ بِمَا زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَمِنُ  
ثُمَّ انْتَفَضَتْ فَرَالِ الْقَبْرِ وَالْكَفَنِ

وفي هذه الأبيات عندنا قول كثير نوجزه ونعكس منه أطرافاً تنفادى بها  
الإطالة ... ، ففي الأبيات الأولى تأخذ عينك أثر الأحران التي كانت في قلب  
الرجل متمثلة مصورة في شعره . وتدبر عبارته عن الآلام بقوله : « يَمِ  
التعلُّل » . . . !! وتأمل هذا السكون الذي يعقب استفهامه وتمجيده ، فهو  
بيان في غير لفظ ، ثم يعود إلى القول فيقول : « لا أهل ، ولا وطن ، ولا  
نديم ، ولا كأس ، ولا سكن » ، فقد كان بمصر وليس بها أحد يسكن إليه  
إلا ولده « محسد » ، وهو مهاجر لا وطن له ، وهو بمصر غريب لا صديق  
له ولا نديم ، وقد سئمت نفسه كل شيء حتى الكأس من الحمر لا تسليه ولا  
تحرّكه ، ثم تمّم ذلك بلوعة قلبه إذ فقد سكنه وحبيبه الذي يسكن إليه ويأوى .  
ثم مضى ينتقل في المعنى حتى انتقل من مجلده تارة ، ومن أحرانه أخرى ،  
إلى الداء الذي يسلب قلبه ويسقمه ، فقال منتقلاً على معادته التي بيناها قبل :

مِمَّا أَضَرَ (بَاهِلِ الْعِشْقِ) أَنَّهُمْ هُوَ ، وَمَاعَرَفُوا الدُّنْيَا ، وَلَا قَطَّنُوا

وهو بيان عن نفسه وما يحز فيها من الآلام (خولة) ، وما لقيه بعدها  
من الاضطراب بين رجولته التي تأتي أن تخضع أو تضعف ، وبين عواطفه التي

تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَخْشَعَ لِحَوْلَةٍ ، وَتَتَعَبِدَ بِذِكْرِهَا وَهَوَاهَا وَآلَامِ جَبَاهَا . وَكَانَ مِنْ جَرَاءِ هَذَا الْاضْطِرَابِ أَنْ أَنْكَرَ (الرَّجُلُ) قَلْبَهُ ، وَقَسَا عَلَيْهِ وَتَعَتَّفَ بِهِ ، وَذَمَّ لَهُ هَذِهِ الَّتِي قَدْ تَوَلَّاهَا ، وَهِيَ الَّتِي أَضْرَرَتْ بِهِ وَأَشَقَّتْهُ وَعَذِيبَتْهُ ، سَمَهَا وَجْهًا مِنْهُ ، إِذْ أَرَادَ مَا لَا يَكُونُ ، وَمَا لَا تَأْتِي بِهِ الْأَقْدَارُ ، وَلَا تَرْضَى بِهِ التَّقَالِيدُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، كَمَا ذَكَرَ فِي الْبَيْتِ الْمَاضِي ، فَقَالَ فِي عَقَبِ ذَلِكَ مَعَانِدًا وَمِصْرَاعًا مَا فِي قَلْبِهِ :

« تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دَمْعًا ، وَأَنْفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنٌ »

يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا الطَّيِّبِ . . . ثُمَّ انْطَلَقَ يَمَانِدُ قَلْبَهُ ، وَيَذُمُّ لَهُ « خَوْلَةً » ، وَلَا ذَنْبَ لَهَا إِلَّا مَا تَسْكُفُهُ هُوَ بِالْفِرَاقِ وَإِبْرَادَةِ نَسِيَانِهَا ، « وَتَأْتِي الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ » أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ . ثُمَّ انْظُرْ خُطَابَهُ بَعْدُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ بِقَوْلِهِ :

يَا مَنْ نُفِيتُ ، عَلَى بُعْدٍ ، بِمَجْلِسِهِ ، كُلُّ بِمَا زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَمِنٌ

فَوَدَّكَ إِنِّي لِإِخَالٍ أَبَا الطَّيِّبِ قَدْ قَالَ هَذَا الْبَيْتَ وَهُوَ يَبْكِي ، فَإِنْ فِي الشُّطْرِ الْأَخِيرِ عِبْرَاتٌ مِنْ دَمْعِهِ لَا تَزَالُ تَجُولُ فِيهِ وَتَتَرَقَّقُ . فَكُلُّ ذَلِكَ آثَارُ يَبْنَى عَلَى انْتِقَالِ طَبِيعَةِ أَبِي الطَّيِّبِ مِنْ تَكْبَرِهَا وَعَتَوِّهَا وَتَزَمُّنِهَا ، إِلَى حَالَةِ نَفْسِيَّةِ طَارِئَةٍ قَدْ نَفَذَتْ فِيهِ آلَامُهَا وَأَهْوَالُهَا ، فَهُوَ يَعَانِي مِنْهَا مَا يَعَانِي ، وَيُضْطَرُّ لَهَا وَيَهْتَزُّ وَيَتَلَدَّعُ ، حَتَّى كَانَ شَعْرُهُ بَعْدَ فِرَاقِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ كَثِيرَ الشُّكْوَى ، مُخَالِطًا بِالْحُزْنِ وَالْحَسْرَةِ وَالْأَلَمِ ، وَقَدْ تَنَبَّهَ إِلَى ذَلِكَ أَبُو الطَّيِّبِ نَفْسَهُ فَقَالَ فِي قَصِيدَةٍ مِنْ مَدَامِحِهِ لِكَافُورٍ :

(لَعَنَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُتَاخَا لِرَأْسِهِ) فَكُلُّ بِمَعِيدِ الْمَمِّ فِيهَا مُمْتَدِّبٌ

﴿الْأَلَيْتَ شِعْرِي ، هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَمَتُّ ١٩﴾  
 جَرِي مَا يَذُودُ الشَّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ ، وَلَكِنَّ قَلْبِي ، (بِأُتْبَةِ الْقَوْمِ) ، قَلْبُ

وهذا الذي به مما يذود عنه الشعر ويمنعه من أن يقوله ، هو الذي ذكره  
 أولاً فيما تقدم : (س : ٢٤١)

وَلَكِنْ حَتَّى الشَّعْرَ ، إِلَّا الْقَلِيلَ ، ثُمَّ حَتَّى النَّوْمِ إِلَّا غِرَارًا  
 وَمَا أَنَا أَسَقَمْتُ جِسْمِي بِهِ ، وَلَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا

وهو حب (خولة) الذي ملأ قلب الرجل وأخذه وتفرّد به دون فكره  
 وإرادته .

... فلما ماتت « خولة » رحما الله في سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر  
 تغيّرت طبيعة أبي الطيب واسودّت الدنيا في عينه ، وامتلأ قلبه حُزناً ،  
 وتقطّعت نفسه عليها حسرات ، فكان شِعْرُهُ بعدُ من هذه المادّة ، وأول  
 ذلك ما كان من شعره في القصيدة التي رثّاها بها ، إذ يقول لسيف الدولة :

فَلَا تَذَلَّ اللَّيَالِي !! إِنْ أَيْدِيهَا إِذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّعْمَ بِالْقَرَبِ (١)  
 وَلَا يَمُنُّ عَدُوٌّ أَنْتَ قَاهِرُهُ ، فَإِنَّهُ يَصِدُّ الصَّمْرَ بِالْخَرْبِ (٢)  
 (وإن مَرَرْنَ بِمَحْبُوبٍ فَجَعَنَ بِهِ ، وَقَدْ أَتَيْتَكَ فِي الْحَالَيْنِ بِالْعَجَبِ)  
 (وَرُبَّمَا أَحْسَبَ الْإِنْسَانُ غَايَتَهَا ، وَفَاجَأَتْهُ بِأَمْرِ غَيْرِ مُحْتَسَبِ)  
 وَمَا قَصَى أَحَدٌ مِنْهَا لِبَائَتَهُ وَلَا انْتَهَى أَرْبُ إِلَّا إِلَى أَرْبِ

(١) « النعم » ، شجر صلب تصنع منه القسي و « القرب » ، شجر ضعيف العبدان .

(٢) و « القرب » ، طائر من لا يصيد ، وهو ذكر الجباري .

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ      إِلَّا عَلَى شَجَبٍ ، وَاخْلَافٍ فِي الشَّجَبِ  
فَقِيلَ : تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً ،      وَقِيلَ : تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْمَطْبِ  
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ      أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْتِمَهِ

وأعدَّ قراءة الآيات الثلاثة الأخيرة ، وتدبر نفس أبي الطيب فيها ،  
فهو يكاد ينقطع ويستقط من العجز والتعب والفسك في الذي أصابه بموت  
حبيبته خولة . فإذا أردت أن تعرف تمام حالة أبي الطيب هذه ، وامتداد  
فكره فيها ، فاقرأ قصيدته التي قالها حين توفيت عمه ، عضد الدولة بن بويه  
في سنة ٣٥٤ ، فبَيَّلَ موت أبي الطيب بقليل والتي يقول فيها :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ ، فَمَا بَالُنَا      نَعَاثُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرَيْبِهِ !!

لَوْ فَكَّرَ (الْعَاشِقُ) فِي مُنْتَهَى      حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ ، لَمْ يَسْبِهِ  
وبقي كثير من الإشارات إلى هذا الذي في قلبه ، طَوَّنَاهُ حَتَّى يَأْتِيَ  
أَجَلُهُ ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ .



يَا رَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ  
لَمْ يَكُنْ ، غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِي  
وَلَقَدْ أَفْنَيْتَ لِلْفَاوِزِ حَيْلِي ،  
قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِي ، وَزَادِي ، وَمَا نِي  
فَأَرْمِي حَيْثُ شِئْتُ مَعِي ، فَإِنِّي  
أَسَدُ الْقَلْبِ أَدِي الرُّوَاهُ  
وَنُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَا  
نَ لِسَانِي يُرْسِي مِنَ الشُّرَاهُ

قد ذكر الرواة في موضع القول من فراق أبي الطيب حضرة سيف الدولة أسباباً موجبة لهذا الفراق ، كالذي يروون من أنه كان بمحضرة سيف الدولة ، وفي المجلس أبو الطيب اللغوي ، وابن خالويه النحوي ، وجرت مسألة في اللغة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبي ، وضمف قول ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه ( من كُتبه مفتاحاً من حديد ) يشير به إلى المتنبي ، فقال له المتنبي : ونحك ! اسكت ، فإنك أعجبي ، وأصلك خوزي ، فمالك والعربية ! فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبي من ذلك ، ولا سيما إذ لم ينتصر له سيف الدولة ، قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحد أسباب مفارقه لسيف الدولة = وكالذي يروون من كيد أبي فراس له عند سيف الدولة يمثل قوله له : « إن

هذا التشدُّق (بمعنى التنبؤ) كثيرُ الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرِّق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ١١ فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه ، فأعرض عن أبي الطيب لذلك .

فهذه الروايات وغيرها ، كما حدثناك قبل ، <sup>(١)</sup> هي من الأحاديث التي تتناقضها مجالس الأدباء ، ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية ، وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، ولكننا نستفيد منها على علاقاتها ، ونأخذ منها ونُدع ، ولا نطيل القول هنا بنقدها وتجريحها ، فلذلك أجله وموضعه إن شاء الله .

والرأي عندنا أن فراق أبي الطيب لسيف الدولة مشكلة معقدة يطول تفسيرها وتبنيانها على وجه معقول لا يتناقض ولا يختلف . ويختصره أن هذا الفراق كان لأسباب قد اقتضاها حبُّ أبي الطيب خولة أخت سيف الدولة ، وبنى أبو الطيب في جوار صاحبه وحييته يتلذع بالأم قلبه وفكره تسمة أعوام مُجرَّمة ، وهو على عدة من سيف الدولة أن يحقق آمال فكره السياسية ، وأمان قلبه وعواطفه بزواج خولة ، ثم أدركه اليأس ، وظن أن في الفراق راحة له ونسياناً ، وهو ما أشار إليه في قوله ، على ما فسرناه به : <sup>(٢)</sup>

« وَأَسْرَعُ مَقْعُولٍ قَعْلَتْ تَغْيِيرًا      تَكَلَّفُ شَيْءًا فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ »

وقد حمله على ذلك ما كان يلتهأ من الكيد والسعاية من قبل (قَوْمِ)

(١) ص : ١٩٥ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٢٤٤ .

حولة ، كآبى فراس وأبى العشائر وغيرها ، وما فعلوه من تحريض الأدياء عليه ، كابن خالويه ، وإغراء الشعراء بغيظه ومنافسته والنيل منه حتى ضاق بهم ، فاستمدى عليهم سيف الدولة بمثل قوله :

أَزَلْ حَسَدَ الْحَسَادِ عَنِّي بِكَتَيْبِهِمْ ، فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدَا  
( إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمْ صَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَنْقُطُ الْمَاءُ مُنْعَدَا )  
( وَمَا أَنَا إِلَّا سَمْعَرِي حَلَّتْهُ ، فَزَيْنَ مَعْرُوضًا ، وَرَاعَ مُسَدَّدَا )  
وَمَا الْدَهْرُ إِلَّا مِنْ رِوَاةٍ قَصَائِدِي ، إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا  
فَسَارِيهِ ، مَنْ لَا يَسِيرُ ، مَشْرًا ، وَغَنَى بِهِ ، مَنْ لَا يُغْنَى ، مُعَرَّدَا  
( أَجْزَيْنِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا ، فَإِنَّمَا بِشَعْرِي أَنَاكَ لِلدَّاحُونَ مُرَدَّدَا )  
( وَدَعِ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي ، فَإِنِّي أَنَا الطَّائِرُ لِلْحُكِيِّ وَالْآخِرُ الصَّدَى )  
وقوله أيضًا في ذلك :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَيْبِي شُوَيْرٌ ضَعِيفٌ يَقَاوِينِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ<sup>(١)</sup>

وقد بين في هذه الأبيات أيضًا عن وشايات وسعايات كان يكاد بها لدى سيف الدولة من الطعن في نسبه ، والتشهير به في خلفه وضميره :

أَنَا السَّابِقُ الْمَادِي إِلَى مَا أَقُولُهُ ، إِذِ الْقَوْلُ قَبْلَ الْقَائِلِينَ مَقُولُ  
( وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِيَّ بِرَيْبِنِي أَصُولُ ، وَلَا لِلْقَائِلِينَ أَصُولُ )  
أَعَادَى حَتَّى مَا يُوجِبُ الْحُبَّ لِقَفِّي ، وَأَهْدَأُ وَالْأَفْكَارُ فِيَّ تَجُولُ

(١) « الضبن » ، ما بين الإبط والكعج في الإنسان .

سَوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَاوٍ ، فَإِنَّهُ إِذْ حَلَّ فِي قَلْبِ فُلَيْسَ يَحُولُ  
وَلَا تَطْمَعُنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ  
وَأَنَا لَتَلْقَى الْحَادِثَاتِ بِأَنْفُسٍ كَثِيرُ الرِّزَايَا عِنْدَهُنَّ قَلِيلُ  
يَهْوُنَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُنَا لَنَا وَعُقُولُنَا .

وقد كان يتولى أمر هذا الكيد كله أبو فراس الحمداني ، وعندنا  
أن المنافسة في الشعر لم تكن هي السبب ، وإنما كانت ( خولة ) السبب الأكبر  
الذي جلب عليه كيد أبي فراس ، ثم أبي العشائر ، مع أنه هو الذي قدمه إلى  
سيف الدولة وقرّبه إليه حتى ما يقولون . وقد بلغ من ذلك أن أغرّى أبو العشائر  
غلمانَه بقتله ، وقد رأيت قبل أن أبا الطيب على ذلك لم ينقص حبه لأبي العشائر  
ولا ضمف . وهذا لأن الأمر لم يكن منافسة في شعر أو غيره ، وإنما كان  
غيرة من أبي العشائر على بعض حُرْمه ، وأبو الطيب ، كما حدثناك في مواضع ،  
كان يضع ( الرجولة ) وتوابعها في المنزلة الأولى ، ويحب من عدوه أن يستمسك  
بِعُرْوَتِهَا ، فلذلك لم يَحْقِدْ على أبي العشائر حين أخذته الغيرة على حُرْمه ، بل ازداد  
تعطفًا عليه وتلطّفًا له ، على تكبّره وتعاليه وعتوّه ، حتى قال له :

( وَنَفْسِي لَهُ ، نَفْسِي الْفِدَاءُ لِنَفْسِهِ ، وَلَكِنْ بَعْضُ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ )  
فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا ، يَكُ قَاتِلًا بَكْفِيهِ ، فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ الشَّرِيفُ

وبهذا يصبح لفراق أبي الطيب لسيف الدولة معنى يُعْقَل ويعتمد عليه  
ويعتدّ به ، ثم تتسق حالته النفسية الظاهرة في شعره ، وتتساق معاني  
ديوانه متدرجة على أساس من نفسه وآلامها وآمالها وأشواقها ، وما أصابها  
من الكيد والعدوان ، وما مُنِنَتْ به من حُرقة الحب ، ولوعة الحرمان .

خرج أبو الطيب من حلب حيث كان سيف الدولة ، فاصداً دمشق ،  
وقد احتال لذلك حتى تم له الفراق قبل أن تدركه مكاييد أبي فراس وأصحابه ،  
وذلك في أواسط سنة ٣٤٦ ، وكان يحمل بين جنبه قلباً ممزقاً قد اعتورته  
السهام ، أو كما قال :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُوَادِي فِي غِشَاءِ مِنْ زِيَالِ  
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَنِي سِيهَامٌ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ  
وَهَانَ . . . فَمَا أَبَالِي بِالزَّوَايَا ، لِأَنِّي مَا آتَنَفْتُ بِأَنْ أَبَالِي

فهو قد أصيب في آماله السياسية ، وأصيب في هوى قلبه ، وأصيب في  
حبة سيف الدولة ، وما كان يضمّر له من الإخلاص والتوقير والود ، فانطوى  
على ما به ، محزوناً ضحراً ملولاً ، يتبرّم بالدنيا ويصيق بها وبأهلها ذرعاً .  
فلما وافى دمشق ودخلها ، كان بها رجل يهودي من قبل كافور ، كان أبو  
الطيب يستقل ظله على قلبه ، وكان قد لقيه قبل في سنة ٣٢٧ حين نزل على  
صاحبه أبي علي (هرون بن عبد العزيز الأوراجي) الكاتب ، فسوّت نفس  
هذا اليهودي لإرادته ورغبته أن يحمل أبا الطيب على أن يمدحه بعد أن مدح  
أمير الأمراء سيف الدولة ، وتقذّر أبو الطيب هذا اليهودي وغثيت به نفسه ،  
فسكنها بالإعراض عنه وازدرائه والتهاون به ، ففضب اليهودي (أبن ملك)  
غضبه يهودية ، حتى إذا ما كان من كافور ما كان ، من مكابفته في طلب  
أبي الطيب أن يقدم عليه ، فعلم أبن ملك ، وكتب إلى كافور أن أبا الطيب  
قال : « لا أقصد العبد ، وإن دخلت مصر فما قصدي إلا أبن سيده » .  
ثم ضاقت دمشق بأبي الطيب ، فخرج منها يريد صاحبه الأمير أبا محمد الحسن  
ابن عبيد الله بن طنجج بالرملة الذي مدحه في سنة ٣٣٦ كما قدمنا ، فاستقبله

وأنزله مُنزَلاً كريماً ، وحمل إليه الهدايا النفيسة ، وخلع عليه الخلع الفاخرة ، وحمله على فرس بموكب ثقیل ، وقلّده سيفاً محلياً ، جزاء لما كان مدحه به أولاً ووفاء بالصُّحبة . فكان كافور يقول إذ ذاك لأصحابه : « أَتُرَوْنَهُ يبلُغُ الرملة ولا يأتينا ! ! » . وبلغ ذلك أبا الطيب ، وأنَّ كافوراً يحمد عليه في نفسه : أن يَقْصِدَ عمَّالَه (كأبن طُفْنِج) ولا يقصده ، وأنت ابن طُفْنِج كُتِبَ كافور في طلب أبي الطيب ، وكان ابن طُفْنِج ، فيما نرى ، رجلاً بصيراً داهية مترقفاً حلَّوُ اللسان مُطاع الرُّغبة ، فأخذ يرأود أبا الطيب ، وأبو الطيب يتمسّر عليه ويضيق بطلبه ، لِمَا تحملُ نفسه من الضَّجر والتَّبرم . وبعد لأيٍ ما ظفر به الأمير ابن طُفْنِج وحمله على المسير لمي كافور . فلما قدم عليه ، أمر له بمنزل ووكل به جماعة ، وأظهر التَّهَمَةَ له ، وطالبه بمدحه فلم يمدحه ، فخلع عليه الخلع حتّى أحرجه بكرمه ، فلم يحمد أبو الطيب الذي يقول :

« وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدًا »

... لم يحمد بُدًّا من أن يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصى ، علّه يصيب عنده ما فاتته عند غيره من الفحول البيض . وعزى نفسه بذلك ، ولكنها أبت عليه أن تكون خالصة لكافور ، فرمت في وجه كافور بأبياتها لأبيات أبي الطيب :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا      وَحَسْبُ لِلنَّايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا  
تَمْنِيَّتُهَا لَمَّا تَمَنَّتْ أَنْ تَرَى      صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا  
واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء فيه إقذاع وفحش وسخرية وتهكم . وبقي أبو الطيب بعد ذلك بمصر يمتثل لأمره ، ولا يزال

ينفث في كل شعر ذات صدره من الآلام والآمال ، وألقى على شعره ظلاً من  
الحزن والتجعية والحسرة واليأس ، ولكنه كان مع ذلك يجتهد في أن يظفر  
من كافور بولاية من الولايات يقوم عليها ، ليحزب نفسه بعد أن أخفق في  
عقد آماله على غيره . وكان أبو الطيب حين خرج من حلب ، خرج ومعه  
الخالديان ( أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخوه محمد ) ، وكانا يريدانه على أن  
يصحبهما إلى العراق ، فيمدح الوزير أبا محمد المهلبى ، فأبى عليهما وخالقهما ،  
فذلك حيث يقول أبو الطيب ، يذكر ما كان من أمره وأمرها ، ويعرض  
بحاجة نفسه لكافور :

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ ،      سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابٌ  
وَمَا أَنَا بِالْبَاقِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةٌ ،      ضَعِيفُ هَوَى يُبْقَى عَلَيْهِ نَوَابٌ  
( وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَذِلَّ عَوَازِلِي      عَلَى أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابٌ )  
( وَأَتْلُمُ قَوْمًا خَالَفُونِي ، فَشَرَقُوا      وَغَرَبْتُ ، أُنِّي قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابُوا )<sup>(١)</sup>

( إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْمَالُ هَيْنٌ      وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ )  
وَمَا كُنْتُ - لَوْلَا أَنْتَ - إِلَّا مُهَاجِرًا      لَهُ كُلُّ يَوْمٍ بَلَدَةٌ وَصَحَابٌ )

ولم يكن أبو الطيب يؤمل من كافور ماله أو عطاياه أو هداياه ، فقد  
كان غنيا بما أعطاه سيف الدولة ، أو ما ادخره من عطائه وإقطاعه الذي كان  
له بالشام ،<sup>(٢)</sup> بل كان يريد أن يحلّى بعض بلاد الصعيد ، أو صيدا ، كما ذكرناه ،

(١) يعني بالتعريق زعاب صاحبه إلى العراق قاصدين المهلبى ، والتعريب مقدمه هو على

مصر ليمدح كافورا .

(٢) يذكر أن سيف الدولة تقدم إلى ( ديوان البر ) بإخراج الحال فيها وصل به أبو الطيب  
التبلي فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار في مئة ( أربعين سنين ) .

وذلك ليحقق ما استطاع آماله السياسية التي تتراعى إلى غاياتها التي قدمناها قبل . وقد زعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجته : « أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المين ، سمّت نفسك إلى النبوة ، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك » ؟ . وهذا من كلام الرواة وحسب . . . . . والذي نراه رايًا أن كافوراً كان يعلم يقينًا أن أبا الطيب لا يُضمر له حبًا ولا كرامة ، بل كان يزدريه في نفسه ، وحسبه ما لطمه به في أول لقاء كما مرّ بك ، وحسبه ما كان يذكر في مدحه له من الحنين إلى سيف الدولة وندمه على فراقه كتنوله :

أرى لي بُرِّي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً      وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبِعَادِ يُشَابُ  
وَأَيْنُ تَعْرِيفًا وَأَبْلَغُ إِنْصَاحًا      عَنْ حَقَارَةِ هَذَا الْأَسْوَدِ فِي نَفْسِ أَبِي الطَّيِّبِ  
ما يقول له في أول مديحه :

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ ،  
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْمَجْرِ ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ

والضمير في قوله ( فيك ) يرجع إلى سيف الدولة ، ويريد بالمجر مفارقتها سيف الدولة ، وبالوصل مقدمه على كافور ، ثم يزيد فيقول بعد :

أَمَّا ( تَقَاطُ ) الْأَيَّامُ فَإِنَّ أَرَى      ( سَفِيضًا ) ثَنَائِي ، أَوْ ( حَيْبًا ) تَقَرُّبُ  
وَاللَّهِ سَرِي ، مَا أَقَلَّ ثَلَاثَةٌ      عَشِيَّةً شَرَقِيَّ الْحَدَّ إِلَى غَرْبِ<sup>(١)</sup>  
عَشِيَّةً أَحَقَّ النَّاسِ بِي ( مِنْ جَفَوْتُهُ )      وَأَهْدَى ( الطَّرِيقَيْنِ ) الَّتِي اتَّجَسَّبُ

(١) « الثَّيَّة » الثَّأْنُ وَالْمُتَوَقُّفُ . « الْحَدَّالِي » ، مَوْضِعٌ بِالشَّامِ . ، « غَرْب » ، جَبَلٌ هُنَاكَ .



فَانْظُرْ إِلَى نَفْسٍ أَبِي الطَّيِّبِ فِي شَعْرِهِ ، وَدَقَّةَ بَيَانِهِ بِقَوْلِهِ : ( أَمَّا تَفَلُّطُ  
 الْأَبَّامُ ) ، وَهَذَا التَّصْرِيحُ الَّذِي وَضَعْنَاهُ بَيْنَ الْأَقْوَاسِ يُرِيدُ بِهِ سَيْفَ الدَّوْلَةِ  
 وَكَافُوراً ، أَنْتَظُنُّ أَنْ هَذَا كَانَ مِمَّا يُخْفَى عَلَى (الْأُسْتَاذِ) كَافُوراً ، وَكَانَ مِنْ عِلْمَاءِ  
 عَصْرِهِ وَأَدْبَائِهِمْ ؟ وَهَلْ كَانَ يُخْفَى عَلَى كَافُورٍ مَا سَجَّخَ أَبُو الطَّيِّبِ بِهِ فِي شَعْرِهِ  
 مِنْ ذِكْرِ سَوَادِهِ وَالتَّعْرِيفِ بِهِ ، وَجَعَلَهُ مِنْ مَادَّةٍ مَدْحِيَّةٍ ، وَالْإِتْيَانُ فِي ذَلِكَ بِكُلِّ  
 غَرِيبَةٍ وَنَادِرَةٍ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِ الْأَصُولِ الْبَيَانِيَّةِ فِي لِسَانِ أَبِي الطَّيِّبِ وَقَلْبِهِ ؟  
 أَنْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ وَهُوَ يَهْتَمُّ بِكَافُورٍ بِنَاءِ الدَّارِ الَّتِي أَقَامَهَا بِإِزَاءِ الْجَامِعِ الْأَعْلَى عَلَى  
 الْبَرَكَةِ :

نَزَلْتُ ، إِذْ نَزَلْتُهَا الدَّارُ ، فِي أَحْسَنِ مَنَاهَا ، مِنْ السَّيِّئِ وَالسَّاءِ

وهذا لا بأس به ، وَلَكِنْ تَدَبَّرِ التَّهْكُمَ الْعَجِيبَ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ ، وَذِكْرَ  
 الْمُسْتَحِيلَاتِ الَّتِي لَا تَقَعُ وَلَا تَكُونُ وَلَا تُتَوَمَّنُ ، إِذْ جَعَلَهُ (شَمْساً مُنِيرَةً) وَلَكِنهَا  
 سَوْدَاءٌ .... !!

تَقْضُحُ الشَّمْسُ - كَلَّمَا ذَرَعَتْ الشَّمْسُ - بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ (سَوْدَاءُ)  
 إِنْ فِي ثَوْبِكَ - الَّذِي الْجَدُّ فِيهِ - لَضِيَاءٍ يُزَرِّي بِكُلِّ ضِيَاءٍ  
 وَهَذَا الضِّيَاءُ هُوَ سَوَادُهُ .

إِنَّمَا (الْجِلْدُ) مَلْبَسٌ ، وَأَبْيَضَاضُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ أَبْيَضَاضِ الْقَبَاءِ<sup>(١)</sup>  
 كَرَمٌ فِي شَجَاعَةٍ ، وَذِكَاةٌ فِي بَهَاءٍ ، وَقُدْرَةٌ فِي وَفَاءٍ  
 مَنْ لَبِيضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبَدِّلَ الْأَوْنَ نَ (بَلَوْنِ الْأُسْتَاذِ ، وَالسَّحْنَاءِ)

(١) تدبر قوله (الجلد) فهو هناك من أفتح المعاني باللفظ قبل المعنى ، وكذلك قوله « لون  
 الأستاذ والسحناء » .

ثم يجعله بعد ذلك (رَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ) ، وذلك لأنه عجيبة عن عجائب الدهر . وتدبر كُلَّ شعر الرجل في مدح كافور تجد أمثال ذلك يُنْثَرُ دالاً على نفسه ، وتنبّه لألفاظ الرجل فإنها هي التي كان يطوى تحتها مما نى تهكّه بكافور كقوله : « يا رجاء العيون » ، وتنبّه إلى قلبه المعاني ، وتلفتها عن وجوها ، كقوله مثلاً :

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ أَذْرَكَ أَلْكَ بِالْمَعْنَى ، وَلَكِنْ بِأَيَّامِ أَشْهَنَ النَّوَاصِيَا  
(عِدَاكَ تَرَاهَا فِي الْبِلَادِ مَسَاعِيَا ، وَأَنْتَ تَرَاهَا فِي السَّمَاءِ مَرَاقِيَا) .  
وهذا البيت الأخير تمرّض بسقوط همة كافور ، وليس بمدح . وكان حق المعنى أن يكون :

(عِدَاكَ تَرَاهَا فِي السَّمَاءِ مَرَاقِيَا . وَأَنْتَ تَرَاهَا فِي الْبِلَادِ مَسَاعِيَا)

وذلك أن الأعداء يستعظمون ما كان من تملكه البلاد ، ويمدّونه أمراً عظيماً كالرقى إلى السماء = وذلك لحسدهم وعداوتهم التي تربو في صدورهم ، فترى في الواقع بالوم فيتعاظم في العيون = ولكن كافوراً لبعد همته . لا يراها أمراً عظيماً بل هي مساعٍ في الأرض لا جهد فيها إلا كجهد المشي... فهذا هو المعنى الذي قلبه أبو الطيب ببيانته القوي ، ليعرضه مدحاً ، وهو ذمٌ بليغٌ وهائلٌ نافذ .

فكان كافور يحيد فهم ذلك وينفذ إلى أسراره ، ويصّر به إن لم يكن قد أدركه ، فقد كان أبو الطيب وهو بمصر مُلقًى بالزاياء مقصوداً بالعداوة من أقوام بعينهم كانوا يهدون للدعوة الفاطمية ، وكانوا على صلة بكافور وثيقة ، يبدون له المحبة والإخلاص ، وهم يعملون على إغلاكه . وكان كافور

يبتقى ذلك بدهائه وحيلته وخبرته السياسية ، فكان يهادى للمزّدين الله  
الفاطمي صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وهو مع ذلك يذعن بالطاعة لبني  
العباس ، ويدارى ويمدح هؤلاء وهؤلاء . وأيضاً ما كان من عداوة الوزير  
أبى الفضل ابن حنّزابة ( جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن  
ابن القرات ) ، وكان عالماً فاضلاً له درس يلقيه وهو في وزارته ، وكان  
المتنبي لم يمدحه ولا عبا به ، فلذلك عاداه ، وكاد له كيلاً بالنا ، حتى إن المتنبي  
ذكره بعد خروجه من مصر فقال :

وَمَآذَا بِمِصْرَ مِنَ اللَّضْحِكَاتِ ، وَلَكِنَّهُ ضَحِكَ كَالْبِكَاءِ  
بِهَا (نَبْطِيٌّ) مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ يُدْرَسُ أَنْسَابُ أَهْلِ الْفَلَاحِ

والنبطي هو هذا الوزير ، وكان عالماً بالأنساب قائماً عليها ، ألف كتباً  
في أسماء الرجال والأنساب ، وقصدته العلماء لذلك ، كالخافظ المحدث أبى  
الحسن الدارقطني ، قدم عليه من العراق وأقام عنده .

وأقام أبو الطيب بمصر على كُره ، إلى أن ورد أبو شجاع فانك غلامُ  
الإخشيدي ( محمد بن طُفَّج ) من الفيوم فلقنيه المتنبي بالبيدان على رِقْبَةٍ من كافور .  
وكان فانك عند مقدّمه قد أهدى إليه هدايا قيمتها ألف دينار ، فأشده  
حصيدته التي أولها :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ ، فَلْيُسَمِّدِ النَّطْقُ إِن لَمْ تُسَمِّدِ الْحَالُ  
وقال له فيها يذكر ما كان منه :

( وَمَا شَكَرْتُ لَأَنَّ الْمَالَ فَرَحَنِي ، سَيِّئَانِ عِنْدِي إِكْتَارٌ وَإِقْلَافٌ )  
لَكِنْ رَأَيْتُ قَبِيحًا أَنْ يُجَادَ لَنَا ، وَأَنْتَا بِقَضَاءِ الْحَقِّ بُصَّالٌ

لَطَفْتَ رَأْيَكَ فِي يَرْمَى وَتَسْكُرُمَتِي ، إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى التَّعْلِيَاءِ يَحْتَالُ  
وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِي طَوْلُ لَا يَسِي ، إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى الثَّنَائِلِ تَنْبَالُ .

يشير بالثناء إلى كافور ، ... ثم يفر المتنبى زفرته من جوف قلبه :  
لَوْلَا لِمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، الْجُلُودُ يُفْقِرُ ، وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ  
وَأَمَّا يَنْبَغُ الْإِنْسَانُ طَاقَتَهُ . . . مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ  
إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانُ وَإِجْمَالُ  
ذِكْرُ الْفَقْرِ عُمُرُهُ الثَّانِي . . . ، وَحَاجَتُهُ مَافَاتُهُ . . . ، وَفُضُولُ التَّعْيِشِ أَشْفَالُ

وكذلك كان أبو الطيب قد نُس من بقاءه في مصر ، وبرم بالمال وأصحاب  
المال ، وعزم على الرحلة من مصر ، فأعد له المدة ، واعتمد على الحرب بحيلته  
ودعائه قبل أن يذركه كافور الذي أُرصد له الرقباء وبث عليه العيون .  
وانتهز هذا الداهية الخبير البصير الفرصة في العيد يوم عرفة من سنة ٣٥٠  
= وكان رسم كافور أن يستقبل العيد بيوم ، ( هو يوم الوقفة الآن ) ،  
وتُعد في الخلع والخلائنات والهدايا وأنواع اللباز لرابطة جُنْدِهِ ، وراتية جيشه .  
وصبيحة العيد تُفرق ، وثاني اليوم يذكر له من قبل ، ومن رد واستزاد =  
فاهتبل المتنبى غلة كافور واشتغاله بالعيد ، ودفن رماحه برًا ، وسار ليلته ،  
وحمل بفاله وجماله ، وهو لا يألو سيراً ومُرى . وقطع في هذه الليلة مسافة  
أيام حتى وقع في تيه بني إسرائيل ، إلى أن جازه على الحلال والأحياء والمفاوز  
والجاهيل والمناهل والأواجن . فلما بلغ كافوراً الخبير ، بذل في طلبه  
ذخائر الرغائب ، وكتب إلى عماله في سائر أعماله ولكن ... يقول المتنبى :

فَرُبَّمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي يَسِيرُ ، أَوْ قَنَاءَ ، أَوْ حُسَامِ  
وَصَافَتْ خُطَّةً نَخَلْتُ مِنْهَا خَلَاصَ الْخَيْرِ مِنْ نَسَجِ الْفِدَامِ

فَلَمَّا أَنْخَسْنَا ، رَكَزْنَا الرِّمَاءَ  
 حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى  
 وَبِتْنَا نُقْبِلُ أَسْيَافَنَا  
 وَنَسْحَهَا مِنْ دِمَاءِ الْعَدَى  
 لِنَتَلَمَّ مِصْرُ ، وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ،  
 وَمَنْ بِالْمَوَاصِمِ — أُنَى الْقَى  
 وَأُنَى وَفَيْتُ . وَأُنَى أُبَيْتُ ،  
 وَأُنَى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا  
 وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَقَى ،  
 وَلَا كُلُّ مَنْ سَمِيَ خَشَفًا أَبَى

خرج أبو الطيب من مصر ، وقد آجتواها ، وُبُغِضَتْ إليه هذه الحياة  
 الفاسدة التي بها وبغيرها من البلاد العربية ، والتي وصفها في قصيدته حين  
 مرض بالحمى وهو بمصر فقال ... :

( وَأَنَا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خِيْبًا )  
 ( وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ )  
 ( جَزَيْتُ عَلَى أَبْسَامٍ بِأَبْسَامٍ )  
 ( لِعَلَى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ )  
 ( يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي ، )  
 ( وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ )

(وَأَنْفٌ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا مَا لَمْ أُجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ)  
أَرَى الْأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلَى الْأَوْلَادِ أَخْلَاقُ النَّاسِ

وتنازعت قلبَ أبي الطيب كلُّ أسبابِ همه وبأسه ، ثمَّ الحب وبأسه من  
اللقاء ، و ثمَّ السياسة وبأسه من إدراكِ المطلب وتحقيقِ الآمال ، وأثبت كل  
ذلك في قصيدته التي قالها يوم خروجه من مصر ، فتدبرها وفصلها على مارمنا  
فيما مضى ... يقول :

عِيدٌ بِأَيِّ حَالٍ عُدْتُ يَا عِيدُ ،      بِمَا مَقَى أَمْرٍ لِيكَ تَجْدِيدُ ؟  
أَمَّا ( الْأَحْيَةُ ) فَالْبَيْدُ أَدُونَهُمْ ،      ( فَلَيْتَ دُونَكَ بَيْدٌ دُونَهَا بَيْدٌ )

لَمْ يَسْتَرْكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَيْدِي      شَيْئًا تُغَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيدُ  
يَا سَاقِي ! أَسْحَرْ فِي كُؤُوسِكَ ،      أَمْ فِي كُؤُوسِكَ هَمٌّ وَتَسْمِيدُ ؟  
أَصْحَرَةُ أَنَا ؟ مَا لِي لَا تُحَرِّكُنِي      هَذِي لِلدَّامِ ، وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ  
إِذَا أَرَدْتُ كُنَيْتَ اللَّوْنَ صَافِيَةً      وَجَدْتُهَا ، وَ( حَبِيبُ النَّفْسِ ) تَمَقُّودُ  
مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا ! ! . وَأَعْجِبُهُ      أَنِّي - بِمَا أَنَا شَاكٍ مِنْهُ - مَحْسُودُ  
أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرِي خَازِنًا وَيَدًا ..      أَنَا الْفَقِيرُ ، .. وَأُمُوَالِي لِلْوَاعِيدُ

ثمَّ يخلص أبو الطيب إلى ذمِّ مصر وأهلها ، ووصفهم بالكذب والمخالطة  
وما كان من ولاية كافور الأسود انلصق عليها ، وما كان يجري من الكر  
فيها وفي سياستها ، ثمَّ يهجو كافوراً بألفحش الهجاء ، ثمَّ يذكرهم نفسه وفراق  
سيف الدولة وذلك قوله :

أَوَّلَى اللّٰثَمِ كَوْ يَفِيْرُ بِمَعْدِرَةٍ فِي كُلِّ لَوْمٍ ، وَبَعْضُ الْمُدْرِ تَفْنِيْدُ  
وَذَٰلِكَ أَن (الْفُحُولَ الْبَيْضَ) عَاجِزَةٌ عَنِ الْجَمِيلِ ، فَكَيْفَ (الْخِصْيَةِ السُّودَا)

ونحن نقدم العذر لأبي الطيب فيما ذم به مصر ، وما ذكر من أخلاقها ،  
فقد كان الرجل منكوباً في نفسه وآماله ، وقلبه وهواه ، وزاده القوم كيداً ،  
وأثبت عليه الأسود كافوراً عداوة باغية ، وهو الذي أقدمه على مصر بطلبه ،  
وقد أعذر أبو الطيب بمدحه إياه أباً كان ، بعد أن كان في جوار أمير العرب  
سيف الدولة . هذا ... وليس يمنعنا من شهادة الحق - ولو على أنفسنا - ما يأتي  
به بعض الناس من الغضب الباغي (للقومية) ، وقد ذكر أبو الطيب عيوباً  
لا تزال متأصلة في مصر ، ولاخير في الغضب من ذكرها ، بل الخير كل الخير  
في معرفتها والتنبه لها والعمل على إصلاحها . والحقيقة التي لا تجحد أن  
أبا الطيب قد نفذ ببصيرته إلى ما كان يسل مصر ويقتلها من الخلق الناسد ،  
وقد كشف عنه في قصائده التي قالها في هجاء كافور ومدح فانك ورثائه .  
وليس أبو الطيب وحده هو الذي عرف ذلك يومئذٍ وأدركه ، بل قد عرف  
ذلك كثير من أهل عصره ، وإذا أنت قرأت التاريخ الذي بين أيدينا ،  
وقفت على ذلك ، وعلمت أن الرجل كان بصيراً نافذاً إلى ضمائر الناس يحلوها  
ويكشف عنها . ولا بأس هنا من أن نذكر لك أبياتاً قد قالها القاضى التنوخى  
الكبير ، حين قدم هو أيضاً مصر وخرج منها كارهاً ، يقول :

تَرَكْنَا أَرْضَ مِصْرَ لِكُلِّ قَدَمٍ لَهُ بَاعٌ يُقَصِّرُ عَنْ ذِرَاعٍ  
نُفُوسٌ لَا تَلِيْقُ بِهَا الْمَعَالَى ، وَأَخْلَاقٌ تَصْنِيقُ عَنِ الْمَسَاعِي  
أَقَمْتُ بِهَا ... وَمِنْ يَحْنِ اللَّيَالَى مَقَامُ الْأَسَدِ فِي كَهْفِ الصَّبَاحِ

أَقُولُ ، وَقَدْ نَأَوْنَا ، بُعْدًا وَسُحْفًا  
وَكَمْ خَلَفْتُ مِنْ كَرَمٍ مَبِينٍ  
بِعَرَصَتِهَا ، وَمِنْ عَرَضٍ مُضَاعٍ  
وَأَحْسَابٍ مُضْمَرَةٍ جِيَاعٍ  
وَنَقْصٍ فِي أَكْبَارِهَا حَضِيضٍ ،  
وَجَهْلٍ فِي أَصَاغِرِهَا مُشَاعٍ  
لَقَدْ نَامَتْ سِرِّيْرَتُكُمْ ، وَكَانَتْ  
فَضِيحَتُكُمْ قِنَاعًا لِلْقِنَاعِ  
جَمَلْتُمْ ذَنْبَنَا أَنَا سَمِعْنَا .. ،  
وَمَا الْآذَانُ إِلَّا لِلْسَّمَاعِ

وهذا ليس مما يغضب منه ، فإن في التاريخ من أمثال ذلك مالا بدفع .  
وقد كانت في مصر لذلك العهد ، وفي غير مصر ، أخلاق فاسدة هي التي  
عَصَفَتْ بالجد العربي وأضاعته بين ذئاب الأعاجم وغيرهم ، حتى صرنا إلى  
ما نحن فيه الآن . فهذا الغضب التاريخي لا محلَّ له ولا وجه ، إلاّ التصور  
في معرفة التاريخ . هذا . . . وليس بمنكر أن تكون هناك فضائل أخرى  
تُلَطِّف هذه العيوب وتخفف منها ، فتُنسى في جانبها ، وتخفى صورتها في ظلها .

... سار أبو الطيب يطوي الفلوات بماله ورجاله ورماحه وخيله هارباً  
من كافور وما أتبه من الطَّلَبِ ، وقطع في سيرة الفلاة ما بين مصر وطور  
سيناء خائفاً يترقب ، وترات له أيامه كلها بأهوائها وغفلاتها ، وحسناتها  
وسيئاتها ، واضطربت نفسه وعَلَتْ أمواجها ، وأدركته رجولته وفُتُوْرته ،  
حين لفحته هَبَّات الهجير وقد نَصَبَ لها حُرَّ وجهه ، وتنسَمَّ من سمائها التي  
اعتادها في أول أيامه قبل أن يستنم إلى بعض الدعة ، ويركن إلى غفلات  
الراحة ، وكذلك غَلَبَ ما كان به من اليأس والصَّجَرِ ، ومدَّ ذراعيه  
يَسْتَمْسِك بالحياة ، يَبْنِي الظُّفْرَ وتحقيق الأمل . ومن هنا قال في قصيدته التي



ذكر فيها رحلته عند وروده إلى الكوفة ... يصف الثوق التي نجا على  
ظهرها :

وَلِكِهِنَّ ( حِبَالُ الْحَيَاةِ ) ، وَ ( كَيْدُ الْعُدَاةِ ) ، وَ ( مَيْطُ الْأَذَى )  
ضَرَبْتُ بِهَا التِّيهِ ضَرْبَ الْغَيَا رٍ ، إِمَّا هَذَا وَإِمَّا لِذَا  
إِذَا فَرَعَتْ قَدَمَتَهَا الْجِيَادُ ، وَبَيْضُ الشُّيُوفِ ، وَبُسْرُ الْقَنَا  
وَقُلْنَا لَهَا : أَيْنَ أَرْضُ الْعِرَاقِ ؟ فَقَالَتْ - وَنَحْنُ بِزُبَانَ - : هَا

ولم يكن أبو الطيب في مخرجه هذا يريد مكاناً بعينه يقصده ، بل كان  
متردداً بين أن يقصد المدينة ويقيم بها ، أو يقطع في رحلته القلاة إلى نجد ،  
أو ينحدر إلى العراق ولعله كان يتلقف الأخبار وهو في طريقه ، حتى يرى  
رأيه في قصده ، ويتيق شرّ الكيد الذي كان يكاد به طول عمره من جراء  
السياسة ، ومن أجل تفحّمه على أصحاب الدسائس متهاوناً بهم ، والظاهر (١)  
من شعر أبي الطيب أنه ، لأمر ما ، اعتمد الرحلة إلى الكوفة ودخولها .  
وقد رأيت قبْلُ في خبره ، وتجدّه أنه حين أراد دخول الكوفة ليراها ، ومنعه  
العلويون ، فيما ذهبنا إليه ، وحملوه على مفارقة جوارها إلى بغداد ، فكان من  
جَرَاءِ ذلك ما استعملن في قصيدته التي يرثي بها جدّه ، من الحِلَّةِ والتهوّر

(١) قد حاولنا أن نتهدى في ظلام التاريخ إلى وجه من الرأي فلا قرر الآن شيئاً ، فإن  
ذلك يقتضى التنقيب في تاريخ العلويين خاصة في ذلك العهد ، وما كان لهم وما كان منهم -  
والكتب التي بين أيدينا من التاريخ ناقصة ، ومفرقة . فلذا تم لنا شيء من السند التاريخي .  
لحينئذ تقدم على القطع برأى من أمر مدخله الكوفة ، هذا على أن في أيدينا أشياء وإسكها  
لأنكفى في الدلالة على الزجه الصحيح .

وانثورة ، والتعريض بما أريد به من الظلم والضم ، فكان مما قال :

لَيْتَ لَدِّي يَوْمَ الشَّامِتِينَ يَوْمَهَا      لَقَدْ وَلَدْتُ مِنِّي (لَا نُفِيمُ رَغْمًا)  
تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعِظًا غَيْرَ نَفْسِهِ ،      وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا  
وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ ،      وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْفَسْمَا  
وَجَاءَهُ يَوْمَ الْفَقَاءِ تَحِيَّتِي ،      وَإِلَّا فَلَسْتُ (السَّيِّدَ الْبَطْلَ الْقَرَمَا)  
(إِذَا فَلَ عَزَمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بَعْدَهُ ،      فَأَبْعُدُ شَيْءَ مُمَكِّنٍ لَمْ يَجِدْ عَزْمًا)  
وَلَمَّا لَمِنَ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ      يَهْأَنُ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعِظْمَا  
(كَذًّا أَنَا بِأَدْنِيَا، إِذَا شِئْتُ فَأَذْهِي ،      وَيَأْنَسُ، زَيْدِي فِي كَرَاهِيهَا قُدْمَا)  
(فَلَا عَبَّرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعِزُّنِي ،      وَلَا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا)

وقد قلنا قمم أنه أراد بالشامتين الذين كان لأنوفهم (رغما) - العالوين ،  
وأنه أنذر وأوعده وهدد يريدكم بذلك ، لما أنزلوه من الكيد له حتى خفيت  
نسبته إلى الشجرة العالوية المباركة . ولم يزل أبو الطيب يسر ذلك في نفسه ،  
وهو في كل مرة يلتقي من العالوين كيداً كثيراً ، كما رأيت من إرصادهم لقتله  
بكفر عاقب .

فالآن ، يتمكن أبو الطيب - بعد استمرار عزيمته ست عشرة سنة ( من  
سنة ٣٣٥ إلى سنة ٣٥١ ) - من دخول الكوفة ، بعد أن حيلَ بينه وبينها  
في موت جدته ، وقد كُتِيَ في هذه السنوات من اللصائب والأرزاء ما فت حيناً  
في عضده ، وما رمى في قلبه بالعمز والقوة حيناً آخر . يدخل الكوفة وقد  
رغبت أنوف من منعموه عن دخولها أولاً ، ومن فارق الكوفة وتغرب  
غير قابل لما أرادوه عليه من ظلمهم له ... فيقول :

فَلَمَّا انْخَفَا رَكَزْنَا الرُّمَّا حَ، مَيْنَ (مَكَارِمَنَا) وَالْعَلَى

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ : (مَكَارِمَنَا وَالْعَلَى) ، أَتَكُونُ (مَكَارِمَهُ وَالْعَلَى) هَذِهِ هِيَ السَّقَاءَةُ وَمَا إِلَيْهَا ؟ إِذْ تَكْذَبُ عَلَيْهِ الْقَوْمُ فَرَعُوا أَنْ أَبَاهُ كَانَ (سَقَاءَ) بِالْكَوْفَةِ يَسْقَى الْمَاءَ عَلَى بَعِيرِهِ . وَالْعَجَبُ أَنْ يَذْكُرَ أَبُو الطَّيِّبِ هَذِهِ الْمَكَارِمَ وَالْعَلَى وَهُوَ مُقِيمٌ بِالْكَوْفَةِ ، الَّتِي كَانَ بَهَا مِنْ يَعْرِفُهُ مِنْ لِذَاتِهِ الَّذِينَ كَانَ مَعَهُمْ فِي الْمَسْكَتِبِ وَهُوَ صَغِيرٌ . إِنْ يَكُنْ مَا زَعَمُوا ... فَتَبَا (لِابْنِ السَّقَاءِ) هَذَا مِنْ شَيْخٍ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنَ النَّاسِ !! هَذَا ، فِي الْأَبْيَاتِ الَّتِي تَلَى هَذَا الْبَيْتَ نَفَحَاتُ الصَّدَقِ ، وَصُورَةٌ مِنْ قُوَّةِ الْمَزِيْمَةِ ، وَكَرَّمَ الْعَنْصَرُ ، وَعِزَّةُ نَفْسٍ تَتَبَيَّرُ فِي أَلْفَاظِهَا ، لَا قَبِيلَ لِكُذَّابٍ وَلَا دَعَايَ أَنْ يَجْعَلَهَا تَرَاوِي فِي كَلَامِهِ وَاضِحَةٌ بَيِّنَةٌ سَمْحَةٌ مُسْتَعْلِنَةٌ ... يَقُولُ :

وَبَنَّا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَى  
لَتَمْلَمَ وَضْرُ ، وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ، وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ ، أُنَّى الْفَقَى  
( وَأُنَّى وَفَيْتُ ، وَأُنَّى أَبَيْتُ ، وَأُنَّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا )  
( وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفَى ، وَلَا كُلُّ مَنْ سَمِعَ خَسَنًا أَبَى )  
( وَمَنْ يَكُ قَلْبُهُ كَقَلْبِي لَهُ ، يَشُقُّ إِلَى الْعِرِّ قَلْبَ التَّوَى )  
( وَلَا بُدَّ لِلْقَلْبِ مِنْ آلَةٍ وَرَأْيٍ يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّفَا )  
وَكُلُّ طَرِيقٍ أَنَاهُ الْفَقَى ، عَلَى قَدَرِ الرَّجُلِ فِيهِ الْخَطَى

وَفِي قَوْلِهِ : « وَأُنَّى وَفَيْتُ » الْبَيْتَانِ ، إِشَارَاتٌ بَيِّنَةٌ إِلَى مَا مَغْنَى فِي كَلَامِنَا عَنْ نَسْبِهِ وَغَيْرِهِ ، وَلَا نُطِيلُ بِإِعَادَتِهَا هُنَا مَرَّةً أُخْرَى . وَكَذَلِكَ أَرْغَمَ

أبو الطيب أنوف أعدائه جميعاً ، وأراهم أن عزمه لا يزال ماضياً متقدماً لا يردُّ على بعد الشقة وتطاول الأيام ، وأنه قَرَّبَ إليه ما كانوا يباعدون عنه بهمهم وسخريتهم به إذ قالوا : « مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بِلْدَةٍ ! وَمَا تَبْتَغِي ؟ » .. وقد صدق إذ قال :

إِذَا فَلَ عَزَمِي عَنِ مَدَى خَوْفٍ بَعْدِهِ ، فَأَبْعُدْ شَيْءًا ، تُمَكِّنُ لَمْ يَجِدْ عَزَمًا

\* \* \*

لَمْ يَرِدْ فِي خَبَرِ أَبِي الطَّيِّبِ وَمَدْخَلِهِ الْكُوفَةَ فِي شَهْرِ ربيع الأول من سنة ٣٥١ هـ . يمكن أن يتوجه به التاريخ في هذه الفترة إلى وجه بعينه . والذي في رواية الرواة أنه توجه بعدها إلى مدينة السلام ( بغداد ) ، ولكن من قبل رحلته حدث بالكوفة حدث حضره المنبئ ، وذلك أَنَّ رجلاً خارجياً كان قد ثار بالكوفة ، وكان من بني كلاب ، واجتمعت إليه فئة من المقاتلة الخوارج ، فانتفض إليهم أبو الفوارس دَلِيرُ بْنُ لَشْكِرَوَّرَ ، وانصرف هذا الخارجى قَبْلَ وصول دَلِيرٍ إلى الكوفة ، فمدحه أبو الطيب ، وأنشده . وهو في الميدان ، فحمله على فرسٍ بمركب ذهب . ولسنا نعرف سَبَباً لمُدحِ أَبِي الطَّيِّبِ هذا الرجل ( دَلِيرٌ ) ، ولم يرد في كتب التاريخ التي بأيدينا ذكر هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجى الذى ثار بالكوفة في سنته تلك . وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر في القطع برأى ، والظاهر أن لهذا الرجل ( دلير ) علاقة بالمشاكل العلوية التي كانت لتلك العهد بالكوفة ، وأنه كان ممن يميلون إلى الجانب الذى فيه سيف الدولة وأبو الطيب ، فإنَّ نفسَ أَبِي الطَّيِّبِ ، كما رأيت كانت نفس الرجل المنتصر الظافر الذى خرج من هُوجِ العواصف سالماً غالباً كما مرَّ بك في قوله :

فَلَمَّا أَنْخَضْنَا رَكَزْنَا الرِّمَاءَ حَـ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعَلَى

أقام أبو الطيب بالسكوفة أشهراً ثم خرج من سنته تلك إلى بغداد فنزل على صاحب له هو علي بن حمزة البصري<sup>(١)</sup> وأقام عنده في داره . وبين من نزول أبي الطيب على هذا الفتى دون سواء من رجال الدولة في ذلك العهد ، أنه قصد بذلك أن يبدى بفعله ازدياءه لهم ، واستهانته بهم . ولعله كان مما أراد أيضاً أن يكون على مقربة من سياسة الدولة ، ليخبر الرجال الذين كانوا يؤيدون خار الفتنة إذ ذاك ، وليروا ما عندهم . وهذا بين مما قدمناه قبل<sup>(٢)</sup> من الرسالة التي كانت بينه وبين سيف الدولة . ويُنَّ أيضاً أنه كان متمماً عند أهل السياسة في ذلك العهد أن أبا الطيب كان مقدّمة من أجل ذلك ، فقد ذكر الحاتمي (صاحب الرسالة الحاتمية) : أن معز الدولة بن بويه الديلمي (سأه أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه) ، يعنى سيف الدولة .

ثم إن أبا الطيب لم يقف أمره عند ذلك ، بل قد رغب إليه جماعة من أصحاب الوزير المهلب أن يمدح الوزير ، فأبى عليهم أبو الطيب وجبههم بأسوأ الرد . وكان السبب في سوء ردهم أن أبا الطيب ، كما علمت ، لم يكن يرضى أبداً عن هؤلاء الأعاجم الذين مزقوا الدولة العربية وتقا سموها بينهم — ونفى منهم هنا بنى بويه — وكان المهلب وزير مُميز الدولة البويهية ، وكان مشايخاً لهم في كثير . وعلى أن مُشاكعة الوزير المهلب لبني بويه كانت ، فيما نرى ، ارتفاعاً للرزق ، فإن أبا الطيب لم يعبأ به ، بل أغضى عنه تهاوناً وازدياء . فأحفظ ذلك الوزير المهلب فأسد عليه الأدياء والشعراء وأغرام به ليفيظوه ويكيدوا له ، وبطلوا

(١) انظر التعليق في ص : ٣٩ .

(٢) من ص : ٢٩٨ — ٢٩٣ .

له القول في مجلسه . فكان ما رأيت قبل من جهائم إياه ، وزعمهم أن أباه كان سقاء بالكوفة ، كما ورد في الشعر الذي قدمناه في أول الأبواب .

ولا يفوتك هنا أن تعلم أن التنوخي الذي روى قصة نسبه كان بالعراق لذلك العهد . وأيضاً أن ابن أم شيان الهاشمي ، وأبا الحسن العلوي كانا كذلك . ببغداد . وقد رأيت في الباب الأول كلامنا عن هؤلاء وما ادّعوه من أن أباه كان سقاء ، فاجتماع هؤلاء ببغداد ، ومقدم أبي الطيب عليها من أجل السياسة ، وهو عدو بني بويه ، إذ كان من أصحاب سيف الدولة ، ورجلاً من الذين اتخذهم لسره وآرائه السياسية ، ثم ما كان من امتناعه عن مدح الخليفة العباسي . ومعز الدولة الدبلي ( العلوي الفاطمي ) المذهب ، وازدراؤه لوزير معز الدولة ( أبي محمد المهلب ) ، ثم ما كان من عداوة الشعراء والأدباء له بإغراء المهلب . وغيره ، نقول : إن هذا كله مما يجعلك تستيقن فساد الروايات التي يرويها الرواة عن أمر المنتبي ، وخاصة ما كان ظاهر التعامل ، بين الضئيفة . . . عفا الله عنهم !! لقد رموا الرجل بكل قبيصة ، ووضعوا الكل ما كان يتمدح به في شعره قصة تحالف ذلك : رأوا للنبي يتمدح بالكرم ويمدح عليه ، فوضعوا القصص في بخله وشرافته على المال ، ورأوه يمجّد الرجولة والشجاعة ويصف بهما نفسه ، فوضعوا الأكاذيب في حكايات جُبْنه وخَوْره . . . إلى غير ذلك من الأحاديث التي لا تصلح لتحقيق ولا ترجمة .

\* \* \*

وبقي أبو الطيب ببغداد مستهيناً بكل كيدٍ وحقدٍ ، وأخذ يقرأ ديوانه على بعض أصحابه بدار علي بن حمزة البصري . ثم فرغ من أمره ورجع إلى الكوفة

في أواسط سنة ٣٥٢ وبقى بها ، ولم يقل شعراً بلغنا ، إلى أن بدأت سنة ٣٥٤ فارتحل إلى بغداد وكان الوزير المهلب قد مات .

والظاهر من أمر أبي الطيب أنه حين بلغه وهو بالكوفة في سنة ٣٥٢ موت خولة أخت سيف الدولة ، تمزقت أحلامه ولم يبق له قلب يمدّه بالقوة والتدافع والثورة ، كالذي كان له من قبل ، واستأنس من أمره إلا قليلاً . فلما جاءه كتاب سيف الدولة في ذى الحجة من سنة ٣٥٣ يذكر العوائق التي تمنعه عن فتح العراق ، ويبيّن له ما هو فيه من الكرب والضيق والعسر على ما قدمنا في شرح قوله :<sup>(١)</sup>

« فهمت الكتاب ، أبرّ الكتب فسمعا لأمر أمير العرب »

... أحبط بأبي الطيب ، وأسفت نفسه قيادها لأحزان قلبه ، فلم يحمل نفسه على الرحلة إلى سيف الدولة ، لئلا يذكره المكان وأهله ، بمكان قلبه والسآكنية ، نعى « خولة » ، فأراد أن ينسى همه بقصد أرض غير الشام التي بطلت قلبه إليها في حنين وأنين وبكاء .

وكان أبو الفضل بن العميد ،<sup>(٢)</sup> وهو بالري ، يخرج كل عام خرجتين إلى إلى أرباجان ، فبلغه مقدم المتنبي إلى بغداد ، فراسله ، وعزم عليه في الحضور إليه بأرباجان . وقد زعموا أن ابن العميد « كان يسمع بأخبار أبي الطيب ، وكيفية اشتهاه في الأقطار ، وترفعه عن مدح الوزراء ، فسمع أنه خرج من

(١) س : ٢٢٢ (٢) هو محمد بن الميهن بن محمد الكاتب وزير ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي ، وكان عالماً أديباً فصيحاً ذليلاً ، وكان من أئمة التسل ، وقد سمي بالملاحظ الثاني ، وكان من حداة السياسة وتدبير الممالك .

مدينة السلام متوجهاً إلى بلاد فارس ، وكان يخاف أن لا يمدحه ، ويمامله  
معاملة الهلبي = فيسكره من ذكره ، ويعرض عن سماع شعره . » والصحيح  
من هذا أن ابن العميد كان يخاف أن لا يعبا به المتنبي ، فراسله وأسبغ عليه  
من فواضله . ففضى أبو الطيب في سيره من بغداد إلى أَرْجَان يصحبُه تلميذه على  
ابن حمزة البصري . قال على هذا : « فلما أشرف عليها (أبو الطيب) ، وجدها  
(يعني أَرْجَان) ضَيِّقَةَ البُقْعَةِ والدُّور والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال :  
تركتُ ملوك الأرض وهم يتعبدون بي ، وقصدتُ ربَّ هذه المَدَرَةِ . !؟ فما يكون  
منه ! ! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلاماً له على راحلته إلى ابن العميد ، فدخل  
عليه وقال : مولاي أبو الطيب المتنبي خارج البلد - وكان وقت القيولة ، وهو  
مضطجع في دَسْتِهِ - فنار من مضجعه ، واستنبتته ، ثم أمر حاجبه باستقباله فركب  
واستركب من لقيه في الطريق ، ففصل عن البلد بجمع كثير فتلقوه وقصّوا  
حقّه وأدخلوه البلد . فدخل على أبي الفضل فقام له من الدَسْتِ قياماً مستويّاً ،  
وطُرح له كرسيٌّ عليه حِدَّةٌ دِيَّاجٌ ، وقال أبو الفضل : كُنْتَ مشتاقاً  
إليك يا أبا الطيب ... » ، وكان دخول أبي الطيب أَرْجَان ولقاؤه ابن العميد  
في شهر صفر سنة ٣٥٤ .

كان أبنُ العميد من رجال عصره في السياسة وتدير الملك ، ومن  
شيوخهم في العلم والفلسفة وما إليهما ، ومن أفذاذ البلقاء والأدباء ، وكان أمةً  
وحده . فلا عجب أن يحتفل له ببيان أبي الطيب احتفالاً عظيماً في أول اللقاء ،  
فيمدحه بقصيدته المشهورة : « بَادِرْ هَوَاكَ دَسْتِ أُمِّ لَمْ تَصْبِرَا » ، والتي يقول  
فيها يصف أبن العميد :



مَنْ مُبْلَغُ الْأَعْرَابِ أُنِّي بَعْدَهَا  
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ  
وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا  
جَالَسْتُ رِسْطًا لَيْسَ وَالْإِسْكَندَرَا  
مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّلًا مُتَحَضِّرًا  
رَدَّ إِلَهُهُ نَفْسَهُمْ وَالْأَعْرَا

وأكرمه ابن العميد واجتفل له ، فبقى عنده التثني شهرين أو أشْفَ قليلاً ،  
وكان المتنبي ، وهو في جوار ابن العميد ، لا يزال يُعاوده همُّ قلبه ويغلبه  
الاضطرابُ نفسه ، فكان ذلك في شعره ، ولكنه كان يتأسك على الضعف ،  
ولا يعطى المقادة إلا متهوراً . وقد وقع ذلك في قصيدته التي مدح بها  
ابن العميد ، وفطن ابن العميد إلى هذا الاضطراب . رَوَّاهُ لَمَّا أُنْشِده :

بَادٍ هَوَاكَ ، صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرْ  
وَبُكَكَ ، إِنْ لَمْ تَمْجُرْ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى  
كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ وَابْتِسَامُكَ صَاحِبًا  
لَمَّا رَأَاكَ ، .. وَفِي الْخُشَا مَا لَا يَرَى !!

فقال له ابن العميد : يَا أَبَا الطَّيِّبِ ، أَتَقُولُ : « بَادٍ هَوَاكَ » ، ثم تقول بعده :  
« كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ » ؟ ما أسرع ما نقضت ما ابتدأت به !! فكان جوابُ أبي الطَّيِّبِ :  
« تِلْكَ حَالٌ ، وَهَذِهِ حَالٌ » . وهذا هو ما نقول به ... فَإِنَّ أَبَا الطَّيِّبِ كَانَ  
يَذْكُرُ « خَوْلَةً » أَحْيَانًا فَلَا يُخْفِي هَوَى ، وَلَا يَرُدُّ دَمْعًا ، وَتَنْطَلِقُ عَوَاطِفُهُ مِنْ  
عِيقَالِ رَجَوْلَتِهِ ، فَإِذَا مَا ارْتَدَّتْ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ وَإِرَادَتُهُ ، رَدَّ ذَلِكَ رَجَوْلَتَهُ وَأَبْدَى  
الصَّبْرَ ، وَأَظْهَرَ الْإِبْتِسَامَ وَالرَّضَى . وَهَذِهِ حَالَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْحُبِّ الطَّاعِي  
الْمُسَيِّطِ ذِي السُّلْطَانِ وَالْغَلْبَةِ . وَظَهَرُهَا فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي بَيْتَيْنِ مُتَعَابِقَيْنِ  
يَنْقُضُ مَعْنَى أَحَدِهِمَا مَعْنَى الْآخَرِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْعَمِيدِ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ  
تَأْخِذًا فِي أَسْرِ الْهَوَى لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَحْدُ فِي تَنَاقُضِ مَعَانِي الْبَيْتَيْنِ شَيْئًا .  
وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا التَّنَاقُضَ الَّذِي نَرَاهُ فِي مَعَانِي شِعْرِهِ يَكُونُ عِنْدَهُ اتِّسَاقًا فِي مَعَانِي

عواطفه ونخبه ، وتمييزاً بليفاً صادقاً عن إحساسه وضميره وحاجة نفسه ، ...  
فهذا قوله ؛ « تلك حال ، وهذه حال » .

وَأَنْظَرُ ... ، فَإِنَّ الرَّجُلَ حِينَ وَدَعَ ابْنَ الْعَمِيدِ قَالَ :

وَمَنْ لِي يَوْمٍ مِثْلَ يَوْمِ كَرِهْتُهُ ، قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ الْوَدَاعِ مِنَ الْبُعْدِ  
(وَأَلَّا يَخْصُ الْفَقْدُ شَيْئاً ، .. لِأَنْتَنِي فَقَدْتُ ، فَلَمْ أَفْقِدْ دُمُوعِي وَلَا وَجْدِي)  
تَمَنَّى بِلَدِ الْمُسْتَهَامِ بِذِكْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُغْنِي فَتِيلاً وَلَا يُجْدِي  
وَعَيْظٌ عَلَى الْأَيَّامِ ، كَالنَّارِ فِي الْحَشَا ، وَلَكِنَّهُ غَيِظُ الْأَسِيرِ عَلَى الْقِدِّ

وهذه الإشارة التي في البيت الثاني بقوله : (لأنتى فقدت .. ) ، هي إلى  
صاحبه « خولة » التي ماتت في سنة ٣٥٢ ، فلم ينسها بل بقي مضطرباً مغلوباً  
على أمره لا يستطيع الصبر تارة فتغلبه دموعه ، ويتحاملُ أخرى بصبره  
فينطوى على وجهه ولوعته ، .. والنار التي في حشاه .

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي اللَّغَانِ  
بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ  
وَلَكِنْ الْفَقْرُ الْقَرِيبُ فِيهَا  
غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالتَّيْدُ وَالْأَسَانِ  
مَلَاعِبُ حِنَّةٍ ، لَوْ سَارَ فِيهَا  
سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجَمَانِ  
إِذَا غَفَى الْحَمَامُ الْوُرُقُ فِيهَا  
أَحَابِثُهُ أَغَانِي الْقِيَانِ  
وَمَنْ بِالشَّعْبِ أَخْوَجُ مِنْ حَمَامٍ  
- إِذَا غَفَى وَنَاحَ - إِلَى التِّيَانِ  
وَقَدْ بَقِيَ الْوَصْفَانِ جِدًّا  
وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتْبَاعِيَانِ

وَرَدَ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ - وَهُوَ عِنْدَ ابْنِ الْعَمِيدِ - كِتَابٌ مِنْ عَضُدِ الدَّوْلَةِ  
يُسَمِّيهِ بِسْمِيزِهِ وَيَطْلُبُ مِنْهُ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تَكُنْ لِأَبِي الطَّيِّبِ رَغْبَةٌ تَحْمَلُهُ ،  
فَخَلِمَ يَخْفَ إِلَى اسْتِدْعَائِهِ . فَكَلِمَهُ ابْنُ الْعَمِيدِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ : مَا لِي وَلِلدَّيْمِ ؟  
فَقَالَ لَهُ : عَضُدُ الدَّوْلَةِ أَفْضَلُ مِنِّي ، وَيَصِلُكَ بِأَضْعَافٍ مَا وَصَلْتُكَ بِهِ . قَالَ  
أَبُو الطَّيِّبِ : إِنِّي مُلْتَمِئٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ ، أَقْصِدُ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ ،  
وَأُمْلِكُهُمْ شَيْئًا يَتَمَتَّى بِقَاءِ النَّيِّرَيْنِ ، وَيُنْطَوْنِي عَرَضًا فَانِيًا ... وَلِي صَبْرَاتٌ

واختيارات ، فيعوقني عن مُرادى ، فأحتاج إلى مفارقهم على أقبح الوجوه<sup>(١)</sup> فكاتب ابنُ العميد عضد الدولة بهذا الحديث ، فورد الجواب بأنه مُملك مراده إلى القائم والظمن . فسار المتنبى من أَرَجَان ، فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز ، استقبله عضد الدولة بأبى عمر الصبَّاح ، فلما تلاقيا وتسايرا ، استنشده ، فقال المتنبى : الناس يَتَنَاشِدُونَ ، فاسمعه . فأخبره أبو عمر أنه رُمِيَ له ذلك من المجلس العالى . ثم دخل البلد ، فَأَنْزَلَ داره مفروشة ، وَأَنْشَدَ أبا عمر قصيدته التى قالها فى الكوفة التى قال فيها :

فَلَمَّا أَنْخَنَّا رَكَزْنَا الرُّمَّا حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى  
وَنَتَنَسَّا نَفَقَلُ أَسْيَافَنَا ، وَنَمَسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَى  
لِنَعْلَمَ مَضْرُوءَ ، وَمِنْ بِالْمِرَاقِ ، وَمِنْ بِالْمَوَاصِمِ ، .. أَتَى الْفَقَى  
(وَأَتَى وَفَيْتُ ، وَأَتَى أَبَيْتُ ، وَأَتَى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا )

فرجع أبو عمر الصبَّاح إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وأنشده هذه الأبيات ، فقال عضد الدولة : « هونا ... يتهددنا المتنبى !! » :

وبينَ مما رويُنَا لك أن أبا الطيب كان لا يزال يحقر الأعاجم ويفضهم لما أصابوا به قومه من البلاء ، وكان استمصاصه على ابن العميد وجداله معه فى الرحلة إلى عضد الدولة ، من أجل مذهبه السياسى ، ومن أجل أن هؤلاء ، بى بويه ، كانوا أعداء صاحبه سيف الدولة = ومن أجل أنهم كانوا من

(١) أعد قراءة هذا النص : فإنه مليء بإشارات كثيرة تطابق أكثر الذى قلناه . فى هذه الكتاب .

شعبة العله بين الفاطميين الذين لا يرضى عنهم أبو الطيب ولا سيف الدولة =  
ومن أجل أنه يعلم أن مديحه فيهم سيئتي لهم ذكراً خالداً في شعره ، وهم  
له أعداء ، ولكن الرجل ، كما علمت قبل ، كان مضطرباً قد داخله اليأس  
واستبدَّ به ، فسار وهو يقول :

وَأَيُّا شَيْتِ يَاطْرُقِي فَكُونِي ، أَذَاةً ، أَوْ نَجَاةً ، أَوْ هَلَاكًا

فلما دخل شيراز واستقبله أبو عمر الصباغ ، واستنشدَهُ كأنه يخبرُ شعره ،  
لم يصبر المتنبي فرماه بقوله : « الناس يتناشدون ، فاسمعه » ، إذ كان شعره قد  
سارَ مسير النيرين الشمس والقمر ، فلما عرف أن ذلك الطلب بأمر من عضد  
الدولة ، غضب لنفسه ولعريته ولشعره ، فاختر من قصائده قصيدة فيها ذكر  
ظفره بمراده ، وقلَّجه على الخوصوم من الملوك والأمراء ، وهجاء كافور الذي  
كان عنده قبل أن ينزل على عضد الدولة ، لتسكون هذه القصيدة تهديداً  
ووعيداً وإنذاراً ، ومقابلة لإساءة عضد الدولة بإساءة مثاها . ولذلك لما سمع  
عضد الدولة :

« وَأَيُّ وَقَيْتُ ، وَأَيُّ أَبَيْتُ ، وَأَيُّ عَتَوْتُ عَلَى مِنْ عَتَا »

عرف مراد المتنبي فقال : « هوناً ... يتهددنا المتنبي !! » .

وبين أن هذا اللقاء الأول ، وضع بين أبي الطيب وعضد الدولة أسباب  
الحذر والاحتراس ، فكان أحدهما يتعلَّق الآخر خوف التَّبَنِّي والمدوان .  
ولا شك أن عضد الدولة كان يعلم من أمر هذا الداهية السيامي أبي الطيب  
كثيراً ، وكان يرصدُ عليه العميون والرقباء ... على أن أمر أبي الطيب ، كان

بيناً ، فإنه حين حضر سباط عضد الدولة بعد أيام من مقدمه عليه أنشده قصيدته التي أولها :

مَقَانِي الشَّعْبِ طَيِّباً فِي اللَّقَائِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ  
وَلَكِنْ الْفَقَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ ، وَالْيَدِ ، وَاللِّسَانِ  
مَلَاعِبُ جِنَّةٍ ، لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجَمَانِ

فهذا هجاء بين لأرض فارس وأهلها . فقد زعم أن سليمان عليه السلام = الذي علم منطق الجن والطير والحشرات والبهائم = لو دخل أرضهم لاحتاج إلى ترجمان ، فأخرجهم بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم ! وأنه = من هوانهم على الله ، وقلتهم في الأرض = لم يعلم الله سليمان لسانهم ، وليس يخفى هذا على مثل عضد الدولة . ولم يكف أبو الطيب بذلك ، بل أتبع هذا قوله بعد :

إِذَا غَفَى الْحَمَامُ الْوُرُقُ فِيهَا أَجَابَتْهُ أَغَائِي الْقِيَانِ  
(وَمَنْ بِالشَّعْبِ ، أَحْوَجُ مِنْ حَامِرٍ — إِذَا غَفَى وَنَاحَ — إِلَى السَّبَّانِ)

فتمم المعنى وأبان مقصده من الأبيات الأولى ، إذ جعلهم أقل منزلة من الطير في البيان والإفصاح . ولم يكف أيضاً بهذا ، بل أراد أن يعلم عضد الدولة ، أن هذه البلاد ليست مكانه الذي يرتاح إليه ، وليست بالأرض التي تحرس عليه أو يحرس عليها ، وأنه غريب عنهم ، وأن مدحه لهم ليس شيئاً ، وأنه عربي ليس بأعجمي يعيل إليهم أو يكون له شأن بينهم ، فقال :

وَلَكِنْ ( الْفَقَى الْعَرَبِيَّ ) فِيهَا ( غَرِيبُ الْوَجْهِ ، وَالْيَدِ ، وَاللِّسَانِ )

فكل ما قال أبو الطيب في مديح هذا الديلمي ( عضد الدولة ) ليس

من قلبه ولا من نفسه . وشعره يُبَيِّنُ الدلالة على أن الرجل كان يقول مُتَّكِلًا  
بعد أن أخرج بِمُتَّكِلِهِ عليه . وقد فَطَنَ عضد الدولة إلى كُلِّ هذا ، فقد كان  
أديباً شاعراً جيد القريحة ، وقال :

« إن المتنبى كان جَيِّدَ شعره بالغرب » (يعني غرب فارس) ، ويشير  
بذلك إلى عُدُوَّهُ سيف الدولة خاصة . وبلغت المتنبى مقالة عضد الدولة فقال :  
« الشعرُ على قَدَرِ البقاع » ... وهذا تصريح بليغ ، ولا شك أن عضد الدولة  
أخبر بقول المتنبى هذا .

ولم يكن كل ذلك مما يَمْنَعُ هذا الملكَ الذبَّ عَصَدَ الدولة الذي = الذي  
حوصل بدهائه وسياسته وحُسن تديره أن كان أوَّلَ من حوَّطَ بالملك في  
الإسلام ، وأوَّلَ من حُطِبَ لَهُ على المنابر بعد الخليفة = من أن يكسوا بالطيب  
من نِعْمَتِهِ ، ويُفرِّقَهُ بِنِداءٍ وكرمه . فأنهم يروون أنه حين أنشده : « معاني  
الشعب ... » ، حل إليه من أنواع الطَّيِّب في الأردية والأمان ، من بين  
الكافور والتنبر والمسك والعود ، وقاد إليه فرسه الملقب بالمجروح = وكان  
قد اشترى له بخمسين ألف شاة = وبرة دراهمها عَدْلِيَّة ، ورداء حَشْوُهُ ديباج  
رُومِي مُفَصَّل ، وعمامة قَوِّمَتْ بِخمسائة دينار ، ونَصْلًا هنديًا مرصَّعَ النجاد  
والجُفْن بالذهب .

هذا ، ... وقد كان الجمال الطبيعي ، الذي مَسَّحَ الله به بلاد فارس ، مما أراح  
نفس أبي الطيب وأراح همها قليلاً ، فكان شعره الذي مدح به عَصَدَ الدولة  
مقارباً ليس فيه اضطرابٌ بين ، أو أثرٌ ظاهرٌ من داء قلبه ، إلّا في أبيات  
قليل . ولم يظهر في شعره ذلك ، لأن مُدَّةَ إقامته هناك كانت قليلة ، فإنه بقي  
يشيراز على الأرجح من أواخر ربيع الآخر إلى أول شعبان من سنة ٣٥٤ .

ولكن ظهر لهم أبي الطيب واستعان «وعادت إليه ذكرى» «خولة» وموتها، وذكر أعماله وسماعته وجرأته، حين توفيت عمدة عضد الدولة، فوثقها بقصيدة ليس فيها شيء إلا هذه الأبيات:

لَا يَدُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْمَةٍ لَا تَقْلِبُ الْمُضْجَعِ عَنْ جَنْبِهِ  
يَنْسَى بِهَا مَا كَانَ مِنْ عَجْبِهِ وَمَا أَذَاقَ لِلَوْتِ مِنْ كَرْبِهِ  
نَحْنُ بَنُو اللَّوْتِ ! فَا بَالُنَا نَعَفُ مَا لَا يَدُ مِنْ شُرْبِهِ ۥ  
تَبْخُلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ مِنْ كَسْبِهِ ۥ  
فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تَرْبِهِ ۥ  
(لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُتَمَيِّ حَسَنِ الَّذِي يَسْبِيهِ، لَمْ يَسْبِهِ)  
لَمْ يَرْقَنْ الشَّمْسُ فِي شَرْقِهِ، فَشَكَّتِ الْأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ  
يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ، مَيِّتَةُ جَالِيَتُوسَ فِي طَبْعِهِ  
وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ، وَزَادَ فِي الْإِيمَنِ عَلَى مِرْبِهِ  
وَعَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِلْبِهِ، كَفَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ  
فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ، فَوَادَهُ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ

ففي هذه أثر بين لتفكير أبي الطيب في الموت، بعد الذي لقي من فقد «خولة»، كما بيناه في مواضع.



لَا يَدُّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَمِيمَةٍ  
لَا تَقْلِبُ الصُّعُجَ عَنْ جَنْبِهِ  
نَحْنُ بَنُو لَوْنَى، فَمَا بَالُنَا  
نَعَاثُ مَا لَا يَدُّ مِنْ شَرِيحَةٍ ١١  
يَبُوءُ رَأْيِي الضَّانَ فِي جَهْلِهِ  
مِيقَةَ جَالِيْنُوسَ فِي طَلَبِهِ  
وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُزْرِهِ  
وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرِّيهِ  
وَعَايَةُ الْمَفْرِطِ فِي سَلَمِهِ  
كَفَايَةُ الْمَفْرِطِ فِي خَرَبِهِ  
فَلَا قَصَى حَاجَتَهُ طَالَبُ  
فُؤَادِهِ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ

أَشْرْنَا قَبْلُ إِلَى أَنْ الرَّجُلَيْنِ (أَبَا الطَّيِّبِ وَعَصَدَ الدَّوْلَةَ) ، كَانَا يَتَخَذَانِ عَازَةً  
وَأَنَّهُمَا كَانَا فِي الْبَاطِنِ عَدُوَّيْنِ لَا يَأْمَنُ أَحَدُهُمَا جَانِبَ صَاحِبِهِ وَلَا غَدْرَتِهِ  
وَلَا سُوءَ الْمُنْقَلَبِ . وَبَيِّنُكَ لَكَ عَنْ هَذَا أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ مَعَ إِكْرَامِ عَصَدِ الدَّوْلَةِ  
لَهُ ، كَمَا رَأَيْتَ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْقَرَارَ بِأَرْضِ فَارَسَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، وَلَوْلَا  
مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ لَأَسْتَطَاعَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَسْكَانَ الَّذِي وَجَدَ فِيهِ غَايَةَ الْإِكْرَامِ ،  
وَالْمَالِ الْكَثِيرِ الْمَبْذُولِ ، وَالْعَطَايَا السَّابِقَةَ الْكَرِيمَةَ . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى  
أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ لَيْسَ مِنَ الطَّمَعِ وَالْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي يَذْكُرُونَهَا ،

ويتابعهم عليها كثير من الذين نصبوا أنفسهم للكتابة عن الرجل والترجمة  
له من المحدثين . . . . .

وقضية هذه العداوة بين أبي الطيب وبنو بويه الديلميين قضية مُعقَّدة  
طويلة ، ولها في التاريخ الإسلامي والعربي أسباب ممتدة . ونحن نختصرها هنا  
ونجعلها في وجهين قرييين :

فالأول منها : ما عُرِف عن أبي الطيب من بغضاء الأعاجم على ما فصلناه  
في مواضع .

والآخر : هو المسألة السياضية المتصلة بالخلافة العباسية ، والدعوة العلوية ،  
والدعوة الفاطمية . . وهذه هي أكبر مشاكل التاريخ الإسلامي ، وخاصة  
في هذا العصر الذي كان المتنبي أحد رجاله الأفاضل .

كان العلويون يريدون إخراج سلطان الخلافة من يد العباسيين إلى أيديهم ،  
وقد تمكنوا بالدعوة التي قام بها الدعوة العلويون أن يحزموا أمرهم ، وجمَعوا  
إليهم رؤوس الدولة فيكونوا من شيعتهم ، وكان من شيعة العلويين ، ممن  
نذكركم هنا ، بنو بويه الديلميون ، وبنو حمدان العرب التغلبيون . ثم غلبت  
على بنو بويه الدعوة الفاطمية فصاروا من العالمين عليها في المشرق ، واستعصى  
على هذه الدعوة بنو حمدان . وكانت سياسة بنو بويه علوية أعجمية ، وكانت  
سياسة بنو حمدان علوية عربية . فاشتعلت البغضاء بينهما ، ثم زاد العداوة  
وضراًها وضراًها ما كان من استجابة بنو بويه للدعوة الفاطمية ، واستعصاء  
بنو حمدان عليها ومناوأتهم إياها في الشام والموصل . وكان بنو بويه يملكون أن  
بنو حمدان قد أدركوا خفايا السياسة الدبلوماسية الأعجمية المظاهرة للدعوة الفاطمية ،

وأنتهم يعملون على قضيتها . وكان دليل ذلك عندهم مناصرة بني حمدان للخلافة العباسية ، مع أنهم من رؤوس شيعة العلويين مذهباً وعملاً ، وقد علم بنو بويه أن هذه المناصرة إنما يراد بها إزاحة بني بويه عن مواضعهم من العراق وإبعادهم عن مقر الخلافة .

فلما كان ما كان من أمر سيف الدولة وظهور سلطانه بالشام ، ووقوفهم على نيته في اتخاذ المدة واستجلاب القدد ، وتهيئة أمره لفتح العراق ، على ما ذكرناه ، استجرت العداوة بين هؤلاء وهؤلاء ، وخاصة سيف الدولة ، وهو رأس بني حمدان ، وأصلبهم عوداً ، وأشدهم مراساً ، وأقدرهم رأياً ، وأحزمهم دهاءً ، وأبعدهم نظراً ، وأمضاهم عزيمةً وهماً . وكان من آثار ذلك ما أشرنا إليه قبل في سبب حروب الروم وسيف الدولة .

وكان أبو الطيب ، كما علمت ، من المقرين لدى سيف الدولة ، ولم يكن بنو بويه ليخطئوا معرفة الرجل ومذهبه في السياسة ، وأن هذا المذهب هو مذهب سيف الدولة ، فلذلك حذره عضد الدولة على ما رأيت ، وبقي له (عدواً مداحياً) . وقد كان أبو الطيب ، فيما ذهبنا إليه ، علوياً منكوباً في نسبه ، فليس بمستنكر أن يراد به ، من قبل العلويين ، ما أريد به من قبل وهو بطبرية سنة ٣٣٦ ، حين أُرصد له العلويون عبيداهم الشودان ليقتلوه . فيكون من ذلك أن يسعى هؤلاء العلويون لدى عضد الدولة في إيذاء الرجل والنيل منه . وأيضاً ما كان الدعاة الفاطميون يريدونه به لما يعلمون من أمره أولاً ، وإنكاره نسبهم ، وقوله إنهم من « نسل اليهود » ، كما قدمنا في خبر نبوته ، إذ قال :

« فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ وَلَا تَغْبِئَنَّ (بِمَجْلِ الْيَهُودِ) »

يربذُ (بعجل اليهود) أحد الدعاة الفاطميين . ولعلّ الذي جعل الفاطميين يكيّدون له ، سماية الأسود الخصى كافور ، فإنه كان قد بذل أموالاً في طلب المتنبى حين مخرجه من مصر قبل هجائه له ، فلا عجب أن يبذل أكثر من ذلك بعد أن يبْلُغه الهجاء المفضح للفرع ، وما فيه من السخرية والتمثيل به كقوله :

( وأسودُ ، .. مِسْفَرُهُ نِسْفُهُ ) يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَذَرُ الدَّجَى

وأبلغ من ذلك تحريضه أهل مصر على قتله والفتك به ، كقوله :

أَلَا فَتَى بُورِدُ الْهِنْدِيِّ هَامَتُهُ كَيْمَا تَزُولُ سُكُوكُ النَّاسِ وَالْأَنْهَمُ  
فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا مَنْ دِيْنُهُ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقِدَمُ  
مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الَّذِي رَعَمُوا

وقد كان كافور ، كما قدمنا ، على صلة بالفاطميين والعباسيين معاً ، يخادعهم ويُداجيهم معاً ، فليس بعيداً أن يكون هو الذي حمل الفاطميين الذين بالعراق على الإِرْصَادِ لأبي الطَّيِّبِ ، وأن يكون بذل مالا كثيراً للانتقام منه .

والظاهر أن عَصْدُ الدولة كان قد علم بكل ذلك الذي يكاد به أبو الطيب . ففضل أن يرفع يده عن دِمِهِ ، فأغرى بعض أتباعه بأن يُوقِعَ في نفس أبي الطيب شيئاً من الخوف والرُّعْبِ ، فيخفَّ أبو الطيب للرحلة عن شيراز ، ويتعد عن دياره ليلقى حتفه في مكان آخر . ولذلك « استأذنه المتنبى في المسير عن شيراز ليقضى حوائج في نفسه ثم يعود إليه » . وكان هذا من أبي الطيب خَرَباً من ضروب دهائه ومخادعته ، فلما عزم الرِّحْلَةَ ، كان من دهاء عضد الدولة أن زاده كرامة ليوقع في نفسه أنه مُصَدِّقُهُ ، « فأمر أن تُخْلَعَ عليه الخلع

الخاصة، وتُعاد صلته بالمال الكثير». وبقيناً أن أبا الطيب حين وجد ذلك، من إكرام عضد الدولة له، وكان قد بلغه طرف من أخبار الكيد الذي يُكاد به، عَرَفَ ما يريدُه عضد الدولة وما يُراد به، ولذلك أشار في آخر قصيدة مدحه بها = وهو مفارق له في أوَّل شعبان سنة ٣٥٤ = إشارات كثيرة، منها قوله :

وَمَنْ يَظُنُّ ( نَثْرَ الْحَبِّ جُودًا ) وَيَنْصِبُ نَحْتًا مَثَرُ الشَّيْبَانَا )  
وهذا المَثَلُ، هو مثل لما تراه قبل من أمر عضد الدولة. ثم انظر إلى  
يأس أبي الطيب وقد علم أنه قد أحيط به، وأنه مقتول لا محالة... إذ يقول:  
«وَأَيُّ شَيْءٍ يَأْطُرُ فِي فَكْرِي، أَذَاةً، أَوْ نَجَاةً، أَوْ هَلَاكًا»

«وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَايَ، يَعُودُ، وَلَمْ يَحْدِ فِيهِ أَمْتَسَاكَا»  
فلما فصل أبو الطيب من شيراز ووصل إلى دَيْرِ التَّاقُولِ - وهي ضيعة  
بالعراق - اجتمعت عليه بنو أسدٍ وبنو ضَبَّةَ، فقتلوه وقتلوا غلمانَه وقتلوا  
ولده محسداً. وقد قدمنا لك أن سيف الدولة كان قد أوقع بعمر بن حابس  
من بني أسدٍ، وبنِي ضَبَّةَ، وبنِي رِيَّاحٍ من بني تميم، وذلك في سنة ٣٢١،  
وقد هجَّاهم أبو الطيب في مدحه سيف الدولة في تلك السنة. وكان ذلك المدح  
وهذا الهجاء سبباً في أن أحنظ عليه هؤلاء القوم من بني أسدٍ وبنِي ضَبَّةَ. (١)  
قال أبو الطيب لسيف الدولة، وذلك قديماً في سنة ٣٢١ :

مَهْلًا أَلَا لِلَّهِ مَا صَنَعَ الْقَنَاءُ فِي «عَمْرٍو حَابٍ» وَ«ضَبَّةِ الْأَعْتَامِ»

يريد عمرو بن حابس من بني أسد .

لَمَّا نَحَكَمْتَ الْأَسِنَّةُ فِيهِمْ جَارَتْ، وَهُنَّ يَجْرُنَّ فِي الْأَحْكَامِ  
فَقَرَكْتَهُمْ خَلَلَ الْبُيُوتِ كَأَنَّمَا غَضِبْتَ رُؤُوسَهُمْ عَلَى الْأَجْسَامِ  
أَحْجَارًا نَاسٍ فَوْقَ أَرْضٍ مِنْ دَمٍ، وَنَجُومٌ بَيَاضٍ فِي سَمَاءٍ قَتَامِ  
وَذِرَاعٍ كُلُّ أَبِي فَلَانٍ كُنْيَةٍ حَالَتْ، فَصَاحِبُهَا أَبُو الْإِيْتَامِ

· وأعلم أن بني أسد وبني ضبة هؤلاء كانوا من شيعة العلويين ، والظاهر أنهم كانوا قد انحازوا إلى الأعاجم مخدوعين ، وصاروا بعد من شيعة بني بويه الفاطميين . وليس يبعد أن يكون كافور هو الذي أمدّمهم بالمال ليقتلوا الرجل ، وتوسط له في ذلك أصحابه من أهل العراق الباسيين أو الفاطميين .

هذا هو مختصر القول في مقتل أبي الطيب في ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤ .  
أما ما يروونه من السخف في حكاية مقتله بسبب القصيدة التي أولها :

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمُ ضَبَّةً وَأَمَّهُ الطُّرْبُجَةَ  
وَأِنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْتُ رَحْمَةً لَا تَحْبِسُهُ

... إلى آخر النجش القبيح الذي ورد بها ، فلنا في نقده ونقضه وجوه لا تطيل القول بها هنا ، ولما موضعها إن شاء الله من كتابنا . وأيضاً فقد ورد أن سبب قتله : « أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه ، وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراسٍ مُسَرَّجَةٍ محلاة بالذهب ، ثم دس له من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال أبو الطيب : « إن سيف الدولة

كان يعطى طَبْعاً ، وعضد الدولة يُعطى طَبْعاً .. فُبُلِّغَ ذلك إليه ، فغضب .  
فلما انصرف من أرضه ، جهز إليه قوماً من بنى صَبَّه فقتلوه ، بعد أن قاتل قتالاً  
شديداً ثم انهزم ، فقال له غلامه أين قولك :

الْخَيْلُ وَالْقَيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي      وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ  
فقال : قَتَلْتَنِي قَتَلَكَ اللَّهُ ، ثم قاتل حتى قُتِلَ ... « فمثل هذه الرواية لها  
تأويل وسياق فيما قدمناه لك .

\* \* \*

وَرَحِمَ اللَّهُ أَبَا الطَّيِّبِ إِذْ يَقُولُ :  
سُمِّقْنَا إِلَى الدُّنْيَا ، فَلَوْعَاشَ أَهْلُهَا      مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَنَّةٍ وَذُهِبِ  
تَمَلَّكُهَا الْآتِي تَمَلَّكَ سَالِبٍ ،      وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ

وَأَنْتَ يَا أَبَا الطَّيِّبِ

فَدَتْكَ نَفْسُ الْخَاسِدِينَ ، فَإِنَّهَا      مُعَذِّبَةٌ فِي حَضْرَةٍ وَمَغِيبِ  
وَفِي تَعَبٍ مَنِ يَحْسُدُ الشَّمْسَ صَوَّهَا      وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرِيبِ

محمود محمد شاكر

٣ شوال سنة ١٣٥٤  
٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥





## فهرس شعر أبى الطيب

هذا الفهرس مبنى على أول بيت مر من القصيدة

٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،	ولكنه ضحك كالبسكا
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ .	
١١٨	جُعِلَتْ فِدَاؤُهُ وَهُمْ فِدَائِي
٢٥٩ ، ٢٥١ ، ٥٢	أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِي الرِّوَاءِ
٧١	أَسِيرَ لِلنَّايَا صَرِيحَ الْعَطَبِ
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٧٣	فَسَمِعْنَا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ
١٠٨ ، ٢٤	فَبَاعَدْنَا عَنْهُ وَنَحْنُ الْأَقْرَبُ
١١١ ، ١٠٥ ، ٣٧	لَا لَشَيْءٍ إِلَّا لِأَنِّي غَرِيبُ
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨	فَكَلَّ بِعَمِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مَعْدَبُ
٢٥٧ ، ٢٥٨	سَكَوَتْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخَطَابُ
٩٨	فَرَبُّ رَأْيٍ أَخْطَأَ الصَّوَابَا
١٣٦ ، ١٣٥ ، ٥٥	لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَّى مَاعَاشٍ وَاتَّحَبَا
١٧٠	فَهَلْ مِنْ زُورَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا
٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠	كُنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
٢٩ ، ٣١ ، ٤٣ ، ١٧٨	وَرَدُّوْا رَقَادِي فَهُوَ لِحَظِ الْجَبَابِ
٢٨٩	مُنِعْنَا بِهِ مِنْ جِيئَةٍ وَذَهَابِ
٢٤٣	مَنْ بَحَلَى الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجَرَّبِي

٢٦٥ ، ٢٦٦	بما مضى أم لأمر فيك يجديدُ
١٧٢ ، ١٧١ ، ٥١	كانهم من طول ما التمشوا مُرَدُّ
١٤٠	أم الخلق في شخصي خير أعيداً
٥١	لا تحسدنَّ على أن ينأى الأسدَا
٢٥٦ ، ٢٥٣	فأنت الذي صيرتهم لي حُسدَا
١٣٨ ، ١٣٧ ، ١١٤ ، ٦٥ ، ٤١ ، ٣٥	وينفسي فخرت لا يجدودي
٢٨٥ ، ١١١ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ٩٣	وأومن رجلي ثقلُ الحديدِ
١٣٥ ، ١٣٣ ، ١٢٩ ، ١٢٧ ، ١٢٦	وقود الحليل مُشرقة الهوادي
٢٧٦	قربت به عند الوداع من البُعدِ
٢٤	إلا السعاية بينهم مفقورُ
٣٠٤ ، ١٦٩ ، ١٦٧	وحيداً، وماقولي كذا ومعى الصبرُ
٢١١	دون اللقاء ولا يشطُّ مزارُ
١٨٧	... لا يختصَّصنَّ من الأرض دارَا
٢٤٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٠	وصار طويل السلام اختصارَا
٢٧٥	وبكالك إن لم يمر دمك أوجري
١٥٩ ، ١٥٨	وكُلُّ عذافرٍ قلقى البُصُورِ
١٥٧	فإنني لرحيل غير مُختارِ
٦٥	هانت على صفات جاليفوسَا
٣١٧ ، ١٩٢ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨١	ولم تقبلْ على كلامٍ واشِ
٦٥	أقلُّ جُزْءٍ بمضه الرأى أجمعُ
٨١ ، ١٧	ووالدني وكندة والسبيما

١٩٦، ١٩٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٥٤	وللتبيل حَوْلِي من يديه حَفِيفُ
١٠٤	والسجن والتقيد يَا أَبَا دُلْفِ
٨٢، ٣٢	من آكل هاشم بن عبد منافِ
١١٧	أبدأ غرابُ البين فيها يتَقَى
١١٩	وغيري بغير اللاذنية لاحقُ
٩٠، ٨١	أَيَّ عَظِيمٍ أَتَيْتِي
٢٤٠، ٢٢٥	وللخبِّ ما لم يبق مَقَى وما بقى
٢٨٧، ٢٧٩	أَذَاةٌ أَوْ نَجَاةٌ أَوْ هَلَاكَا
٥٧	منشورة الضفرِ نِ يَوْمِ التَّقَالِ
٢٥٤، ٢٥٣، ١٤٨	خُصِمَ هَارِبٌ مِمَّا إِلَيْهِ يُؤُولُ
٢٥٣	ضَمِيفٌ يَقَاوِنِي، قَصِيرٌ يَطَاوِلُ
١٤٣، ١٤٠، ١٣٩	تَعَجَّرُ عَنْهُ الْعِرَامِسُ الذُّلُّ
١٦٥، ١٦٤	أَبْدَأُ إِذَا كَانَتْ لَهْنٌ أَوَائِلُ
١٢٨، ٩٩، ٩٨	وَأَخْرَقُ لَهْنٌ مِنْ يَدَيْهِ الْجُنَادِلُ
٢٦٢، ٢٦١	فَلْيَسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ يَسْعِدِ الْحَالُ
٢٢١، ٢١٩	فَتَحَى الْوَعْدُ أَنْ يَكُونَ التَّفْوَلُ
٢٠٩، ٢٠٨	تَمَانٌ وَعُدَّةٌ مِمَّا تُنْفِلُ
١٥٠، ١٤٩	فَسَاعَةً هَجَرَ هَامِجْدُ الْوَصَالَا
١٤٧، ١٤٥، ١١٥	فِي النَّاسِ مَا بَعَثَ إِلَهُهُ رُسُولَا
٦٥	إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا
٢٣٦، ٢٣٠، ٢٢٩	تَسْكُنُ الْأَفْضَلُ الْأَعَزَّ الْأَجَلَا

- ٧٥ بريثاً من الجرْحى سليماً من القتلِ  
 ٢٣٩ دعا فليّاه قبل الركب والإيلِ  
 ٢٥٥ ، ٢١٠ نصيبك في متاعك من خيالِ  
 ٢٤٤ ، ٢١١ ، ٢١٠ وتفرُّ للذنب الجاهلِ  
 ٢١٢ تفوت من الدنيا ولا تموت هـي جَزَلِ  
 ٢٨٩ ، ٣٥ ، ٣٤ بأنقى خير من تسعى به قدمُ  
 ١٣٨ ، ١٣٧ فتسكنَ نفسى أمْ مُهانٍ قُتِلَ  
 ١٤٢ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٠ وعمرٌ مثلُ ما تهب الأثامُ  
 ١٤٩ ، ١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٣٠ تفلحُ عُربٌ ملوكها عَجَمُ  
 ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٣٢ ، ١٢٥ ... غداً تقضى به الأجسامُ  
 ٢٠٨ .. له فيك وخائنه قريبك الأيامُ  
 ٢٨٦ كما تزول شكوك الناس والنهمُ  
 ١٧٩ عرضاً نظرتُ وخلتُ أنى أسلمُ  
 ٢٣٨ ، ٢٣٧ ومن بحالى وجسى عنده سقمُ  
 ٤٤٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤١ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦ بها أنف أن تسكن اللحم والعظمَا  
 ٤٨٩ ، ٤٨٠ ، ٥١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،  
 ٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٢٤  
 ٦٣ ثم أقام على فؤادٍ أنجمَا  
 ١١٧ فأبما يظلات العين كالحلمِ  
 ١٣٠ ، ١٠٠ ، ٩٩ ولا التناعة والإقلال من شيبى  
 ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٩٤ جلبت رحاى قبل يوم رحاى

٨٩، ٧٩	خفي عنك في الهيجا مقامى
٧٧	وينجلي خبرى عن صفة الصمم
٦٠	وحتى متى فى شقوة وإلى كم
١٤٢، ١١٥، ٥٨	فيا النفوس براه غاية الألم
٢٦٤، ٢٦٢	يسير أو قفاه أو حسام
١٧٧، ١٧٥، ٤٣، ٣١	كأنهم ماجت من زادٍ قادم
٢٤٥	وأثم ومن يمت خير ميمم
٢٤٨ - ٢٤٦	ولا نديم ولا كاس ولا سكن
١٥٢	ثم اعترفت لما فصارت ديدنا
١٦٥، ٦١	فلا أعاتبه صنعا وإهوانا
١٨	بضونهما ولا يتحاسدان
١٦٧، ١٦٢، ١٦٠، ١٥٥	ولا أمرٌ بخلقٍ غير مضطرين
٦٥	ثم استوى فيه إسرائى وإعلانى
٢٨٠، ٢٧٧	بمنزله الربيع من الزمان
٢٥٦، ٢٤٣، ٢٤٢، ١٩٧	لفارقت شئى موجع القلب باكيا
٢٨٨	ما أنصف القوم ضنبه
٢٨٣، ٢٨٢، ٢٥٠	نعاف ما لا بد من شرب
١٦٧، ١٦٦، ١٢٠، ٣٩	... فى كل مليحة ضرايبها
٢٥٢، ٢٤٤	وأشكو إليها بيننا وهى جنده
٢٧	أبعد ما بان عنك خردوها
١٨٦، ١٨٥، ١١٤، ١٤	والنجل بعض من تجله

وفاؤ كما كالربع أشجاء طاسمه ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩

\* \* \*

### أبيات لغير المتنبي

- ٢٦٦ ، ٢٦٥ له باع بقصر عن ذِراع (الحسن التنوخي)  
 ٢٢ وأرعد عيمناً وأبرق شمالاً  
 ٢٣ ضلوا عن الرشدين جهل به وعموا (ابن لنكك)  
 ٢٣ متبئسكم ابن سقاء كوفان .. (ابن لنكك):  
 ٢٣ ... من الناس بكرة وعشياً  
 ١٦ يا حبيذا مقامنا بالكوفة

## فهرس الأعلام

٥٦، ٤٩، ٤٦، ٤١  
 الأصمهانى (أبو القاسم عبد الله بن عبد  
 الرحمن) (صاحب إضاح للشكل) :  
 ١٧ - ١٩، ٤١، ٥٦، ٦٠،  
 ٦٤، ٦٧  
 الأماجم (المعجم) : ٧٤  
 أبو الأغر بن سعيد بن حمدان : ٩٣،  
 ٩٤  
 الأنطاكى (أحمد بن عبد الله بن الحسن)  
 (الحسن بن عبد الله بن الحسن)  
 (علي بن أحمد الأنطاكى)  
 الأوراجى (هرثك بن عبد العزيز)  
 ١٣٩، ١٣٨  
 أبو أيوب (أحمد بن عمران) (مدحه)  
 للتبى : ١٧٠  
 أبو أيوب (للوربانى) : ٥٤، ٥٣  
 البشاء (أبو الفرج) : ٣٣  
 بدر بن حماد بن إسماعيل الأسدى  
 (أبو الحسين) (مدحه للتبى) :  
 ١١٥، ١٢٩ - ١٥٣، ١٥٦،  
 ١٥٩، ١٧٤، ١٨٤، ١٩٢،  
 ١٩٤، ٢١٧  
 ابن برهان (أبو القاسم بن برهان) : ١٣

أحمد بن بويه الديلمى (ممن الدولة) : ٣٤  
 أحمد بن الحسين للالسى (أبو الفرج)  
 (مدحه للتبى) : ١٣٧  
 أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد  
 الجعفى (التبى) : ٩٣  
 أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار  
 الجعفى (التبى) : ١٣  
 أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى  
 (أبو الفضل) (مدحه للتبى) : ١٦٤  
 أحمد بن عمران (أبو أيوب) (مدحه)  
 للتبى : ١٧٠، ١٦٦  
 أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد  
 الجعفى (التبى) : ١٣  
 الإخشيد (محمد بن طنج) : ١٠٧، ١٠٥  
 ١٠٧، ١٨٩، ٢٦٩  
 الإخشيدية : ٧٨، ١٠٧، ١٠٣، ١٨٧  
 ١٨٣، ١٨٩، ٢١٩  
 الإديعاء (من العاويين) : ٣٠، ٣١  
 ٤٣، ١٣٤، ١٧٨  
 إسحق بن كيتلف (ابن كيتلف)  
 بنو أسد : ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٢٨٧  
 ٢٨٨  
 الأشر (الشعلب) : ٢٧  
 الأشراف (العاويين) : ٢٨، ٢٩

أبو الحسن بن أم شيان القاضي (على

ابن محمد بن صالح) : ١٤

(محمد بن صالح بن علي) : ١٤

الحسن بن عبدالله الحسن الانطاكي

(أبو سهل) (مدحه للتبلي) : ١٦٥

الحسن بن عبد الله بن حمدان (ناصر

الدولة) : ٩٤

الحسن بن عبيد الله (ابن طنج)

الحسن بن نكك : ٣٣

الحسين (أبو التبلي) (عيدان السقاء) :

١٩ ، ١٣

أبو الحسين

(يدر بن عمار)

(علي ابن إبراهيم التنوخي)

(علي بن أحمد الرمي)

أبو الحسين الناشئ : ١١٢

حسين بن إسحق التنوخي : ١١٩ ، ١١٨

الحسين بن علي بن الحسن بن الحسين

ابن حمدان المدوي (أبو المشائر)

حضر موت : ١٧ ، ١٨ ، ٨٧ ، ٩٠

بنو حمدان : ٣٤ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٢ -

١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٨٢ ، ١٨٥ -

١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ - ١٩٦ ،

٢٨٤ ، ٢٨٥

ابن حنزابه (جعفر بن الفضل) : ٣٦١

الخارجي : ٣١٠

الحالديان (أبو عثمان سعيد بن هاشم ،

وأخوه محمد : ٣٣ ، ٣٥٧

ابن خالويه : ٢٥١ ، ٢٥٣

بشر بن عبد الوهاب القرشي : ١٧

ابن بقلية : ١٦

أبو بكر (يدر بن عمار)

(محمد بن زائق)

بهاء الدولة بن عضد الدولة : ١٨ ، ١٩ ،

بنو بوية : ١٩ ، ٣٤ ، ١٠٣ ، ٢٧١ ،

٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨

الترك : ٧٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٩ ،

١٨٢ ، ١٨٩

بنو تغلب : ٩٤ ، ١٠٢

تغلب بن داود بن حمدان (أبو وائل)

تنوخ (ملوك تنوخ) : ٢٥ ، ١٠٨

التنوخى (الحسن بن علي) القاضي : ٣٦٥

التنوخيون : ٢٤ ، ٢٥ ، ١٠٨ -

١١٠ ، ١١٨

بنو ثعلبة : ٩٤

ثمود : ١١٤

جالينوس : ٩٥ ، ٦٦

أبو جعفر المنصور : ٥٢ - ٥٤

جعفي بن سعد المشيرة : ٢٣ ، ٩١

ابن جنى : ١٩ ، ٦٠

الجهشياري (صاحب الوزراء والكتاب) :

٥٢

الحاتمي (صاحب الرسالة للوضعة) :

٢٠ ، ٢٧١

أبو الحسن الماوى (محمد بن يحيى الماوى

الزبيدي) : ١٤ ، ١٥ ، ٢١ - ٢٥ ،

٣٨ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٢٧٢



السبيع ( قبيلة ) : ١٧ ، ٨١  
 السرى الرفاء : ٣٣  
 سمد بن أبي وقاص : ١٥ ، ١٦  
 أبو سيد الميمري : ٩٨  
 السكسك : ٨١  
 السكون ( قبيلة ) : ١٧ ، ٨١ ، ٨٨

٩٠

سليمان ( عليه السلام ) : ٢٨٠  
 سليمان بن أبي سليمان ( أبو أيوب المورياني ) :

٥٣

أبو سهل ( الحسن بن عبد الله بن الحسن  
 الانطاكي )

سيف الدولة ( أبو الحسن ، علي بن أبي  
 الهيثم عبد الله بن حمدان العدوي

التغلي ) : ١٩ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٤٠ ، ٧٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٥ ،

١٠٩ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ،

١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٢٣ ،

٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٨ ،

٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،

أخت سيف الدولة ( الصنري ) : ٢٢٩ -

٢٣١ ، ٢٣٩ ، ( الكبرى ) ( خولة ) :

٢٢٩

أم سيف الدولة : ٢٠٩

أبو شجاع فائق : ٢٦١

ابن أم شيان ( أبو الحسن ) : ١٤

( محمد بن صالح بن علي ) : ١٤ ،

الخرشني ( ملك الروم ) : ١٠٦ ، ١٠٧

الحصبي ( محمد بن عبد الله بن محمد )

الخطيب البغدادي : ١٣ ، ١٤

خولة ( أخت سيف الدولة الكبرى ) :

٢٢٩ - ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،

٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ،

الدارقطني الحافظ المحدث : ٢٦١

الدروز : ١٠٩

أبودلف بن كنداج ( سجان التلي ) :

١٠٤ ، ١٠٥ ،

دلير بن لشكروز ( أبو الفوارس ) : ٢٧٠

الدمستقي ( قرقاش ) : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٨ ،

الديلم : ٧٤ ، ٩٠٠ ، ١٢٩ ، ١٨٢ ،

١٨٩

الذهبي الحافظ : ١٣

ابن رائق ( محمد بن رائق )

الربيعي ( أبو الحسن علي بن عيسى ) : ٢٨ ،

٣٨ ، ٥٦ ،

الربيع ( مولى أبي جعفر المنصور ) : ٥٣ ،

٥٤

ريمة : ٧٦ ، ٩٤ ،

الرضي ( الشريف ) : ٤٢

الروم ( الرومي ) ( ملك الروم ) : ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٨٢ ،

١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ،

٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

بنو رياح ( من تميم ) : ٩٤ ، ٢٨٧ ،

الزبيدي ( صاحب التاج ) : ١٣

الزبيدية : ١٦

أبو عبيد الله (محمد بن عبد الله بن محمد  
الحصيني) (معاذ بن إسماعيل اللاذقي):

٧٧

عبد الله بن سيف الدولة (أبو الميحاء)  
عبد الله بن عبد الرحمن (الأصفهاني):

١٧

عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي  
(مدحه المتنبي): ١٣٨

عبد الملك بن مروان: ١٦

عبد الواحد بن علي (أبو القاسم بن  
برهان): ١٣

آل عبيد الله (الذين أَرْضَعُوا المتنبي):  
٥٦٠، ٤٢، ٣٨، ٢٨

عجل اليهود: ٩٣، ١٠٧، ١٠٩  
المجم (الاعاجم) (للولي): ٧٤،

١٠٠-١٠٢، ١١٥، ١٣٠،

١٧٧، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٧-١٩٠،

١٩٨، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٢،

٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٨

ابن المديم: ١٣، ١٤، ٢٨، ٥٦  
بنو عدي (عدي بن أسامة بن مالك،

من تغلب): ٨٢، ٨٣، ١٠٢-

١٠٤، ١٠٩

أبو المشار (الحسين بن علي بن الحسن بن  
حمدان) (مدحه المتنبي): ١٥٠، ٢٩،

١٥٦، ١٦٣، ١٧٩، ١٨١-١٨٦،

١٩٠-١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٧،

٢٠، ٢٣، ٢٤، ٤٤، ٧٧، ٨٤،

٨٥، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٢٧٢

شعير زيل بن عضد الدولة: ١٨، ١٩،

الشيمة (العلويون): ١٦،

الصاغاني: ١٣

صالح عليه السلام: ١١٤

حمصام الدولة بن عضد الدولة: ١٨، ١٩،  
بنو ضبة (من تميم): ٩٤-٩٧، ٢٨٦،

٢٨٨

طاهر بن الحسن بن طاهر العلوي  
(أبو القاسم) (مدحه المتنبي): ٢٩،

٣٠، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ١٧٨-

ابن طنج (الأمير أبو محمد الحسن بن  
عبيد الله بن طنج) (مدحه المتنبي):

٢٩، ٣١، ٤٣، ٤٦، ١٣٤،

١٧٤، ١٧٥-١٧٩، ٢٥٥،

ابن طنج (محمد بن طنج الإخشيد)  
(مدحه المتنبي): ١٠٢، ١٠٥،

١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٨،

بنو طنج الإخشيدون: ١٨٢

أبو الطيب (المتنبي): ١٣

أبو الطيب اللنوي: ٢٥١

عازر: ١١٤

المباسيون: ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢،  
١٠٣، ١٠٨، ١٤٩، ١٨٣، ١٨٨،

٢١٩، ٢٦١، ٢٨٤، ٢٨٥،

٢٨٨

أبو طي بن أبي حامد : ٧٨ ، ٨٤ ،

٨٦ ، ٨٧ ، ٩١

على بن حمزة البصري : (راوية للتبلي) :

٣٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢

على بن أبي طالب : ١٦ ، ٣٦ ، ٣٠ ،

١٣٤ ، ٢٧٢

على بن عيسى الربيعي (أبو الحسن) :

٢٨

على بن القاسم الكاتب : ٢٩

على بن المحسن بن علي التنوخي : ١٤ ،

١٥ ، ١٩ ، ٧٧ ، ٧٨

طي بن محمد بن سيار بن مكرم التيمي :

١٧٠

على بن محمد بن صالح (أبو الحسن بن أم

شيبان) : ١٤

على بن منصور الحاجب (مدحه للتبلي) :

١٣٧

أبو عمر الصباغ : ٢٧٨ ، ٢٧٩

عمر بن الخطاب : ١٥ ، ١٦

عمر بن سليمان الشراي (مدحه للتبلي) :

١٣٧

عمرو بن حابس (من بني أسد) : ٩٤ ،

٢٨٨

ابن الميبد (أبو الفضل) (مدحه) :

٢٧٣ - ٢٧٦

عبدان السقام (أبو التبلي) (الحسين) : ١٣ ،

١٤ ، ١٩ - ٢٢ ، ٢٢ - ٢٧ ، ٤٢ - ٤٧

٢٣٨ - ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤

عضد الدولة : ٩٨ ، ٢٥٠ (عمته) ،

٢٧٧ - ٢٨٨

المكيري : ٢٧

أبو العلاء للمعري : ٨٢ ، ٩١

الماويون (العلوية) (الأشراف) :

١٦ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٢ - ٤١ ، ٤٩ ،

٥٦ - ٦٢ ، ٧٤ - ٧٨ ، ٨٥ -

٨٧ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠٩ - ١١٢ ،

١١٦ - ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ،

١٧٠ - ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،

١٨٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧ ،

٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥

على التنوخي (والد : المحسن بن طي) :

٢٥

ابن علي الهاشمي : ٣٢ ، ٤٢ ، ٨٢ ، ١٠٣

أبو علي (هرون بن عبد العزيز

الأوراجي)

على بن إبراهيم التنوخي (أبو الحسين)

(مدحه للتبلي) : ١٢٦ ، ١٢٤ ، ٩٠ ،

١٢٩ - ١٣٣ - ١٣٥

طي بن أحمد الأنطاكي (مدحه للتبلي) :

١٦٧

طي بن أحمد المري (أبو الحسين)

(مدحه للتبلي) : ١٥٣ ، ١٥٥ -

١٥٧





المورياني (أبو أيوب سليمان بن أبي

سليمان) : ٥٣ ، ٥٤

الناشي (أبو الحسين) : ١١٢ ، ١١٦ ،

١٢٢

ناصر الدولة (الحسن بن عبد الله بن

جدان) : ٩٤ ، ٢١١

الناسي (أبو العباس) : ٢٣

ابن النجار (المؤرخ) (محمد بن جعفر

ابن محمد بن هرون) : ١٧ ، ١٨

التواصب : ٣٠

هرون بن عبد العزيز الأوراجي

(أبو علي) (مدحه الثاني) : ١٣٨ ،

١٣٩ ، ٢٥٥

هاشم بن عبد مناف : ٣٢ ، ٤٣ ، ٨٢

(هاشمي) (الهاشميون) : ٣٢ ، ٤٥

أبو الهيثم (عبد الله سيف الدولة) : ٢١٢

أبو وائل (تغلب بن داود بن جدان) :

٢١٠

الواحدى : ١٧

يونس (غلام مؤنس) : ٩٤

ياقوت بن عبد الله الحموي : ٢٨

اليهود (عمل اليهود) : ٩٣ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

## فهرس الأماكن

حلب : ٢٢، ٧٦، ٧٨، ١٠٦، ١٣٥،	أرجان : ٢٧٣، ٢٧٤
١٩٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٣٢،	الأردن : ٣٠
٢٢٤، ٢٤٦، ٢٥٥، ٢٥٧	أنطاكية : ٢٢ - ٢٥، ١٠١، ١٣٥
حماة : ١٠١	١٣٧، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٩
حمص : ٧٦، ٧٨، ٨٦، ١٠١،	١٧٠، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣،
١٠٤، ١٣٧	١٨٦، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٨،
خراسان : ١٨٨	٢٠٣ - ٢٠٩، ٢١٧
خرشنة : ١٠٧	الاهواز : ١٥، ٢٠، ٥٢ - ٥٤
(دار العلم) للشريف الرضى : ٤٢	بحيرة طبرية : ٣٠
دجلة : ١٠٢، ١٩٠	البصرة : ١٦، ٣٣، ٣٤، ٥٣
دمشق : ٢٧، ٧٦، ١٠٢، ١٧٠،	بعلبك : ٧٦، ١٠١، ١٧٩
١٧٢، ١٧٩، ٢٥٥	بنداد : ١٦، ٢٠، ٣٩، ٤٧، ٦٩،
رأس عين : ٧٦، ٩٣، ٩٤، ١٠١،	٧٤، ٧٥، ١٦٤، ١٨٩،
الرملة : ٢٩، ٣١، ٤٣، ٤٦، ١٧٤،	٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣،
١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٢،	تربان : ٢٦٧
١٨٩، ٢١٩، ٢٥٥، ٢٥٦	التبة : ٢٦٢، ٢٦٧
الري : ٢٧٣	جرش (حتى ...) : ١٥٣، ١٥٧،
النبيع (محلة بالكوفة) : ١٧، ٨١،	١٥٨
السكون (محلة بالكوفة) : ١٧، ٨١،	الجزيرة : ٢٣٢ - ٢٣٤
٨٨، ٩٠	الحدالي : ٢٥٨
سليية : ٨٢	الحديثة : ٩٤
سميساط : ١٠٦	حران : ٧٦، ١٠١
سواد العراق : ١٥، ١٦،	حصن برزوية : ١٩٨
سورستان : ١٦	حضر موت (محلة بالكوفة) : ١٧،
سوق حكة : ١٥	٨١، ٨٨، ٩٠
(٢٠ - التلبي)	

الفسطاط (مصر): ٢٤٦، ٢٤١، ٢٢٠

قنسرين: ١٣٧

كفر عاقب: ١٣٤، ٤٦، ٤٣، ٣٠

٢٦٨، ١٧٨ - ١٧٥

كندة (محطة بالكوفة): ١٧، ١٣

٨١، ١٩، ١٨

كوتسكين: ١٠٤٦، ١٠٣، ٨٢، ٣٧

الكوفة: ٤٧ - ٣١، ٧٨ - ١٣

٤٧٦ - ٧٣، ٦٩ - ٦٧، ٦٢

١٣٧ - ١٠٩، ٩٣، ٩٠

٢١٨، ١٩٣، ١٦٦ - ١٦٠

٢٧٨ - ٢٦٧، ٢٣١

اللاذقية: ٧٨، ٤٣، ٣٢، ٢٧، ٢٤

٤٧، ٨٧، ٨٣، ١٠٨، ١٠١

١٣٥، ١٣٣، ١١٩، ١١٨

لبنان: ١٩٤، ١٣٨، ١٢٧

مصر (الفسطاط): ٢١٨، ١٠٢

٢٥٦، ٢٥٥، ٢٤٩، ٢٤٦

٢٦٣، ٢٦٢، ٢٦١، ٢٦٠

٢٨٦، ٢٦٨، ٢٦٥، ٢٦٤

المغرب: ٢٦١، ١٨٨، ١٠١، ٣٩

ملطية: ١٠٦

منبج: ١٠١، ٧٦

الموصل: ٢١١، ١٩٠، ٩٤، ٩٣

نجد: ٧٤

نصيبين: ٩٣، ٧٦

هزريط (بطن ...): ١٤٨

واسط: ١٢١

العين: ٩٠، ٨٩، ٨١، ١٨ - ١٦

الشم: ٤٠، ٣٥، ٢٣، ١٧، ١٦

٧٦، ٦٢، ٤٧، ٤٦، ٤٢

٩٧، ٩٣، ٩٠، ٨٩، ٨٦

١٢٠، ١١٩، ١٠٨ - ١٠١

١٦٤، ١٤١، ١٣٣، ١٢٤

٧٠٠، ١٩٤ - ١٨٦، ١٨٢

٢٢٢، ٢٢٠، ٢١٩

الشعب: ٢٨٠

شيراز: ٢٨١، ٢٧٩، ٢٧٨، ٢٧٧

٢٨٦

الصعيد (مصر): ٢٥٧

صيداء: ٢٥٧

ضمير (جبل): ٢٣٨

طبرية (بحيرة): ٤٣، ٣١ - ٢٩

١٤٩، ١٤٥، ١٣٩ - ١٣٣

١٧٦ - ١٧٠، ١٥٥

طرابلس: ٧٦

طور سيناء: ٢٦٦

العراق: ٩٠٣، ٩٥، ٤٤ - ٣٢

- ٢٢٠، ١٩٠ - ١٨٨، ١٤١

٢٥٧، ٢٢٤، ٢٢٢، ٢٢٢

٢٧٢، ٢٧٢، ٢٦٨، ٢٦٧

المواصم: ٢٦٨

غرب: ٢٥٨

فارس: ٢٧٤، ١٨٨، ٢٠، ١٥

: ٢٨٣، ٢٨١

الفرات: ١٠٣، ١٠٢

الفراديس: ١٣٧



## فهرست الكتاب

— مقدمة المؤلف ، في الطبعة الثانية .

١ — تقديم للقطف .

٣ — مقدمة الطبعة الأولى : نواد صروف .

١١ — تصدير الكتاب .

١٢ — إهداء الكتاب .

١٣ — ( ١ ) نشأة المتنبى ، ونسبه ( سنة ٣٠٣ ) إلى ( سنة ٣٢١ ) .

بيان الاختلاف في نسبه . أخبار نسبه وتقدها وتجريح روايتها . أول الحديث عن شأن « العلويين » في حياته ، وخبر تعلمه في كتاب للعلويين ، ثم خبر جديد عن نشأته يذكر أن المتنبى أرضعته امرأة علوية .

٣٧ — ( ٢ ) الحديث عن جدة المتنبى ، وعن أمه .

٤١ — ( ٣ ) رأى في أن المتنبى علوى النسب .

مستند إلى شعره وإلى تعلمه في كتاب للعلويين ، ثم ظهور دليل جديد على أنه أرضعته امرأة علوية ، أيد رأى تأييداً صريحاً . دلالة شعره منذ صباه إلى أن مات على أن مسألة النسبة العلوية كان لها أثر شديد في حياته . وتفسير شعره في رثاء جدته = قصة أصفهتها عن ولد لأبي جعفر النصور ، تشبه ما اقترضته في قضية للمتنبى وأصله العلوى .

٥٥ — ( ٤ ) أم المتنبى وجدته وعلاقتها بالعلويين .

دلالة أوائل شعره على ما كان في نفسه من أثر اضطراب جدته إلى إخفاء هذا النسب = أصول نفسية ست ظهرت في أول شعره ، واستمرت إلى آخر حياته . رجل يزعمون أنه أصله ، وتفسير ذلك ، وبيان أنه كان يلم ببعض كلام الفلاسفة ، وألفاظهم في شعره . بخاؤه في السكوفة

من مولده (سنة ٣٠٣) ، إلى (سنة ٣١٧) ، دخوله بغداد في (سنة ٣١٩) = فراقه الكوفة إلى الشام في (سنة ٢٢٠ - ٢٢١) . ثم اعتقاله وحبسه بمحصر .

٧٦ - (٥) نبوة المتنبي ، وبطلانها (سنة ٣٢١ ، ٣٢٢) .

الروايات التي رويت عن « النبوة » وتقدمها وتقدرواها وبطلان هذه النبوة = أن أمر حبسه في (سنة ٢٢١) كان من أجل إظهار علويته في ديار بني عدى قوم سيف الدولة . إبطال ما ادعوه عليه .

٩٣ - (٦) حبس المتنبي من أجل نسبه العلوية .

لقاؤه سيف الدولة (سنة ٣٢١) برأس المين وعلاقة الفاطميين والموليين معاً بهذا الحبس . بقاؤه في السجن إلى (سنة ٣٢٢) . ودلالة شعره على أنه لم يحبس لادعاء النبوة ، بل لإظهار نسبه العلوي = وتفسير أبيات القصيدة التي كانت سبباً في إطلاقه ، ومدح بها ابن طنج = سبب تلقيب أبي الطيب « المتنبي » . الدليل على أنه بعد خروجه من السجن إلى ما بعد (سنة ٢٣٥) ، لم يكن يعرف بهذا اللقب .

١١٧ - (٧) حياته في الكوفة من (سنة ٣٢٣) إلى (سنة ٣٢٦)

خروجه من السجن ، وبقاؤه عند التنوخيين في اللاذقية قليلاً ، ثم عودته إلى الكوفة . زواجه بها في نحو (سنة ٣٢٥) ودليله من شعره . ذكر بعض الدلائل في رثاء جدته في (سنة ٣٣٥) ، وأثر العلويين في هذا الرثاء = خروجه إلى الشام مرة أخرى (سنة ٣٢٦) .

١٢٤ - (٨) رحلته في الشام من (سنة ٣٢٦) إلى (سنة ٣٢٧)

معاني شعره وخصائصها في هذه المدة ، وعلاقة ذلك بالموليين والفاطميين . وذكر بعض من لقيهم ومدحهم في خلال هذه الرحلة .

١٣٩ - (٩) المتنبي وشعره عند بدر بن عمار الأسدي ، وإقامته بطبرية من (سنة ٣٢٨) إلى (سنة ٣٣٣) .

تغير شعره وممانيه . بعد لقاء بدر بن عمار ، دلالة الشعر على اتجاهه السياسي . ظهور عداوة الملوين والفاطيين . مكائد الأعور ابن كروس التي أفضت إلى فراقه طبرية .

١٥٥ - (١٥) رحلته في الشام من (سنة ٣٣٣) إلى (سنة ٣٣٦) .

خصائص شعره في هذه اللفة — كتاب جدته إليه تدعوه إلى الكوفة . فتمه الملوين من دخولها ، فمات جدته (سنة ٣٣٥) . بقاؤه في بغداد قليلاً ثم عودته إلى الشام . بيان مافي شعره بعد عودته . دخوله طبرية (سنة ٣٣٦) ومراغمته للملوين هناك . رحلته عنها إلى الرملة قاصداً أبا محمد بن طنح ، ومحاولة الملوين قتله بكفر عاقب . بيان ذلك كله في مدح ابن طنح ، ثم مدحه أبا طاهر الملو . هجاؤه ابن كينغ ، وهو في طريقه من الرملة إلى لقاء أبي العشار .

١٨١ - (١١) المتنبي وأبو العشار الحمداني سنة (٣٣٩) .

استيلاء سيف الدولة على الشام ، حب المتنبي أبا العشار الحمداني العربي ، مافي شعره . يومئذ مما يتعلق بالملوين والفاطيين . صحبته لبني حمدان ليست للتكسب ، مآقيه من المكائد يومئذ .

١٨٦ - (١٢) المتنبي وسيف الدولة من (سنة ٣٣٧) إلى (سنة ٣٤٦) .

مذهب سيف الدولة في السياسة العربية ، هو الذي حبه إلى المتنبي = اختلاف شعره في جوار سيف الدولة عن سائر شعره ، حاشا شعره في بدر بن عمار . إقائه سيف الدولة في هذه السنة بأبطاكية ليس أول

لقاء . تفنيد بعض الأخبار التي تروى في بدء صلته بسيف الدولة ،  
والسياق التاريخي الصحيح لهذا اللقاء . تفسير أول قصيدة مدحه بها  
ودلالاتها . تفسير شعره في أنطاكية ، وقد دعاه لصحبته إلى حلب .  
تأخره عن صحبته يومئذ لمرض زوجته ووفاتها . تفسير صلته بسيف  
الدولة ، وأنها تقوم على الحب والسياسة ، لا على التكسب .

## ٢٢٥ - (١) حب المتنبي « خولة » أخت سيف الدولة .

الأدلة المختلفة التي استنبطتها من شعره ، والتي تقطع بأن هذا الحب كان  
له أكبر الأثر في شعره من يومئذ إلى أن مات .

## ٢٥١ - (١٤) فراق سيف الدولة ، وذهابه إلى كافور ( سنة ٣٤٦ ) إلى ( سنة ٣٥ ) .

نقد ما روى في أسباب فراقه لسيف الدولة . ما كان من عداوة أبي  
فراس وأبي العثائر له ، وسبب ذلك حبة لحولة . يهودى ينرى به  
كافوراً ويكذب عليه . نزوله الرملة ومدحه ابن طنج وأبا طاهر  
الملوى . حرص كافور على أن يقصده . مراقبة كافور له وأول قصيدة  
تلقاها بها ، وتفسير ما أخذ عليه النقد في مطلعها . بطلان أنه قصد  
كافوراً يطلب عطاءه . شعره في مدح كافور هجاء وسخرية . عداوة ابن  
خزابة . إعجاب المتنبي بأبي شجاع فاتك . خروجه من القسطنطينية  
ومن أسر كافور .

## ٢٦٣ - (١٥) رحلة المتنبي إلى الكوفة وبغداد ( سنة ٣٥١ ) إلى ( سنة ٣٥٤ ) .

دلالة قصيدة الحمى التي أصابته بالقسطنطينية . هجاء كافوراً . رحلته  
في الهزات حتى دخل الكوفة ظافراً مراغماً للعالميين الذين منعه  
دخولها سنة ٣٣٥ ، ويبدأ ذلك في شعره . خروجه إلى بغداد ، وما

كان من أمر الوزير المهلب الذي أغرى به الشعراء ، وإدعائهم أن  
أباه كان سقاء بالكوفة . رجوعه إلى الكوفة سنة ٣٥٢ ، ويقاؤه  
بها ، ويبلغه نبأ موت صاحبه « خولة » ، ومراسلة سيف الدولة .  
شعره في جواب هذه المراسلة ودلالته . دعوة ابن العميد أبا الطيب  
واستجابته . نزوله الرى وإكرامه .

#### ٢٧٧ — (١٦) المتنبي وعضد الدولة بشيراز ( سنة ٣٥٤ ) :

بنو بويه علويون فاطميون . أنشد أبا عمر الصباغ الذي استقبله  
مقصودته التي ذكر فيها دخوله الكوفة مراغماً للعلويين . أثر ذلك  
في عضد الدولة . شعره في مدح عضد الدولة ودلالته . عضد الدولة  
الديلمي والمتنبي يتخادعان . دلائل في شعره تدل على أنه كان يحس  
بعد ذلك أنه مقتول لا محالة .

#### ٢٨٣ — (١٧) مقتل أبي الطيب في ٢٧ رمضان ( سنة ٣٥٤ ) :

الدلائل على أن مقتله كان بسبب من بنى بويه والعلويين والفاطميين .  
صلة مقتله بقوم من بنى أسد وبنى رياح ، الذين أوقع بهم سيف  
الدولة في ( سنة ٣٢١ ) برأس العين ، حيث لقيه المتنبي ومدحه قديماً .  
آخر قصيدة قالها تدل على أنه كان يائساً متوقعاً للهلاك .

\* \* \*

٢٩١ — فهرس شعر أبي الطيب

٢٩٧ — فهرس الأعلام

٣٠٥ — فهرس الأماكن

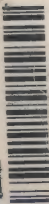
٣٠٧ — فهرس الكتاب





مطبعة المدنى  
٦٨ شارع العباسية - القاهرة

Bibliotheca Alexandrina



0363010